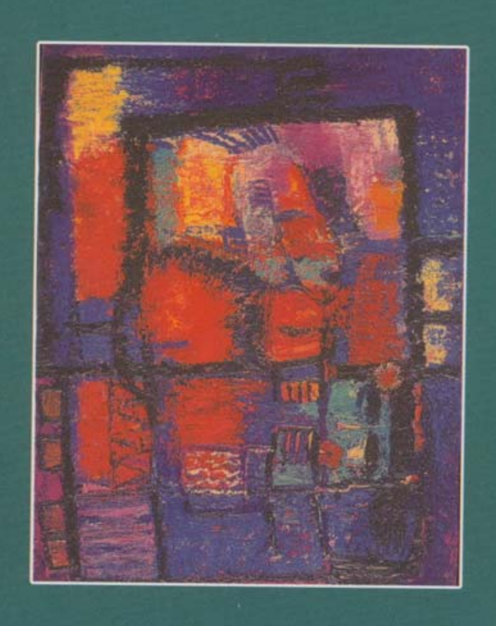
الطبعة الثانية



عزيز نيسن

يحيىٰ... يعيش ولا يحيى



رواية



ترجمة: بكر صدقي

عزيز نيسين

يحيى يعيش ولا يحيا

ترجمة

بكر صدقي

يحيى يعيش ولا يحيا

اسم الكتاب: يحيى يعيش ولا يحيى

اسم الكاتب: عزيز نيسين

ترجمة: بكر صدقي

الطبعة الأولى ١٠٠٠/ ٢٠٠٢



للدراسات والنشر والتوزيع

سورية ـــ دمشق ـــ ص ب ٧٩١٧

تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣+

E-mail: ***ninawa246@hotmail.com***

طبع هذا الكتاب بموافقة وزارة الإعلام

رقم / ٧٣٤٧١ / تاريخ/ ٢٩ /٩ / ٢٠٠٢

الإشراف الفني: دار نينوى

لوحة الغلاف: الفنان فاتح المدرس

يشار يشامز يحكي
كيف كتب عزيز نيسين حكايته:

مقدمة بقلم :
ميرال تَشلَنْ

بقدر ما يعرفني عزيز نيسين عن قرب ويحكي لكم عما جرى لي من أحداث، فأنا أيضاً أعرفه وبصورة جيدة. هل يتفرَّد الكتَّاب بحق الحديث عن أبطالهم؟ سأتحدَّث بدوري عن عزيز نيسين وكيف كتب سيرة حياتي...

لعلكم تتساءلون من أين خطرتْ في بالي هذه الفكرة.. أقول لكم إن الأمر حدث من تلقاء ذاته.. منذ بضعة أيام وأنا أدور في الشوارع بحثاً عن عمل. حيثما ذهبت وأينما توجهت سمعت الجميع يتحدثون عن "يشار يشامز".. في البداية أدهشني ذلك وأشعرني بالبلاهة.. إنه مما يُسكر المرء أن يحصل فجأة على شهرة واسعة بهذا القدر، لكنه أيضاً يثير القلق والاضطراب.. لماذا؟ لأنك تفقد صفة الشخص العادي ولا يعود بوسعك التحرُّك على راحتك وتصبح مرغماً على الاهتمام بمظهرك وهندامك..

وأنا أمشي في طريقي تطرق سمعي من هنا وهناك أحاديث من هذا النوع:

- هيا أسرع، إنه موعد بدء مسلسل يشار يشامز في التلفزيون..

أو:

- ما جرى لي من أحداث يفوق حتى ما جرى ليشار يشامز..

أو:

- منذ أيام حدث معي شيء من نوع الأحداث التي جرت ليشار يشامز.

عندما أسمع كلاماً من هذا النوع أفرح من جهة، لكنني أشعر من جهة أخرى مشاعر غريبة، تنتابني رغبة في الاقتراب من الشخص الذي يأتي على ذكري لأقول له: "أنا يشار

يشامز الذي لا هو بالحي ولا بالميت".. صحيح أن شهرتي انتشرت في كل مكان، لكنني ما زلت مجرد يشار يشامز يخوض معركة الحياة..

وإذ أخفقت في العثور على عمل خطر لي فجأة: لأحكي إذن قصة عزيز نيسين في كتابة قصتي، وأكسب بضعة قروش حتى أمضي فترة العيد على الأقل بشيء من الراحة.

إن عزيز نيسين هذا مدين ببعض من كتبه لإلحاح بعض أصدقائه. مثلاً سيرته الذاتية المعنونة بـ "كان هكذا، لكنه لن يبقى هكذا": واظب "أغوز آق قان" – وكان وقتها مديراً لتحرير جريدة "آقشام" – على مطالبة عزيز نيسين بكتابة سيرته الذاتية، وبتلك الطريقة كُتبَ المجلد الأول من ذلك الكتاب، أما الآن فإن أغوز آق قان لا يعمل في إحدى الجرائد، لذلك تأخرت كتابة المجلَّد الثاني كثيراً..

حدث الأمر نفسه بالنسبة لـ "يشار الذي ليس حياً ولا ميتاً". ففي أحد الأيام اتصل بعزيز نيسين السيّد "آيمير غان" مُخرج البرنامج الترفيهي في راديو أنقرة، طالباً التحدث إليه، فدعاه عزيز نيسين إلى بيته حيث تبادلا الحديث.

طلب السيد آيميرغان من عزيز نيسين كتابة تمثيلية إذاعية من ١٢ حلقة على أن تذاع في صباح أيام الأحد. تذرَّع عزيز نيسين بانشغاله بأعمال كثيرة حتى يرفض الطلب، غير أن الحقيقة كانت مختلفة. في رأيي أن كلمتي "الاسكتش" و"الترفيهي" لم تروقا له. صحيح أن عزيز نيسين منشغل دائماً بعمل ما، ولم يحدث أن كان بلا عمل، لكن ما عرضه عليه المخرج الإذاعي هو عمل أيضاً.. لا أدري إن كان السيد آيميرغان عرف حقيقة الموقف، لكنه قال لعزيز نيسين: «إن هدفنا الحقيقي هو أن يسمع الناس اسمكم من الإذاعة وأن نبثَّ من خلالها إحدى أعمالكم..»

هذا الكلام جعل عزيز نيسين يوافق على الفور. فكما تعرفون ثمة فترات يستحيل أن تسمع فيها ليس اسمه فقط، بل حتى إعلانات عن كتبه فضلاً عن أن عزيز نيسين رجلٌ في حساسية الأطفال. لقد أسعده أن يفكر به أحدٌ ما بهذه الطريقة. وحينما فكر بكتابة سيرتي، بدا كما لو كان يريد إسعاد الناس الذين فكروا من أجله، أكثر من كونه يكتب من أجلي.

غير أن الأمور اختلفت بعد أن انصرف السيد آيميرغان، وجلس نيسين وراء طاولة

الكتابة وأصبح وجهاً لوجه مع الورق الأبيض. ذلك أنه كان يشتغل على موضوعات أخرى ولم يكن مهيأً لإبداع جديد. لا يمكن كتابة القصص أو الروايات أو المسلسلات بناءً على طلب كما هي الحال بالنسبة لتفصيل الملابس.

ظلَّ يُنقب في إضباراته المخصصة للقصص وتلك المخصصة للمسرحيات وفي دفاتر ملاحظاته.. لو كان لديه شيء من الوقت لكنتم سمعتم من الراديو قصة شخصٍ غيري. أمَّا وقد حاصره السيد آيميرغان قائلاً بأنه سيأتي بعد أسبوع ليستلم عدداً من الحلقات، فقد راح عزيز نيسين يقلب صفحات كتبه يؤشر هنا وهناك بيأس.. وكنتُ أراقبه بصمت وترقُّب. وهل يجدر بي أن أسدي النصح للكاتب الكبير قائلاً له لمَ لا تكتب ما مرَّ بي من أحداث؟ ألا يتوجب عليه أن يفكر في الموضوع بنفسه؟

نعم، فرز جانباً القصص التي ينتقد فيها البيروقراطية ورتبها وفقاً لتسلسل معين، وأعدَّ مسودة أولى للتمثيلية.. ويا لها من مصادفة أن المسلسل المطلوب هو من إثنتي عشرة حلقة.. لو أنه من ثماني عشرة حلقة لكان سبَّب لكم الضجر، أو أنه من ست حلقات، لكان انطوى على نواقص.. وقد عثر نيسين على إثنتي عشرة قصة بالضبط.. أي المطلوب تماماً.

أصبحت المسودة جاهزة ولكن العنوان لم يوضع بعد. وكان نيسين يكتب من حين إلى آخر بعض العناوين على ورقة منفردة ويتركها إلى حين يختار واحداً من بينها.

ثمة مسرحي اشتهر في فرنسا يدعى "محمد أولوصوي"، دعا نيسين لقضاء عطلة عيد الأضحى في مزرعة تملكها أمه في "صابنجة" كان الفصل شتاء والجو بارداً والثلج يهطل. أراد نيسين أن يتخلص من زوار العيد ليتفرغ لكتابة التمثيلية، فحمل إضباراته وملاحظاته واصطحب ابنه الصغير وذهب مع محمد أولوصوي إلى صابنجة.. وانهمك في العمل..

في أحد تلك الأيام خرجوا في نزهة على ضفَّة البحيرة. رأوا أولاد القرياط وهم يلعبون حفاة الأقدام في ذلك الجو البارد المثلج، وقف نيسين وراح يراقبهم، اقترب منه واحدٌ منهم يبدو في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره وقال له:

- أعطني ليرة يا عم!

- ماذا ستفعل بالليرة؟

- سأشتري خبزاً.

- حسناً.. خذ الليرة.. ما هو اسمك؟

- يشار..

امتلأت عينا نيسين بالدموع وهو ينظر إلى الولد.. وكان بجانبه ابنه الذي يقارب الولد في العمر، في ملابس جيدة ومنتعلاً زوجاً من الأحذية.. الصبي القرياطي الذي يطأ الثلج بقدميه الحافيتين، اسمه يشار.. إنه مخلوق أو فرخ إنسان، ليس بوسعك أن تقول عنه إنه يعيش*، ولا بوسعك أيضاً أن تقول إنه لا يعيش.. فجأة لمع في ذهن نيسين كالبرق: "يشار لا هو بالحي ولا بالميت".

وهكذا انبثق اسمي الذي يثير فيكم الضحك من حادثة تثير الألم.. ومع ذلك لم ينته العمل بعد.. القصص الإثنتي عشر جاهزة، واسمي تحدد، ولكن ما زال الأمر بحاجة إلى حكاية أساس أو هيكل عظمي تتوحد فيه جميع القصص. أخيراً عثر على القصة الأساس أيضاً، وكان قد كتبها إبّان اعتقاله في سجن "الحربية" عام ١٩٤٨، كان ثمة معتقل من الرفاق العمال يدعى عثمان كوزيلي، كان قد حكى له قصته، لم يتمكن من الحصول على بطاقة شخصية لا له ولا لأولاده، بسبب خطأ في دائرة النفوس. لم يكن لدى عثمان كوزيلي إذن بطاقة شخصية لكن ذلك لم يشكل عائقاً يحول دون إقحامه في السجن، كان يمنعه فقط من الحصول على عمل.

عندما اكتمل كل شيء جلس نيسين وبدأ يكتب. تم تمثيل "يشار لا هو بالحي ولا بالميت" في الإذاعة بنجاح كبير. أخرجته "آصومان كوراد" ومثّل "بوزكورت كوروج" شخصيتي. بعد إذاعة أنقرة بثته جميع إذاعات تركيا على التوالي. أصبح "يشار لا هو بالحي ولا بالميت" على كل شفة ولسان. والآن بدأ المخرجون المسرحيون يترددون على نيسين طالبين منه كتابة نص جديد يمكن عرضه على خشبة المسرح. تمّ ذلك أيضاً، وبدأت فرقتان من القطاع الخاص تعرضان المسرحية في وقت واحد، وقد فاق عدد

---

* معنى كلمة 'يشار' هو يعيش أو عائش (حَيّ). أما الجزء الثاني من اسم بطل الرواية (يشامز) فهو: لا يعيش أو غير عائش (ميت)

عروض إحدى الفرقتين ١٣٠٠ عرض. ولكن نيسين لم يتمكن مع الأسف من الحصول على معظم مبلغ حقوق التأليف. فضلاً عن الفرقتين المذكورتين قامت فرقة أخرى بجولات على امتداد الأناضول عرضت خلالها المسرحية من غير علم المؤلف وإذنه.

لسبب ما أثارت الأحداث التي وقعت لي اهتمامكم كثيراً، إلى درجة دفعت بالسينمائيين إلى زيارة الكاتب، فبدأ هذه المرة يكتبني كسيناريو سينمائي. لكنه عندما لم يستطع تحصيل حقوقه المادية من المنتج، رفع عليه دعوى قضائية.إذا أردتم رأيي فإن عزيز نيسين ما كان أقحم نفسه في أمور المحاكم لولا أن حقوق المؤلف تعود إلى الوقف الخيري الذي أقامه، فكان الأمر بمثابة واجب في عنقه.

وتعاظمت شهرتي فتم نشري في جريدة أسبوعية على شكل رواية مصورة. وأخيراً طلب "تشيتن أونر" وهو مخرج تلفزيوني، كتابة "يشار لا هو بالحي ولا بالميت" على شكل مسلسل تلفزيوني. فأعاد نيسين كتابتي مسلسلاً تلفزيونياً. أعتقد بأنه كان قد بدأ يغتاظ.. يبدو أن ما حدث لعزيز نيسين بسببي كان أسوأ مما حدث لي.. فلم يعد قادراً على تأمين الوقت لأعمال أخرى لفرط انشغاله بالعمل على "يشار يشامز" لسنوات.

ها أنتم تقولون إن الأمر انتهى أخيراً وارتاح عزيز نيسين. لكنكم مخطئون. فهذه المرة راح القراء يسألون في المكتبات عن رواية "يشار لا هو بالحي ولا بالميت" في حين أنه لا وجود لرواية بهذا العنوان. كانت مجرد تمثيلية تم إعدادها استناداً إلى قصص موزعة بين خمسة كتب أو ستة. لم يشأ نيسين أن يكتب رواية تستمدُّ مادتها من قصص سبق له نشرها. لكن رغبة القراء وضغوط المحيط غلبته. جلس وفكر في الموضوع، فرأى أن تلك القصص تكتسب بُعداً جديداً باجتماعها معاً، فقرَّر كتابة "يشار لا هو بالحي ولا بالميت" كرواية هذه المرة.

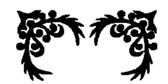
لا أعرف متى تُنجز هذه الرواية، ومتى تستطيعون قراءتها — لكنني أعرف- إذا كنتُ أعرف شيئاً قط — أنه مثلما فاقت شهرة دون كيشوت شهرة كاتبه سرفانتس الذي كاد يختفي في ظل بطله، كذلك فاقت شهرتي — أنا المدعو يشار يشامز — شهرة عزيز نيسين، كما يبدو لي.

وإلا هل كان لي أن أكتب لكم هذا النص من أجل الحصول على شيء من المال؟ ثم هل

كانت مجلة "آق بابا" ترضى لولا ذلك بان تنشر نصاً لكاتب لم يسمع أحدٌ باسمه؟

في البداية ما كان عقلي يستوعب انتشار صيتي بهذه الدرجة وحبكم لي بهذا القدر، لكنني أعرف الآن.. مثلما أنه في كلٍّ منا شيء ما من دون كيشوت كذلك يبدو أن في كل منا شيء من "يشار يشامز". فهل كنتم أحببتموني وبحثتم عني لو أن الأحداث التي جرت لي غريبة عنكم؟

قد أكون كتبت هذا النص من أجل عزيز نيسين الذي أدين له بخلقي بطلاً من لحم ودم، كانت النقود ذريعة..



يشار لا هو بالحيّ

ولا بالميت

-١-

عملية تهريب لم يأتِ على ذكرها أيُّ تاريخ

كان وجه شيخ مسجد السجن عابساً باستمرار، كما هي الحال عند أولئك الناس الذين مَلُّوا مهنتهم وضاقوا بها ذرعاً. كان يلوي شفتيه ويُجعّد وجهه باستمرار كما لو أن أحداً دسَّ في فمه عنوة شيئاً حامضاً بإفراط. كان قد غلبه الضجر من قيامه على إمامة مسجد السجن طوال سنوات. ما كان الموقوفون والمحكومون يثيرون فيه اهتماماً يُذكر، إذ كان يرى جميع الوجوه متشابهة أثناء مروره عبر باحة السجن في طريقه من المسجد وإليه، كأنَّ مخرطة شكَّلت جميع الوجوه وفقاً لقالب واحد.

في السابق، أي حين كان شاباً، لم يكن ينظر إلى المحكومين نظرته هذه. كان قد بذل جهوداً كبيرة لهداية أولئك العباد الآثمين الذين أخطأوا فضَلُّوا عن سواء السبيل، ولدفعهم إلى التوبة ونشدان المغفرة الإلهية. لكنه رأى جهوده وقد ذهبت سدى. كان يحدث من حين إلى آخر أن يتعلّق ببعض الآمال بخصوص بعضٍ من أولئك العباد الآثمين. إن أمثال هؤلاء عندما يقعون في السجن لا يبارحون المسجد في النهار ولا يبتعدون عن أطراف رداء الإمام ولا ينشغلون عن الصلاة والتعبُّد. لكنهم ما إن ينجوا من السجن حتى يعودوا إلى الانحراف في دروب آثامهم القديمة ويقتدوا بالشيطان. كم من مرة انخدع الإمام بالآمال ثم ما لبث أن أصيب بخيبات الأمل. لقد سلموا جميعاً أرواحهم لإبليس اللعين. هذا هو السبب الذي كان يجعل الإمام يراهم متشابهين كما لو كانوا خارجين من قالب واحد. لقد كانوا يأتون إلى الجامع من أجل مصلحتهم ويؤدون الصلاة من أجل مصلحتهم ويقبلون يد الإمام للغاية نفسها، فضلاً عن أنهم كانوا يريدون أن يستخدموا الإمام كأداة لخدمة مصلحتهم. حتى أنه وجد من اقترح عليه إدخال السكاكين إلى السجن تحت عباءته مقابل مبالغ كبيرة من النقود.

بعد تجربته الطويلة معهم على مدى سنوات كان الإمام قد كفَّ عن مجاملتهم.

أمام بوابة السجن كان ثمة مقهى يُمضي فيه الإمام عادة أوقات فراغه ما بين مواعيد الصلاة. وحينما يحلُّ موعد الصلاة كان يجمع عباءته وراءه ويشابك يديه تحتها ويأتي إلى المسجد. كان يرتدي بناطيل ذات سروج واسعة بإفراط تشبه الشروال من الطراز المسمى بالألف.

وكان المحكومون بدورهم قد تيقنوا من أن الإمام العابس في وجوههم لن ينفعهم في شيء. لهذا السبب كان يشار يثير استغرابهم وتعجبهم بإقامته علاقة حميمة جداً مع الإمام.

قبل فترة قصيرة جداً من انتهاء عقوبته، كرَّس يشار يشامز نفسه للدين. إن القول بأنه كرس نفسه للدين ليس كافياً للتعبير عن تعلقه بالدين. فقد وهب نفسه للدين بصورة تامة وأسلم قياده له. كان ينظف المسجد ويكنسه كل يوم، ويفرك بلاطاته وحجارته بقطع قماش مبللة ويزيل الغبار عن ألواح الخشب والزجاج والقناديل بقطع قماش جافة، ويمسح قطع اللباد والحصر المفروشة على الأرض بمياه دافئة مزودة بالصابون. فأصبح المسجد المهمل يتلألأ نظافة على يديه. لقد اكتسب يشار ثقة الإمام إلى درجة جعلته يسلمه مفتاح المسجد. ما إن تُفتح أبواب المهاجع في الصباح حتى يسرع يشار إلى بيت الله ويبدأ بكنسه ومسحه. وعندما يأتي الإمام لإقامة صلاة الظهر يركض نحوه ويقبل يده. وأثناء الصلاة يتخذ موقعه في الصف الأول وراء الإمام مباشرة. وبعد صلاة العصر يقبل يد الإمام مودعاً. ثم يبقى في المسجد ليتابع تنظيفه حتى يسمع صفارة السجان المناوب إيذاناً بدخول المهاجع.

كان الإمام قد أحبّ يشار كثيراً ولا يناديه إلا بعبارات من مثل "يا بنيَّ، يا ولدي". لقد أحبَّ يشار لأنه أدرك بأنه لا يسعى وراء أية منفعة منه، ولم يحاول استغلاله مثل الآخرين كأداة في خدمة مصالحهم الخاصة. لم يكن يتصرف بمكر كان نقي السريرة وواهباً نفسه في سبيل الحقّ. بعد أن تعرَّف الإمام على يشار، أشعَّ حتى وجهه الحامض. الآمال التي تعلَّق بها إبان شبابه انبعثت في أعماقه من جديد. من بين الوجوه المتماثلة تميز وجه يشار واكتسب ملامح مختلفة. كلما قبَّل يده عند دخوله المسجد أو مغادرته له كان يدعو من أجله قائلاً:

- كلما وهبت نفسك إلى طريق الله يا بني، فإن الله سيمنحك بدوره على قدر نيتك.. ليتحول كل ما تمسكه إلى ذهب يا ولدي!

وحين يقف الإمام لأداء الصلاة كان يشار يتخذ موقعه وراءه ويصلي وقد كان يقف قريباً جداً وراءه إلى درجة أن رأسه تمسُّ قدمي الإمام عند السجود.

لا بد أن دعوات الإمام كانت مقبولة، فقد بدأت أحوال يشار تتحسن منذ بدأ بالصلاة والدعاء، فكان يفصل ثياباً جديدة ويمتلئ جيبه بالنقود. لم يكتف بالكفّ عن التعيش على حساب الآخرين، بل صار يقدم الشاي والقهوة لزملائه في المهجع. حتى أنه صار يدخن السجائر الأمريكية من أغلى الأصناف.

كانت ظهيرة أحد أيام الجمعة وقد امتلأ المسجد بالسجناء لأداء صلاة الجمعة. أما الذين لم يلتحقوا بالصلاة فقد كان معظمهم في الباحة. فجأة سمع ضجيج كبير من المسجد. ضجيج يعطي الانطباع بأنهم بدلاً من الصلاة يقطعون لحم أحد ما. كان صوت غليظ يصرخ متداخلاً مع صوت رفيع يتوسل، لكن كلامهما لم يكن مفهوماً. احتشد من كان في الباحة على باب المسجد، كذلك فإن الموجودين داخل المهاجع اندفعوا إلى الخارج على إثر سماعهم للأصوات، ما الذي يحدث؟ ترى هل يذبحون رجلاً في بيت الله؟!

في الوقت الذي كان الحشد المتجمع على باب المسجد يحاول الدخول لمعرفة ما يحدث في الداخل، كان أولئك الموجودين في الداخل يندفعون إلى الخارج. وهكذا كان الحشدان — الخارج والداخل- قد تشابكا فيما يشبه العقدة وسدّا باب المسجد، عندما اندفع من داخل المسجد شيء يشبه رزمة مكورة وهو يصدر زعيقاً حاداً، واخترق الكتلة البشرية التي تسدُّ الباب بسرعة السهم، وطار فوق الرؤوس ثم سقط على الأرض. فيما اتجهت الأنظار إلى المكان الذي وقع فيه الشيء لمعرفة ما يكون، اندفع شيءٌ آخر أكبر من الأول ويشبه كرة سوداء، من داخل المسجد وهو يصدر ما يشبه صوت صفارة إنذار، واخترق الكتلة البشرية لاحقاً بالأول. عندما نهض كل من الشيئين من حيث سقطا وتمالكا نفسيهما اتضح أن الأول هو يشار يشامز والثاني الذي اندفع في أثره هو الإمام.

ما إن رأى يشار الإمام في أعقابه حتى راح يركض بأسرع ما يستطيع وقدماه تصدمان بمؤخرته. وراح الإمام يركض وراءه برشاقة غير متوقعة ممّن في سنه. كانت عباءته السوداء تنتفخ بالهواء ويرتفع طرفاها مثل جناحين، فيصبح مثل غيمة سوداء كبيرة هبطت على الأرض. وهكذا استمرت المطاردة في باحة السجن. وفي إحدى المرات انحلّت عمامة الإمام البيضاء لسبب غير معلوم وتماوج طرفها مثل ذيل أبيض.

قسم من السجناء الذين كانوا يشاهدون تلك المطاردة في الباحة كان مأخوذاً

بالدهشة، في حين راح القسم الآخر يضحك بصخب. ولم تجر الأمور بما يتفق مع المثل القائل: "إن الهارب يركض أسرع ممن يطارده". فقد كاد الإمام يمسك بيشار بجهد غير متوقع ممَّن في عمره. وبالنظر إلى سرعته في الركض وما يثيره من غبار، لا بد أنه سيجعل يشار يندم على أن أمَّه ولدته، إذا تمكَّن من الإمساك به. وفي لحظة أوشك فيها على الإمساك بيشار، راوغه هذا من غلاوة الروح، فوقع الإمام بطوله على الأرض.

بعضٌ من المتفرجين تمدَّد على الأرض من شدّة الضحك. وصل عدد من السجَّانين الذين اجتذبهم الضجيج وساعدوا الإمام في الوقوف على قدميه. استغل يشار الفرصة واختفى عن الأنظار داخل الجناح الثاني من مبنى السجن.

راح رئيس السجَّانين يسألُ الإمام عما حدث، فيجيبه هذا لاهثاً والبخار يتصاعد من فمه وأنفه وشرارات تقدح في عينيه:

- بلغتُ هذا العمر ورأيتُ الكثير، لكنني لم أرَ ولم اسمع بنذالةٍ كهذه!

- ولكن ما الذي حدث يا سيدي الشيخ؟

فيكرر الإمام الكلمات نفسها:

- بلغتُ هذا العمر يا ولدي ورأيتُ الكثير، لكنني لم أرَ ولم أسمع بنذالةٍ كهذه!

كان من الواضح أن الإمام لا يريد أن يُفصح عن سبب غضبه وعما فعله يشار ليستحق كل هذا الغضب، شابكه السجانون من ذراعه وابتعدوا به.

في ذلك المساء أطلقَ السجَّان المناوب صفارته أبكر من المعتاد إيذاناً بدخول السجناء إلى مهاجعهم.

وهكذا لم يتمكن السجناء من معرفة سبب الحادثة بسبب امتناع الإمام عن الكلام. ولأن السجَّانين قد أرتجوا الأبواب الحديدية وأقفلوها على النزلاء، فكان عليهم انتظار اليوم التالي حتى يروا يشار ويستفسروه. وكان هذا في المهجع الأول من الجناح الثاني. اجتمع زملاؤه في المهجع حوله وراحوا يسألونه:

- ما الذي حدث يا يشار؟

- لم يحدث شيء يا أخي.

- ماذا فعلتَ بالرجل يا صاح؟

- والله لم أفعل به شيئاً يا أخي..

- كيفَ أغضبته إلى هذا الحد إذن؟ لا بد أنك فعلتَ شيئاً حتى جن جنون الرجل!

راح يشار يُفسر ما حدث كما يلي:

- كنت أؤدي صلاة الجمعة مع الجماعة — تقبلها الله — وكالعادة كنت أقف وراء الإمام.. كنت في وضعية السجود ورأسي على الأرض، فلم أرَ ما حدث.. لا أعرف كيف أحكي لكم.. فجأةً على رأسي. شعرت كما لو أن مطرقة تنزل على رأسي الممدودة فوق سندان.. وإذ بالإمام وقد انقضَّ عليَّ انقضاض النسر على طريدته وراح يسحق رأسي. إذا بقيت ساجداً فسوف يمزقني.. صرختُ مستنجداً ولكن ما من مسلم هرع إلى نجدتي.. وهكذا قفزت واقفاً من غلاوة الروح وهربت والإمام في أعقابي.. وقد رأيتم كيف انتهت المطاردة..

ولم يتمكنوا من انتزاع أي شيء آخر من فم يشار بالرغم من كل محاولاتهم.. كانوا على وشك أن يصدقوا روايته عندما فتح السجان باب المهجع وأدخل زميلاً لهم من سجناء المهجع مكلَّف بأعمال ذات طابع إداري. من لحظة دخوله صرخ قائلاً:

- هل سمعتم ما الذي فعله يشار يشامز بالإمام؟

تحلقوا حوله جميعاً باستثناء يشار الذي ظلَّ في مكانه وقال:

- أنا لم أفعل شيئاً على الإطلاق!

تكلم الشاب الذي دخل المهجع:

- صديقنا يشار هذا.. ألم نستغرب جميعاً تديُّنه المفاجئ ونتساءل عن السبب الذي جعله يتعلَّق بالإسلام كل هذا التعلق؟ تعرفون كيف كان يرتمي على قدمي الإمام حيثما يراه ويقبل أذياله ويديه.. تعرفون كيف كان يقف وراء الإمام ليؤدي الصلاة.. وكيف أن رأسه تلامس قدمي الإمام في السجود.. لماذا كل ذلك إذن؟ الشيطان نفسه لن يخطر له هذا! سوف تدخل هذه الحادثة كتب التاريخ.. التاريخ!

راح السجناء يضحكون عندما سمعوا كلام زميلهم.. فقد ظنوا أنه يسخر من يشار بقوله إن العمل الماكر الذي قام به لا يخطر على بال الشيطان نفسه، وهم يعرفون يشار صبياً ساذجاً مسكيناً.

- صاحبنا يشار هذا من مكانه هنا بيننا عرف بتحركات الإمام خارج السجن، وأنَّه قبل مجيئه إلى المسجد لإقامة الصلاة يجلس في المقهى المواجه ويشرب كأساً من الشاي

إلى حين حلول وقت الصلاة.

صرخ يشار من مكانه وهو يضحك:

- والله كذب! بالله كذب!

تابع الشاب كلامه قائلاً:

- أقام يشار علاقة حميمة مع سجين اقترب موعد إخلاء سبيله ودخل معه شراكة عمل سيدرٌ عليهما نقوداً كثيرة. عندما انتهت فترة عقوبة شريك يشار وخرج، نفّذ تعليمات يشار بحذافيرها. كلما جلس الإمام في المقهى إلى حين موعد الصلاة جاء شريك يشار وجلس إلى طاولته. ثم يشاغله بالحديث ويستغل لحظة شرود من الإمام ليثبت رزمة هيروئين على بطانة عباءته. وهكذا يدخل المسكين المسجد غافلاً عما يحمله، فيندفع يشار مرتمياً على يديه وقدميه، ثم يقفان إلى الصلاة.. الله أكبر.. الله أكبر!

صرخ يشار المنزوي فوق فراشه:

- كذب والله يا جماعة! والله كذب! إنه يختلق..

رد الشاب قائلاً:

- ما هو الكذب؟ فأنا لم أقل شيئاً بعد.. ما أدراك سلفاً بما سأقول حتى تنعته بالكذب! هذا يعني أن ما أقوله صحيح!

- كل ما يقوله كذب واختلاق!

صرخ النزلاء بيشار طالبين منه السكوت وألحوا على الشاب أن يتابع.

- الله أكبر.. سمع الله لمن حمد.. ويسجد الجميع لله تعالى، ووجوههم إلى الأرض.. في تلك اللحظة يدس يشار يده تحت عباءة الإمام وينتزع رزمة الهيروئين المثبتة بواسطة دبوس على البطانة. رزمة عند صلاة الظهر وأخرى عند صلاة العصر.. ألا ترون كيف ريّش يشار العريان! من أين يحصل على النقود؟ لمن سيشرح المسكين ورطته إذا حدث وضُبط الهيروئين معه؟ سوف يرمون به داخل السجن مثلنا، بتهمة إدخال الهيروئين. وهكذا استمر هذا العمل حتى اليوم.. كالعادة وقف يشار وراء شيخه في صلاة الجمعة، وسجد حين سجد، ثم دسّ يده ككل مرة تحت عباءة الشيخ، وراح يبحث متلمساً بيده عن الرزمة في مكانها المعتاد، لكنه لم يعثر عليها هذه المرة.. رزمة كبيرة من الهيروئين كلفت أموالاً طائلة.. نهضت الجماعة من سجودها، ثم سجدت ثانية. إنه يشار! يدس يده ثانية

تحت العباءة يبحث في هذه الجهة ثم في تلك.. ولكن لا أثر لرزمة الهيروئين آه الرزمة! لا أحد يعرف إذا كانت الرزمة قد انفصلت عن بطانة العباءة ووقعت أم أن شريك يشار لم يأت إلى المقهى ويثبت الرزمة. كلما سجدوا عاد يشار إلى دسّ يده تحت العباءة بين فخذي الإمام وراح يتلمس هنا وهناك بحثاً عن الرزمة المفقودة.. ومع كل سجود جديد زاد يشار من إلحاحه في البحث.. ذلك أنه إذا لم يعثر على الرزمة، فسوف يعود الإمام إلى بيته حيث ستكتشفها زوجته أو ابنته.. فتكون الفضيحة ويجد يشار نفسه في ورطة كبيرة.. سوف ينال حكماً إضافياً بالسجن خمس سنوات على الأقل.. لذلك لم يترك يشار مكاناً تحت العباءة إلا ولمسه ونقّب فيه بحثاً عن الرزمة. وليس من السهل العثور عليها بالنظر إلى أن سروال الإمام واسع بدوره..

وقد أحسّ الإمام إحساساً واهناً بحركة ما بين فخذيه كلما انحنى ساجداً، لكنه لم يشك بشيء، بل ظن أنه واهم. ومن أين ستخطر في باله حقيقة الأمر؟! لكن يشار زاد في تماديه باضطراد مع كل سجود جديد.. فراح الإمام يردد بينه وبين نفسه: "كيف يتجرأ أحدٌ على فعل شيء كهذا بي!" والأنكى أنه يشعر بالأمان لأن من يقف وراءه هو يشار يشامز.. ماذا يفعل المسكين إذن؟ لا يجوز أن يلتفت إلى الوراء وينظر، فوراءه جماعة المصلين.. وإلا أفسد الصلاة.. ومن جهة أخرى فإن الصلاة بطلت فعلاً طالما أن ذهنه تركّز فيما يحدث خلفه.. ترى من هو ذاك الذي ينقب في عقبه كلما سجد؟ وهكذا أنهى الإمام الصلاة على عجل حتى يمسك بهذا الوقح.. أعني أنه كان ينوي أن يصل بالصلاة إلى نهايتها حتى لا تبطل.. لكنّ إمامنا يشكو من مشكلة إضافية.. إنه من أولئك الذين يحسون بالدغدغة ما إن يُلمس مكان محدد من أجسادهم ويصرخون من فرط حساسيتهم.. لا بد أن صاحبنا يشار قد لمس المنطقة الحساسة التي تثير دغدغة الإمام، في بحثه عن الرزمة.. فقد صرخ الرجل صرخة مدوية ومدّ يده بين ردفيه حيث قبض على يد اتضح له أنها يد يشار.. وكان السجود الأخير في الصلاة.. وكان على يشار أن يعثر على الرزمة من كل بدّ، وإلا أخذها الإمام معه إلى البيت... لذلك فقد استغرق في تنقيبه شارداً عما حوله، فلم ينتبه إلى أن الإمام قد رآه، وتابع تحسسه وتلمسه بين فخذي شيخه.. ولأن الإمام لا يعرف ما الذي يبحث عنه يشار في ذلك المكان، فقد أساء به الظن فجنّ جنونه وامتطى يشار وأوسع رأسه ضرباً بقبضتيه. ولولا نجاح يشار في الإفلات من بين يديه، لكان الإمام مزقه شرّ تمزيق..

تابع يشار صراخه:

- كذب يا جماعة، والله كذب، بالله كذب.. هذا افتراء كاذب..

أحد نزلاء المهجع:

- إذن فقد حكى الإمام الأحداث لإدارة السجن..

- لا.. الإمام ممتنع عن الكلام.. كيف يتكلم وهو يشعر بالعار؟!

- كيف عرف إذن أن الأمور جرت هكذا؟

- ثمة من رأى.. فعندما أحسّ الإمام بالدغدغة وبدأ يصدر أصواتاً رفع بعض المصلين رؤوسهم من حيث كانوا ساجدين فضولاً لمعرفة ما يحدث للإمام، فرأوا يد يشار المدسوسة تحت عباءة الإمام وهي تتحرك وتنقب..

صرخ يشار مرة أخرى:

- كذب!

- إذا كان ما أقوله كذباً لماذا إذن ظل الإمام يردد: "قد بلغت هذا العمر يا ولدي ورأيت الكثير، لكني لم أر نذالة كهذه ولا سمعت بمثلها!". قل لي لماذا؟..

بالفعل لم يحكِ الإمام لأحد ما فعله يشار به، ولا أحد يعرف بصورة مؤكدة صحة الرواية التي سمعوها، قد تكون صحيحة وقد لا تكون. فإذا كانت صحيحة، يكون الإمام قد امتنع عن الكلام بسبب شعوره بالعار. أما إذا كان قد عرف بقصة الهيروئين، فسوف يمتنع عن الكلام خوفاً من الاتهام بإدخال الهيروئين إلى السجن. لماذا إذن طارد يشار يشامز في باحة السجن؟ جواباً على هذا السؤال الذي طرحه عليه مدير السجن، قال الإمام بأنه ظن أن محفظته قد سرقت منه، وإنه ارتاب في يشار، ثم عثر عليها في جيب آخر من جيوبه، فأدرك أنه ظلم يشار.

إذا كانت الرواية صحيحة وكان الإمام يمتنع عن قول الحقيقة فإن يشار يكون قد نجا من هذه الورطة بسهولة. لكن يشار لم يدخل المسجد قط بعد تلك الحادثة ولا رأى وجه الإمام مرة أخرى.

هذه الرواية، سواء كانت صحيحة أم لا، انطلقت من المهجع الأول في الجناح الثاني وانتشرت في السجن كله.. كل من سمع بالحادثة أصيب بالدهشة.

إشراك الإمام المسكين في تهريب الهيروئين دون علمه! لقد رأى السجناء القدامى

طرقاً متنوعة لإدخال الهيروئين، وسمعوا بها وجربوها، لكن هذه طريقة في التهريب لم تذكرها كتب التاريخ.

ويدير ألاعيب من هذا النوع شخص ساذج مثل يشار؟ شيء لا يصدق! لقد عضَّ جميع السجناء أصابعهم إعجاباً.

في المهجع الأول كانت الأحاديث تدور كما يلي:

- هل تتذكر اليوم الذي دخل فيه يشار يشامز السجن ودخوله الأول إلى المهجع؟!

- وكيف لا؟

هكذا كان يجيب من كان موجوداً يوم وصول يشار إلى المهجع، في حين يقول المتأخرون:

- لقد وصلتُ بعده.. أرجوك أحك لي!

ويلحون في طلبهم.

أولئك الذين شهدوا على وصول يشار يشامز إلى السجن كانوا يحكون مع الكثير من البهارات.



- ٢ -

اللصُّ الشريف لا يسرق لصاً

أكثر الرواة مهارةً في السجون التركية على الإطلاق كان نزيلاً من نزلاء المهجع الأول. وكان الجميع يحملونه على الراحات. سجناء كل مهجع كانوا يريدون ضمَّة إلى مهجعهم. ولم ينجح في ذلك سوى نزلاء المهجع الأول. ذلك لأنهم تعهدوا أن يدفعوا له كل ليلة عشرة قروش عن كل شخص. لقد وافق مهجع آخر على دفع المبلغ نفسه عن كل شخص، لكن الراوية اختار المهجع الأول لأنه الأكثر اكتظاظاً بالسجناء. وقد أعطوه الطابق العلوي لسرير له موقع متميز داخل المهجع. وقد اختير هذا الموقع بما يتيح لجميع النزلاء سماع ما سيحكيه الراوية.

كان هذا من ذلك النوع من الرجال الذين يقال عنهم بأن العسل يقطر من أفواههم. حينما يحكي كان مستمعوه ينظرون إلى داخل فمه. كان يحكي بطلاوة تجعل الجميع يتحرَّقون شوقاً إلى الإصغاء إليه. لقد شكَّل تسلية يندر وجود ما يشبهها في السجون.

كان يحفظ عن ظهر قلب ليس عشرات الروايات بل مئاتها، ويحكي عن ظهر قلب جميع الروايات التي سبق وقرأها، ويا لها من روايات ويا لها من طريقة قص! كان يحكي الروايات مقسَّمة على حلقات، بحيث يُنهي رواية من مجلد واحد في ثلاث ليالٍ أو أربع، وأحياناً في أسبوع. من ذلك سلسلة روايات بارdليان وسلسلة شرلوك هولمز، والفرسان الثلاثة والكونت مونتي كريستو وبائعة الخبز ومدير ورشة الحدادة والبؤساء. حتى أولئك الذين سبق لهم أن قرأوا تلك الروايات، كانوا يرغبون بسماعها مجدداً من فم الراوية. ذلك أنه كان يحكيها بصورة أفضل بكثير من كتَّابها، وأجمل بكثير من النص المكتوب. وقد استمعوا إلى بعض الروايات مرات عديدة إلى درجة أنه إذا حدث وغيَّر الراوية تفصيلاً صغيراً في إحدى الليالي، كان المستمعون يقاطعونه لتصحيح الخطأ قائلين له:

- ليس الأمر هنا كما تقول.. أنتَ تختلق.

في حين أن الراوية كان يُدخل تلك التغييرات بصورة واعية وفقاً للزمان والمكان وذائقة الجمهور.

في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن يأوي جميع نزلاء المهجع إلى أسرِّتهم، يتمدد الراوية بدوره في سريره ويحكي الرواية. كما أن الرواية لا يمكن أن تحكى في كل ليلة. وثمة روايات خاصة تحكى في ليالٍ خاصة. وعلى سبيل المثال تحكى في الليالي ذات الخصوصية روايات تتوافق معها، مثل ليالي رمضان، ليالي العيد، ليلة القدر، ليلة المولد النبوي، وليلة رأس السنة. وكان يحدث من حين إلى آخر أن يقصَّ عليهم روايات وأقاصيص مفرطة في إباحيّتها. وإذا كان ينبري بعض المستمعين لإبداء رأي أو ملاحظة حينما يحكي روايات عادية، فإن أحداً منهم لا يصدر أدنى صوت حينما يتعلق الأمر بالروايات والقصص الإباحيّة، باستثناء لهاث حماسي يصدر من حين إلى آخر من بعض الأسرة. وحين يُنهي الحلقة المخصصة لليلة من الليالي، كان يظهر من يطالبه بمتابعة القص أو من يناقش محتوى الحلقة ويقيّمها. في حين أن أحداً لم يكن ينبس ببنت شفة إذا كانت الرواية المحكيّة إباحيّة. ففي نهايتها يكون البعض أُرهق واستغرق في النوم، والبعض انهمك في الشخير. لذلك كان الراوية يُفضِّل أن يقص عليهم الروايات والقصص الإباحيّة، وكان يختلق بعضاً منها ويحكيها كما لو كانت قد حدثت معه. لكنه إذا حاول قطع تلك الروايات والقصص بصورة مباغتة وفي أقل المفاصل ملاءمة، كانت القيامة تقوم. حتى أنهم كانوا لا يتورعون عن ضربه.

كانت للراوية نقيصة واحدة تتمثَّل في إدمانه على الهيروئين. فقد كان يسلطن جيداً ثم يحكي فيداهمه النعاس ويكبو وهو يحكي. لذلك كان يتوجَّب على رجل قويّ وصاحٍ أن ينام على السرير المجاور لسريره، حتى يلكزه ويهزّه كلما غلبه النعاس.

كان يحدث كثيراً أن يغفو وهو في منتصف جملة أو حتى كلمة وما يزال نصف أحرفها داخل فمه. وحين يُلكز ويتم إيقاظه كان يتابع القص من النقطة التي توقَّف عندها، من الكلمة والمقطع الصوتي، من غير أن يلجأ إلى سؤال أحد. وبسبب إدمانه فإن أصابعه لا تخلو من سيكارة مشتعلة، وعندما يغلبه النعاس يحرق لحافه وفراشه بها. وكم من مرة أيقظه فيها نزلاء المهجع وهو يكاد يختنق بدخان الحريق. ولم يكن يشعر بحرق جمرة السيكارة لأصابعه التي فقدتْ حساسيتها لكثرة ما تعرَّضت للاحتراق.

كان الجميع يستغربون أن يختزن ذهن بشري كل هذا العدد من الروايات. وقد كان

على معرفة بالروايات المحلية أيضاً: طائر الصعو، البقالية ذات الذباب، من الشفتين إلى القلب، هي أكثر الروايات حظوةً لدى النزلاء. يقال إنه ينتمي إلى عائلة كريمة وإنه قرأ الكثير في أيام العز. كان يحكي الروايات بطريقة بارعة بحيث يدفع مستمعيه إلى البكاء الصاخب إذا شاء وإلى الضحك المجلجل إذا شاء، أو إلى الحماس الجنوني إذا شاء ذلك. كان المستمعون إليه يقولون إنهم لم يبكوا بهذا المقدار حتى في الأفلام المحلية. بمعنى آخر كانوا يعطونه القروش العشرة راضين مسرورين.

فضلاً عن ذلك كانت له مهارات فموية وأنفية عجيبة. فكان يعزف الزَّمر بأنفه والترومبيت بشفتيه والطبل بخدَّيه، وكان يُصدر أصواتاً شبيهة بأصوات الكمنجة والكلارينيت. كما كان يقول مفاخراً بأنه يُصدر تلك الأصوات وفقاً للمدوَّنة* . كان المستمعون إليه ليلاً من فوق أسرَّتهم يظنون أنه يعرف بالفعل الكلارينيت أو الكمنجة أو الطبل. وبيده كان يضرب بمفتاح على حديد السرير فيُصدر صوتَ الجرس. مختصر القول إنه كان بمفرده يقوم بعمل أوركسترا كاملة. يضاف إلى مهاراته تلك أنه كان يقوم بمحاكاة الشخصيات بصورةٍ رائعة، فقد كان يحكي جميع روايات حسين رحمي غوربنار وهو يحاكي كل شخصية من شخصيَّاتها بصوتٍ يناسبها ويتكلَّم بطريقة كل منها. في بعض الليالي كان يمارس دور الحكواتي أو يغني نوعاً من الطقطوقات الخفيفة أو يمثِّل خيال الظل (الأراجوز). كما أنه كان يحكي مغامرات مشاهير أصحاب السوابق القدامى، فيدهش مستمعيه. كان يحكي مثلاً عن زير النساء الشهير "خالد الأيوبلي" وكيف كان يخدع النساء وينصب عليهن، وعن مغامرات تُصيب العقول بالشلل لنصَّابين آخرين أو غزوات تتشقق لسماعها الشفاه لقطاع طرق أو مغامرات تجمِّد الدم لفتوَّات. كان يحكي كل تلك المغامرات وكأنه شهدها أو عايشها أو شارك فيها.

كان نزلاء المهجع الأول يدفعون له عشرة قروش كل ليلة عن الفرد الواحد، وكان هو يستخدم تلك النقود في تعاطي الهيروئين وشراء الطعام والشراب بحيث كان يعيش حياة مرفَّهة.

في الوقت الذي كان الراوية الشخص الأكثر شعبيّة في جميع السجون، كان نزلاء مهجعي السادة والمعدمين لا يحبونه. فقد كان أثرياء مهجع السادة ينظرون إليه باستخفاف ولا تعجبهم حكاياته، أما نزلاء مهجع المعدمين فلم يكونوا في وضع يسمح لهم

---

* النوطة.

بفهم حكاياته.

الطريف في الأمر أن الراوية الذي كان يحكي رواياته بحماسة كبيرة — وخاصة تلك الإباحية منها- ويثير انفعالات مستمعيه وعواطفهم، ما كان يتأثّر هو نفسه بما يحكي. لهذا كان يقال عنه إنه "أصبح قوّاداً في مهنته!"، بمعنى أنه أصبح معلماً خبيراً في مهنته. كان شأن الراوية في معلميَّته شأن مومس غنيّة الخبرة لا تستمتع مع كل رجل تضاجعه. يبقى أن نضيف أن إدمانه المفرط على الهيروئين لم يترك لديه شيئاً يستثار أو ينفعل.

في أحد الأيام اختفت في غمضة عين ورقة من فئة الخمس مئة ليرة تركها أحد نزلاء المهجع الأوّل فوق سريره. كان شيئاً مثيراً للعجب لأن أغلب نزلاء المهجع كانوا من اللصوص ومن أصحاب السوابق. إن اللص، أي ذاك الذي يستحق أن يُسمى باللص، لا يسرق زميلاً له حتى لو مات جوعاً، في مهنة اللصوصية لا يجوز سرقة اللص. لذلك فإن أكثر الأماكن أماناً بالنسبة للص هو المكان الذي يتجمّع فيه اللصوص. فكيف حدث إذن وسرق لصّ شريف نقودَ لصٍ آخر! لا يجوز! أهي نهاية العالم! كان الرجل الذي تعرَّض للسرقة يصرخ بأعلى صوته:

- لقد أوصلتم شرف اللصوصيّة إلى الحضيض، أصبحت اللصوصيّة على أيديكم لا تساوي قرشين. لستُ أتألم على النقود، بل على ذلك.

من الذي من الممكن أن يفعل هذا؟ لصوص المهجع لن يفعلوها. فقط جماعة الهيروئين ممكن أن يقوموا بهذا. وقد كان الراوية الوحيد في المهجع ممن يتعاملون بالهيروئين. أحسَّ بأنهم يرتابون فيه فقال متحدياً:

- فتشونيّ! أنتم جميعاً عديمو شرف إن لم تفعلوا! هيا فتّشوني!

إلحاحه المفرط زاد من شكوكهم فيه. لو أنه لم يسرق لما اضطرب كثيراً وألحّ في طلب تفتيشه.

فتشّوا سريره وحقيبته تفتيشاً دقيقاً. ازداد جنون الراوية وعدوانيّته بعد هذا التفتيش، وراح يصرخ ويُطلق شتائم لا توفِّر الأمهات والأخوات. وهل تنطلي ألاعيب مماثلة على جماعة اللصوص؟ قال أحد مشاهير اللصوص المخضرمين:

- إن لم يكن هذا الرجل هو من سرق النقود، فأنا لا أعرف شيئاً أبداً. ثم صرخ في

وجه الراوية قائلاً:

- تعرَّ ولاك!

مرة أخرى خلع الراوية ملابسه الخارجية والداخلية ووقف عارياً. فصرخ به ذلك اللص المخضرم:

- انحن ولاك!

استاء الراوية فأرغموه على الانحناء. مد اللص المخضرم يده وسحب ورقة الخمس مئة ليرة الملفوفة والمحشورة في مؤخرته، كما لو أنه وضعها هناك بيده. ثم صرخ به قائلاً:

- علينا ولاك؟ أتنطلي علينا مثل هذه الألاعيب؟ هل ستدلنا على الطريق يا ولد الجمهورية ونحن لصوص من أربعين سنة!

أحد اللصوص الشبّان قال للمعلّم المخضرم:

- لحسن الحظ يا أخي أنك أصبحت لصاً وليس شرطياً.

بعد هذه الحادثة أرادوا أن يطردوا الراوية من المهجع، لكنهم سكتوا على أمره عندما فكروا بأنه نافع للسهرات الليلية وأنهم لن يجدوا راوية يضاهيه. وعلى كل حال فقد تمرَّغ كبرياءه. لكن الأمور لم تمشِ كما أرادوا لها. فقد استاء الراوية كثيراً مما حدث ولم يعد يقُص عليهم شيئاً في الليل متذرعاً بأنه مريض. وبذلك اضطروا إلى إبعاده إلى مهجع آخر. ولو أنه لم ينتقل طوعاً لكانوا أُرغموا على إبلاغ رئيس السجّانين عن حادثة السرقة.

بانتقال الراوية شغرَ مكان واحد في المهجع الأوّل.



-٣-

الدفتر وحده يعرف الحقيقة

كان ثمة سجّان مُعوجّ القامة ملويُّها صغير الجثة يلقبه السجناء بـ- "النص نصيص". وكان ينتفخ ويتكبر ما إن يضع الصفارة في فمه. وحينما يريد أن يُصفّر بقوة كان ينفخ صدره فينتفخ مثل ديك رومي إلى درجة يُخيّل فيها إلى من يراه بأنه سينفجر. ولم لا؟ أليس سجاناً على مئات الناس هنا؟ أليس قادراً على إخراجهم إلى الباحة بصفرة واحدة منه، وإدخالهم إلى مهاجعهم بصفرة واحدة؟ هذا يعني أنه يتفوق على الجميع هنا. وكمظهر من مظاهر التفوق كان يبقي على رأسه مائلاً إلى اليسار، وينظر إلى من يقف أمامه بتلك الوضعية من تحت إلى فوق وبصورة مائلة.

في ذلك اليوم كان النص نصيص مناوباً. لقد حشرَ السجناء في مهاجعهم بإطلاق صفارته كمن يسوق الدجاج. بعد دخولهم راح السجناء يتنزهون في الممرات ذهاباً وإياباً. كانت أصوات الشحاطات والقباقيب والأحذية تختلط بغليان الطعام في القدور فوق المناقل وبقبقة الماء في أباريق الشاي وطقطقات الفحم المشتعل في المناقل، وأصوات الملاعق والشوكات، وأحاديث المتنزهين، تشكل معاً الهدير الهجين لمساءات السجن الشتائية، هدير دافئ نضر حَرِدٌ وفي منتهى الجبن، هدير مستعد للانطفاء فوراً في كل لحظة.. قطع النص نصيص هذا الهدير فجأة بصفرة من صفارته. ثم راح يصرخ بعد كل صفرة:

- إلى الداخل، إلى الداخل! هيا إلى المهاجع! إلى الداخل!

تمتم أحد السجناء:

- ماذا جرى لنص نصيص هذا!؟

أجابه سجين بجانبه:

- وماذا سيجري.. لقد جنَّ مجدداً.. جُنَّ بإفراط.

- اسمع ما سأقوله لك يا صاحِ. ليس ثمة بين السجانين من هو ألعن من نص نصيص هذا.

كان صوت نص نصيص الحادّ يقترب باطّراد:

- ألم نقل لكم إلى الداخل؟ كل واحد إلى مهجعه، هيا إلى الداخل!

أحد السجناء:

- لا بد أنهم جاؤوا بموقوفين جدد..

- يبدو ذلك.

كان النصّ نصيص يصفر صفرتين ثم يصرخ:

- ممنوع أن يبقى أحد في الممرات! هيا إلى المهاجع!

أحد نزلاء المهجع الأول سأل رفيقه:

- هل من أماكن شاغرة في مهجعنا؟

أجاب السجين صاحب الخمس مئة ليرة التي أُخرجت من جسد الراوية:

- طبعاً، ثمة مكان لشخص واحد.

- ليتهم على الأقل يعطوننا شخصاً جيداً..

وصل النص نصيص إلى حيث يقفان:

- لمَ تنتصبان هنا هكذا؟ ألم تسمعاني أصرخ إلى المهاجع!

سأله السجين بين السخرية والتملُّق:

- ماذا هناك يا سيدي؟

- لا شيء.. جاءنا عدد من الجرثومات من أمثالكم..

توجه السجين إلى زميله:

- ألم أقل لك؟ ثمة موقوفون جدد.

- ليتك تعطي مهجعنا شخصاً جيداً يا سيدي.

كان النصّ نصيص يتكلم والصفارة في فمه، وبين الجملة والأخرى يطلق صفرة:

- هيا هيا! إلى الداخل، قلنا إلى الداخل!

بما أن النظارة كانت مزدحمة عن آخرها فقد اضطروا إلى توزيع الموقوفين المرحَّلين من القصر العدلي مباشرة على المهاجع. كان نصيب المهجع الأول شاباً نحيلاً ضئيلاً خطا نحو المهجع بخطوات مذعورة وظلّ واقفاً في الباب مطأطأ الرأس. نظر إليه نزلاء المهجع وراحوا يبربرون:

- تفووو يا نص نصيص.. ألم تجد لمهجعنا سوى هذا الفلعوص؟

- انظروا .. ليس لديه حتى فراش ولحاف.

- وهل كان عليهم إرساله إلى مهجع السادة..

- المسكين، ليس من أحد ينظر في وجهه.

- ألم نطلب من نص نصيص أن يخصنا بشخص جيد.. لقد أعطانا هذا الفلعوص نكايةً بنا..

-لنناد هذا المسكين..

-إيه أيها الشاب.. تعال لنر، تعال هنا.

اقترب منهم مجفلاً مذعوراً.

-حمداً لله على السلامة.

وإذ لم يصدر منه جواب صرخ سجين آخر بصوت مرتفع:

-حمداً لله على سلامتك أيها الصديق!

ردَّ الشاب هامساً:

-شكراً لكم!

-اجلس هنا..

جلس حيث أشاروا له.

فتح أحد السجناء علبة سجائر وزَّع منها على الحضور، فأخذ النزيل الجديد واحدة لنفسه ثم انتظر حتى يشعل الآخرون سجائرهم لأنه لم يكن يملك علبة ثقاب أو قداحة. أشعل سيجارته من السيجارة المشتعلة للجالس بجانبه.

-أليس لديك فراش ولحاف؟

-لا.

-ما هي جريمتك؟

قال أحد النزلاء:

-ليست لديه جريمة أيضاً..

وإذ قال الشاب:

-جريمتي؟ جريمتي.. لا شيء..

تضاحكوا:

-ترون؟ ألم أقل لكم إنه ليست لديه حريمة؟

سجين آخر قال ساخراً:

-لا بد أنهم جاؤوا بالمسكين من الجامع..

تضاحكوا

- منذ سنوات وأنا في هذا السجن. حتى اليوم لم ينبر عبدٌ من عباد الله ليقول جريمتي، هي كذا..

- ليس في الأمر ما يعيب يا صديقي.. إن الرجل معرَّض لظروف من كل نوع.. ما هو اسمك؟

-بشار.

-الكنية؟

لم يفتح فمه بكلمة، فقال له الجالس أمامه ساخراً:

-أليست لديك كنية أيضاً؟

-لي كنية.. ولكن..

-لمَ لا تخبرنا بها إذن؟

-يشامز

-ماذا؟

-أنا يشامز.. كنيتي هي يشامز.

-كنيتك هي إذن يشامز؟

-نعم، يشامز

-يشار يشامز، أليس كذلك؟

-نعم

انفجرت ضحكات صاخبة في المهجع. وكان يشار يشامز ينظر ببراءة إلى الضاحكين.. قال للجالس أمامه:

-إذا أردتَ الحق فأنا لا أحيا (*)

فرد عليه هذا:

-ومن الذي يعيش يا يشار يشامز! من منا حيّ؟

وافق البعض على هذا الكلام:

-وهل هذه حياة؟

- لا تقل هذا يا صديق، ثمة من هو بحال أسوأ من حالنا.. تعرفون قصة ذاك الرجل الذي كان في طريقه إلى الإعدام، فمال له أحدهم: "لا تبتئس يا صديقي فثمة ما هو أدهى!" فقال له المحكوم بالإعدام: "وهل ثمة ما هو أدهى من هذا؟" أجابه الآخر: «نعم، ممكن.. إنهم يقتادونك إلى حبل المشنقة. فقد أجلسوا الذي قبلك على خازوق». نعم ثمة ما هو أدهى.

-إن ذلك صحيح.. وعلينا أن نحمد الله عليه.

-الحمد لله.

- إن أوّل كل شيء هو الصحة يا صديقي.. ألست في صحة جيدة؟ هذا هو المهم..

اضطر يشار يشامز إلى شرح وضعه لهم.

-لا يا أخي، إن الأمر ليس كذلك.. إن مشكلتي لا تشبه مشكلاتكم..

-وكيف هي مشكلتك؟

- أنتم تعيشون إلى هذا الحد أو ذاك، بصورة جيّدة أو سيئة.. أنا لا أعيش أبداً، أنا

(*) يشار: يعيش أو حي

يشامز: لا يعيش او ميّت

غير موجود إطلاقاً..

نظر المتحلقون حول يشار بعضهم إلى بعض وتضاحكوا. عدد منهم غمز بعيونه بطريقة ذات مغزى..

- هل تعني أنك لست الآن على قيد الحياة؟

- لا أعرف كيف أشرح لكم.. أنتم ترونني الآن أمامكم حياً، أليس كذلك؟

- إيه؟

- لا تنخدعوا بالمظاهر، ففي الحقيقة أنا غير موجود

همس أحدهم في أذن جاره:

-هذا الرجل مُصيِّف.. إنه يهذي..

-مؤجر الطابق الأعلى..

-إذن فأنت غير موجود الآن هنا؟

-غير موجود، نعم. أعني أنني أعتبر غير موجود..

رفع واحد صوته وقال بصوت يمكن ليشار أن يسمعه:

-هذا الرجل أضاع عنزاته(*).

اتَّجه أحد السجناء بكلامه إلى باحاتي المهجع، وقال له هامساً:

-ينبغي إعلام النص نصيص حتى ينقلوا هذا الرجل إلى العصفورية..

قال يشار:

-إذا حكيت لكم ستدركون بأنني لا أحيا.

-احك لنر..

-عرفتُ لأول مرة أنني لا أعيش في الثانية عشرة من عمري.

-كيف عرفت؟

- حتى ذلك الوقت لم تكن في بلدتنا مدرسة حكومية. كان ثمة فقط مدرسة داوود خوجا الذي يُعلم التركية القديمة. في السنة التالية لظهور الكتابة الحديثة فتحوا عندنا

(*) أي فقد عقله

مدرسة حكومية. بدا وجهاء البلدة يدخلون أولادهم المدرسة الحكومية. كان المرحوم أبي من الوجهاء أيضاً، وقد أراد تسجيلي في تلك المدرسة. امسكني من يدي واصطحبني إليها. وقفنا أمام المدير..

ثمانية من المحكومين القدامى أحاطوا بيشار، في حين أصغى الآخرون من بعيد إلى ما يحكيه. لم يكن ما يحكيه هذا الصعلوك الأبله المدعو يشار يشامز هاماً، لكن طريقته في السرد كانت لافتة. كان قادراً على إثارة اهتمام وفضول المستمعين، أحد المحكومين أدرك ذلك فقال:

- كم يتحدث بطريقة حلوة!

تابع يشار يشامز كلامه كما لو أنه لم يسمع هذا الإطراء:

- كان المدير من البلدة نفسها وبينه وبين أبي معرفة. تبادلا التحية. قال له أبي: "جئتك بابني يا سيدي المدير لأسجله في مدرستك الحكومية". فرد عليه المدير: "حسناً فعلت.. لقد أصبح فتىً كبيراً.. حتى أنك تأخرت. هات بطاقتك الشخصية".. عند هذا الحد ارتبك أبي: "بطاقة شخصية؟ بطاقة شخصية إذن؟ هل يتطلب الأمر بطاقة شخصية؟.. بطاقة.. الله الله!" بمثل هذه الكلمات تمتم أبي متلعثماً. قال المدير بنبرة قاسية: "نعم. بطاقة شخصية.. هات بطاقة الصبي!" تظاهر أبي بأنه لم يفهم، قال: "هل تريد بطاقتي الشخصية؟" وهو يمد يده إلى جيبه. قال المدير: "لا يا عزيزي، أريد بطاقة الصبي" فقال أبي: "ولأية حاجة بطاقة شخصية لطفل في هذا العمر.." رد المدير:" لا يمكنه دخول المدرسة بدون بطاقة شخصية".

قال له أبي: «هكذا إذن؟» بنبرة مبتئسة وتابع: «لقد ضاعت بطاقة الولد. لم أجد فسحةً من الوقت لأحصل على بطاقة جديدة له. بين اليوم وغداً تأخرنا.. لأعطيك بطاقتي بدلاً منها..»

استاء المدير كثيراً وقال: «وكيف ذلك يا عزيزي؟ من الذي سيدخل المدرسة أنت أم ابنك؟ لا يجوز!»

كان أبي يجيد المساومات في عمليات البيع والشراء، وقد تعامل مع هذا الموضوع بمنطق المساومة فقال: «ولِمَ لا يجوز يا سيدي المدير؟ أليس كل ما أملك لابني في نهاية المطاف؟ كيف يصبح حقلي ومنكوشي لابني ولا تصبح له بطاقتي؟»

عاد المدير يكرر «لا يجوز» فشددتُ أبي من طرف سترته وقلت له: «لدينا في الحارة مدرسة داوود خوجا..» فقال أبي:

«صحيح.. ولا أحد يطلب بطاقة شخصية في مدرسة داوود خوجا»

قال المدير: «لكنها ضرورية في المدرسة الحكومية..»

فسأله أبي: «إذن، ماذا سنفعل؟»

أجابه المدير: «بسيطة يا عزيزي.. ليس في الأمر أيَّة صعوبة»

سأله أبي: «قل لي ما الحل؟»

«اكتب عريضة.. اذهب إلى جامع قورشنلي.. ستجد كاتب عرائض عند باب الجامع المطل على مقر القائم مقام. استكتبه عريضة، ثم خذها وقدمها إلى دائرة النفوس»

أمسكني أبي مجدداً من يدي واصطحبني إلى كاتب العرائض الذي أصغى إلى أبي ثم انحنى فوق الآلة الكاتبة وكتبَ العريضة، طق طَقْ.. طَقْ طَقْ.. ثم امسك إبهام أبي وضغط بها فوق قماشة الحبر، ثم نفخ فوق إبهام أبي المصطبغ بالحبر وضغطها في أسفل ورقة العريضة.

أخذنا العريضة وذهبنا مباشرة إلى دائرة النفوس. وإذ بها مزدحمة بالناس كأنه يوم القيامة. تمتم أبي: «طالما أن الأمر بهذه السهولة لماذا إذن لم نستصدر لك بطاقة شخصية حتى الآن؟!» وراح يظهر العريضة لمن يصادفه في طريقه مستفسراً عمن يتوجب علينا أن نقصده. وصلنا إلى الموظف الذي سيهتم بأمرنا. بالرغم من مرور كل هذه السنوات ما زال ذلك الموظف حاضراً في ذهني وكأنني أراه أمامي. فأنا لم أرَ رجلاً مثله قط. إن كنت قلتُ رجلاً، فأنا أعني قشرة رجل. فهو نحيل وجاف إلى درجة لم تبق منه سوى القشرة إنه رجل كالقشرة. تعرفون الفسفس الذي يجوع شتاءً فلا يبقى منه سوى قشرته.. هذه هي حال ذلك الموظف.. انتظرنا فترة طويلة أمام تلك القشرة، لكنني لم اشعر بمرور الوقت لأنني كنتُ أنظر إليه طوال الوقت بفضول. سألت أبي هامساً عما إذا كان هذا الرجل قد أُفرغَ من محتواه، أجابني قائلاً: «إنه لم يجد مكانه المناسب يا بني». بعد وقت طويل سألنا الرجل الشبيه بالقشرة عما نريد بصوتٍ من شأنه أن يصدر فقط من جَمَلْ.

«لدينا عريضة يا سيدي.. تفضَّل.. نريد استصدار بطاقة شخصية للولد» امسك

الموظف بالعريضة ونظر إليها مطولاً وهو يقربها من عينيه ويبعدها عنهما كمن يحاول التعرف على الوجوه في صورة قديمة باهتة. ثم راح يصدر همهمات مطولة، وأخيراً سأل أبي: «حسناً، أين هي بطاقتك الشخصية؟» «ها هي.. تفضَّل يا سيدي» قال أبي ذلك وأعطاه بطاقته. نظر إليها الموظف ثم همهم بضع همهمات أخرى ورفع الستارة السوداء وراءه. كان ثمة دفاتر كبيرة جداً بأغلفة سوداء، فوق الرفوف الخشبية، بدا الرجل القشرة ينزل تلك الدفاتر السميكة عن الرفوف ثم يعيدها إلى أماكنها. ولأن كلاً من تلك الدفاتر كان أسمك من الموظف وأكبر، كان هذا يترنح تحت ثقلها كلما حمل واحداً فوق كتفه، ويكاد يقع على الأرض. ثم.. لا أعرف كيف حدث الأمر ترى هل فقد الرجل رشده أم ماذا؟. فقد بدأ يتشاجر مع تلك الدفاتر السوداء الضخمة.. ليس واضحاً إن كان الأمر قتالاً أم مصارعة.. فقد راح الرجل القشرة يُصارع الدفاتر. وكلما أنزل دفتراً من الرف ثم أعاده إليه، كان المسكين يصدر صوت "هه" لو سمعتموه لظننتم بأنه يلفظ نفسه الأخير. مشهد يُقطع القلوب.. غرق الرجل في العرق. لم يعد قلبي يحتمل فسألت أبي: «ما هي مشكلة هذا الرجل يا أبي حتى يتورط هكذا مع الدفاتر؟ هل نهرع لنجدته؟ فليس بإمكان رجل بمفرده التغلُّب على كل هذه الدفاتر.. » أجابني أبي: «إنه يبحث عن قيدنا في السجلات.. كيف نسارع إلى نجدته ونحن لا نجيد القراءة والكتابة..» بعد فترة من القتال على مبدأ السن بالسن والعين بالعين، حمل ثلاثة من تلك الدفاتر بصعوبة ونقلها إلى طاولته، ثم بدأ يقلب صفحات أحدها. كلما فتح صفحة وقلبها إلى الجهة الأخرى كانت ترتفع سحابة غبار وتنتشر في جو الغرفة، بحيث أصبح المكان كما لو أن قنبلة دخانية ألقيت فيه، الغبار المنتشر من الدفتر كاد يخنقنا. وكنت أرى من خلال سحابة الغبار سبابة الموظف وهي تنزلق فوق صفحة الدفتر من الأعلى إلى الأسفل. فجأة توقفت سبابته في نقطة معينة، وسأل أبي قائلاً: «هه لقد وجدناه أخيراً والحمد لله.. هل اسمك هو رشيد؟» فأجابه أبي: «نعم، كما تقول. اسمي رشيد..»

«تاريخ ميلادك ١٨٩٧؟»

«نعم، هذا أيضاً صحيح»

«حارة دَيرْمَنْ تَبَة، شارع طاووس باغي، رقم الخانة: القديم ٥١ والجديد ٢٨.. تزوجت من هاجر عام ١٩١١»

«قد عرفت جيداً»

«ولد لك صبي اسمه يشار، صحيح؟»

«نعم، هذا صحيح.. ذلك أن من سبقوه في الولادة قد ماتوا، فسميناه يشار حتى يعيش. قد وهبه الله عمراً، فعاش يشارنا»

أدهشني هذا الرجل الشبيه بالقشرة بمعرفته لكل شيء، فسألت أبي هامساً وأنا أشدُّ طرف سترته: «هذا الرجل يعرف كل شيء يا أبي ٠ فمن أين له ذلك؟»

«اسكت يا بني. كيف لا يعرف وهو موظف كبير من موظفي الدولة. إن كل شيء مدوَّن في السجل.. هو يعرف حتى ما هو موجود داخل بطن المرء»

الرجل الشبيه بالقشرة نظر إلى أبي من فوق نظارتيه وسأله: «نعم؟»

قال له أبي: «هذا هو الأمر: سوف نستصدر بطاقة شخصية لابني يشار المسجل في الدفتر الموجود أمامك.. فهي ضرورية من اجل دخوله المدرسة.. »

نظر الموظف نظرة فوقية للغاية وقال: «انظر إليَّ يا آغا!»

«تفضل يا سيدي!»

«لمن تريد البطاقة الشخصية؟»

«لهذا! لابني يشار»

جقجق الرجل وهو يهزُّ رأسه يميناً ويساراً وراح يردد متعجباً: «الله الله!.. الله الله!..»

فسأله أبي: «ما هو الأمر؟.. لماذا الله الله؟»

«وهل يمكن استصدار بطاقة شخصية لميت؟ أين حدث مثل هذا الأمر؟ ابنك قد مات..»

حينما سمعت هذا الكلام بدأت أبكي..

قال أبي: «أيُّ كلامٍ هذا يا سيدي؟ ها هو ابني.. إنه هنا معي.»

كنت أبكي وأصرخ: «أنا متُّ يا أبي.. يقول بأنني متُّ»

«اسكت يا بني. وما أدراه بأنك مُتَّ؟»

«ألم تقل لي إنه يعرف كلَّ شيء.. موظف كبير من موظفي الدولة.. وكيف لا يعرف؟»

أبكي ودموعي تسيل مثل ماء صنبور.

هزّ يدي التي يمسك بها بعنف ونهرني قائلاً: «صه! وإلا ضربتك!» لم أتمكن من تمالك نفسي بالرغم من إنذاره، تابعتُ البكاء.

قال الموظف: «اسمع! سوف أقرأ عليك مجدداً المعلومات المسجلة هنا. اسمك رشيد؟»

«نعم، رشيد»

«واسم أبيك محمد؟»

«نعم، محمد»

«ولدتَ عام ١٨٩٧ وتزوجت من هاجر في عام ١٩١١»

«هذا أيضاً صحيح..»

« ولد لك ابن باسم يشار..»

«صحيح.. كل ذلك صحيح..»

انفجر الموظف فجأة وصرخ قائلاً: «حسناً، إذا كان هذا الدفتر يسجل كل شيء بصورة صحيحة، فهل يخطئ فقط حينما يتعلّق الأمر بوفاة يشار!»

لقد أرخيت لنفسي العنان ورحتُ أجهش في البكاء وأصرخ: «بابا!!!! انا ميِّت...»

«اسكت يا ابني اسكت! لا تدعني أنشغل بك أيضاً..» وهل السكوت في يدي! أيُّ شخص في مكاني سيبكي مثلي.

«ما يلائم مصلحتك صحيح، ومالا يلائمها خاطئ، أليس كذلك؟»

«وما علاقة هذا بمصلحتي يا سيدي الموظف؟ احتجنا إلى بطاقة شخصية حتى نسجل الولد في المدرسة الحكومية.. هذا هو الأمر..»

ضرب الموظَّف الدفتر بقبضته مثيراً سحابة غبار أخرى وصرخ: «ها هو القيد هنا! ابنك ميت في السجل. ليس بوسعنا أن نعطي الميت بطاقة شخصية!»

وأنا أبكي وأقول لأبي: «أنا ميِّت يا أبي. لماذا لم تخبروني؟»

«صه يا بنيَّ صه! لا يموت المرء بمجرد أن ذلك مكتوب في الدفتر صه!»

«كيف يموت المرء إذن؟ إنه موظف اضرب واطرح.. وهو يقول بأنني قد مُتُّ..»

«ليقل ذلك.. اهتم أنتَ بما أقوله أنا! هل تصدق الغريب وتكذِّب أباك؟»

قال الموظف: «الدفتر لا يكذب! إن الأمر هو كما هو مكتوب هنا. أم أن لكم رأياً آخر؟»

«أي رأي لنا..»

«وما أدراني! أنتم الضباط منتعلي الشحاطات، لكم آراءكم وحساباتكم. ما أدراني؟ يمكن أن تتفقوا مع المختار فتظهرون الميت حياً والحي ميتاً. لكم عندكم من حساباااااات!»

«سيدي الموظف، بما أنَّ دفترك يُسجل كل شيء بصورة صحيحة، انظر إليه إذن وأخبرني متى مات ابني؟»

عندما سمعتُ أبي يكرر بدوره بأنني متُّ، صدَّقت الأمر تماماً بعقلي الطفلي وعدت إلى البكاء وأنا أقول له: «ها أنت تقولها بنفسك..»

«قلت ذلك من باب الكلام دونما قصد، صه!»

«لنر» قال الموظف وقلَّب صفحات الدفتر مجدداً «أفندم.. ها هو! جُنِّدَ في الجيش إبّان الحرب العالمية الأولى»

«من!؟» هتف أبي واندفعت عيناه خارج محجريهما.

«ابنك بشار..»

«إيه.. وماذا حدث بعد ذلك؟»

«سقط شهيداً في معركة جَنَقْ قلعة في عام ١٩١٥»

«وبعد ذلك؟»

«لا شيء.. وما الذي سيحدث! لقد شطب قيده وأسقط من سجلات النفوس وفقاً للقانون العسكري رقم ثلاث مئة وأحد عشر على خمسة وثمانين»

انفجر أبي بدوره: «يا أفندي! انظر إلى دفترك ذاك وأخبرني: هل تزوجت من هاجر في عام ١٩١١؟»

«نعم، هذا هو المكتوب في الدفتر»

«يا هووو! لو أن ابني ولد في اليوم نفسه الذي تزوجت فيه، سيكون في الرابعة من عمره في عام ١٩١٥. متى كبر الطفل الذي عمره أربع سنوات، ومتى التحق بالجيش حتى

يستشهد في عام ١٩١٥؟»

في الوقت الذي كنا نجادل فيه الموظف، كان ثمة آخرون قد تجمعوا وراءنا وقد نفذ صبرهم. لكنهم عندما سمعوا كلام أبي الأخير لم يتمالكوا أنفسهم عن الضحك. استاءَ الموظف من ضحكاتهم وقال: «هذا ليس من شأني! ها هو الدفتر أمامكم! إذا كنتَ لا تصدق فانظر بنفسك!»

والآن بدأ أبي يستعطفه: «أرجوك يا سيدي، هذا مستحيل.. لتنظر مرة أخرى إلى الدفتر، روحي فداك..»

قال الموظف كمن تذكَّر شيئاً: «هه! الآن فهمت»

أشرق وجه أبي وقال: «طبعاً ستفهم يا روحي..»

«صحيح.. لقد أخطأنا»

«لا بأس في ذلك. وقديماً قيل إن الحساب الخاطئ يعود أدراجه حتى من بغداد.. ليتضح الخطأ ولا شيء يهم بعد ذلك»

«نعم، اتضح الخطأ.»

«قل أرجوك، ما الذي اتضح؟»

«إن ابنك بشار قد ولد في عام ١٨٩٦. كان في التاسعة عشر من عمره إذن عندما استشهد في عام ١٩١٥»

جحظت عينا أبي وصرخ: ماذا؟! هل ولد ابني في عام ١٨٩٦؟ لا حول ولا قوة! وأنا متى ولدتُ، انظر مرة أخرى أبوس عينك»

«ولدت في عام ١٨٩٧»

«لا تفعلها أرجوك يا أفندي! هل ولدتُ بعد سنة من ولادة ابني؟»

ثم التفت إلى الطابور المتشكل وراءنا وسألهم قائلاً: «أيها الناس! هل بينكم أبٌ ولد بعد ولادة ابنه بعام؟»

ارتفعت ضحكات الجميع. وفي حين كانوا يستعجلون وصول الدور إليهم، فقد ثار فضولهم لمعرفة إلى أين سينتهي موضوعنا، فراحوا يتابعون الحديث وكلهم آذان صاغية. وكانوا يضحكون ويتحدثون فيما بينهم:

«يا لها من قصَّة!»

«ليس ثمة ما يشبه هذا!»

«لا أحد رأى ما يشبه هذا ولا أحد سمع..»

«إذا حكيتها لأحد فلن يصدقك.»

«يا للفضيحة..»

«لنرَ ما سيحدث..»

«أتوق إلى معرفة ما ستنتهي الأمور إليه..»

استسلم الموظَّف أمام الضحكات. قال متشكياً: «ذلك ما يظهره الدفتر، فماذا أفعل؟»

«وما الذي سيحدث بناءً على أن الدفتر يقول ذلك؟»

أكدَّ الموظف على كلامه ثانية: «أنا الكاذب والدفتر هو الصادق!»

بعض الواقفين في الطابور كان يؤيد رأي الموظف:

«وما الذي في وسع الموظف المسكين فعله؟»

«صحيح، وما ذنبه هو؟»

«لم يتمكن الموظف من حلّ المشكلة..»

«ولكن: ما رأوه بالعين، لكنهم عرفوه بالعقل. فلا يعقل أن يولد الأب بعد ابنه..»

عندما تلقى أبي مساندة من الحشد، سأل ثانية: «هل بينكم من ولد قبل أبيه؟»

بتَّ الموظف بعصبية: «لا تواصل التدخل في آباء الناس! لا نستطيع إعطاء ميت بطاقة شخصية. هذا كل شيء!»

فقال أبي: «سأذهب إذن لأرفع شكوى إلى السيد المدير.»

«اذهب حيثما تشاء. وبلغه تحياتي!»

صعد أبي الدرج وهو يشدني من يدي ويجرني وراءه، ويقول لي: «صه يا ابني لا تبك! كُفَّ عن البكاء! الرجل لا يعرف إذا كان هو نفسه حياً أم ميتاً، فكيف له أن يعرف بأنك حيّ؟»

نقر أبي على باب المدير ودخلنا. حكى أبي ما جرى، فاستدعى المدير ذلك الموظف.

جاء الرجل القشرة متنكباً الدفتر السميك. سأله المدير: «ما هي شكوى هذا الرجل؟ ما الموضوع؟ يقول إنه يطلب بطاقة شخصية لابنه. أليس له قيد في السجلات؟»

«له قيد سيدي المدير» فتح الدفتر وأطلعه: «ها هو! إني أشرح له وأشرح، لكنه لا يفهم.. إنه مصر على طلب بطاقة شخصية لميت».

«لميت؟ كيف ذلك؟ هاتِ هذا الدفتر، لأنظر أنا أيضاً»

«تفضل! ها هنا! الأب رشيد ابن محمد.. ابنه يشار استشهد عام ١٩١٥ في جنق قلعه وأزيل قيده من السجلات. إنه مكتوب هنا يا سيدي»

والآن جاء دور المدير الذي جئنا نشتكي إليه، ليقول لأبي: «وإذن؟ ما الذي تريده؟ ابنك ميت كما ترى..»

عندما اتفقا معاً في القول بأنني ميت، وهما يستشهدان فوق ذلك بالدفتر، صدقت تماماً بأنني متُّ وعدتُ إلى البكاء. راح أبي يعزيني قائلاً: «اسكت يا ابني، دعك منهما! والله بالله أنت لم تمت..»

ثم توجه إلى المدير قائلاً: «سيدي المدير، ثمة خطأ في دفتركم هذا. لقد تزوجت في عام ١٩١١. كيف لابني أن يلتحق بالجيش بعد أربع سنوات ويستشهد؟»

قال المدير وهو يحكُّ رأسه الصلعاء: «ما تقوله صحيح..» وراح يفكر وهو يقضم ممسك القلم الرصاص بأسنانه ثم انتهى إلى القول: «لا بد أن الأمر هو على النحو التالي..»

قال أبي متعلقاً بأذيال الأمل: «أرجوك يا سيدي المدير اشرح لي. أنا في عرضك!»

«عندما تزوجت، كانت زوجتك أكبر منك.»

انفتح فم أبي، وتابع المدير:

«أنتَ تزوجت امرأة مطلقة»

«إيه؟»

«تلك المرأة لديها ولد من زوجها السابق اسمه يشار، إنه ابن زوجتك..»

لم أحتمل المزيد، شددتُ يد أبي وبدأت أصرخ: «باباااا.. هيا نذهب. أنا لا أريد بطاقة شخصية.. ولا أريد مدرسة.. هيا بنا يا أبي!»

تابع المدير: «ابن زوجتك يشار يكبرك بعام واحد، لكنك تظهر في السجلات باعتبارك أباه.»

قال لي أبي: «صه يا ابني، صه يا عجلي[*].. اسكت وإلا ضربتك. ترى ابن من أنت؟ من الذي يعرف: الدفتر أم أنا؟»

شعر المدير بالراحة بعد أن شرح فكرته، وقال: «لا يمكن للأمر أن يكون إلا على هذه الصورة.»

وافقهُ الموظَّف: «لقد وجدتم المفتاح سيدي المدير، لا بد أن الأمر هو كما قلتم..»

اعترض أبي مجدداً: «إذن اتفقتما على إرغامنا على التوافق مع دفتركم. حسناً، كم هو عمر زوجتي هاجر حتى تمكنت من إنجاز كل تلك الأمور؟»

الموظف: «لننظر إلى قيدها. كل شيء مسجل في هذا الدفتر. إنه لا يخطئ أبداً» ثم نظر إلى الدفتر وقرأ: «هاجر ابنة بكر. تاريخ الميلاد ١٩٠٤»

صرخ أبي: «إذن ولدت زوجتي وفقاً لدفتركم هذا في عام ١٩٠٤، وأنجبت يشار في عام ١٨٩٦ أي قبل ميلادها بثمان سنوات، أليس كذلك؟ أرجوكم كفّوا عن هذا، أنا في عرضكم. هل رأيتم أو سمعتم بمن ولد قبل ميلاد أمه بثمان سنوات؟»

فقال المدير: «والله إنه أمر معقد بعض الشيء..»

«إذن فقد ولد ابني يشار هذا قبل أمه بثمان سنوات وقبل أبيه بسنة واحدة!»

أشعل المدير سيجارة وقال: «ثمة خطأ ما، ولكن أين؟»

قال الموظف: «لا يمكن أن يوجد خطأ في الدفتر!»

سألت أبي: «هل الخطأ فيك أنت يا أبي»

«اسكت يا ابني.. اسكت أنت!»

خطرت في بال المدير فكرة جديدة، فقال: «إذا كان لهذا أن يحدث فلا بد أنه حدث كما يلي»

سأله أبي: «أرجوك كيف؟»

---

* ضَنه =dana هو العجل ويقال لابن الزوجة أو ابن الزوج.

«إن هاجر تكون قد تزوجت رجلاً آخر قبلك.»

«يا ويلي!»

«ذلك الزوج السابق له ابن من زوجة تزوجها قبل هاجر، اسمه يشار»

«الله الله! لا تفعلها سيدي المدير!»

«مات زوج هاجر الأول، وقد كان ابنه يشار أكبر منها - من زوجة أبيه - بثمان سنوات. بالطبع لن تلقي هاجر بابن زوجها المتوفي في الشارع، بل تبقيه معها.. ثم تزوجت من رشيد»

«مني أنا. أليس كذلك؟»

«وبهذه الطريقة يكون يشار أكبر من زوجة أبيه بثمان سنوات وأكبر منك بسنة واحدة»

«لا حول ولا قوة.. ها هو عمري سنة واحدة.. صَهْ يا ابني! لا تبك وتولول فأفقد عقلي تماماً! صه! لا يجوز أن تبكي حيث يتوجب الضحك».

قال الموظف للمدير: «لقد وجدتم حلاً جيداً لهذه العقدة المتشابكة. لا يمكن للأمر إلا أن يكون على النحو الذي شرحتموه».

قال أبي: «أيَّ حساب هذا. لم أفهم منه شيئاً. فوفقاً لدفتركم تزوجت زوجتي مني وهي في السابعة من عمرها، كما أنها تزوجت رجلاً آخر قبلي».

«حسناً، كيف يمكن أن يكون الأمر بطريقة أخرى؟ أخبرنا إذا كنت تعرف!»

صرخ أبي في وجهي وهو يصفعني: «اسكت ولاك! لا تذهب إلى المدرسة الحكومية!» فثبتُ عندئذٍ إلى رشدي وسكتُّ.

نقَّل يشار يشامز نظراته بين وجوه السجناء المحيطين به. كانوا يستمعون إليه في منتهى الانتباه. كان المهجع غارقاً في صمت كامل.

- نعم هكذا أيها الأغوات.. كنتُ بعد في الثانية عشرة من عمري عندما أدركت بأنني لا أعيش..

السجين الواقف بجانبه تأثر فعلاً، فقال:

- واخ واخ!

لصٌّ عجوز لم تستوعب إضبارات مديرية الأمن سجلات سوابقه، قال:

- يشار يا ابني، كان عليك أن تقابل السيد "نظامي قره قبلي" الذي كان من شأنه أن يحل مشكلتك بصورة فورية.. تفو.. خسارة.. إذن أنت لا تملك بطاقة شخصية؟

- لا يا عم.

- ولم تحصل عليها في وقت لاحق؟

- بذلت جهوداً كثيرة، لكنها لم تنفع. لم أتمكن من الحصول عليها بالرغم من كل ما فعلت. أحياناً يمسكون بعنقي ويقولون لي بأني حيّ. أما إذا احتجتُ لأمر ما فإنهم يقولون بأنني لا أعيش، وأنني استشهدت. أنا أيضاً لم أعرف هل أعيش أم لا؟

- وكيف لا تبحث عن نظامي قره قبلي.. إنه مثل خضر والله.. يمدُّ يد العون لكل من يقع في ضائقة.

سمع صوت صفارة السجان، كان "النص نصيص" يصرخ:

- تفقّد.. تفقّدْا الجميع إلى الداخل، إلى الداخل..

- ها هو قادم النص نصيص عديم الشرف.. قال أحد اللصوص الشباب.

-٤-

شهيد وهارب من الجيش في الوقت نفسه

السرير الذي شغر في المهجع الأول من الجناح الثاني بعد انتقال الراوية، استولى عليه واحدٌ من قدامى نزلاء المهجع لأن موقعه ممتاز، بينما أعطوا يشار سرير هذا الأخير الواقع عند الباب. كلما فُتح الباب كان برد الممر القارس يندفع داخل المهجع لاعقاً يشار يشامز في طريقه.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها يشار يشامز السجن. لم يأمل أبداً بأنه سيلقى هذا الاستقبال الجيد. كان خائفاً لأن الجميع قد عامله بقسوة حتى لحظة دخوله المهجع. نزلاء المهجع سخروا منه في البداية لأنه لا يملك فراشاً ولا حقيبة ولا أية أغراض، ثم تعاطفوا معه بعد أن سمعوا قصته وسرعان ما تآلفوا معه. كانوا يسألونه كل حين وحين لماذا لم يطلب العون من السيد نظامي قره قبلي. وكانوا يتلفظون باسمه بطريقة دفعت يشار إلى الاعتقاد بأن على جميع الناس أن يعرفوا السيّد نظامي قره قبلي كائناً من كان هذا الشخص. من المعيب ألا يعرف المرء السيد نظامي قره قبلي. إذن فهو الوحيد الذي لا يعرفه. وحتى لا يفتضح جهله الكبير هذا كان يمتنع عن الاستفسار والتنقيب عمن يكونه هذا النظامي قره قبلي. لعله رجل دولة كبير أو لعله ثري من فاعلي الخير.

كانت غالبية نزلاء المهجع الأول لصوصاً من أصحاب السوابق. لقد أشفقوا على يشار كثيراً، فلم تطاوعهم قلوبهم في تركه ينام على خشب السرير القاسي في هذا البرد الشتائي، فأعطاه البعض ما زاد عنه من أسمال وخرق، والبعض كيس خيش، والبعض قطعة لبّاد عتيقة، بحيث أمّنوا له فراشاً مصطنعاً وشيئاً يلتحف به.

لقد وصل يشار إلى السجن ومعه كيس مصنوع من بقايا معطف عتيق، ولا شيء آخر.

وكان داخل هذا الكيس آلة ساز[*]. كان يخشى أن يسخروا منه قائلين: «أيها الصعلوك. ألم تجد شيئاً تأتي به معك إلا هذه الصرعة!» فلم يتجرأ على إخراج سازه من الكيس.

كان اللصوص المسنُّون من وجهاء المهجع الأول قد أُعجبوا كثيراً بطريقة يشار يشامز في سرد الأحداث التي جرت معه. ويقولون بأنه من الممكن أن يَسُدَّ الفراغ الذي تركه الراوية بعد طرده من المهجع. كان الراوية لا يستطيع أن يحكي إلا بعد أن يتعاطى الهيروئين ويتمدَّد على سريره. أما يشار يشامز فقد كان يتوسَّط الجميع فيرون وجهه فضلاً عن أنه يحكي بطريقة أحلى من طريقة الراوية. يضاف إلى ذلك أن ما يحكيه لا يستند إلى أحداث ملفقة، بل أموراً جرت معه في حياته الحقيقية.

اقترب "النص نصيص" وهو يطلق صفارته ويصرخ:

-إلى الداخل.. إلى الداخل!

أحد المحكومين تنهد تنهيدةً من القوة ما جعل آخرين يتجاوبون معه:

- آه من هذه المساءات.. أووف أووف!

- إن أصعب ما في السجن هو مساءاته.. أما ما تبقى فلا يُذكر..

مدَّ النص نصيص رأسه من باب المهجع وصرخ:

- هيه يا باحاتي[**]

- مُرني سيدي.

- مهجعكم تمام؟

- تمام سيدي، ثمانية وأربعين شخصاً.

عدَّ النص نصيص السجناء الذين اصطفوا في نسق، وقال عبارته المعتادة التي يكررها بعد كل تفقد:

-بخلاصكم إن شاء الله!

ردَّ المحكومون بصوت واحد ولكن بلا حماس:

---

[*] آلة موسيقية شبيهة بالبزق

[**] الباحاتي: سجين يقوم بأعمال الخدمة من تنظيفات وتوزيع طعام وما إلى ذلك مقابل بعض الامتيازات من إدارة السجن.

-تسلم!

ابتعد وقع خطوات النص نصيص في الممر. قال أحد المحكومين لزميل له:

-إنه يقول "بخلاصكم إن شاء الله" بطريقة أقرب إلى 'لعنة الله عليكم!

-وأنا أقول له "تسلم" وكأنني أسب أمّهُ. وماذا في ذلك..

سُمِعَ صرير الباب الحديدي وضجيج الرتاج الحديدي، وطقطقة سلسلة الباب والصوت البارد للمزلاج الحديدي.

-يشار يشامز، يا يشار يشامز يا صديقي..

رد يشار يشامز المستلقي على سريره، على الصوت الذي لم يعرف صاحبه:

-تفضّل يا أخي!

وجهاء المهجع الأول دعوا يشار يشامز إلى مشاركتهم العشاء. وبعد انتهائهم من العشاء قال أكبرهم سناً:

– أيها الأوجقجي(*)، هاتِ لنا ست كؤوس من الشاي المخمَّر يا بني.. بلون دم الأرانب.. وفي الكؤوس ذوات الخصور الأنثوية..

-لنشرب الشاي ونتسامر..

– يا يشار يشامز، إن الأيام والليالي لا تمضي هنا إلا بالكلام. هيا يا سبعي احكِ ما جرى لك. ماذا حدث بعد ذلك؟

-أحكي يا أخوتي. أين وصلنا؟

– لم تتمكن من الحصول على بطاقة شخصية لأنك ظهرتَ في سجلات النفوس على أنك شهيد. وبعد ذلك؟

– نعم، لم أحصل على البطاقة. فقد جعلوني شهيداً في الدفتر قبل أن أولد. وهكذا لم أتمكن من الذهاب إلى المدرسة. لقد أنجبت أمي خمسة أطفال قبلي، ماتوا جميعاً. وكان ذلك يؤلم المرحوم أبي كثيراً فيقول: «لقد سمَّينا ابننا الوحيد يشار حتى يعيش. وقد عاش والحمد لله، لكن الحكومة لا تعترف رسمياً بأنه يعيش». واظبت لفترة على مدرسة داوود خوجا التي تعلِّم التركية القديمة، لكن عقلي بقي في المدرسة الحكومية. فقد كانت

(*) الأوجقجي سجين يعد الشاي والقهوة للسجناء مقابل أجرة.

آنشَة تدرس في المدرسة الحكومية. كنتُ أهرب من مدرستي وأذهب إلى المدرسة الحكومية لأتفرج من بعيد على الأطفال وهم يلعبون في باحتها. منهم من هو في عمري ومنهم أصدقاء لي.. حدث في أحد الأيام أن كنتُ مستغرقاً كالعادة في مراقبة التلاميذ، مسنداً رأسي إلى قضبان الباب الحديدية، شارداً عما حولي.

- «لمَ لم تأتي إلى المدرسة يا يشار؟»

أجفلني الصوت القريب، فالتفتُّ لأرى آنشة، لقد ضبطتني في حال سيئة.

«لكنني لستُ حياً يا آنشة..»

ضحكت آنشة. تفتحت الورود في وجهها.

«ما معنى ذلك يا يشار؟»

«معناه أن الحكومة لا تعتبرني حياً. مسجَّل في دفتر الحكومة أنني استشهدت في الحرب قبل أن أولد. لذلك فهم لا يعطونني بطاقة شخصية. ولم يسجلوني في المدرسة لأنني لا أملك بطاقة شخصية».

اتسعت عينا آنشة وظلَّت تنظر إليَّ. حركت شفتيها لتقول شيئاً، لكن جرس الدرس رنَّ فأنقذها من الموقف الصعب. ركضت لتنضم إلى زملائها، ثم دخلوا.

سأل محكوم مُسِنّ:

-من هي الفتاة التي تدعوها آنشة؟

- في منطقتنا ثمة عرف يدعى خطوبة المهد. حيث أنهم يتعاهدون على تزويج الطفل والطفلة وهما ما يزالان في المهد. فهما خطيبان منذ تلك اللحظة. ولدت آنشة وأنا في الثالثة من عمري، فرسمونا خطيبين. أهل آنشة هم أقرباؤنا وجيراننا في الوقت نفسه. لهذا فقد حزنت آنشة كثيراً عندما عرفت بأنني غير قادر على التسجيل في المدرسة لأنني لا أملك بطاقة شخصية.

لم ترق لي مدرسة داوود خوجا، فتركتها، وبدأتُ أساعد أبي في أعمال الزراعة. مرَّت السنوات ودخلت عداد المراهقين. بدأ أبناء جيلي يلتحقون بالجيش ولا أحد يستدعيني إلى الخدمة. وكيف يستدعون شخصاً استشهد؟ كلما التحق من هم في عمري بالخدمة العسكرية وبقيتُ في البيت بكيتُ دماً وجفَّت عروقي. حتى أن بعضاً من مجايليَّ قد أنهوا خدمتهم وعادوا. من خجلي ما عدتُ أجلس في مقهى أو أذهب إلى السوق أو أظهر أمام الناس. ومن جهة أخرى كانت آنشة تضغط عليّ كي نتزوج. الحق معها، فهي

أجمل فتيات القرية والعمر يمضي، وكثيرون يتقدمون لخطبتها. جميع شبَّان البلدة الأثرياء يلاحقون آنشة. لقد وضعوا مهر آنشة أمام أبيها. راح أبوها وأمها يرسلون من يبلِّغ أبي: «إذا كنتَ تريد آنشة لابنك فخذها، وإلا فلا تقف في طريقها!»

لو أن الأمر كان متوقفاً علي لتزوجت فوراً. لكن أبي يقول: «لا تستطيع أن تتزوج وأنت لم تؤدِّ خدمتك العسكرية» وأنا وآنشة نلتهب حباً. لكنني أصبحت لا أجرؤ على النظر في وجه آنشة. بدأتُ أتهرَّب منها.

ذات يوم كنتُ في طريقي إلى الكرم في الصباح الباكر، حينما قطعت آنشة عليَّ الطريق وسألتني بصراحة: «قد طال هذا الأمر كثيراً يا يشار. لماذا لا ترسل أمك لتطلب يدي؟»

«يقول أبي إن من لم يؤد الخدمة العسكرية لا يستطيع أن يتزوج»

«صحيح ما يقول. لقد انتظرتك طويلاً. أستطيع أن أنتظرك أيضاً حتى تعود من الخدمة العسكرية. لمَ لا تلتحق؟ إذهب بلا إبطاء وانته من هذا الأمر!»

«آه لو أنهم يأخذونني، فقط لو يأخذوني.. الكلام سهل يا آنشة. أتظنين أنني لا أريد الانتهاء من الخدمة لأتزوج بك؟.. تتكلمين وكأنك لا تعرفين هيامي بك.. آه، وهل يأخذونني؟..»

«لمَ لا يأخذونك؟ لقد ذهب جميع مجايليك وعادوا.. أم أن بك عيباً أوْ عذراً؟»

«الحمد لله ليس بي أي عذر أو عطب. كل ما هنالك أنني لا املك بطاقة شخصية. لذلك لا يأخذونني.»

«أمي وأبي يضغطون عليَّ. ليحدث ما يحدث، فقد نفذ صبري. لتعرف هذا!» قالت ذلك وابتعدت.

إن فتاتي آنشة فتاة شهمة ليس بمقدور أي شاب كان أن يسكبَ على يدها الماء. إنها صاحبة موقف وكلمة.. على إثر ذلك ضغطتُ أولاً على أمي، وبعدها على أبي. على كل حال لن يأخذوني إلى العسكرية، دعونا على الأقل لا نخسر آنشة لصالح الغرباء. طلب أبي آنشة من أبيها. كانوا موافقين سلفاً طالما أننا مخطوبين منذ المهد. وفقاً لأعراف منطقتنا جلس أبي وأبوها ليساوما على المهر من باب الشكليات. إن تجاوز هذا الطقس كان سيعرِّضنا لانتقادات الناس. دخلا في المساومة في باحة بيتنا قرب البئر تحت شجرة التين، حيث اجتمع وجهاء البلدة. كان ثمة طاولة في الوسط وقد جلس أبي عند أحد

طرفيها وأبو آنشة عند الطرف الآخر. كل الأقرباء حاضرون. فوق طاولة "الجهاز" الذي اشتريناه من اجل آنشة: ساعة بمنبه، ماكينة خياطة، مرآة مؤطرة، شحاطات مزخرفة، جهاز راديو، وكم وكم من أشياء.. وعلى أغصان شجرة التين عُلقت الأقمشة والسجادات والمناشف المشتراة من اجل آنشة أيضاً.. وفقاً للعرف عندنا يقوم والد الفتاة بالحط من شأن العريس إلى أسفل السافلين، في حين يكيل المديح لابنته ليرفعها إلى السماء السابعة. وبالمقابل فإن والد الشاب ينتقد العروس ويمتدح ابنه. أما الحضور فيضحكون على هذه الثرثرة المازحة. بهذه الطريقة تلتهب المساومة.

بدأ أبي الكلام قائلاً:

«هل ثمة من لا يعرف ابني؟ إذا أردتُ امتداحه فإن الكلام يعجز عن امتداحه.. إن سألت عن شجاعة القلب فهو شجاع، وإن سألتَ عن قوة الذراع، فهو قوي.. قد أحنيت رأسي وطلبتُ ابنتك.. إذا أعطيتنا إياها كانت تاجاً على رأسنا، وبيتنا يحتاج ابنتك. وإذا لم تعطينا إياها فلتكن راضياً هانئاً!»

ضحك أقرباء آنشة ساخرين من كلام أبي. ثم جاء الدور على أبي آنشة: «ابنتي تحوِّل الواحد إلى ألف، لا تسمي القليل قليلاً والعدم عدماً. تجعل العدم كثرة والجوع تخمة..»

استلم أبي الكلام:

«الفتاة تعني الدلال، نعرف، مهما أعطيناها كان قليلاً.. كل هذه الأشياء من أجل ابنتك البلهاء.. قل ما الذي تريده بعد؟»

هذه المرة ضحك أقربائي بسخرية. واستلم أبو آنشة دفة الكلام:

«ابنتي سوف تشذِّب ابنك الصعلوك وتعدِّله.. لنرَ ماذا أعطيتها..»

راح أبي يعد ويُسمِّي، ثم قال: «عشرة آلاف ليرة ورقية..»

«جيد، وزوجتك؟ ما الذي ستعطيه لابنتي؟»

«قطعتي ذهب رشاديّتين وأخرى بيشي بيرلك..»

«لنقل نعم... أريد ثلاثة ثيران أيضاً..»

«قليل على عروسنا، أعطيتها لك..»

«وحقل "أولوق لي"؟»

بدأت مساومة ساخنة. تبادلا الكلام والضحكات والجدال، وانتهوا إلى مصافحة حارة ختما بها المساومة وحددا يوم الزفاف. أعقب ذلك أن شابين من أقربائي اقتربا مني، شابكا ذراعيهما بذراعيَّ وأخرجاني من البيت إلى الباحة، فقبلت يد أبي آنشة بمقتضى العرف.

فيما نحن في قلب تلك الأفراح دخل اثنان من الدرك باحة البيت. صرخ واحد منهما: «يشار ابن رشيد! أين هذا الرجل؟» قفزتُ إلى الأمام وقلت له: «مرني يا أخي! إنه أنا!»

«إنه أنت إذن؟ هيا إلى المخفر بسرعة. لقد أرسل رئيس المخفر في طلبك!»

تركنا الضيوف هناك وأسرعتُ مع أبي إلى مخفر الدرك حيث مثلنا في حضرة رئيس المخفر. قال له أبي:

«قيل إنك طلبتنا أيها القائد. نحن تحت أمرك!»

كان رئيس الدرك على معرفة بأبي، حيَّاه على مضض لسبب ما ثم قال:

«أيُّ عملٍ هذا يا رشيد آغا؟»

«ماذا يا سيدي القائد؟ ما الذي حدث؟»

«وماذا تريد أن يحدث اكثر من هذا، ونحن الذين كنا نعاملك باحترام.. هل تريدنا إذن أن نرغم ابنك على الذهاب إلى العسكرية بالقوة؟»

تدخلت في الحديث فوراً وقلت للقائد: «أرجوك يا سيدي.. ولم بالقوة؟ أنا لا أهرب من العسكرية.. ليتهم يأخذونني حتى أتأكد من أنني حيّ..»

«ما معنى ذلك؟»

شرح له أبي: «معناه هو هذا: إن ابني يشار ميت رسمياً وفقاً لسجلات الحكومة. لقد استشهد في جَنَقْ قلعة وهو في الثالثة من عمره»

صرخ قائد الدرك: «هل ثمة مشكلة في عقلك؟!»

أجابه أبي: «نحن كاذبون عن موظف النفوس، وموظف النفوس كاذب عن دفتر السجلات..»

«ما الذي تقولونه؟ الرجل ينتصب أمامي مثل مِدَقّ المهباج، وتريدون مني أن أصدق بأنه ميّت؟»

أبي: «نعم، هذا ما قلناه بالضبط لموظف دائرة النفوس ثم لمديره. قلنا له ها هو يقف

أمامك مثل مدق المهباج! ولكن ماذا نفعل إذا كان يظهر في السجل شهيداً! لذلك فهم لا يعطونه بطاقة شخصية..»

أضفتُ قائلاً: «وبسبب موضوع البطاقة الشخصية لم أتمكن من الذهاب إلى المدرسة أيضاً..»

«المدرسة شيء والعسكرية شيء.. الخدمة العسكرية واجب وطني. ستذهب إلى العسكرية.. وكيف لا؟ وفي منتهى الحيوية.. لا يجوز التهرُّب من الواجب الوطني!»

«ومن الذي هرب سيدي القائد؟ ليتني أذهب إلى العسكرية فيقرّ رسمياً بأنني حيّ..»

بدأ قائد الدرك يشرح الإجراءات اللازمة: «سوف ننظم الآن ضبطاً نقول فيه إنه لا توجد بطاقة شخصية، ثم نرسل يشار إلى شعبة التجنيد على أن يحصل على البطاقة لاحقاً. وسوف تجنده وترسله إلى قطعته».

قلت له: «الله يرضى عليك..» وأسرعتُ إليه أريد تقبيل يده.

وراح أبي يدعو له ويقول: «بفضلك سيتضح أن الولد حيّ، وننتهي من هذا الهمّ».

نُظِّمَ الضبط الذي تحدث عنه قائد الدرك فوراً.

وبذلك تأخر زواجي على الرغم مني. تم الاتفاق على أن يتم الزواج بعد تسريحي من الجيش. ابتهجت آنشة كثيراً لالتحاقي بالجيش وقالت لي:

«حبيبي يشار، انتظرك حتى العودة، بل انتظرك حتى الموت. إن مصيرنا واحد..»

ذهبتُ إلى شعبة التجنيد حيث أرسلوني إلى وحدة عسكرية. وكم فرحتُ وفرحت. لا شيء كان يضاهي ابتهاجي..

- ٥ -

لا بُدَّ من الرقم

كان مساء اليوم الثالث على دخول يشار يشامز السجن. أُدخل جميع السجناء إلى مهاجعهم. وقام النص نصيص برفقة السجَّان المناوب بإجراء التفقد في المهاجع وانصرفا بعد أن أغلقا الأبواب. ملء مهاجع من البشر بقوا وجهاً لوجه مع همومهم. هكذا بدأ مساء آخر من مساءات السجون التي لا تحتمل..

في المهجع الأول من الجناح الثاني كانوا يعدون العشاء. وكان مصباح وحيد يتدلى من السقف فيضيء المهجع بصعوبة بضوئه الشبيه بعيون الموتى. على موقد الشاي كان الماء يغلي في إناء من الصفيح، فوقه إبريق أحمر لتخمير الشاي أسودٌ أسفله بفعل السخَّام. كانت رائحة البول النفَّاذة القادمة من المرحاض في آخر الممر، تختلط بروائح البصل المقلي والطعام الذي يُطبخ فوق المناقل أو علب الصفيح المستخدمة كمواقد. في تلك الساعة لا يتحدث أحد تقريباً. تسمع فقط أصوات وقع القباقيب والشحاطات لأولئك الذين يتنزهون ذهاباً وإياباً في الممرّ. ثمة من يذكي النار في المنقل أو علبة الصفيح بقطعة من جريدة يهزها محركاً بها الهواء، أو آخر يُحرِّك الطعام في القدور المسخَّمة. من حين إلى آخر يرتفع نداء بائعي صحن من الطعام المطبوخ:

- هيا تعال! لدينا لوبياء... الصحن بخمسة قروش...

سُمع صوت ساز. بدأ العزف خفيفاً ناعماً ثم ارتفع بالتدريج. مع ارتفاع صوت الساز انقطعت جميع الأصوات الأخرى فجأة، توقف المتنزهون، وقرفص الواقفون، واستقام المضطجعون. من أين يصدر صوت الساز؟ لم يكن هذا بالأمر المعتاد. لقد أثار صوت الساز الدهشة. والآن أصبح صوته يرافق كلمات أغنية:

حظٌ أسود طاردَني

أثار آمالاً وشاغلني

من حيثُ لا أُجرح جرحني

نادوا آنشتي لتُضمِّد جرحي

كان يشار يشامز هو الذي يعزف ويغني، جالساً على الطابق السفلي من السرير، ساندأ ظهره إلى الحائط، ممسكاً بالساز وكان صوته ذا نبرة حزينة وصادقة. تأثر نزلاء المهجع كثيراً. قد لا يكون صوت يشار جميلاً جداً، وقد لا يكون عازفاً بارعاً، غير أنَّ صوته بدا لهم بمنتهى الجمال وعزفه بمنتهى البراعة، بفعل الانسحاق الذي تشعرهم به حالة السجن والعاطفة التي تخلقها فيهم. تماماً كالعطشى في صحراء الذين يبدو لهم أردأ الماء وكأنه ماء الحياة الذي يتفجر من نبعٍ صافٍ.. لقد كانت أغنية يشار يشامز مؤثرة إلى درجة أن أعين الكثير منهم قد أدمعت.

حينما انتهى يشار من أغنيته ارتفعت من كل مكان في المهجع أصوات الاستحسان:

-عشت يا يشار! عشت يا يشار!

-حسنٌ أن نعيش يا أخوتي، ولكن كيف لنا أن نعيش عندما لا تريد الحكومة ذلك؟

لعل الأغنية ما كانت أثرت فيهم كل هذا التأثير لو أنهم لا يعرفون قصة يشار، كما أن حزن مساء السجن قد زاد من تأثير الأغنية.

-تعال يا ابني يشار تعال! احكِ لنا هذا الأمر..

-حسناً يا عم..

-فضفض لترتاح...

-أرسلك الدرك إلى شعبة التجنيد.. بعد ذلك؟

- وأرسلتني الشعبة إلى وحدتي العسكرية حيث بدأت عسكريتي، ويالها من عسكرية! تقول الحكاية إن أربعين جندياً أرادوا نقل بيضة واحدة من هنا إلى هناك، فوضعوها داخل ملاءة سرير، وأمسكوا الملاءة جميعاً من طرف واحد وراحوا يرددون: "هوووب!" حتى تمكنوا من نقلها. أما أنا فعلى العكس فعلتُ كل ما من شأنه أن يلفت أنظار رؤسائي ويقربني منهم، حتى يسلموني وثيقة رسمية يمكن أن تقوم مقام البطاقة الشخصية. وثيقة عسكرية قادرة على اقتحام اشد أبواب القلاع حصانةً. كنتُ أتنكب العمل الذي يمكن أن يؤديه أربعون شخصاً، ولا أتهرب من أي عمل. وإذا ناداني أي شخص كائناً من كان وجدني أمامه على الفور. لتفهموا إذن بأي شكل أديت عسكريتي! ولا واحد ممن

يعلوني رتبةً ناداني بالحمار ولو مرة واحدة، فضلاً عن أنني لم أتلقَّ صفعة أو نقرة إصبع من أحد، هل سبق لأحد منكم أن رأى مثل هذا في العسكرية؟ إذن سأحصل بإذن الله على وثيقة تسريح أين منها البطاقة الشخصية! وهكذا ستدرك حكومتي بأنني حيٌّ مثلي في ذلك مثل كل مواطن وكل ناخب.

مرت الأشهر والسنوات، سُرِّحتْ دورتي، انتهت فترة خدمتي، لكني لم أُسرَّح. ومن خوفي لم أتجرأ أن أسأل أحداً عن موعد تسريحي، حتى لا أُذكِّرهم بأنني لا املك بطاقة شخصية.. في أحد الأيام صاح رقيبٌ يعمل كاتباً في قلم الوحدة، وكنا في ساحة التدريب،: «يشار يشامز! يشار يشامز!» أسرعت إليه وقلتُ: «مرني حضرة الرقيب!»

-«أسرع! الملازم أوَّل يريدك!»

قفز قلبي من مكانه. قلتُ لنفسي لا بد أنه التسريح.

«ترى ما هو الأمر يا حضرة الرقيب؟»

«أظن أن الأمر يتعلَّق بتسريحك.. إنهم لم يستطيعوا أن يسرحوك حتى الآن يا يشار..»

سألته كما لو أنني لا أعرف، وكما لو أن الآخرين لن يعرفوا إذا تجاهلت:

«لا تقلها! ولمَ يا حضرة الرقيب؟»

«إنهم لا يجدون لك قيداً في النفوس.. كما أنك لا تملك بطاقة شخصية..»

«وإذن؟ ماذا سيحدث الآن؟»

«اذهب الآن وقابل الملازم أول!»

كان عندنا ملازم أول طيب جداً، عساه ليس أطيب منكم. كان قد ذاع صيته في الفوج باعتباره الأقل ضرباً للجنود. لم يكن يضرب أحداً إلا كل أسبوع أو عشرة أيام مرة، لكنه إذا لم يعطب الجنديَّ الذي يضربه، فهو على الأقل لن يتركه سليماً.

وصلتُ إلى حضرة الملازم أول وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى. ألقيت عليه التحيَّة ضارباً كعبي حذائي أحدهما بالآخر في خبطة قوية.

«مُرني سيِّدي. أُبلغتُ بأنكم استدعيتموني» لو أن ملازمنا هذا سألني عن اسمي وأجبته "يشار" لكنتُ ارتجفتُ خوفاً خشية أنني أخطأتُ الجواب. لعل من يضرب أقل من الملازمين يثير خوفاً أكثر. هذا يعني أن الملازم الذي لا يضرب أبداً، يقتل المرء رعباً.. إن

من يضرب لا يثير الخوف، ذلك أنك تعرف بأنه سيعاقبك بعلقة ساخنة في أسوأ الأحوال. أما ذلك الذي لا يضرب، فأنت لا تعرف ما الذي سيفعله بك. هل يذبحك أم يُمزقك أم أنه سيقطعك إرباً؟ لا عليكم.. قال لي الملازم أول – فتح الله أمامه كل الدروب–: «ها! جميع زملاؤك تم تسريحهم يا ابني يشار، أما أنت فنحن عاجزون عن تسريحك.»

تظاهرت بالجهل وسألته: «ولماذا يا سيدي؟»

«لا نستطيع إتمام الإجراءات لأنك لا تملك بطاقة شخصية»

أحنيت رأسي بصورة مثيرة للشفقة كما لو كنت جاهلاً بكل شيء.

«سبق أن أبلغنا قيادة الفوج عن موضوع البطاقة الشخصية. خاطب الفوج شعبة تجنيدك التي أرسلت جوابها. اسمع، سأقرأه عليك:

«رداً على كتابكم رقم كذا بتاريخ كذا: تبين من مراجعة سجلات يشار ابن رشيد، أنه شارك مع وحدته العسكرية في أحداث ديرسم أثناء أدائه لخدمته الإلزامية عام ١٩٣٥ حيث استشهد في تلك المعركة.»

نسيت نفسي وصرخت فجأة: «مستحيل سيدي الملازم أول.. مستحيل!»

ومتُّ خوفاً من ردة فعله غير أن الملازم الذي لم يسبق أن رأيته يضحك، قال لي: «طبعاً مستحيل يا عزيزي. فما الذي يفعله هنا رجلٌ استشهد؟»

«لا أقصد ذلك سيدي الملازم.. من غير الممكن أن أكون مستشهداً في ديرسم، لأنني استشهدتُ قبل ذلك بكثير في معركة جنق قلعة»

الملازم الذي لا يضحك وجهه قط، تجمَّدت الابتسامة على شفتيه فجأة وشتمني شتيمة ثقيلة جداً وقال: «ما الذي تقوله ولاك؟»

بالرغم من خوفي من الصفعة المتوقعة، عاندت قائلاً:

«هل من المعقول يا سيدي أن يستشهد رجل في عام ١٩٣٥ وقد سبق له أن استشهد في عام ١٩١٥؟ واضح أن ثمة خطأ في هذا...»

رمقني الملازم أول بذهول وقال: «يشار.. يا ابني يا يشار!»

أدركتٌ أنه يظنني مجنوناً:

«مرني سيدي الملازم!»

«يشار يا بني..»

اضطررت لتقديم الإيضاح:

«شعبة التجنيد كتبت أنني مُت في ديرسم. لكن قيد نفوسي كُتبَ فيه أنني مُتُّ في جنق قلعة.. ولهذا السبب لم أتمكن من الحصول على بطاقة شخصية.. لعلكم تسألون أيضاً دائرة النفوس، فسوف يتضح بأنني لم أستشهد في ديرسم. سيأتيكم الجواب الصحيح وهو أنني متُّ في جنق قلعة..»

قال يشار يشامز موجهاً كلامه لزملاء المهجع المحيطين به:

- هكذا أيها الأخوة. أردتُ الذهاب إلى المدرسة، فقالوا لي إنني ميتٌ. وحين أرادوا تجنيدي قالوا بأنني حي، وعندما آن أوان تسريحي عادوا ليقولوا لي بأنني ميت.

سأله أحدهم:

-إذن كيف تم تسريحك فيما بعد؟

- لقد فعلوا كما أشرت عليهم، راسلوا دائرة النفوس يسألون عني، فجاء الجواب متضمناً أني استشهدت في عام ١٩١٥. بالرغم من كل مساعيٍّ لإثبات أنني حي، فشلتُ، فلم أحصل على أمر التسريح. في النهاية سلمني قائد الفوج - ليكن الله راضياً عنه- وثيقة تثبت انتهائي من أداء الخدمة العسكرية وأطلقني من الثكنة.

-حسناً، وبعد ذلك؟

-عدتُ إلى البلدة.. عدتُ ولكن..

-وماذا حدث أيضاً؟

- في الشهر أو الشهرين الأخيرين لم أتلقّ رسائل من أبي، ولم أتلقّ ردوداً على رسائلي.. لحسن الحظ أنني كنتُ أملك قليلاً من النقود. حينما بلغني قرار تسريحي اشتريت ثياباً: سروالاً داخلياً وبنطالاً من الجوخ وما إلى ذلك، بالإضافة إلى قبعة.. اقتربت من البلدة وفي يدي حقيبة سفر مصنوعة من الخشب.. وحذائي يُصدر صريراً من القوة بحيث يخيَّل إلى المرء أن الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف. وهكذا تابعتُ السير بخطوات منتظمة على إيقاع صرير الحذاء، كانت كل أفكاري وأحلامي متمحورة حول آنشة، ما جعلني أمرُّ أمام بيتها علَّني أراها واقفة أمام الباب، أو لعلها تسمع صرير

حذائي فتنظر من النافذة. لم أر آنشة، لكن أباها كان خارجاً من الباب، وإذ رآني رحَّب بي ولكن رنَّة مرارة خالطت صوته. قبلت يده وأنا أرد على ترحيبه. فقال لي: «البقية في حياتك يا بني» جمدتُ في مكاني ونظرتُ في وجهه. سألني قائلاً: «ألم تصلك رسالتي؟» . لا بد أن رسالته وصلت بعد سفري، فلم أستلمها.

«كان أبي هو الشخص الوحيد الذي بقي لي في هذا العالم. وبموته بقيت وحيداً وحدة مطلقة..»

«أيُّ كلامٍ هذا يا يشار؟ وأين ذهبنا نحن؟ إن غابَ أبوك، فنحن موجودون..»

«شكراً..»

«مات أبوك مرتاح البال. كنت بجانبه وسمعته يقول: «لن أموت وعيناي مفتوحتان. صحيح أنني لم أتمكن من استصدار بطاقة شخصية للولد، ولكن أحمد الله على أنهم ساقوه إلى الجندية. ولا بد أنهم سيعطونه ورقة تسريح، وبذلك سيعرفون رسمياً بأن ابني يشار حيّ» وكان هذا آخر كلام لأبيك»

حاولت أن أتماسك، لكنني أخفقت وبدأت أبكي. ركضت إلى البيت من غير أن أرى آنشة. وفي المساء جاء أبو آنشة وقال لي: «جباة الضرائب يسألون عنك يا بني».

«وما شأن جباة الضرائب بي؟»

«منذ أسبوع وهم يأتون كل يوم، يقولون إن المرحوم أباك مدين للدولة والمصرف وما الى ذلك بضرائب غير مدفوعة... ولأنك وريثه الوحيد فانهم يطالبونك بتسديد ديون أبيك.»

«وكيف ذلك ياروحي... ومتى كان الميت يسدد ديونا! فضلاً عن أنني مت مرتين وفي مكانين مختلفين. لن أسدد أية ديون.»

«يحسن بك أن تدفع يا بني... لماذا؟ لأنك حتى تمتنع عن تسديد ديون أبيك، عليك أن تتخلى أيضاً عن حقك في الإرث. عليك أن تسدد ديون أبيك والتزاماته حتى تتمكن من الحصول على الإرث»

بما أنني سأصاهره، فهو لا يريد للإرث أن يضيع من اليد. وقديماً قيل إن الموت حق والإرث حلال! ومن يترك للدولة ما ورثه من أبيه! على أية حال لم أجد صعوبة في إيجاد من يقرضني مالاً أسدد به ما استحق على أبي من ضرائب. فسوف أرث من أبي أموالاً

كبيرة. وهكذا غرقت في الديون حتى عنقي، وسأسددها مع فوائدها حين أحصل على الإرث.

سددت جميع التزامات أبي من ضرائب وقروض مصرفية وعامة وما يدين به إلى أشخاص. والآن، آن أوان ما سأحصل عليه... ذهبت إلى كاتب عرائض يجلس في باحة جامع«قرشنلي» واستكتبته عريضة لا تضاهيها عريضة.. إما هكذا تكون العرائض وإلا فلا.. إن كاتب عرائضنا ذاك يمتلك قلماً يقطر دماً... ويالها من عريضة يا أخوتي... لو أنكم وضعتموها أمام خروف لفهم ما هو مكتوب فيها. غير أن المشكلة هي في إفهام أولئك الذين سأتوجه إليهم. تعالوا إذن واشرحوا لأولئك الذين يجب أن يفهموا... أخذت عريضتي إلى المكان المطلوب وأعطيتها لأحد الموظفين. وإذا كنت أقول إنني أعطيتها، فهذا لا يعني أن الأمر تم بالبساطة التي لفظت بها الكلمة... فأولاً كان علي البحث عن الموظف الذي سيهتم بموضوعي... اهتديت إليه. ثم علي أن أنتظر في الطابور. انتظرت. ترى هل يأتيني الدور؟... عليك أن تسلم العريضة قبل موعد الانصراف. وهذا ما فعلته، أخذها مني، ألقى عليها نظرة، ثم أشار بذقنه إلى موظف آخر يجلس وراء إحدى الطاولات البعيدة. تصوروا أنني انتظرت يوماً كاملاً أمام طاولة الرجل، فقط كي يشير إشارة بذقنه! على أية حال أخذت العريضة إلى الموظف الآخر، أما هذا فلم يقرأها، بل إنه لم يُلْقِ عليها محض نظرة.. اكتفى بأن دَمَغَها بالختم الذي في يده بضربة صاخبة بدت لي كصفعة، أو لكمة. ثم ترك ذلك الختم والتقط آخراً كبسه فوق الورقة كما لو كان يصارع عدواً. ترى هل كان الموظف المسكين قد احتد من زوجته أو أولاده، أم أنه تشاجر مع جاره أو ضايقه دائن؟ كائناً ما كان السبب فقد أفرغ كل توتره على عريضتي. بعد بضعة أختام، ضغط ختماً أخيراً على الورقة ولم يرفعها هذه المرة، بل استمر في الضغط بكل قوته بحيث تحرك ردفاه يميناً ويساراً من عزم الضغطة.

سأقول لكم بلا إطالة بأنني رحت أتنقل من طاولة إلى أخرى ومن غرفة إلى أخرى طوال أشهر. وكم ختموا عريضتي المسكينة وكم وقعوا عليها وكم كتبوا عليها من تواريخ وخصوصاً أرقام... ولأن عريضتي لم تعد تتسع لكل تلك التوقيعات والأختام والطوابع والتواريخ وخصوصاً الأرقام، فقد أضافوا عليها أوراقاً ملحقة. وكبرت عريضتي وكبرت حتى أصبحت رزمة كبيرة. ياالله! واعجبي! حينما أردت أن أسدد ديون أبي أخذوا النقود من يدي فوراً، ولم تستغرق الإجراءات عدة أشهر كما الآن، ولا عدة أيام، بل أقل من

ساعة واحدة. أما عندما تعلق الأمر بمال سأحصل عليه، فقد بدأت مشاويري ذهاباً وإياباً، زحفاً بلا نهاية... لو أن الأمور تجري في بلدتي لتقبلت كل ذلك بسرور، لكنهم يرسلونني إلى مركز الولاية أيضاً حيث أتجرجر في الفنادق على مدى أيام.

عذبوني كثيراً ولكن أخيراً...

قاطع أحد المستمعين يشار وسأله:

-هل حصلت على الإرث يا يشار؟

-على مهلك... ومن أين لي هذا اليسر؟

-لكنك قلت أخيراً...

- أخيراً عرفت مبلغ المال الذي سأرثه. وفقاً لحساباتي كان علي أن أرث ما بين خمسة عشرة ألف وعشرين ألف، في حين أنه يساوي ثلاثة آلاف وفقاً لحساباتهم...

-أواه!

- أواه وأي أواه! لو كنت أعرف أن المبلغ هو ثلاثة آلاف ليرة، لكنت رفضت الإرث ولم أسدد ديون أبي. إذن لم تتفق حساباتي مع حساباتهم.

-إنه حساب، كيف له ألا يتوافق؟!

-صحيح. لن يتوافق.

- لأحكي لكم كيف أن الحسابين لم يتوافقا. أيام المدرسة كان في صفنا خمسون تلميذاً. كان الأستاذ يطلب منا حل مسألة حسابية. وكان كل منا يصل إلى حل مختلف بالرغم من أن المسألة واحدة. إن حل أي واحد منا ما كان يتطابق مع أي حل آخر. أما الأستاذ فكان يحل المسألة ويصل إلى نتيجة مختلفة عن كل نتائجنا. تصوروا... في كل صف خمسون تلميذ... الآن كل واحد منهم يقوم بعمل ما... لذلك لن أستغرب أن لا تتوافق الحسابات...

-حسناً يا يشار.. أيٌّ من الحسابين اتضح أنه الصائب؟

- وحساب من تتوقع؟ إن واحداً مثلي لم يكتفِ بالاستشهاد مرة واحدة، فاستشهد مرتين، ولا يحمل بطاقة شخصية، هل من الممكن أن يكون حسابه هو الصحيح؟ بالطبع كان حسابهم هو الصحيح.

-تفوه ياه!

- وما العمل.. الثلاثة آلاف هي ثلاثة آلاف.. قلت فلآخذها. ولكن خذها إن استطعت! لقد صرفت مبلغاً أكبر على أمل الحصول على الآلاف الثلاثة... ذلك أن المرء لا يشعر بالأمر طالما أنه يصرف مبالغ صغيرة هنا وهناك.. على الأقل سأحصل على ثلاثة آلاف مجتمعة.

-قل إذن إن الأمر يشبه الإيداع في مصرف..

- يختلف الأمر عن الادخار في مصرف في أنك في حالتي تودع الكثير فتحصل على القليل. لكنك على الأقل تأخذ المبلغ دفعة واحدة. أما أنا فقد لاحقت تلك الآلاف الثلاثة من الليرات عامين كاملين. وصلتُ بالأمر إلى نهايته. قد سلخنا الشاة ولم يبق منها سوى الذيل. سوف أعطي الورقة العليا من رزمة أوراقي لأحد الموظفين ليوقع عليها، ثم أذهب إلى الصندوق لأحصل على النقود بإذن الله..

ذهبت إلى ذاك الموظف وقلت له: «قد جئتُ إليك ثانية يا سيدي» وأضفت: «لقد فعلت كل ما طلبتم مني وانتهيت من كل الإجراءات. وحصلتُ على الموافقة والتصديق والحمد لله. والآن جئت لأستلم نقودي».

«ستستلمها إن شاء الله!» قال الموظف فانفجرت: «وهل بقي ثمة ما يستدعي ال- إن شاء الله او الماشاء الله يا سيدي! ها هم قد كتبوا هنا «يصرف له!» لقد تابعت الموضوع طوال عامين، لكنني أخيراً أتممت جميع الإجراءات.»

«هاتِ لنرَ إن كان كل شيء كاملاً» قال ذلك وأخذ رزمة الأوراق.

«كلها منتهية يا سيدي.. لم يبق سوى توقيعكم».

راح يقلب أوراق الرزمة السميكة ورقة بعد ورقة وهو يتفحص الطوابع والأختام والتواقيع ويدمدم: «هم م م.. هذا خالص.. ومسجَّل.. جيد..» وكلما قال ذلك عن ورقة جديدة كان قلبي يتجنَّح ويرفرف فرحاً.

«السند القديم.. موجود أيضاً.. جواب المصرف؟ هاهو.. جيِّد، جيد جداً.. هل تم تسديد المصاريف الحكومية.. جيد.. ».

كنتُ أبتسم ملء فمي في وجه الموظف لشدة ابتهاجي، وهكذا ظل الرجل يقلب الأوراق وهو يدمدم بهذه الكلمات: «جيد.. جميل.. خالص.. تمام.. أحسنت.. هذا أيضاً

موجود.. وذاك أيضاً..» ثم فجأة صرخ: «آآآه» ويا لها من آه ممطوطة حتى استهلكت نفسه ثم بقي فمه مفتوحاً فترة من الوقت.

«ما الأمر يا سيدي؟»

«التقرير موجود، نعم إنه هنا، لكنهم لم يكتبوا هنا رقم سجلّه!»

«لم يكتبوه؟ وماذا سنفعل الآن؟»

«ستذهب وتستكتبهم ذلك الرقم.»

«أرجوك لا تقلها يا سيدي.. إن أوراقي امتلأت بالكثير من الأرقام. وما الضير في عدم وجود ذلك الرقم؟»

«لا مشكلة بالنسبة لي.. بإمكاني أن أحيلك من جهتي..»

«الله يرضى عليك، ولتنل كل ما تصبو إليه..»

وهكذا أسمعته سلسلة من الدعوات من أجله، ما لبث أن قاطعني فيها قائلاً: «والله إن كان عليَّ فسوف أحيلك إلى الصندوق، لكنهم لن يصرفوا لك المبلغ إذا لم تأت بذلك الرقم.. الشأن شأنك.. لا دخل لي.. لن تنال شيئاً قبل الحصول على الرقم المطلوب.»

لو تعرفون كيف أصبحت حالي أيُّها الأخوة.. جمدت حيث أنا. ولو ذبحوني لما سالت مني قطرة دم واحدة.

أشفق الموظف عليّ وقال: «هيا أذهب بسرعة وعد مع الرقم، لأنهي لك أمرك على الفور»

«لا بأس في الحصول على الرقم يا سيّدي، لكن تلك الدائرة في مكان بعيد، ولن أعود قبل حلول المساء. وقتها ستكونون قد انصرفتم. مادام الأمر كذلك، فسوف أذهب إلى هناك غداً».

«ليكن»

أخذت أوراقي وابتعدت. لكنه صاح بي: «آآآه.. لحظة!»

«مرني يا سيدي»

«لا يجوز! يتوجب عليك أن تستلم النقود غداً. اذهب إذن للحصول على الرقم اليوم، حتى تستلم النقود غداً. فإن لم تستلمها غداً، لن تستلمها بعد ذلك أبداً».

«ولمَ يا سيدي؟ أليست نقودي ومن حقي؟ أستلمها حينما أشاء»

«اسمع ما أقوله لك. إذا لم تحصل على الرقم اليوم ولم تأخذ النقود غداً، فإنك لن تأخذها أبداً بعد ذلك»

«حسناً، ولكن لماذا؟»

«لأنها في تلك الحالة تبقى في الخزينة.. وهذا يعني أنك انتهيت.. قد يكفي عمرك لإعادة تحصيل نقودك وقد لا يكفي.. لقد حدث الأمر معي بالذات..»

«تبقى في الخزينة؟ ولكن لماذا؟»

«بدعوة أنك تأخرت في استلام نقودك.»

«من هو الذي تأخر يا سيدي؟... منذ عامين وهم يؤخرونني ويجرجرونني بين الدوائر مطالبين بالطوابع والأختام والتواريخ والردود والتقارير والتوقيعات والأرقام. والآن تقول لي إن الخزينة ستحتفظ بالمبلغ!»

لقد كان ذلك الموظف رجلاً طيباً. همس لي قائلاً: «إياك أن تصرخ. إذا سمعك رئيسي فقد تجد نفسك في ورطة، إذن يمكن أن يسجل ضبطاً بدعوى أنك تهين موظفاً عند الدولة. وفي هذه الحالة لن تتمكن من الذهاب للحصول على ذلك الرقم.»

خفضت صوتي وقلت له: «ماذا أفعل إذن؟»

«والله ليس لدي ما أفعله من أجلك سوى إسداء النصح.. لديك حتى الخامسة من بعد ظهر الغد موعد إغلاق المصارف، فإذا لم تستلم نقودك حتى ذلك الوقت احترقت النقود...»

«كيف تحترق النقود يا عزيزي...»

«إنها لن تحترق... لو أنها تحترق فإنك ستيأس فتنجو. غير أن الأمر أسوأ من الاحتراق... ذلك أنك ستنشغل بالأمر حتى آخر عمرك...»

«لأذهب إذن على الفور لأحصل على الرقم وأعود... الوقت ضيق »

«إلحق قبل أن تغلق المصارف أبوابها... إياك!»

«شكراً يا سيدي» قلت له واندفعت إلى الخارج كالإعصار.

تدخل أحد السجناء ممن يستمعون إلى يشار بالقول:

-آه منك أيها اليشار يشامز الشقي آه! إذن فقد سددت فوق ذلك الضرائب المتراكمة على أبيك، هه؟

قال سجين آخر وهو يبتسم بسخرية:

-ياله من فتى نزيه!

يشار:

-حينما يتعلق الأمر بالتحاقي بالمدرسة لست حياً. أما حينما يتعلق الأمر بتجنيدي بالجيش فأنا حي. عند التسريح لست حياً، وفيما يخص تسديد ضرائب أبي فأنا حي. وإذا أردت الحصول على تركة أبي لست حياً.

جميع نزلاء المهجع صاحوا بصوت واحد، مثل كورس:

-خووووود!

يشار:

-قد جف حلقي أيها الأخوة.

صاح أكبر النزلاء سناً منادياً الأوجقجي:

- جدد الشايات يابني!

ثم التفت إلى يشار:

- آه يابني... لماذا لم تلجأ إلى نظامي بيك القره قبلي! تفوووه!

أوشك يشار على السؤال عمن يكون هذا النظامي بيك، لكنه آثر الصمت حتى لا تنكشف سذاجته.

- طالما هناك نظامي بيك القره قبلي، ونحمد الله على ذلك، فهل يعقل أن تتحمل كل تلك المشقات من أجل رقم؟ اذهب إلى نظامي بيك ليعطيك أي رقم تريد... عنده الكثير من الأرقام... ومن كل الأشكال والألوان... إن لديه أكبر مجموعة من الأرقام في العالم.

ظن يشار أنهم يسخرون منه، فلزم الصمت.

انهمكوا في شرب الشاي. قال السجين المسن:

- انقر على أوتارك يا يشار!

أمسك يشار بالساز وراح يعزف ويغني:

حظ أسود طاردني

أثار آمالاً وشاغلني

من حيث لا أجرح جرحني

نادوا آنشتي لتضمد جرحي



-٦-

لكل بابها المختلف

كان يشار يشامز قد انتقل إلى المكان الذي فرغ بعد طرد الراوية بسبب السرقة من المهجع الأول/الجناح الثاني. وفي كل مساء، بعد التفقد والعشاء، كان السجناء يتحلقون حول يشار ويلحون عليه كي يحكي. وما كان هذا يتدلل عليهم، بل يسعده أن يحكي لهم ويفضفض. وإلا كان الضيق حَرِّياً بأن يقتله.

راح النص نصيص يطلق صفارة المساء ويصرخ:

- إلى الداخل! إلى الداخل!

شاب له صدر مكشوف امتلأ بآثار ضربات موسى حلاقة، صرخ يقول:

- الجميع يقول إلى الداخل... يكررون ويعيدون: إلى الداخل! إلى الداخل! ولا يظهر عبد واحد من عباد الله ليقول إلى الخارج!

سمع النص نصيص كلام الشاب فنفخ في صفارته بقوة أكبر، ثم صرخ بدون أن يوجه كلامه إلى أحد بعينه:

- ليطارد حمار أمك! هيا إلى الداخل ولاك!

سأل أحد السجناء زميلاً له في الممر:

- ماذا يحدث يا صديقي؟

سمع صوت حاد من أول الممر:

-هيااا... توزيع الطعام... توزيع الطعاااام...

سأل النص نصيص:

-هل أخذ مهجعكم حصته من الطعام؟

رد عليه رجل واقف على باب المهجع:

-أخذنا يا سيدي...

-هيا... ليصطف الجميع داخل المهاجع... كل واحد إلى مكاااانه!

كان نزلاء المهجع الأول من الجناح الثاني قد اهتموا كثيراً بقصة يشار يشامز ووجدوها مشوقة كثيراً، إلى درجة أن الكثير منهم كان ينتظر حلول المساء بفارغ الصبر. وما أن يطلق النص نصيص صفارته المسائية، حتى يسرعوا في دخول المهجع، ثم يتناولون عشاءهم على عجل ويسترخون بانتظار سماع قصة يشار، أما أولئك المنشغلين بإعداد الطعام فكانوا يسرعون في عملهم.

أحد السجناء، وكان قد اعتقل مجدداً بعد سرقة كبيرة، فدخل السجن محملاً بمبلغ كبير من النقود، قال للص محدث:

- أين يشار يشامز؟ هل رأيته؟

- هاهو هناك يستلم طعامه من الباحاتي.

- ناد عليه ليأتي...

- هيه! يشار يشامز!

رد يشار من موقعه على باب المهجع بنبرة سجين حقيقي:

- هووووب! أيوه!

استغرب السجناء طريقة يشار في الصراخ، فقال واحد لآخر:

- صاحبك بدأ ينفتح جيداً... هل تتذكر كيف كان في يومه الأول؟

- نعم، لقد تفتح مثل زهرة اليقطين...

- إنه ولد جيد، راح يتعود تدريجياً...

اقترب منهم يشار يشامز وبادرهم بالقول:

- مرني يا أخي!

- تعال اجلس.

وقال له الآخر:

- تعال نتعشى معاً...

- شكراً يا أخوتي...

بعد العشاء بدأوا يشربون الشاي، فاجتمع النزلاء الآخرون حولهم.

- إنك تقطع القصة في أشد مفاصلها تشويقاً.. هيا تابع ما جرى معك من أحداث يابشار.

- حسناً يا أخوتي...

- ماذا حدث بخصوص التركة؟ هل استطعت الحصول عليها؟

- أين توقفنا؟ هه... الرقم... اندفعت خارج الدائرة الحكومية بسرعة للحصول على ذلك الرقم. كان علي أن أحصل عليه قبل إغلاق الدوائر وانصراف الموظفين. رحت أنتظر سيارة سرفيس، فألقي بنفسي أمام كل سيارة أجرة تمر وأسأل السائق:

«سرفيس؟ سرفيس يا أخي؟ إلى أين؟ »

لم يكن الجو ماطراً، ومع ذلك رفع السائقون أنوفهم❖وعيونهم على الغيوم... توسلت إليهم، بكيت وشكوت، وما من أحد يبالي... ياله من موقف! إذا لم أحصل على الرقم وأوصله في موعده، طارت نقودي..

«سيدي... سيدي السائق... يا أخي... أهذا سرفيس؟ إلى صمن بازاري؟». لا أعرف كيف حدث ذلك، فقد ظهر سائق ابن ناس وقال لي: «نعم إلى صمن بازاري. تفضل!»

نعم، قال ذلك ولكن... فلتتفضل إن كنت قادراً على ذلك...

«يا الله! يا الله!» هكذا رحت أردد، فسألني السائق من الداخل:

«ما الذي يحدث معك؟ لم لا تركب؟»

«الباب لا ينفتح يا أخي... كيف لي أن أركب.»

«دوِّر المقبض إلى اليسار أخي، دوِّر إلى اليسار.. دوِّر يا!»

«إني أدوره يا أخي.. أدوره ولكن...»

«دوره جيداً! هيا دور!»

«أدوره فلا ينفتح... أي باب هذا!»

«لكنك لا تدوره..»

«فماذا أفعل إذن؟»

«إنك تداعبه...»

أينما اتجهتم على هذه الأرض فلا بد أن تجدوا الصعاليك الوقحين. وأنا أصارع هناك باب سيارة السرفيس، ظهر عدد من هؤلاء ولا أعرف من أين انبثقوا، وراحوا يسخرون مني: «دور! دور! حتى يراك أبوك!» ومن جهة أخرى سائق السيارة يصرخ بي:

«دوره، دوره! دوره إلى اليسار! إلى اليسار!»

«إنه لا يدور يا أخي!»

«إلى اليسار، أقول لك إلى اليسار! ألم تخدم في الجندية؟»

مد السائق يده من وراء ظهر الراكب الجالس بجانبه و فتح الباب وهو يدمدم: «لم تعد تعرف يمينك من يسارك. انظر، هكذا، طق، هاهو الباب السافل ينفتح مثل ساعة»

شكرته وركبت السيارة. التزمت الصمت تماماً لشدة خجلي. لكن السائق لم يعد يطبق حنكه:

«هذا العالم، أي ناس يمتلئ بهم! تفوه! اللعنة!»

تنطح راكب مسن ليؤيد السائق:

«أنت على حق يا بني. كم أنت على حق يا عزيزي السائق. قد بلغ بهم العمر هذا المبلغ ولم يتعلموا بعد أن يميزوا يمينهم من يسارهم.»

ارتفع حماس السائق عندما وجد من يؤيده:

«عليك أن تشرح لكل راكب يا جدي... إنه باب يا أخي، باب! يكفي أن تدور إلى اليسار حتى ينفتح ببساطة.. طق، وينفتح المكروت..»

كان ذهني منشغلاً بالرقم الذي يتوجب علي الحصول عليه. لذلك سايرته:

«الحق معكم. اعذروني. الذنب ذنبي... لا بد أنني أخطأت بسبب العجلة، فعجزت عن فتح الباب... ذلك أنني مضطر للحصول على رقم من أحد الدوائر الرسمية، وعليَّ أن أسرع قبل إغلاق الدائرة.»

«لا أعرف لماذا يعيش رجل لا يجيد حتى فتح باب سيارة...»

وددت أن أصرخ في وجه السائق وأقول: «ومن قال إنني أعيش! فأنا مُتُّ مرتين..» لكنني التزمت الصمت حتى لا أطيل السجال فأتأخر عن الدائرة.

الراكب العجوز: «إنهم لا ينتبهون يا سيدي.. كل ذلك بسبب عدم الانتباه..»

«لقد ضقت ذرعاً يا جدي.. عليَّ الحلال نبتَ على لساني الشعر لكثرة ما علمتهم

فتح الباب.. يجب أن يفتحوا دورات تعليمية لهؤلاء الناس من أجل تعليمهم كيف يفتحون الأبواب.. نعم دورات!»

«لا يا بني، إن التمدن لا يُكتسب في المدارس أو الدورات أو ما شابه ذلك.. إذا لم يمتلك المرء روح التمدن فلا جدوى مهما فعلت».

كنتُ أنظر إلى وجوه الركّاب الآخرين على أمل أن يبادر أحدهم فيدافع عني أو يقول على الأقل: «كفاكم تحاملاً على الرجل» لكن أحداً لم يكن بصدد ذلك. الراكب العجوز إياه قال للسائق: «أنزلني هنا يا بنيّ.» أوقف السائق السيارة. صارع العجوز الباب لبعض الوقت، فقال له السائق بنبرة قاسية: «لم لا تنزل يا جديّ! هيا!»

«وكيف أنزل يا بني؟ فالباب لا ينفتح...»

«دوّر إلى اليمين يا جدي..»

«لكنك قلت لهذا السيد دوّر إلى اليسار..»

«يا الله! إن كان ثمة من يفهم بالكلام فليتقدم! من الخارج يدور إلى اليسار، ومن الداخل إلى اليمين..»

السائق الذي كان يخاطب العجوز بكلمة جدي طوال الوقت، صرخ به هذه المرة قائلاً: «دوّر إلى اليمين يا خرفان!»

انزعج العجوز: «آآآه! لكنه لا يدور.. هل أرغمه؟»

«لقد تجمّع وراءنا طابور سيارات، وشرطي السير سيكتب مخالفة..»

بالفعل كان قد تشكل وراءنا طابور من السيارات التي راحت تطلق أبواقها بصورة متصلة، كنا قد سددنا الطريق.

بلغ التوتر بالسائق مبلغاً جعله يضرب رأسه بقبضة يده ويصرخ:

«سوف أجن أيها الخرف.. فأنت تديره إلى اليسار ولاك. من الخارج إلى اليسار ومن الداخل إلى اليمين ولاك.. إلى اليمين!»

«لا هو يدور إلى اليمين ولا إلى اليسار.. إنه لا يتحرك..»

«قف، قف.. سوف تكسر الباب.. انتظر حتى أفتحه لك..»

فتح السائق الباب فألقى العجوز بنفسه إلى الخارج وتنفس بارتياح: «الحمد لله!» في حين كان السائق ينثر شتائمه الغاضبة:

«يا حطباً أولاد حطب، يا ألواح، أيها الهابطون من الجبال!»

كان عليَّ ألا أفوت فرصة فتح الباب، فأترجل حتى لا الاقي المصير نفسه الذي لاقاه الراكب العجوز. قلتُ للسائق قبل أن يضغط على البنزين: «اسمح لي أن أنزل أيضاً.»

«ألم تكن متوجِّهاً إلى صمن بازاري؟»

«صحيح ولكن طالما أن الباب مفتوح...»

ترجلت من السيارة وبدأت أبحث عن سرفيس آخر. رحت أنادي سائقي السيارات العابرة: «إلى أين؟ صمن بازاري؟»

بعد فترة طويلة أمضيتها في سؤال سيارات السرفيس والتوسل والتشكي إلى سائقيها، وقفت إحدى السيارات، أدرت مقبض الباب إلى اليسار، لكن الباب لم ينفتح. لحسن الحظ تدخل السائق وقال لي: «ارفعه إلى الأعلى!» فعلت لكني لم أتمكن من فتح الباب.

«أيها الصديق، لا ترفع السيارة إلى الأعلى، بل ارفع مقبض الباب!»

«لكنه لا يرتفع!»

«اضغط يا... اضغط!»

«إني أضغط، لكنه لا ينفتح.»

مد يده وفتح الباب: «هكذا... طق وينفتح هذا الزمازينغو(*).»

ركبت وتحركت السيارة. قال السائق: «إنهم يسعون فوق أرصفة شوارع المدن بلا جدوى»

امرأة على شكل بطيخة حمراء انبرت من بين الركاب وكأن أحداً سألها رأيها: «ليس ثمة أنقرة غير هذه!»

قال لها السائق مداهناً: «يسلم فمك يا أختي. إن من يخفق في فتح باب سيارة لا يحق له أن يحيا في هذا العالم مدعياً أنه من البشر.»

«أي والله كما تقول.»

أردتهم أن يكفوا فقلت لهم: «معكم حق. لدي عمل ملح جداً. ربما لذلك أي بسبب

(*) كلمة لا معنى لها.

العجلة...»

قالت المرأة:

«بابكم لم يغلق.»

فوبخني السائق: «أغلق بابك!»

فتحت الباب ثم أغلقته بقوة. قال راكب آخر: «لم يغلق أيضاً.»

ليس هناك أحد لا يفهم في موضوع إغلاق أبواب السيارات أو عدم إغلاقها. حتى ذلك الذي يركب سيارة للمرة الأولى في حياته يحب التعالم والتفوق وهو يقول: «بابكم لم يغلق»

فتحت الباب ثانية وأغلقته بقوة. قال السائق: «شدّ بسرعة يا! شدّ بسرعة!»

للمرة الثالثة فتحت الباب ثم شددته بسرعة.

«على مهلك يا، على مهلك... كل ما ستعطيني إياه هو ليرة.. لقد أبكيت أم الباب... مرة في الأسبوع إصلاح باب السيارة... ادفع كل ما تكسبه لمصلح الأقفال...»

اتضح لي أن السائق لن يتوقف عن الكلام. إذا رددت عليه ستندلع مشاجرة، وإذا بقيت صامتاً فلن أحتمل. السائق والركاب استمروا في التحامل علي. لولا اضطراري إلى الحصول على الرقم، لما استسلمت أمامهم. ولكن ما العمل وأنا مستعجل؟

قلت للسائق: «أريد أن أنزل في مكان ملائم لو سمحت.»

أوقف السيارة فجأة وقال: «هيا اسقط(*)!»

هذه ليست أبواباً، بل مصائب...

«يا إلهي! إنه لا ينفتح.»

«ادفع يا ادفع!»

«بأي اتجاه أدفعه؟»

«وإلى أين يمكن أن يدفع؟ أنت لا تعرف كيف تدفع أيضاً. ادفعه إلى الداخل!»

لم أسمع في حياتي أن الباب يمكن أن يدفع إلى الداخل.

«أدفعه إلى الداخل؟ أتقصد أن أشده؟»

---

* اسقط باللغة الدارجة: انزل من السيّارة

«لا تدفع الباب، بل المقبض! عليك أن تعلِّم كل راكب كيف يفتح الباب... كفى كفى... إنك تكاد تقلب السيارة... دعني أفتحه لك.»

نزلت من السيارة في حين كان السائق يبربر: «يالهم من رجال وَزَّات...»

كان الخوف قد استبد بي من عدم الوصول أثناء الدوام للحصول على الرقم، واحتراق نقودي بالتالي. حالفني الحظ فعثرت على سرفيس آخر.

«لم لا تدخل يا سيدي...»

«كيف أدخل يا أخي والباب لا ينفتح؟»

«شده إليك، أقول إليك! شده إليك يا... اخس!»

فتح السائق الباب وهو يستشيط غضباً: «هه! هكذا!»

دخلت السيارة، وتابع السائق يبربر، فنسيتُ النقود التي من أجلها كل استعجالي وفتحت فمي بدوري:

«أف يا! أية علقة هذه؟! وأية سيارات! لكل سيارة باب مختلف. وما ذنبنا نحن؟ البعض منها، عليك أن تدير مقبضها إلى اليمين، والبعض الآخر إلى اليسار... عليك أن ترفع مقابض البعض إلى الأعلى، ومقابض بعض آخر إلى الأسفل... أما البعض الأخير فعليك أن تضغط على زر المقبض... ما هذا يا!»

اتضح أن سائق السيارة رجل لطيف، فقد قال لي بنبرة ودودة للغاية: «وهل من الصعب أن يتعلم المرء شيئاً بسيطاً كهذا؟ عليك أن تدير مقابض أبواب سيارات الفورد إلى اليسار، أما مقابض الأستربيكر فإلى اليمين، أما إذا كانت السيارة من نوع الشيفروليه، فعليك أن تدفع المقبض. وتشده نحوك في حالة الهلمان... أما الفيات فأمرها في غاية البساطة. دوره أولاً إلى اليمين، ثم اضغط الزر، وادفع الباب: طق وينفتح. والأسهل هي البويك: وأنت تدير المقبض إلى اليسار اضغط الزر، ثم شده قليلاً وأنت ترفعه بصورة طفيفة إلى الأعلى، ثم شد المقبض بقوة إلى الأسفل و... تك! ينفتح! الأمر بهذه البساطة... وأخيراً لديك الفوكس فاغن: اضغط الزر وشده إليك.»

اعترض راكب شاب من ركاب السيارة:

«إنك تتحدث عن الفوكس فاغن القديم ذي البابين... أما الموديلات الجديدة ذات الأبواب الأربعة، فإن فتح أبوابها يقتضي..»

قاطعه السائق قائلاً: «هذا أيضاً سهل يا أخي.. المهم أن يرغب المرء في التعلم...»

الراكب الشاب: «أسهل شئ هو فتح أبواب السيتروين... مثل الساعة... عليك أن تضغط، ثم شده وارفعه إلى الأعلى، وبكل قوتك! انظر كيف ينفتح! أما سيارات الأوبل...»

تدخل راكب آخر: «إن أنواع السيارات لا تتجاوز الثلاثين. فإذا لم يتعلم قاطن مدينة كبيرة شيئاً بهذه البساطة، خسارة أن يحيا محسوباً على البشر.»

«بالفعل، ليمت أحسن له... وبذلك ينقص الازدحام على الأقل.»

جميع الركاب كانوا في صف السائق:

«ضع أمامه كيساً من التبن ليأكل.»

«لو كان بالإمكان حلبه على الأقل.. لكنه لا يحلب يا أخي... خسارة فيه التبن...»

«غباء يا سيدي... غباء صريح.»

كنت داويت أفواههم بالدواء المناسب، لولا خشيتي من التأخر على الدائرة الحكومية التي سأحصل منها على الرقم حتى لا تحترق نقودي. لذلك التزمت الصمت. وإلا كنت أعرف ما سأفعل... لو أنه عندي وقت كاف كنت لعنت سيارته وذهبت سيراً على الأقدام... لكنني كنت أعرف أنني لن أصل في الوقت المناسب حتى لو ركضت.

الراكب الشاب الذي أهانني بأشنع الكلام وأظهر معرفته بكيفية فتح أبواب كل أنواع السيارات عن ظهر قلب، أعلن عن رغبته في النزول. توقفت السيارة. وقد نويت النزول معه بمناسبة فتح الباب، لأنني لم أعد أحتمل إهانات الركاب الذين تحالفوا مع السائق. ولكن كيف سأنزل والراكب الشاب غير قادر على النزول؟ فقد كان يصارع الباب وهو يقول بيأس: « أيها الباب السافل! لم أرَ في حياتي باباً كهذا!»

سأله السائق: « ماذا هناك؟»

«لا ينفتح.. إنه محشور.»

لم أتمالك نفسي عن القول: «ماذا ستفعل إذا انحشر: تلك هي المسألة الحقيقية التي على المرء أن يعرفها.»

كان السائق يصرخ بالشاب: «اضغط! اضغط!»

«وأين أضغط؟»

«ألم تركب سيارة في حياتك؟ أين ستضغط؟ طبعاً على الزر!»

«أي زر؟!»

«زر البنطال!..أف! بالطبع زر القفل!»

انفتح الباب فجأة، فاندفع الشاب خارجاً ووقع بطوله على الأرض، فاغتنمت الفرصة وألقيت بروحي خارج السيارة. فكرت أن أكمل الطريق ركضاً، لكن سيارة سرفيس فاجأتني وتوقفت أمامي! وهي فوق ذلك متجهة إلى صمن بازاري. انقضضت على مقبض الباب... يا إلهي! سألته:

«سيارتك ما نوعها؟»

«دي سوتو»

«دي سوتو؟ أبواب الدي سوتو... يا إلهي! كيف تفتح؟»

«اضغط، اضغط!»

لشدة ذهولي سألت السائق: «هل أضغطه إلى الأعلى أم إلى الأسفل؟» فقال لي: «وهل يضغط إلى الأعلى؟!»

فأدركت حماقتي. فتح السائق الباب فدخلت السيارة ودمدمت موجهاً الكلام إلى نفسي: «صحيح يا روحي، وهل يضغط إلى أعلى؟ وهل بقي في رأسي عقل؟»

هذه المرة لم يتفوه السائق، لكن الركاب راحوا يسخرون من إخفاقي في فتح الباب. قلت:

«لكل سيارة باب مختلف.»

راكب عجوز جداً قال لي: «اسمع يا بني! في هذا العالم مليارات من البشر، وكل واحد مختلف عن الآخرين. ولا واحد يشبه أحداً آخر. ما تسميه بالسيارة يصنعها الإنسان. حتى الله لا يصنع وجوه الناس متشابهة، فكيف تريد لأبواب السيارات أن تكون متشابهة وهي من صنع الإنسان؟ أليس عندك رأس تفكر به؟»

كنت منشغلاً بهمي فلم أكترث لكلام العجوز. قلت:

«أواه! اختنقت الشوارع بحركة المرور. وأنا على عجلة من أمري. الظاهر أنني لن أصل في الوقت المناسب»

فقد كانت سيارتنا بالكاد تتقدم عشرة أمتار كل دقيقتين أو ثلاث. قال لي السائق ساخراً: «ما الأمر؟ هل ستوصل شيئاً إلى المدبغة؟»

«لا. لدي عمل في إحدى الدوائر الحكومية. إذا لم أصل قبل الساعة الخامسة فإن النقود التي سأستلمها سوف تتبخر»

«ماذا؟ الخامسة! أية خامسة! ألا ترى أنها السادسة والربع؟»

قال السائق ذلك وهو يقهقه ضاحكاً. فنظر الركاب إلى ساعاتهم وقالوا إن ساعة السائق خاطئة. كانت ساعات البعض منهم تشير إلى السادسة وسبع عشرة دقيقة. والبعض الآخر إلى السادسة وتسع عشرة دقيقة. قالوا إن ساعة السائق قد أكلت تبناً.

صرخت قائلاً: «أواه! الآن احترقت!»

كان الوقت قد انقضى وأنا أصارع أبواب السيارات لفتحها.

لم يعد يهمني في شئ سواء أسرعت سيارات السرفيس أو أبطأت، وسواء انفتحت أبوابها أو لم تنفتح. بقي لي يوم الغد فقط للحصول على الرقم واستلام النقود. ترى هل سأتمكن من ذلك؟ فالدائرتان الحكوميتان بينهما مسافة طويلة.. من غير المحتمل الانتهاء من الإجراء في يوم واحد.

صرخ المستمعون إلى يشار يشامز بصوت واحد مثل كورس:

-خووووود!

كانت أصوات الصفارات تخترق ظلام الليل كالرصاص وتصل إليهم. إنها أصوات صفارات عناصر الدرك في المحارس الموزعة فوق السور الخارجي للسجن.



-٧-

...في تلك الآيتن واللي خلفوها...

كان السجناء قد دخلوا جميعاً مهاجعهم. لقد انتهوا من الطبخ والتسخين وتناول العشاء، وقام السجان المناوب بإجراء التفقد وأقفل الأبواب وانصرف.

في مثل هذه الساعة من كل مساء كان نزلاء المهجع الأول من الجناح الثاني يتحلقون حول يشار. لقد أصبح سرد سيرته لزملائه واجباً بالنسبة له.

وكان يحكي بعذوبة وتشويق كبيرين بحيث أن زملائه في المهجع ما عادوا يشعرون كيف تمر الساعات في ذلك الوقت الأصعب على السجناء... كان يشار يواصل سرد قصته من النقطة التي توقف عندها في المساء السابق.

وزع الشاي على السجناء في كؤوس صغيرة ذات خصور أنثوية، وتجمرت السيجارات. وبالنظر إلى انزلاق بؤبؤ العين عند عدد منهم، كان واضحاً أنهم مسلطنين.

قال عجوز من أصحاب السوابق عرف بتفاخره بأنه بدأ يمتهن السرقة منذ الثالثة عشرة من عمره:

- إيه يا عزيزي يشار، هيا احكِ لنا موالك ذاك، هيا يا سبعي.

وقال أحد الشبان من نزلاء المهجع:

-أنت تقطع قصتك في أكثر نقاطها تشويقاً يا يشار...

تململ الجميع بحيث صحَّحُوا من وضعيات جلوسهم. قال يشار:

-لقد توقفنا عند سيارات السرفيس، أليس كذلك يا أخوتي؟...

-بالضبط... لقد أضعت الوقت متنقلاً من سيارة إلى أخرى، فتأخرت وأغلقت الدوائر الحكومية.

-في صباح اليوم التالي وصلت مبكراً إلى تلك الدائرة لأحصل على ذاك الرقم الناقص. سألت عن المكان الذي يجب أن أتوجه إليه، فدلوني على امرأتين تعملان في قاعة واسعة. وإذا قلت تعملان، فهذا مجرد كلام. كانتا جالستين وراء طاولتين متجاورتين. فردت الأولى يديها بحيث شكلتا حاملاً لشريط من الصوف التف عليهما، في حين أمسكت الأخرى بطرف شريط الصوف وانهمكت في لفه على شكل كرة. وكانتا إلى جانب العمل تمضغان العلكة وتتحدثان. وأنا على عجلة من أمري، فإذا لم أحصل على الرقم الضائع وأنتقل إلى الدائرة الأخرى حتى يوقع الموظف المسؤول على أوراقي، فإن النقود التي ورثتها ستصبح من نصيب الخزينة. نعم أنا على عجلة من أمري، لكني لم أشأ أن أقاطعهما قبل أن تنتهيا من العمل الذي بين أيديهما ومن الحديث الذي تتبادلانه، فبقيت واقفاً أمامهما على أمل أن تسألني واحدة منهما عما أريد أو أنتظر، من تلقاء ذاتها... لكنهما في واد آخر تماماً... وبما أنني كنت أقف أمامها فقد سمعت الحديث الدائر بينهما دون قصد مني.

«هل تعتقدين أن نهال اشترت معطف الفراء ذاك بالتقسيط؟»

«وما أدراني يا أختي. هي التي قالت ذلك.»

«هيا... هيا!!!... لا يمكن لي أن أصدق ذلك أبداً... لتكذب كذبة كهذه على مؤخرتي..»

مددت الأوراق التي أحملها باتجاههما فوق الطاولة على أمل أن تنتبها إلى وجودي. لم تريا رزمة الأوراق ولا رأتاني. تابعتا الحديث:

«قبل أي اعتبار آخر، فإن راتب نهال لن يكفي لتسديد أقساط ذلك المعطف. أما إذا كانت تدبرت طريقة أخرى لدخل إضافي، فهذا ليس من شأني»

«ومن أين لها الدخل الإضافي يا عزيزتي!»

«آوه! لا تقولي ذلك... إن أمثالها ينجحن في تدبر مصدر دخل إضافي..ويا لها من مصادر دخل... إن آمثالي وأمثالك لا يفهمن في هذه الأمور...»

«لكنه ليس فراءً حقيقياً يا عزيزتي.»

«ما هو إذن؟»

«إنه زائف.»

«زائف أو غيره، أليس فراءً؟»

«ليس غالي الثمن كما تظنين...»

«ليكن ما يكون... لم نعجز عن شراء مثله أنا وأنت؟»

«من هذه الناحية أنت على حق.»

انتظرت بلا جدوى أن تنتهيا من لف الصوف على الكرة، لتلاحظا وجودي. لقد انتهتا من لف الصوف. والآن فإن واحدة منهما علقت طرف الصوف بالصنارة وبدأت تحيك، في حين انهمكت الأخرى في تقليب مجلة مصورة أمامها، وتابعتا حديثهما إلى جانب ذلك. فاضطررت إلى مقاطعتهما بصوت متردد خشية أن أنال توبيخاً: «سيدتي... أرجوك..» لكنهما لم تأبها بي.

«ها أنت ترينني ما زلت أرتدي المعطف الذي فصلته الشتاء الماضي.»

«وأنا كذلك والله...»

«ألسنا نساءً؟ ألا نعرف مثلها أن نلبس ونتأنق؟»

حاولت أن أقاطعهما بالقول: «عفواً مدام...» لكن تلك المرأة التي كانت تقلب المجلة استاءت فجأة وراحت تبحث هنا وهناك وهي تقول:

«أين اختبأت تلك الإضبارة اللعينة!» . كانت تنقب بيديها مثل دجاجة في بحثها عن الإضبارة، ما جعلها تمعن في خلط الأوراق والإضبارات وبعثرتها فوق الطاولة.

قلت بصوت هادئ: «إني على عجلة من أمري يا سيدتي... الأمر ملح جداً...» تظاهرت بأنها لم تسمعني وتابعت بحثها عن الإضبارة وهي تواصل حديثها إلى زميلتها:

«ولم أكذب عليك يا أختي، فلن أخفي عنك ما يعرفه رب العالمين. الحق أنني أرغب بامتلاك معطف فراء مثله.»

«أنا لن ألبس الفراء الصناعي. إذا كان لي أن أشتري واحداً، فيجب أن يكون طبيعياً.»

«هل رأيت قلمي الناشف؟» قالت الأخرى ذلك وراحت تبحث عن قلمها.

قلت لها: «سيدتي... ممكن... أريد أن أسأل...»

لم ترد علي أية منهما. واظبتا على الكلام وإحداهما تبحث عن قلمها الناشف، والأخرى عن الإضبارة الضائعة. تأوهت ضيقاً وتأففت. وفعلت ذلك بصوت مرتفع على أمل أن ألفت انتباههما. وإذ لم ينفع ذلك رحت أنقر بأصابعي على حافة الطاولة. ذلك أن الإنسان، باعتباره كائناً حياً على كل حال، لا يستطيع أن يقف جامداً هكذا من غير أن يتململ. لقد نفع نقري على حافة الطاولة. فقد صرخت إحداهما بي: «كفاك ضرباً على الطبل فوق رأسي! هذه دائرة حكومية رسمية.»

«لدي عمل عندكم...»

«إن كان لديك عمل، فانتظر قليلاً! كل شئ بدوره!»

«لا ... أعني... لي مدة وأنا...»

«أعتقد أننا لسنا جالستين هنا بلا عمل... فكما ترى نحن نعمل. يا ربي! أين يختفي هذا القلم كل حين وحين؟»

لحسن الحظ كان معي قلم ناشف، سرعان ما أعطيته لها، فقالت: «وما هذا، هاته لنر...» فدفعت برزمة الأوراق فوق الطاولة نحوها. وقبل أن أتفوه بكلمة قالت لي: «هه! عليك أن تذهب بها إلى إبراهيم بيك»

«إبراهيم بيك؟ من هو إبراهيم بيك؟»

«يا سلاااام! وتسأل عن إبراهيم بيك؟ إنه موظف في هذه الدائرة... اذهب واسأل السعاة!»

قالت لها الموظفة الأخرى: «من الخطأ التعاطي مع هؤلاء يا أختي. اتركي عملك إذن لتحدثيه عن إبراهيم بيك!»

«والله صحيح... لا ينفع عمل الخير مع هؤلاء.»

خرجت من القاعة. كان في الممر عدد كبير من الرجال يشبهون السعاة. فأنا أعرف السعاة جيداً بسبب تنقلي بين الدوائر لفترة طويلة من أجل موضوع الإرث، كما أعرف كيف يتوجب التحدث إليهم. رأيت واحداً من السعاة جالساً على كرسي أمام باب إحدى

الغرف، داساً إحدى قدميه تحته وهو يحرك سبحةً في يده. سألته: «قيل لي بأن ثمة شخصاً يدعى إبراهيم بيك يعمل في مكان ما هنا، ترى في أية غرفة يعمل؟»

إن الشيء الوحيد الذي أرجوه من الله يا أخوتي، إذا حدث وحصلت على بطاقة شخصية واعترف رسمياً بوجودي حياً أرزق، هو أن أعمل ساعٍ. وهل ثمة ما يضاهي مهنة الساعي! إذا أصبحت ساعياً على باب غرفة رجل كبير، فلا شئ تخشاه بعد ذلك... هؤلاء السعاة يتشابهون جميعاً. فإذا سألت أياً منهم سؤالاً وليكن« أين الباب؟» مثلاً، فإنه يتربع وينتفخ ويتحكوك ويفكر قليلاً، وكأنك سألته أصعب سؤال في العالم، وفقط بعد ذلك يقول ما يريد قوله. إنه يتصرف بتلك الطريقة حتى يفهم من يقف أمامه ألا يستخف بالسعاة.

بالطريقة نفسها تصرف الساعي الذي سألته عن غرفة إبراهيم بيك. فقد حك رأسه مستغرقاً في التفكير وقلص عينيه وهو ينظر إلى نقطة بعيدة ثم أجابني:

«قلت من؟ إبراءام بيك؟ ترى أي إبراءام بيك تقصد؟»

«لا أعرف... قيل لي إنه يعمل في هذه الدائرة.»

«هناك إبراءام بيكات كثيرين يعملون في هذه الدائرة... أكثر من نصف العاملين هنا إبراءام. البعض منهم اسمه بالمعمودية إبراءام، والبعض الآخر اسمه الحقيقي إبراءام، البعض اسم أبيهم إبراءام، والبعض اسمه التحببي إبراءام. إنهم جميعاً إبراءام ابن إبراءام... إبراءامات بالجملة... أي إبراءام منهم تحتاج يا ترى؟»

«لا بد أنه واحد من الموجودين هنا، لكني لا أعرف أياً منهم يكون.»

«في هذه الحال من الصعب الاهتداء إلى إبراءام بيك الذي تحتاجه.»

وبدأ يعد الإبراهيم بيكات الذين يعملون في الدائرة وهو يتسارع في عده مثل محرك:

«لدينا عزيزي أبراءام بيك، وإبراءام بيك الشيف، وإبراءام بيك الميمون، وإبراءام بيك في الشعبة الثالثة، وإبراءام بيك زوج الست زليخة، وإبراءام بيك ذو الطابقين، وإبراءام بيك المجنون، وذلك الإبراءام بيك الذي لا أتذكر اسمه»

قلت له مشيراً إلى باب القاعة التي تعمل فيها الموظفتان: «إبراهيم بيك الذي أبحث عنه، دلتني عليه سيدتان تعملان هناك.»

«هه. الآن فهمت! لم لا تقول ذلك من الأول؟ إن إبراءام بيك الذي قصدتاه قد فصل من العمل، فصله المدير. هل تعرف ما هو أحسن ما يمكنك أن تفعله؟»

«ماذا أفعل؟»

«اذهب إلى إبراءام بيك في قلم التوزيعات!»

«لماذا؟»

لأنه أفضل واحد بين الإبراءام بيكات هنا. فهو لا يوبخ بلا سبب أي مواطن يقصده لأمر من الأمور. إنه موظف طيب جداً...»

«ماذا لو أن ما جئت لأجله لا علاقة له به؟»

«ليكن... هل سينقص منك شئ إذا ذهبت إليه وقابلته؟ فأنت مضطر على كل حال لأن تدور على جميع الإبراءام بيكات في هذه الدائرة. اذهب أولاً إلى إبراءام بيك في قلم التوزيعات. فإذا كان الحظ حليفك قد تكتشف أنه إبراءام بيك الذي تبحث عنه. اعتبر أنك ربحت الجائزة الكبرى في اليانصيب.»

«من أين لي حظ مماثل! يا إلهي! ترى أي إبراهيم بيك منهم؟»

«أخبرني ما هو موضوعك، لأساعدك.»

«عندي قضية إرث... فقد مات أبي وأعطاك عمره... لقد نسوا رقماً لا أدري ماذا يخص، على الأوراق الخاصة بتلك القضية.. أعني أن الأمر يتعلق بنمرة من هذا النوع...»

نهض الساعي واقفاً، من حيث كان متربعاً على الكرسي، وضع يده على كتفي وقال: «هه. الآن فهمت!... لم لا تقول ذلك يا عزيزي! هل تعرف أي إبراءام بيك هو المقصود؟»

«ومن أين لي أن أعرف!»

«أليست مشكلتك هي مشكلة نمرة؟»

«نعم. مشكلة نمرة.»

«إذن عليك أن تذهب إلى إبراءام بيك النمرجي(*).»

نظرت في وجهه لأعرف إن كان يسخر مني. لم أر أية علائم تدل على السخرية.

«النمرجي؟»

«إيه، النمرجي. إنه في قلم الأوراق. ولأنه يرقم جميع الأرقام فهو يلقب بإبراءام بيك النمرجي. في ذاك الاتجاه، في نهاية الممر تنعطف فتدخل الباب الأول على اليمين.»

«سلمت يا ابن البلد.. الله يرضى عليك» قلت له ومشيت إلى حيث أشار لي. نقرت على الباب ودخلت... كان ثمة رجل غارق بين دفاتر وإضبارات ضخمة وأكوام من الأوراق... لا أحد في الغرفة سواه.

سألته: «المعذرة... حضرتك إبراهيم بيك؟»

«ماذا ستفعل به؟»

أي سؤال! وماذا سأفعل بإبراهيم بيك!

في العادة كان المهجع يغرق في الصمت عندما يحكي يشار يشامز. لكن عندما قال: «وماذا سأفعل بإبراهيم بيك!» ارتفع صوت يقول:

- اعمل منه لحمة بالخضار، اطبخ منه سليقة، محموسة!

انفجرت الضحكات في المهجع. البعض غيَّروا من وضعيات جلوسهم، والبعض أشعلوا سيجارات.

- إيه... وبعد يا يشار؟

- وبعد يا أخي قلت له: «لن أفعل له شيئاً. أبحث عنه من أجل أمر. ثمة رقم ناقص..»

قال لي: «هه! أنت تبحث إذن عن ذلك الإبراهيم بيك.»

أجبته كالعارف: «نعم. إني أبحث عن ذلك الإبراهيم بيك.»

«ذلك الإبراهيم بيك ذهب إلى آيتن هانم.»

(*) نمرة = رقم/نمرجي= النصاب. والكلمة مشتقة من نمرة التي تعني أيضاً: خدعة.

«ترى أين تكون آيتن هانم الآن؟»

توتر فجأة وقال: «وما أدراني أين تكون آيتن هانم!»

«العفو. أعني، أين مكان عملها؟»

«من؟ آيتن؟ إنها تعمل على الآلة الكاتبة في الطابق الثاني.»

كنت في غاية التعب. ولشدة ذهولي وعدم معرفتي ماذا أقول خرجت من فمي«هكذا إذن؟» ممطوطة. فقال لي:

«كيف هكذا إذن؟ وماذا كان علي أن أقول؟»

«أعني أردت أن أسألك أين يكون الطابق الثاني؟»

فتح فمه بعرض شبر وأدخل سبابته داخل فمه وصرخ بي: «إنه هنا! وهل يسأل المرء عن الطابق الثاني! الطابق الثاني هو في الطابق الثاني.»

الرجل معه حق في أن يستشيط غضباً. خرجت بسرعة. الوقت يتقدم ولم أحصل على الرقم بعد. عليَّ أن أحصل على الرقم هنا، ثم آخذه إلى الدائرة الأخرى لأظهره للموظف فأحصل على الموافقة، حتى أسحب نقودي أخيراً من البنك. ولا أعرف كيف سأنجز كل ذلك في يوم واحد. وأنا أركض هكذا في الممر اصطدم بي رجل مسرع قادم في الاتجاه المعاكس، فطوح بي جانباً في حين وقعت رزمة الأوراق التي أحملها في الجهة الأخرى. صرخ الرجل الذي أوقعني أرضاً: «على مهلك يا! هل يجوز أن تصدم الناس هكذا!»

نهضت واقفاً ولملمت رزمة أوراقي وأنا أقول له: «حدث ذلك بلا قصد...» وكأنني أنا من صدمه وليس العكس.

ارتفع صوته أكثر: «وهل كان المفروض أن تصدمني عن قصد!»

يا لها من ورطة! سايرته حتى أتخلص منه وأبتعد: «المعذرة. لم أصدمك وحدي، أنت أيضاً صدمتني... لقد تصادمنا.»

استسلم الرجل بصورة مفاجئة، قال: «الحق معك، فأنا على عجلة من أمري، لذلك فأنا أتراكض في هذه الممرات كالمجانين منذ الصباح.»

«أنا أيضاً على عجلة من أمري.. وتعبت كثيراً.»

استند إلى الجدار وقال: «أووف! لآخذ نفساً ثم أتابع البحث» ثم أخرج علبة سجائر وقدم لي واحدة. قال:

«أنا أبحث عن آيتن هانم.»

«آآآ... يا لها من مصادفة! فأنا أيضاً أبحث عنها.»

«ماذا ستفعل بآيتن هانم؟»

فسألته بدوري: «وأنت، ماذا ستفعل بها؟»

«آآآه... إذا وقعت في يدي! قيل لي إن آيتن هانم عند متين بيك. سأقصد متين بيك وأسأله عن آيتن هانم. وإذا اهتديت إلى آيتن هانم فسوف أسألها عن زهرة هانم»

«هه! إذن فأن عملك مع زهرة هانم»

«لا يا عزيزي. فقد ذهب صافي بيك إلى مكتب زهرة هانم. سأسأل زهرة هانم عن صافي بيك الذي سيخبرني أين يكون كامل بيك. إن شأني هو في الحقيقة مع رمزي بيك، وأنا أبحث عنه. لكن رمزي بيك قد ذهب إلى غرفة كامل بيك...»

«آآآآ! إن مشوارك طويل...»

«بالطبع طويل. وهل موضوعك سهل؟»

«يمكن اعتباره كذلك. أنا أبحث عن إبراهيم بيك الذي ذهب إلى عند آيتن هانم. فإذا عثرت على آيتن هانم تم الأمر. سوف أحصل على رقم وأنصرف على الفور»

«أنا أيضاً جئت إلى هنا العام الماضي من أجل رقم، وما زلت أسعى وراء ذلك الرقم... إن شاء الله ستحصل على رقمك... لنتحرك، فقد أضعنا كثيراً من الوقت.»

مشى كل منا في اتجاه معاكس للآخر، هتف يقول لي:

«إذا اهتديت إلى آيتن هانم، أرجوك أخبرني عن مكانها.»

سمع صوتٌ نسائي من الطرف الأقصى للممر:

«أنا أيضاً أبحث عن آيتن هانم... أخبروني عن مكانها إذا اهتديتم إليها...»

أجبتها صارخاً: «طيب... طيب.»

برز شخصٌ آخر يبحث عن آيتن هانم، قال ساخراً:

«نحن جميعاً نبحث عن آيتن هانم. تعالوا ننشئ جمعية الباحثين عن آيتن هانم.»

صعدت إلى الطابق الثاني حيث بحثت مطولاً ودخلت عدداً لا بأس به من الغرف وخرجت منها. وأخيراً دخلت غرفة كبيرة قيل لي إن آيتن هانم تعمل فيها. رأيت داخلها ثلاث نساء. قلتُ:

«أريد مقابلة آيتن هانم يا سيداتي.»

وإذ لم ترد علي ولا واحدة منهن، أضفت قائلاً: «إني أبحث عنها من أجل عمل.»

أجابت إحداهن: «وأي عمل هو؟ أخبرنا، لعلنا نخدمك نحن.»

«أنا في الحقيقة أبحث عن إبراهيم بيك.. قيل لي إنه عند آيتن هانم.»

صرخَتْ تلك التي أجابتني، باتجاه باب جانبي مفتوح: «آيتن.. آيتن!»

فسمعتُ صوتاً نسائياً يرد من تلك الغرفة الجانبية: «ذهبت آيتن إلى غرفة المدير»

سألتُ: «هل أنتظر؟ لعلها لن تتأخر؟»

«وما آدراني إن كانت ستأتي بسرعة أم ستتأخر؟ اذهب واسأل عنها المدير..»

«طيب.. وأين المدير؟»

«أيُّ مدير؟»

«ألم تقولي إن آيتن هانم قد ذهبت إليه؟ ذاك المدير هو من أعنيه.»

صرخَتْ الموظفة مجدداً باتجاه الباب المفتوح:

«يا جماعة! هل يعرف أحد منكم أين هو المدير؟»

أجاب صوتٌ من تلك الغرفة ذات الباب المفتوح:

«المدير؟ قبل قليل كان ذاهباً إلى دورة المياه، ولكن..»

صوت آخر من تلك الغرفة: «لقد مضى وقت طويل على خروجه من دورة المياه.. الأرجح أنه نزل إلى قسم المحاسبة.»

المرأة التي ما زلتُ واقفاً أمامها: «يقول إنه في قسم المحاسبة. اعثر على المدير. هو يعرف ولا بد أين تكون آيتن هانم.»

«أين قسم المحاسبة؟»

«أنت لا تعرف أيَّ شيء يا أخي! اصعد طابقين ثم اهبط طابقاً واحداً. هناك ستجد قسم المحاسبة.»

ضحكت الموظفات. قلت لها: «شكراً» وخرجت.

كان الطابق الثالث مثل يوم الحشر. الناس يتراكضون في جميع الاتجاهات يهتفون بعضهم لبعض، يصرخون ويسألون:

«من هو مدير التدقيقات؟ هل ثمة من يعرف؟»

«أين قسم الذاتية يا عزيزي؟»

«آيتن هانم، آيتن هانم!»

«هل تعرفون أين هي آيتن هانم؟»

«وهل بقي من لا يعرف أين تكون عادة؟»

«ابحثوا في القلم..»

«هل رأيت الموظف المسؤول عن الأموال العينية يا عزيزي؟»

«إذا اهتديت إلى آيتن هانم، أرجوك أخبرني عن مكانها.»

«رضا بيك؟ إنه في غرفة محمود بيك.»

«أين الصندوق؟ هل ثمة من يعرف؟ »

«قالوا إن أمين الصندوق قد ذهب إلى قسم السكرتارية.»

كان ثمة موزِّع شاي يدور في الهواء صينية ذات علاَّقة امتلأ سطحها بكؤوس الشاي المملوءة، وهو يشقُّ طريقه وسط كل ذلك الازدحام ويصرخ: «هوووب! شاياتي دمعة!»

«عفواً، أين الصندوق؟»

كان ثمة امرأة عجوز تقود صبياً صغيراً يبكي من يده، باحثةً عن مكان يبول فيه وهي

تسأل: «ترى أين المرحاض؟»

اعترضت طريق شخص ظننته أحد الموظفين، وسألته عما إذا كان يعرف مدير قسم المحاسبة، فقال لي: «وكيف لا أعرفه! إنه صديقي لأربعين عاماً مظهر بيك..» ثم فتح باباً على الفور ودخل منه.

كنتُ قد جمدت حيث أنا لشدة الزحام الذي سدَّ عليَّ الطريق. وكان أمامي رجلان مُسنَّان يتحادثان ويتضاحكان:

«يا ما شاء الله! يا ماشاء الله! انظر إلى هؤلاء الناس يا سيدي ويقولون إن الدوائر الرسمية لا تشتغل.. ويقولون إن المعاملات لا تمشي.. ويقولون عنا إننا تنابل.. انظروا إلى هذا الفوران والتراكض.. انظر كيف يتنقل الناس راكضين من غرفة إلى أخرى.. ومن باب إلى آخر، حرصاً منهم على الوقت.. انظر كيف يرغي الحشد ويمور..»

«والله برافوا! لم أر دائرة تؤدي كل هذا العمل.»

وصرخ أحدهم وبدا مثل منادي المحكمة:

«نباهت هانم الدكتيلو! نباهت هانم الدكتيلو(*).»

كنتُ أتحرك وسط الحشد خطوةً خطوة. وبالنظر إلى رائحة البول التي أصبحت قوية، لا بد أنني اقتربتُ من المرحاض.

وصلتُ إلى حيث رأيت بابين كتب على أحدهما "للسيدات" وعلى الآخر "للسادة"، وإذ بامرأة بدينة ألقت بنفسها عليَّ وهي تقول: «أوه! آه! اختنقت..» ثم تمتمت: «قليلاً من الماء.. إني أموت.. قليلاً من الماء.»

وأين هو الماء؟ ألف حمدٍ لله أننا نجد الهواء. يئست المرأة البدينة من الحصول على الماء، وقالت: «نزل الماء الأسود على ركبي وأنا أبحث عن مدير الشعبة، آهٍ لو أهتدي إلى مدير الشعبة فإن باقي الإجراءات ستمشي مثل انحلال فردة جوارب.»

أزحت المرأة البدينة ببطء عن صدري وأسندتها إلى الجدار وسألتها:

«عمَّن تبحثين؟»

(*) أي ضاربة الآلة الكاتبة

«وهل أعرف عمَّن أبحث يا بني؟ لقد اختلطوا عليَّ جميعاً. وحتى لا يتشوش ذهني تماماً، كتبت من ذهب إلى غرفة من. سأعثر على مدير الشعبة لأسأله عن مكان سكرتير السيد معاون المدير. وأسأل السكرتير عن جمال بيك، وأسأل جمال بيك عن هاشم بيك.. قيل لي إن هاشم بيك قد ذهب إلى غرفة مدير القسم الثاني. وهذا الأخير عند مدير الأموال العينية.»

كانت المرأة تقرأ من دفترها. ولقد أرادت أن تتابع القراءة، لكنني قاطعتها قائلاً: «أما أنا فأبحث عن مظهر بيك». كانت المرأة تئن وتتنهد: «آي.. أووف..» سألتها: «هل تشعرين بضيق؟» فأجابت: «وهل يشعر المرء في مكان كهذا بالفرج؟ بالطبع أشعر بضيق.» الأرجح أنها فقدت رشدها، ذلك أنني ابتعدت عنها فلم أر ما حدث لها.

كان ثمة عجوز يصرخ بحنق: «الله! الله! لا أحد في هذه الدائرة يتواجد في مكانه! ما هذا؟! لا أحد يعرف من في غرفة من.. ترى هؤلاء الموظفين يعملون أم يتحركون من غرفة إلى غرفة مثل المكوك.. هنيئاً لمن يهتدي إلى من يبحث عنه.. لي أسبوع، وأنا آتي وأذهب، ولم أتمكن بعد من العثور على الموظف الذي أبحث عنه!»

وفجأة سألني: «منذ متى وأنت تتجرجر هنا أيها الشاب؟»

«لقد جئت هذا الصباح»

«أواه! أنت إذن ما زلت في أوَّل الطريق يا بني.»

أخيراً وصلتُ إلى قسم المحاسبة، فدخلتُ. رأيت أولاً شخصين أحدهما رجل والآخر امرأة. كانت المرأة تصبغ وجهها وفي يدها مرآة. أما الرجل فكان يملأ ورقة يانصيب "التوتو" وهو يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع. بقيت واقفاً لفترة وأنا أنظر إليهما، فرأيت أمامي جريدة مبسوطة تتحرك، فأدركت وجود شخص ثالث وراءها. بما أن الرجل الذي يملأ ورقة التوتو والمرأة التي تصبغ وجهها مشغولان، فقد اتجهت بسؤالي إلى الجريدة المبسوطة: «المعذرة. هنا قسم المحاسبة؟» انخفضت الجريدة فجأة، فرأيت أمامي شاربين يرتعشان غضباً ونظارتين تتأرجحان. أسفل النظارتين شاربان، وأسفل الشاربين فم.. انفتح ذلك الفم وانطبق: «ألم تر ما هو مكتوب على الباب؟»

«رأيته يا سيديْ.. قيل لي إن آيتن هانم قد ذهبت إلى قسم المحاسبة.. ومظهر بيك

من قسم المحاسبة..»

«مظهر بيك إما أنه صعد إلى غرفة السيد المعاون، أو نزل إلى غرفة راغب بيك»

«ترى إلى أي منهما ذهب؟»

«ألقِ نظرة عند كليهما، فإذا لم تجده لا هنا و لا هناك، اذهب لتسأل عنه مدير الإدارة.»

عاد إلى إخفاء وجهه وراء الجريدة.

«المعذرة، إني أسبب لكم الإزعاج. أين هو مدير الإدارة؟»

صرخ من وراء الجريدة:

«اسأل الاستعلامات في الطابق الأرضي:أنا لست دليلاً!»

خرجتُ من قسم المحاسبة. سألني شخص: «أين إدارة الخدمات العامة؟» فسألتُهُ بدوري عن مظهر بيك. سألني شخص آخر: «لماذا تبحث عن مظهر بيك؟» قلتُ له: «ذلك أن آيتن هانم قد ذهبت إلى غرفة مظهر بيك.»

فقال لي: «لا يا عزيزي، هذا مستحيل! كيف يمكن لآيتن هانم أن تذهب إلى مظهر بيك؟»

«ولِمَ لا يمكنها؟»

«لأن مظهر بيك توفّى العام الماضي وأعطاكم عمره.»

«هكذا إذن؟»

«طبعاً.»

«بسلامتكم. لأذهب إذن إلى مدير الإدارة.»

«هاهي غرفة مدير الإدارة!»

ياله من حظ! كنت قد وصلت إلى باب غرفة مدير الإدارة من غير قصد. كنت على وشك أن أنقر الباب وأدخل، عندما شدني أحدهم قائلاً: «هيه! إلى أين؟»

«أريد أن أقابل مدير الإدارة.»

قال لي مصحِّحاً: «السيِّد مدير الإدارة...»

«نعم، السيد مدير الإدارة.»

لكنه لم يصغِ إلي. كان يسند جهاز راديو صغيراً يعمل على البطاريات فوق أذنه. يتابع مباراة في كرة القدم.وكان من حين لآخر ينفعل ويقفز وهو يهتف بعبارات ذات معنى مثل: «هيّا! عشت!...أدخله!» أو يهمهم بأصوات لا معنى لها، ويتحدَّث إليّ بصورة متقطعة. وإذا تحدَّثْتُ في لحظة حماسية من المباراة المنقولة إذاعياً، كان يمد إحدى يديه ويسدُّ بها فمي، مضيقاً شفتيه في علامة«صه!»

«تريد إذن أن تقابل السيد المدير؟»

«نعم.»

«طيِّب، ونحن ماذا نكون؟هه؟من نحن؟ لِمَ لا تسأل، لِمَ لا تستشير؟»

لقد فهمتُ أنه بواب الإدارة. تظاهرتُ بعدم الفهم وقلت له: «ما الذي عليّ أن أسأل؟»

«اسألني إن كان بإمكانك أن تقابل السيد المدير»

«حسناً..هل بإمكاني أن أقابل السيد المدير؟»

«هه! هكذا! نعم ينبغي أن تسأل هكذا!»

«ها أنا قد سألتك:هل بإمكاني أن أقابل السيد المدير؟»

«لا.لا تستطيع.»

«لماذا؟»

«لأن السيد المدير ليس هنا.»

كنت قد اعتدت على أن الجميع يذهبون إلى عند الجميع. فسألته: «إلى عند من ذهب؟»

«لقد ذهب إلى المباراة...لقد ذهب السيد المدير إلى المباراة.»

تصوَّروا يا إخوتي إلى أي حد كنتُ مرهقاً وذاهلاً. لشدة ذهولي فوجئتُ بنفسي وأنا أسأله: «في أي طابق هي المباراة؟»

«ماذا؟! في أي طابق؟»

«أعني...أردتُ أن أسألك إلى عند من ذهبَتْ المباراة؟»

«مالذي تتفوَّه به يا! أين يمكن لمباراة أن تقام؟ بالطبع في الستاد..لقد ذهب السيد المدير إلى الستاد.»

صرختُ: «أوّاااه!» وبدأت أركض وأدور.

لم يبقَ لدي من أمل سوى البحث عن مدير الإدارة في الستاد. لعلَّ الآخرين معه هناك. حتى إذا لم أجدهم معه، فسوف يعرف أين يكونون...

اندفعتُ خارج الدائرة وبدأت أركض كالمجانين. إذا ذهبتُ بوساطة سيارة سرفيس، فسوف أتأخر. ركبتُ سيارة تاكسي. عندما وصلتُ إلى الستاد كانت المباراة قد بدأتْ منذ وقت طويل.

لم ألاقِ صعوبة في الدخول. وكم كان الستاد مزدحماً! أي كما يقال إذا رميتَ بإبرة فلن تصل الأرض. كيف سأعثر على المدير وسط كل هذا الإزدحام؟ استطعتُ بلوغ مدرَّج الشرف بعد الكثير من اللف والدوران والوقوع والنهوض وتلقي الضرب والدفع، وقد تمزَّقَتْ ثيابي كلها.

كان عليَّ أن أعثر على المدير بسرعة. صنعتُ بيديَّ بوقاً حول فمي وبدأتُ أصرخ: «سيدي المدير! سيدي المدير! سيدي المدير!» ولكن سدى.فمشاهدي المباراة كثيرين جداً، والجميع يصرخ. أما أنا فشخص واحد. كيف لي أن أعلو بصراخي على صراخ الآلاف؟ لقد كانوا يحوصون ويصرخون ويتذمَّرون. وأنا أصرخ وسط صراخهم: « سيدي المدير!» وصراخي يتداخل مع صراخهم: «ولاااك، يا بقراااا!»

«سيدي المديييير!»

«يوووووه!»

«كووول!»

«إنه فاول ولاك فاول!»

«هشت يا دب يا ابن دببة!»

«سيدي المديييير!»

«يووو!»

«يا عربة البقر!»

«نَظَّارة للحكم!»

«سيدي المديييير!»

كانوا يدفعونني ويبعدونني لأنني أقف أمامهم فأحجب عنهم الرؤية. سألتُ شخصاً ذا هيئة محترمة: «المعذرة، ترى أين السيد المدير؟ هل رأيته؟»

فدفعني قائلاً: «أبعد من أمامي ولاك! أيُّ مدير يا زرزور!»

أما الواقف بجانبه فقد ركلني قائلاً: «أفسح ولاك!»

«لماذا يصرخ هذا الرجل بكلمة المدير؟ هل هو مجنون؟»

«وهذا فقد عقله بسبب مدير.»

ثمة في العالم أناس طيِّبون أيضاً. سألني واحد من طيبِّي القلب هؤلاء: «هل تبحث عن المدير؟»

أجبته بفرح: «نعم. إني أبحث عن السيد المدير. لديَّ أوراق فيها رقم ناقص... قالوا لي إن السيد المدير قد جاء إلى "الستاد" وأنا أبحث عنه.»

«انظر، هناك شرطي. الشرطة تعرف... اذهب واسأله الآن، فنحن في استراحة مابين الشوطين.»

شكرتُهُ وتقدَّمتُ نحو الشرطي. سمعتُ فاعل الخير الذي ساعدني وهو يسخر مني قائلاً: «طوووط! انظروا كيف زحلقتُ الغبي!». مشاهدو المباراة الذين مررتُ أمامهم كانوا يضربونني أينما وقعَتْ أيديهم وهم يسخرون ويشتمون: «عربة الحجارة!..يا لوووح!» وماشابه من كلام. والحق أني لم أكترث بأولئك الوقحين لأنه لم يكن لدي وقت

لأتشاجر معهم.

كنت قد تلقيت ضرباً ودفعاً كثيراً حتى وصلتُ إلى الشرطي، فتساقطت جميع أزرار ملابسي. حتى أن بنطالي كان سينزلق إلى الأرض لولا أنني أمسك نطاقه بيديّ... المهم أنني وصلت إلى الشرطي وأخبرته بأنني أريد أن أرى المدير من أجل أمر عاجل و في منتهى الأهمية. سألني عما يكون هذا الأمر. فكرتُ بأنه لن يدلني على مكان المدير إذا قلتُ له بأنني أريد أن أراه بسبب رقم ناقص في أوراقي. ألححتُ عليه قائلاً: «الأمر هام جداً ومُلحّ جداً.» لعله ظن أن الأمر يتعلق ببلاغ عن عمل تخريبي أو مانحوه. قال لي: «تعال معي!» ومشى أمامي وهو يفتح لي الطريق، وقادني إلى مكان ما وراء المدرجات. أدخَلَني غرفة مؤثثة بصورة جيّدة حيث جلس رجل وراء طاولة وهو يتحدث في التلفون. قال له الشرطي: « سيِّدي المدير.هذا الرجل يريد أن يتحدث إليكم في أمر هام جداً كما يقول.» حيّيتُ الرجل بحركة من رأسي وأنا أمسك بزنّار بنطالي. فسألني: «ما الآمر؟»

«لقد بحثت عنكم مطوَّلاً سيدي المدير، حمداً لله أنني وصلتُ إليكم أخيراً....»

«اختصر! ما هو الموضوع؟» كان مايزال ممسكاً بسمّاعة الهاتف.

«سيدي... لقد كانت لدي قضية إرث... بعد سنتين من الانشغال بتلك القضية وصلت إلى نهاية المطاف والحمد لله.» قال للشرطي الذي كان على وشك الخروج من الغرفة: «قف، قف! ابقَ هنا! انتظر!» تابعتُ كلامي: «ولكن تبيَّن أن في الأوراق رقماً ناقصاً. إنها هذه الورقة.»

قلتُ ذلك ومددتُ إليه رزمة الأوراق. صرخ المدير وهو يتراجع إلى الخلف: «ما هذا الذي تقوله!»

«أطلب رقماً.» قال للشرطي: «خذه من هنا! خذه من هنا!»

أمسكني الشرطي وشدَّني إليه. لاحظتُ أن المدير غمز للشرطي بعينيه وحاجبيه ووجهه في منتهى الشحوب.

«كنت أبحث أصلاً عن آيتن هانم... لكنهم قالوا بأن آيتن هانم قد ذهبت إلى مكتب مظهر بيك... ولأن مظهر بيك توفي العام الماضي، البقية في حياتكم...»

كان المدير يدفع يديه إلى الأمام وهو يكرر القول متوجهاً إلى الشرطي: « خذه من

هنا! هيا خذه من هنا!». كان الشرطي يمسك بيدي، لكنه لسبب ما يعاملني بلطف. أما المدير فقد بدا أنه لانَ قليلاً وهو يقول لي: «ما الذي تقوله أنت! فلم أفهم عليك شيئاً.»

«إني أحاول أن أشرح لكم.»

كان المدير ينظر إليَّ بعينين وسَّعهما الخوف. «عليّ أن أحصل على هذا الرقم اليوم من كل بدّ. وإلاّ فإن نقودي سيصادر عليها لصالح الخزينة.»

«ما الذي تحكيه يا؟»

«إني أحكي لك همّي... ثم يا سيِّدي، قيل لي بأن إبراهيم بيك سيعطيني ذلك الرقم.»

« أيها الشرطي. خذه من هنا .خذه من هنا!» بدأ الشرطي يشدني، فحاولتُ شرح مشكلتي بسرعة: «إبراهيم بيك ذهب إلى آيتن هانم، وذهبت آيتن هانم إلى المدير، والمدير إلى من لا أعرف... أما من لا أعرفه فقد...» كان الشرطي يجرجرني خارج الغرفة وهو يصرخ بي: «هيا إلى الخارج! خلِّصني اخرج!» وهو يقول لي من جهة أخرى: «إن هذا مدير الستاد يا أخي!»

«آه لو أنني أعثر على آيتن هانم... فقط لو أعثر عليها...»

«ألا تفهم الكلام؟ هذا المدير مختلف.. إنه مدير الستاد.» أخرجوني من الغرفة بالقوَّة. ارتفعَتْ أصوات الصفّارات وتجمَّع عليّ رجال الشرطة. في تلك المعمعة انزلقَ بنطالي وتكوَّم على الأرض. بدأتُ أصرخ وأكرِّر: «آيتن هانم! يا آيتن هانم!»

ذلك المدير الذي كان يرتعد خوفاً قبل قليل، تشجَّع عندما جاءت الشرطة وراح يشتم: «...في تلك الآيتن هانم!»

تحمَّستُ بدوري ورحتُ أصرخ بأقذع الشتائم بصوت دوَّى في الستاد الضخم: «أنا أيضاً...أنا أيضاً... في تلك الآتين هانم، وفيكم، فيكم جميعاً، وفي مديركم ودائرتكم، في الرقم الذي ستعطونه وفي اللي خلَّفوكم...» تريدون أن تعرفوا كيف كان صوتي يدوِّي في كل أرجاء الستاد؟ إن ما كان المدير يمسك به وظننته سماعة هاتف، تبيَّن أنه ميكرفون متصل بمكبِّرات الصوت في الستاد. وهكذا كلما أطلقتُ شتائمي الثقيلة «آه... في تلك الآيتن هانم... وفيكم وفي دائرتكم» راحت شتائمي تدوّي مضخّمة داخل الستاد. وبسبب

اضطرابهم فقد نسوا أن يغلقوا الميكرفون.

انقضّ عليَّ رجال الشرطة وراحَتْ عصيُّهم تنهال على رأسي بلا رحمة. وكلما تلقَّيتُ ضربات العصي تابعتُ من شدة الألم إطلاق الشتائم على كل من يستحقها، بلا نقصان.

جرجرني رجال الشرطة و أقحموني داخل سيَّارة إسعاف. أدخلوني مشفى الأمراض العقليَّة. ضربني الأطباء إبرة مخدرة ففبتُ عن الوعي وأنا أقول وأردد: «:..في تلك الآيتن، في تلك الآيتن واللي خلَّفوها.» وهكذا دخلتُ مشفى المجانين أيضاً يا أخوتي.

بلغت الدهشة بنزلاء المهجع الذين كانوا يستمعون إلى حكاية يشار يشامز مبلغاً جعلهم يهتفون بصوت واحد:

- خوووود!

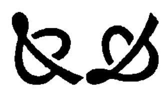
قال له شاب جالس بجانبه:

- ولكن كيف ألقوا بك في مشفى المجانين؟ فهم لا يستطيعون! أجابه يشار:

- نعم لا يستطيعون. فأنا مَيِّتْ. لكنهم لا يُصَدِّقون بأنني ميت لاعتقادهم بأنني مجنون. كلما قلتُ لهم بأنني استشهدتُ في معركة جنق قلعة عالجوني بضربات العصي وبصب الماء البارد فوق رأسي، ظانين أن كلامي هو كلام مجانين. فأستنجد بهم قائلاً: « أرجوكم كُفُّوا عن ضربي، فأنا شهيد.» نعم أيها الأخوة. أريد الالتحاق بالمدرسة، فيقولون بأنني ميِّتْ، وعندما يسوقوني إلى الجيش يقولون إنني حَيٌّ أرزق. أريد الحصول على ميراثي من أبي، فيقولون بأنني مَيِّتْ. وحين يريدون تحصيل الضرائب المستحقة على المرحوم أبي، يقولون بأنني حي. أقول لهم أعطوني بطاقة شخصيَّة إذا كنتُ حياً، فيرفضون بدعوى أنني مَيِّت. وعندما يريدون إدخالي مشفى المجانين يقولون بأنني حيّ...

مرة أخرى هتف المهجع:

- خُووووودْ!



-٨-

أكبر شخصيّةً في حفل الاستقبال

عند حلول المساء كان السجّانون يلاقون صعوبة كبيرة في إدخال السجناء إلى المهاجع. وخاصة إذا كان الطقس لطيفاً فإن المحكومين كانوا يبذلون كل جهد لتأخير دخولهم إلى المهاجع بقدر ما يستطيعون، لأنهم يشعرون بأنهم أكثر حرية في الباحة التي لا يغطّيها سقف. في حين أن نزلاء المهجع الأوّل من الجناح الثاني كانوا يدخلون مهجعهم مثل دجاجات اعتادت خُمهًّا، مع بداية انعكاس احمرار الشمس على جدران السجن وحتى قبل إطلاق السجان المناوب لصفّاراته. ذلك لأنهم كانوا يرغبون في الانتهاء سريعاً من تناول عشائهم، ليستمعوا بعد ذلك إلى ما سيحكيه لهم يشار يشامَزْ من أحداث جرت له. كان نزلاء المهجع متشوّقين لمعرفة كيف نجا يشار يشامز من مشفى الأمراض العقلية وكيف وقع بعد ذلك في السجن.

بادره واحد من زملاء المهجع، من الذين شاركهم طعام العشاء، بالقول، وهو يقدم له علبة سكائره:

- هيا أشعِل سيكارة يا يشار.

أخذ يشار سيكارة وشكر الرجل.

- إذن كيف نجوت من مشفى المجانين يا يشار؟

ألح سجين آخر:

- هيا احك لنا.

- حسناً يا أخوتي، لأحك.

حدثت حركة في المهجع، اتخذ كل واحد موقعاً له لكي يصغي إلى يشار. سعل يشار يشامز مرتين أو ثلاثاً. كان هذا السعال إشارة إلى بداية الحكاية، حتى يتوقف الجميع عن إصدار الأصوات:.

غرق المهجع في صمت لم يكن يقطعه من حين إلى آخر سوى التنهدات وإشعال القداحات وأعواد الثقاب. سحب يشار يشامز نفساً عميقاً من سيكارته وبدأ يحكي:

- لقد أخطأت التصرف. فقد كان علي أن ألتزم الصمت عندما دخلت مشفى الأمراض العقلية. في حين أن جنون الغضب جعلني غير قادر على ضبط نفسي، فظنوا بأنني مجنون فعلاً بالنظر إلى صراخي كل حين وحين بشتائم مقذعة من نوع: «... في تلك الآيتن هانم وفي أمها وزوجتها، في خلفتها وفي سلالتها وعائلتها بكبيرها وصغيرها، في أصلها وفصلها حتى سابع جد!»

قال أحد المحكومين:

- حسناً فعلت يا يشار، لا بد أنك تخففت جيداً بتلك الشتائم وانتعشت من الداخل.

- ماذا تقول يا أخي! فقد انتعشت ليس فقط من الداخل، بل كذلك من الخارج. لو أنك تعرضت لما تعرضت له، لكنت تجمدت من البرد، لا انتعشت وحسب. فقد كانوا يبللونني بطولي بالماء البارد الذي يرشونه علي بواسطة خرطوم.

- ولمَ ذلك؟

- وماذا تتوقع؟ ألم أكن محتداً بشدة؟ لقد أرادوا إذن أن يبردوني.

قال أحد السجناء وقد أحنقته الاستفسارات والمقاطعات:

- اسكتوا حتى يحكي بنفسه..

وقال آخر من فوق سريره في آخر المهجع:

- لا تزنوا في أم الكلام!

تابع يشار حكايته:

- لم يكتفوا برشقي بالماء البارد، بل هجموا علي بأحزمتهم العسكرية، فانهالت ضرباتهم على جسدي المبتل حتى لم أعد أحتمل. فأمسكت لساني واستسلمت. يبدو أنهم ظنوا بأنني مُتّ، فقد أوقفوا العلاج. لا أعرف كم مضى عليَّ من الوقت عندما عروني من ثيابي وألبسوني ملابس المشفى. ثم اقتادوني إلى الطبيب. عندما رأيته فرحت فجأة لأنني وجدت أحداً يمكن أن أشرح له مشكلتي، فقلت له:

«سيدي الدكتور، لقد ظنوا بأنني مجنون. والله بالله لست مجنوناً.»

ابتسم الطبيب وقال:

«ومن قال بأنك مجنون؟ طبعاً لست بمجنون.»

واحد من ذوي الصديريات البيضاء في الغرفة، قال مكشراً:

«ليس هناك مجنون واحد في العالم يبلغ به الجنون أن يعلن جنونه.»

عرفت لاحقاً بأن ذاك الرجل هو من قدامى الممرضين في المشفى.

استاء الطبيب من تدخله في الكلام، فنهره قائلاً:

«اهتم أنت بشؤونك وجهز الحقنة!»

ما سماه بالحقنة هو إبرة. وإذا قلت إبرة فلا تظنوا أنها الإبرة التي تطرز بها الفتيات حواف المناديل. إنها إبرة أكثر ثخناً من المسلة وأطول من مسمار الأساس...

عندما رأيت الإبرة سيطر علي الخوف، فقلت على أمل أن أنجو:

«سيدي... أولاً يستحيل أن أكون مجنوناً، لأنني ميت. صحيح أن المجانين يموتون مثل غيرهم، ولكن هل يجن الموتى؟»

عندما تفوهت بهذا الكلام ظن الطبيب بأنني أهذي، فطلب من الممرض أن يترك تلك الإبرة ويأخذ غيرها. الإبرة الجديدة أكبر من الأولى... لشدة كبرها خيل لي بأنهم سيسمرونني بوساطتها إلى الجدار. مددوني على سرير المعاينة ووجهي إلى الأسفل، خلعوا عني بنطال المشفى. عيني على الإبرة. أمسك الطبيب بالإبرة، ملأها بالماء. ونحن صغار كنا نصنع نوافير ماء من أعواد الصفصاف، ونفور بها الماء. كذلك فعل بها الطبيب عندما راح يفور الماء من رأس الإبرة ويلعب لبعض الوقت. على أمل أن أشرح له مشكلتي فأنجو من بين يديه، أخبرته مرة أخرى بأنني ميت وأضفت قائلاً: «وقد استشهدت.»

سألني وهو يتابع لعبه برشق الماء من رأس الإبرة: «وفي أية معركة استشهدت؟»

فأجبته قائلاً: «ليس مرة واحدة، بل استشهدت مرتين: مرة في معركة جنق قلعة، ومرة في ديرسم.»

«أنت تتحدث بصيغة من سمع الخبر من الآخرين. فهل استشهدت دون علم منك؟»

«نعم... أنا لم أعرف بالأمر إلا عندما أخبروني به في دائرة النفوس. أما استشهادي الثاني فقد علمت به في شعبة التجنيد، جازاهم الله خيراً.»

اقترب مني الطبيب والإبرة في يده، قال لي: «أنت الآن شهيد إذن؟»

بدأ يجس عمودي الفقري صعوداً ونزولاً قلت:

«إن الجهات الرسمية تقول بأنني شهيد. ولأكن كاذباً بلسانهم.»

أحسست برأس الإبرة على ظهري. قال لي الطبيب: «احكِ، احكِ... تابع كلامك بلا توقف!» فتابعت قائلاً:

«لم يقبلوا بي في المدرسة لأنني ميت. فأنا لا أملك بطاقة شخصية. وهل يملك الميت بطاقة شخصية؟ وللسبب نفسه لا أستطيع أن أتزوج آنشة.»

أحسست بالإبرة وهي تخترق ظهري. لقد آلمتني إلى درجة ظننت معها بأن رأسها ستخرج من بطني. لم أتحرك قط لأنهم كانوا قد قيدوا يدي وقدمي إلى السرير. شعرت بانسحاق في داخلي وكنت أعي أنني بدأت أفقد الوعي. ذلك الممرض الذي سيصبح صديقي فيما بعد، سيخبرني لاحقاً بأنني كنت في تلك اللحظات أئن وأهذي باسم آنشة.

إذا كانوا في الأيام الأولى لم يقتنعوا بسلامة عقلي، فقد أدرك الأطباء مع مرور الوقت بأنني لست مجنوناً. كانوا يظنون بأنني أهذي كأي مجنون عندما أقول لهم بأنني ميت وأنني استشهدت مرتين. لكنهم بعد فترة اقتنعوا بأنني غير مجنون. لقد أحبوني كثيراً، وكانوا يستدعونني بكثرة ويطلبون مني أن أحكي ما جرى معي من أحداث. فأحكي لهم. وحين اقتنعوا بأنني غير مجنون تركوني طليقاً داخل المشفى. وأعني بذلك أنهم لم يعودوا يقيدونني ولا يقفلون علي داخل مهجع مع المجانين. كانوا يكلفونني ببعض الأعمال داخل المشفى. وكان ثمة ما يقارب العشرة أشخاص يعاملون معاملتي نفسها. وكنت أشتغل باندفاع في كل عمل يكلفونني به، حتى أرضيهم فيطلقوا سراحي. كنت أشتغل في حديقة المشفى وأكنس وأنظف غرف الأطباء، وأركض إلى كل مكان قبل غيري. لكنني فكرت أخيراً بأنهم لن يخرجوني من هنا أبداً إذا استمرت الأمور على تلك الحال.

واحد من نزلاء المهجع لم يحتمل، فقاطع يشار يشامز مستفسراً:

- لماذا؟ ألم تقل بأنهم اقتنعوا بعدم جنونك؟

فارتفعت أصوات النزلاء الآخرين لإسكات زميلهم:

- صه! اسكتوا واتركوه يحكي...

فتابع يشار:

- صحيح أنهم اقتنعوا بأنني غير مجنون، ولكن من الذي سيؤدي الأعمال داخل المشفى إذا أطلقوا سراحي؟ فثمة نقص بالكادر. والموجود غير قادر على إنجاز كل الأعمال. لذلك فهم يستخدمون من هم في مثل حالتي. الفرار من المشفى أمر سهل، وقد فر البعض من الزملاء.

ارتفع صوت داخل المهجع:

- ولِمَ لَم تهرب أنت أيضاً؟

فأسكته الآخرون على الفور:

- صه! هشت!

وتابع يشار:

- أنا لا أهرب. بل إن إدخالي في مشفى المجانين أمر في صالحي من وجهة نظر معينة. فهم سيخرجونني من المشفى على كل حال في يوم من الأيام وهل يعقل أن يحتجزوني حتى الموت؟ وحين يقررون خروجي فلا بد وأنهم سيعطوني ورقة تثبت بأنني شفيت. هذه الورقة هي ما كنتُ بانتظاره. إنها وثيقة رسمية حتى لو كانت صادرة عن مشفى المجانين. فهي ستوثّق كوني على قيد الحياة. لهذا السبب إذن لم أكن أهرب من المشفى. كان أحد الأطباء يحبني كثيراً، فقد كنت أؤدي له كل الأعمال وأخدمه بإخلاص. في أحد الأيام ذهبت إليه وقلتُ له:

«سيدي الدكتور، تعرفون جيداً أنني لا أشكو من أية علة في عقلي والحمد لله».

«نعم أعرف ذلك يا يشار»

«إذا كنت تعرف، فلماذا لا تطلق سراحي إذن؟»

«لا أستطيع.. وما الذي في مقدوري..»

«مضى عليَّ هنا ما يقرب السنة. إذا كنتم لا تسمحون بخروجي بسبب استفادتكم مني في أعمال المشفى، فأنا على استعداد أن أبقى هنا وأعمل مقابل طعامي، ولا أطلب منكم نقوداً.. فقط وظفوني هنا بصفة مستخدم»

كنتُ أنوي التحايل على الوضع بأن أعمل مستخدماً بلا أي راتب، حتى يسلموني بطاقة مستخدم، فأصبح بذلك شخصاً على قيد الحياة مثل جميع المستخدمين الآخرين.. لكن الدكتور التقط الفكرة وقال لي: «كيف نوظفك يا يشار ضمن الكادر وأنت

رسمياً غير موجود على قيد الحياة!»

«هل ستواصلون إذن احتجازي هنا بلا داع؟»

«أنت لا تفهم ما نقوله لك.. نعم، أعرف بأنك لستَ مريضاً عقلياً. لكني لا أستطيع أن أخرجك لأنك لا تملك بطاقة شخصية. كيف إذن سأخرجك من هنا؟ بأية صفة يمكن لنا أن نسجلك في قائمة المخرَّجين؟ وماذا سنسجل في سجلات المشفى الخاصة بالمخرَّجين؟»

«حسناً يا دكتور، وهل سأبقى هنا حتى الموت لأنني لا أملك بطاقة شخصية؟»

«ومن طلب منك البقاء هنا يا بنيّ؟ اذهب يا يشار اذهب!»

ظننته يطردني من غرفته، فاستدرت نحو الباب ومشيت، فسألني: «إلى أين؟»

«طلبتَ مني الذهاب، فأنا ذاهب»

«ليس هكذا.. اذهب، أي اهرب من هنا، إذا هربت فإننا سننقص اسماً من القائمة لأن مريضاً هرب من المشفى. لن نحتاج بطاقتك الشخصية من أجل هذا الإجراء. أما إذا تعلَّق الأمر بتخريج من المشفى فإن البطاقة تصبح ضرورية، إن إجراءات التخريج تختلف. هل فهمتَ الآن لماذا لا أستطيع أن أخرجك؟»

«فهمت يا سيدي»

«اغتنم أول فرصة واهرب. ولكن انس أنك سمعت هذا الكلام مني!»

«شكراً سيدي الدكتور.»

كنتُ على وشك الخروج من غرفته، عندما هتفَ بي قائلاً:

«اسمع يا يشار! بمجرد نجاتك من هنا ليكن عملك الأول هو استصدار بطاقة شخصية.»

«وكيف أفعل يا دكتور؟ إنهم لا يعطونني..»

«الجأ إلى المحكمة. فهي مرغمة على منحك بطاقة شخصية. وإلا لاحقتك المشاكل والصعوبات. عند خروجك من هنا أسرع في الذهاب إلى المحكمة.»

«أمرك على رأسي سيدي الدكتور»

لن أنسى أبداً طيبة ذلك الطبيب. في أحد الأيام كان جالساً في غرفته برفقة زملائه

الأطباء، يتحدثون ويتناقشون. وكنتُ أقوم على خدمتهم فأعدُّ القهوة أو أقدم الماء، وفي أثناء ذلك أسمع حديثهم. كانوا يناقشون فكرة كيف يكون الإنسان السوي. ما زلتُ أذكر كلمات الطبيب الذي حدثتكم عنه: «الإنسان السوي هو الإنسان غير المتوازن. ذلك أن الإنسان يشبه مرجلاً مملوءاً بالماء تشتعل تحته النار. فإذا غلى الماء في داخله اندفع غطاؤه إلى الأعلى. لذلك يركَّب صمام في مراجل الآلات البخارية حتى يتدفق البخار الزائد خارجاً، وتبقى الكمية الضرورية فقط. وهكذا يبقى الوضع متوازناً حتى لا ينفجر المرجل. وهكذا هي حال الإنسان. فإذا احتدَّ الإنسان أو انفعل أو حزن أو تألم، عليه أن يفرغ شيئاً من داخله حتى يتوازن فلا ينفجر. إذن، كيف سيتدفق ما في داخله؟ كما هي الحال مع صمَّام المرجل البخاري، على الإنسان إذاً أن ينقصه "برغي"، حتى يتاح لما في داخله أن يتدفق خارجاً.. لهذا فإن الإنسان المتوازن هو الذي ينقصه "برغي"، أما أولئك الذين لا ينقصهم برغي، من يطلق عليهم الأسوياء فإنهم سينفجرون فجأة في أحد الأيام، بحيث يستحيل إصلاح عطبهم.»

في الليلة نفسها هربت من مشفى الأمراض العقلية، وفعلت ما أشار عليَّ به ذاك الطبيب، خلال فترة إقامتي في المشفى كنتُ قد جمعت بضعة قروش مما كان يعطيني الأطباء على شكل بقشيش بسبب همتي في أعمال الخدمة. ذهبت إلى كاتب عرائض مجيد وشكوتُ له همي ومشكلتي. فكتب لي عريضة من الحرارة ما يحرق عيني من ينظر إليها، ويد من يلمسها، وقلبَ من يقرأها. ثم قدمت العريضة للمحكمة حيث أعطوني ورقة عليها أرقام. رحتُ أنتظر موعدي. نفدت نقودي. لم أتمكن من الحصول على عمل لأنني لا املك بطاقة شخصية. هل من السهل أن تعيش في مدينة كبيرة؟ مهما يكن، كان للمرحوم أبي صديق حميم، فقصدته وشرحتُ له وضعي بالتفصيل. أعطاني الرجل نقوداً تكفي لسد حاجاتي لبعض الوقت. فإذا صدر حكم المحكمة معترفاً بأنني حي، وحصلت على ما ورثني أبي من مال، سأسدد ديني لصديق الوالد. كان عليَّ الوصول إلى محطة القطار بواسطة الباص أو السرفيس. حتى أستقل القطار إلى المدينة. وقفتُ في الساحة أنتظر سيارة سرفيس، فرأيت جمعاً من الناس وعدداً من سائقي سيارات السرفيس يصيحون: «هيا إلى الاستقبال واحد.. الاستقبال واحد.. استقبال ماشي.. راكبين.. استقبال واحد.. أليس ثمة أحد يريد أن يربح خمسة وعشرين؟ خمسة وعشرين لوجه الله.. إلى المحطة راكبين.. اتنين.. اخدم وطنك وخذ خمسة وعشرين.. هيا إلى المحطة!»

كان الناس يتدافعون نحو سيارات السرفيس، يركبونها ويتحركون.. السيارة التي تتسع لخمسة أشخاص كانت تقل ستة أو سبعة، وكان السائقون يصيحون ويكررون: «لن نأخذ منكم أجرة أيها المواطنون.. هيا من يريد الذهاب إلى المحطة؟ مجاناً..» فأردت أن أفهم ما الأمر. كان المرحوم أبي ينصحني قائلاً: «حذار يا بني! إذا أعلن عن شيء مجاني فإياك أن تأخذه.. بل اهرب وابتعد. وإلا ستدفع ثمناً باهظاً بالقياس إلى ما يمكن أن تشتريه بنقودك!». نعم تذكرت نصيحة أبي، ولكن ما العمل إذا كان المرء يملك نقوداً قليلة؟ سيندفع بالطبع نحو الشيء المجاني. وهكذا ركبت واحدة من سيارات السرفيس التي تقل الركاب إلى المحطة مجاناً. بالفعل عندما وصلنا إلى المحطة لم يطالبنا السائق بشيء. سألت الراكب المجاور لي:

«ما الذي يربحه هذا السائق من نقله للركاب مجاناً؟»

«أيها الأبله! ومن قال بأنه مجاني؟! إن حزبنا سيدفع أجور نقلنا إلى السائقين.»

«حزبنا إذن سيدفع؟»

«نعم، حزبنا.»

إذا كنتُ لا أعرف أيّ حزب هو حزبنا، لكن المؤكد أنه حزب جيد بما أنه نقل البؤساء من أمثالي إلى المحطة مجاناً. ومن غير المعقول أن أسأل: «ترى أي حزب هو حزبنا؟» فسوف يسخرون مني قائلين: «انظروا إلى هذا الأبله! إنه لا يعرف اسم حزبه الذي نقله بسيارته.»

تقدمنا باتجاه المحطة.. يا الله! كأنه يوم المحشر.. كان ثمة ازدحام من النوع الذي يقال في وصفه أنه إذا ألقيت بإبرة فلن تسقط على الأرض. رجال وأطفال يحملون الأعلام ولافتات قماشية وأخرى من ورق أو كرتون عليها كتابات، والجميع يهتفون ويصرخون. بعضٌ يصفق وبعضٌ يعيّش. لقد علقتُ في مستنقع بشري. تحركت لأنجو من الطوق المحكم، ولكن بلا جدوى. لم آكل شيئاً منذ ظهيرة اليوم السابق سوى كعكة واحدة. الجوع الشديد والإرهاق جعلا ساقيّ غير قادرتين على حملي، فأسلمت نفسي لسيل الازدحام البشري، قائلاً لنفسي ليكن ما يكون. راح التيار المرصوص يندفع مرة يميناً ومرة يساراً، لكنني لم أكن أرى أو أعرف إلى أين نحن ذاهبون. لقد انحشرت كثيراً. بحيث أن قدميَّ كثيراً ما انفصلا عن الأرض، كثيراً ما ارتفعت ثم سقطت على الأرض، كثيراً ما دوَّروني في الهواء أو قلَّبوني فوق ظهور الناس. عندما يئست من أي احتمال

للنجاة وتوقفت عن الحركة، سألتُ أقرب شخص بجانبي: «ما الذي يحدث يا أخي؟ إلى أين نحن ذاهبون؟»

فسألني بدوره:

«هل تقصد إلى أين يمضي العالم اليوم؟»

لا حول ولا قوة... لقد حشروني كثيراً بحيث أنه إذا حدث وزلّت قدمي فسأقع وأنسحق تحت الأقدام وأتفتت فلا يبقى مني شيء. وهذا يحدثني عن الوجهة التي يمضي فيها العالم. قلتُ له:

«وما علاقتي بالوجهة التي يمضي فيها العالم؟»

«إن البلد يسير سيراً حسناً والحمد لله. والفضل في ذلك لله تعالى أولاً ولحزبنا ثانياً.»

«وهل بقي أحدٌ لا يعرف بأن البلد يسير سيراً حسناً؟ إنما سألتك عن المكان الذي نتجه إليه الآن»

«نحن ذاهبون إلى حفل الاستقبال. أليس لك علم؟»

بما أنني انضممت إليهم فمن غير اللائق أن أعترف بعدم معرفتي. قلتُ وأنا ألوك الكلام في فمي: «وكيف لا يا عزيزي.. أعرف بالطبع.. يعني..»

قال: «أنا مكلّف بمهمة. هل أنت مكلف أيضاً؟»

«بالطبع»

«ليس هذا الازدحام بشيء. كان من الممكن تجميع عشرة أضعافه لولا أن المختار تستّر على أنهم سيدفعون خمس وعشرين ليرة لكل شخص. لو أنه أعلن الأمر لما بقي أحدٌ في القرية، ولكانوا تقاطروا إلى ساحة الاستقبال رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً. لكن المختار اكتفى بإبلاغ أتباعه وإرسالهم إلى هنا. أما أنا فقد سمعتُ بالموضوع سراً فجئت بسرعة.»

عندما وصل الحشد إلى ساحة أوسع خفّ الالتحام قليلاً، وأصبح بوسعنا أن نتنفس بعض الشيء. ارتفعت أصوات الطبل والزمر. امتلأ المكان بالأعلام والأوراق الملونة

وانعقدت الدبكات وحلقات الهوران(*) ورقصات الملعقة(*) والجفتة تللي(*) وهزّ البطن(*). ويا له من هرج ومرج. والحق كان من الممكن أن أستمتع لولا أنني مرهق وجائع. كما أني لم أتجرأ على الاستفسار عمن يكون القادم الذي تجمع الناس لاستقباله.

أحد نزلاء المهجع قاطع يشار يشامز وسأله:

- ولماذا لا تتجرأ؟

أجابه سجين آخر نيابةً عن يشار يشامز:

- وكيف له أن يتجرأ يا عزيزي؟ إن أي شخص في الوضع نفسه سيكون خائفاً. فهو لا يملك بطاقة شخصية. ماذا لو اعتقلوه بتهمة التجسس وشنقوه؟ أليس كذلك؟

قال يشار:

- عشت يا أخي.. لو أن أحداً سألني عمن أكون أو ما أكون، فمعنى ذلك أنني أكلتها. لقد عرفتُ سبب كل تلك الاحتفالات الصاخبة من غير أن أنكشف أمامهم باعتباري غريباً عنهم. عرفت أن المدينة هي قلعة أحد الأحزاب الكبيرة، وأن عدداً من قيادات ذلك الحزب سوف يأتون معاً إلى قلعة حزبهم ليقوموا باستعراض قوة أمام الأحزاب الأخرى. عرفتُ كذلك بأن قادة الحزب هؤلاء سوف يصلون بالقطار.

وقف رجل فوق مكان مرتفع وهتف قائلاً:

«أيها المواطنون، أيها الرفاق هيا بنا نمشي إلى مكتب منطقية الحزب.»

تداخلت الأصوات: «لنذهب»، «هيا يا رفاق!»، «اسمعوا كلام الرئيس أيها الحيوانات!»، «اخرسوا ولاك!»

صوت الرئيس غطى على تلك الأصوات والصرخات والهدير. قال: «سأشرح لكم كيف سيكون حفل الاستقبال. المكلفون بمهمات، اتبعوني»

مشينا وراء الرجل. بطريقة ما وجدتُ نفسي من جديد قرب ذلك القروي الذي تبادلتُ معه الحديث في قلب الازدحام. استأنست إليه بسبب الحديث الذي تبادلناه، فسألته عمن يكون الرجل الذي نتبعه، فأخبرني بأنه رئيس مكتب منطقية حزبنا، ثم ارتاب من أسئلتي فسألني:

---

* أسماء رقصات

«الظاهر أنها المرة الأولى التي تشارك فيها في حفل استقبال؟»

أجبته مفمغماً مدوراً الكلام في فمي:

«آه.. يعني.. على كل حال.. يمكن القول إنها المرة الأولى... شيء من هذا القبيل..»

«لقد جئت وشاركت مرات عديدة. كما أنني سبق وشاركت عدداً من المرات في حفلات وداع. لكن حفلات الاستقبال تكون أكثر أبهة»

«لماذا؟»

«لأن الناس يتعبون وينهكون كثيراً في حفلات الاستقبال، فتنفذ طاقتهم ويفقدون القدرة على المشاركة في حفلات الوداع. كذلك فإن حفلات الوداع لا تكون مزدحمة مثل حفلات الاستقبال»

«وهل هذه حفلة استقبال أم وداع؟»

أخبرني بأنها حفلة استقبال ثم أضاف قائلاً:

«في مرة سابقة شاركنا أيضاً في حفلة استقبال حزب آخر. وقد وعدونا أيضاً بدفع خمس وعشرين ليرة لكل واحد. فجاء كل سكان القرية أطفالاً وشيوخاً، رجالاً ونساءاً، شيباً وشباناً، ولكن عند انتهاء الحفلة ولّوا.»

«ماذا تعني؟»

«أعني انهم لم يعطونا النقود.»

«أواه! حذار أن يعيدوا الكرة اليوم!»

«لا.. هذا غير ممكن، فقد أقسم المختار هذه المرة بالطلاق متعهداً بان النقود ستدفع حتماً.»

كنا قد وصلنا أمام مبنى زينت جدرانه بالأعلام والأوراق الملونة. تجمعنا في الساحة أمام ذلك المبنى. ارتقى ذلك الرئيس الحزبي مكاناً مرتفعاً وبدأ يتكلم. ويا له من كلام! لم أسمع كلاماً مماثلاً في حياتي. كان كلامه مؤثراً جداً. كنت قبل ذلك أشعر بالانسحاق الداخلي لشدة التعب والجوع، وعندما سمعتُ كلامه المؤثر رحت أبكي. فإذا سألتموني ما الذي فهمته من كلامه حتى بكيت، لأجبتكم بأنني لم أفهم أي شيء. فكما أنني لا أتذكر أي شيء اليوم من ذلك الكلام. كذلك لم أفهم منه شيئاً وأنا أستمع إليه. لماذا بكيت؟ ألا تفهمون بأنني كنتُ ابحث عن ذريعة لأبكي؟ بعد كل ما تعرضت له، هل أنا مجنون

لأضحك؟ إن كل كلمة من كلمات الرجل كانت تخترق قلبي مثل المفتاح المحلزن للزجاجات ذات السدادة الفلين. أنتم لم تسمعوا كلمة ذلك الرئيس الحزبي، لذلك مهما حكيتُ لكم الآن، سيبدو أشبه بالكذب. عندما كنت صغيراً كان أبي يصحبني إلى الجامع وكان المستمعون إلى ما يقوله شيخ الجامع يبكون، أبي كذلك كان يبكي. وحين أرى أبي يبكي كنت أعجز عن ضبط نفسي فأبكي بدوري. وهكذا كنا نبكي ونحن لا نفهم ما يقوله الشيخ بالعربية. كان الأمر شبيهاً بهذا في حفل الاستقبال. ليس من السهل أن يتكلم المرء نصف ساعة من غير أن يفهم أحدٌ من المستمعين شيئاً. جربوا وسوف ترون. مهما حاولت أن تتكلم كلاماً بلا معنى، فلا بدّ أن يظهر معنى ما. أما ذلك الرئيس الحزبي فلا يُفهم أي شيء من كلامه على الإطلاق. وكان الرجل يحكي في الأعالي، من فوق الأسطح وفي الوقت نفسه بعمق. لنفترض بأنني كنت مهيأ أصلاً للبكاء، وأنني كنت بانتظار ذريعة تسمح لي بالبكاء، حسناً، ولكن ما بال الآخرين؟ فلم أكن وحدي من يبكي. ليسوا بالتأكيد موتى مثلي بسبب عدم امتلاكهم لبطاقات شخصية خاصة بهم.. لماذا كانوا يبكون إذن؟ بالطبع بسبب الكلام العميق الذي لا نفهم منه شيئاً، الذي كان الرئيس الحزبي يلقيه علينا.

أنهى الرئيس الحزبي كلمته المؤثرة، وانتقل إلى الحديث بطريقة تشبه طريقتنا في الحديث، أي بكلام بشري، فقال:

«افتحوا آذانكم جيداً أيها الأخوة واسمعوني جيداً الآن.»

هتف الجمهور بصوت واحد:

«أنت أبونا.. عشت! عشت! عشت!»

فرد عليهم الرئيس:

«عشتم يا أولادي ودمتم. كما سبق لكم وفعلتم، أنتم تعرفون..»

خرج صوت من بين الجمهور يصرخ قائلاً:

«نعرف.. نعرف.. لا تتعب حنجرتك سدى!»

قال رئيس المنطقية:

«سنقوم أولاً بتقسيم العمل. سنقسم المكلفين بمهمات إلى فرق منفصلة!»

سأل واحد من الجمهور:

«هل ستذبح الأضحيات؟»

«طبعاً، ستذبح.. وسيذبح كبش أيضاً، وجاموس..»

صرخ الصوت نفسه:

«هل سيوزع علينا من لحم الذبائح؟»

الرئيس:

«طبعاً.. كل اللحم سيوزع عليكم!»

«في حفل الاستقبال السابق تخاطفوا لحم الذبائح هنا في الوقت الذي كنا نحمل قادتنا على أكتافنا، فخرجنا من المولد بلا حمّص..»

شعر الرئيس الحزبي بضرورة تقديم إيضاح فقال:

«ثمة سبب مختلف وراء حرمانكم من اللحم، سأخبركم به لاحقاً.»

ارتفعت أصوات عديدة تطالب بالإيضاح الفوري، فاضطر الرئيس أن يخبرهم بأن البلدية هي التي منعت توزيع تلك اللحمات، لأن تقارير الأطباء البيطريين أفادت بأن الذبائح مريضة. ثم أضاف:

«هذه المرة سيكون كل شيء منظماً، وسيتم توزيع اللحم، والآن لنتحدث في العمل..»

لكنهم لم يتركوه يحكي عما يتعلق بالعمل، فقد انبرى واحد آخر:

«متى سنحصل على النقود؟»

الرئيس:

«سنعطيكم نقودكم بعد انتهاء الحفل.»

ارتفعت أصوات مشاغبة:

«لاا!.. هذا لا يناسبنا.»

«لا تحسب حسابي في هذا العمل يا رفيق!»

«نريد نقودنا سلفاً..»

«لن نبدأ العمل قبل أن نقبض نقودنا».

الرئيس:

«صمتاً أيها الرفاق. أرجوكم صمتاً واسمعوني قليلاً.»

لكن محاولاته لم تنجح ولم يصغ إليه أحد. ثم راح يصرخ بصوت طغى على صخب الجمهور:

«جربنا هذا سابقاً مرات عديدة. كل من يأخذ النقود سلفاً يفر من غير أن يشارك في الاستقبال. كل من يقبض النقود يشمع الخيط. كل من يقبض النقود يجرّ عربته. كل من يقبض النقود يتسلل هارباً. وعندما يترجل قادة حزبنا الكبار من القطار، يقفون وحدهم في الساحة مثل أولاد الزنا. فلا أحد يستقبلهم ولا أحد يعيِّشهم، لا أحد يصفق ولا أحد يرفعهم على الأكتاف. وهذا معيب أمام كبارنا.. لا تحل كل الأمور بوساطة النقود يا رفاق. فكروا قليلاً بالوطن والبلاد. فكروا بمن استشهد في سبيل الوطن، ومن مات من آبائكم وأجدادكم في الحروب! لهذا السبب لا نستطيع أن نعطيكم النقود سلفاً. انتهوا من أعمالكم ثم تعالوا لتقبضوا. إني أعدكم: اعتبروا النقود في جيوبكم. إن نقودكم معي. وسواء أكانت في البنك أو معي.. ألا تثقون بي؟»

ارتفع صوت جهوري من بين الجمهور، غطى على كل الهمهمات والغمغمات:

«الثقة شيء، والنقود شيء آخر.. نحن أيضاً جربنا كثيراً.. يقال لنا إن النقود ستدفع فيما بعد، وبعد أن ننجز لهم العمل لا يبقى أحد منهم في الساحة لا نرى أحداً منهم حتى نطالبه بنقودنا»

ارتفعت أصوات مؤيدة، فاضطر الرئيس لتقديم إيضاح:

«إن ما تقولونه يمكن أن يحدث في الأحزاب الأخرى. أما في حزبنا فهذا غير وارد يا رفاق!» كان قد احتدَّ كثيراً وانتفخ وجهه واحمرَّ مثل عرف الديك الرومي: «قد ضاق بنا الوقت كثيراً أيها الرفاق، القطار أوشك على الوصول. سأشرح لكم كيف سنقوم باستقبال كبار حزبنا. رفيقنا داوود بيك سيوزعكم على فرق. فرقة للتصفيق، مهمتها أن تصفق وتصرخ: «يعيش، يعيش» فرقة أخرى مهمتها شق الطريق. وثمة فرق سترفع السيارات التي سيركبها الكبار بعد نزولهم من القطار.. وهذا هو أبرز مظاهر استعراض القوة.. لأر همتكم أيها السباع. وثمة فرقة أخرى من المستقبلين سترفع كبارنا على الأكتاف بعد ترجلهم من سياراتهم. مفهوم يا رفاق؟»

ارتفعت أصوات مرددة: «نعم، مفهوم.. مفهوم أيها الرئيس»

«لا أريد فوضى! والآن سيوزعكم داوود بيك، انتبه جيداً وأنت تختار أعضاء الفرق، حذار أن تكلف أشخاصاً نحيفين ضعفاء بحمل القادة على أكتافهم! إنهم يعجزون عن

حملهم فتكون فضيحة لنا. اختر لهذه المهمة ذوي الأجسام الضخمة حتى يطيروا بمن يحملون على أكتافهم حتى الساحة من غير أن يوقعوهم..»

فكرت وأنا أصغي إلى رئيس منطقية الحزب، بأنني إذا اشتغلت بإخلاص فأثرت إعجابهم، فلعلَّهم يجدون لي عملاً هنا، بل يمكن أن يستصدروا لي لاحقاً بطاقة شخصية، فأنا أسمع أن هؤلاء الحزبيين يمكنهم أن يفعلوا كل ما يريدون. فإذا حصلت على بطاقة شخصية بفضل مساعدتهم، سيصبح بإمكاني أن أعيش مثل الناس.

بدأ الرجل المدعو داوود بيك يوزع الناس على جماعات. كان ينظر إلى جسم الرجل ثم يقوم بالفرز المناسب: «قف هنا، وأنت هناك، أما أنت فانتقل إلى الطرف الآخر!» وفيما هو يتابع الاختيار والفرز بدأت مساومة. قال المكلفون برفع السيارات:

«هذا عمل صعب، لن نؤديه مقابل هذا المبلغ، نريد خمسين ليرة!»

رد عليهم الرئيس:

«من يسمعكم تتحدثون عن حمل السيارات سيظنكم لاعبي سيرك. وأي وزن لسيارات اليوم؟ إن حقيبة جيمس بوند ترجح وزناً على تلك السيارات. إن ما تسمونه سيارة، هو مجرد توتياء رقيقة مطلية. ثم إن خمسين شخصاً سيرفعون السيارة الواحدة على أطراف أصابعهم، بحيث أن كل واحد لن يتحمل سوى أقل من خمسين غرام.»

المكلفون بحمل الكبار على أكتافهم زعموا بأن عملهم في منتهى الصعوبة وبأن قادة الحزب ذوي أجسام ثقيلة جداً، حتى أن أصغرهم يبلغ من الوزن ما بين سبعين وثمانين أوقية، وبأن الحامل الواحد سيحمل واحداً من الكبار بمفرده. فطلبوا بدورهم خمسين ليرة. والآن تمرد المصفقون: «إن عملهم ينتهي مع حمل كبار الحزب على أكتافهم، في حين أن علينا أن نصرخ "يعيش" حتى تنفجر حنجراتنا، ونصفق منذ وصولهم إلى المحطة وحتى لحظة رحيلهم. أيدينا تنتفخ من التصفيق وأصواتنا تبحّ من الصراخ، فنعجز عن الكلام لمدة أسبوع. إن مهمتنا هي الأصعب.»

على كل حال انتهت المساومة إلى الاتفاق على مبلغ أربعين ليرة للشخص الواحد. رغبة مني في لفت أنظار جماعة الحزب تنطحت إلى أصعب المهمات. رأيت أن الجميع يتهرب من حمل السيارات. أولئك الذين فرزهم داوود بيك من أجل حمل السيارات، تسربوا إلى المجموعات الأخرى. نظر إلي داوود بيك متفحصاً وقال: «أية نحافة هذه ولاك! لم يبق فيك أي رمق، تعال إلى هذه الجهة!» ودفع بي إلى فرقة المصفقين.

اعترضت عليه قائلاً: «لا تنخدع بمظهري يا سيدي.. بعون الله أستطيع بمفردي أن أرفع شاحنة ضخمة، وليس سيارة وحسب» لكن داوود بيك لم يبال بكلامي، ودفعني نحو فرقة المصفقين، فوقعت على مؤخرتي. وما إن أدار داوود بيك ظهره إليَّ حتى تحايلتُ على الموقف وانضممت في غمضة عين إلى الفرقة المكلفة بحمل كبار الحزب على الأكتاف. فقد فكرت بأنني إذا كنت غير قادر على حمل سياراتهم فسأحملهم بأنفسهم على الأقل على كتفي فألفت إليَّ أنظارهم.

رئيس منطقية الحزب يشرح لكل فرقة مهمتها بالتفصيل. في الأول أوضح لجماعة حمل السيارات ما يتوجب عليهم عمله ثم أرسلهم إلى المحطة. بعد ذلك شرح للمصفقين واجباتهم وأرسلهم أيضاً. وجاء الدور علينا نحن فرقة الحمل على الأكتاف قال رئيس منطقية الحزب:

«افتحوا عيونكم وآذانكم جيداً واستمعوا إليّ أيها الرفاق. في مناسبات سابقة لاستعراض القوة حدثت بعض الأخطاء والهفوات. فخجلنا كثيراً أمام كبار حزبنا. لذلك اسمعوني جيداً وانتبهوا إلى كلماتي..»

فقال له واحد من المجموعة:

«لا تشغل بالك قط سيدي الرئيس.. هذه المرة لن يحدث شيء مماثل. فالجميع في إمرتي.»

تابع الرئيس تعليماته:

«إن بعضاً من كبارنا يشرفوننا برفقة زوجاتهم. يُمنع منعاً باتاً رفع زوجات القادة على الأكتاف. لا ترفعوا النساء على أكتافكم. فذلك أمر معيب يا ناس! ألا تعرفون شيئاً من الحضارة! هل ثمة مكان في العالم ترفع فيه النساء على الأكتاف! في المرة السابقة حشر أحد الأغبياء رأسه بين ساقي زوجة واحد من كبارنا، ورفع المرأة المسكينة في الهواء! كاد قلبها يقع لشدة خوفها وراحت تنتفض في الأعلى، أما ذلك الغبي فراح يركض بالمرأة كمن اصطاد غزالة في غابة.»

قال الرجل الذي تحدث قبل قليل:

«هذه قلة أدب غير مقبولة أيها الرئيس.»

«كذلك لا يجوز رفع المسنين فوق الأكتاف بصورة مباغتة.. لا تجفلونهم. في إحدى

المناسبات حشر أحدهم رأسه فجأة بين إليتي أحد المسنين من كبار حزبنا، فكاد الرجل أن.. سوف نفرز خمسة من الحملة على الأكتاف لكل واحد من القادة الذين سيتم استقبالهم. يُمنع الدخول بصورة مفاجئة بين الردفين. ثم إن هناك من لا يرغب في الصعود على الأكتاف. اتركوا هؤلاء على راحتهم. يُمنع إرغام أحد على الركوب على الأكتاف بشده أو دفعه. لا يجوز أيضاً إلقاء الرجل فوق الظهر كما لو كان كيس طحين.. تصرفوا بلطف ولباقة.. فلكل شيء أصوله. في الأول ألقوا نظرة على الكبير الذي تريدون حمله على كتفيكم، فإذا وجدتموه يبتسم أو يبدو أنه سيسره الصعود على الكتفين، إذ يمكن معرفة ذلك من النظر، نعم ارفعوا الكبار الذين من هذا النوع. مفهوم؟»

هتفنا بصوت واحد:

«مفهوم.»

قال رجل واقف بجانبي:

«لعنة الله على الجهل! لو أننا نجيد القراءة والكتابة كنا عرفنا كل هذه الأمور بأنفسنا. لكننا للأسف لم نر المدرسة في حياتنا.»

تابع الحزبي تعليماته:

«ثمة شيء آخر يجب أن تنتبهوا إليه عندما تريدون رفع أحد من الكبار على أكتافكم. لا يصح أبداً أن يقوم رجل قصير القامة برفع قائد طويل القامة من كبار حزبنا على كتفيه. ذلك أن واحداً طويل القامة من كبار حزبنا. إذا رُفع فوق كتفي رجل قصير القامة، فسوف يتأرجح ساقاه ويتجرجر قدماه على الأرض بطريقة قبيحة مؤذية للبصر. بالمقابل لا يصح أيضاً أن يرفع رجلٌ طويل القامة بصورة مفرطة واحداً من كبار حزبنا ضئيل الجسم فوق ظهره. في هذه الحالة يبدو كبيرنا مثل فراشة حطّت فوق ثمرة قرع. على شديدي النحول ألا يحملوا فوق ظهورهم مفرطي البدانة فهم يعجزون عن حمل هؤلاء فيختل توازنهم ويسقطون، فتكون فضيحة. طبعاً، فقد منحك الرجل ثقته وركب على ظهرك، فتقوم أنت بإلقائه على الأرض، أيصح ذلك! هل هذا مفهوم أيها الرفاق؟»

صرخنا:

«مفهوم»

«أكرر القول: يمنع الولوج بين الساقين بصورة مباغتة.. فلعل الرجل به فتق، فينقطع

رباط فتقه، أو لعله يتحسس من الملامسة فيتدغدغ.. عليكم أن تتنبهوا لكل هذه الأمور. والآن هيا إلى المحطة مباشرة! فالقطار أوشك على الوصول. أعانكم الله.»

وهكذا مشت فرقتنا باتجاه المحطة. قال واحد من الفرقة:

«إن أولئك الذين يحملون النساء فوق أكتافهم لا ينتمون إلى حزبنا. ثم هناك من يحملون قادتنا على الأكتاف ويتظاهرون بحملهم، ثم يقلبونهم على الأرض. هؤلاء أيضاً ليسوا من حزبنا. وهناك من يتسللون من الخلف ويحشرون رؤوسهم فجأة بين فخذي أحد الكبار فيجفلونه، إن هؤلاء ينتمون إلى أحزاب أخرى.. إني أعرفهم جميعاً. يتسللون إلى صفوفنا متظاهرين بأنهم من حزبنا، حتى يُخلّوا بالجو الجدي لحفلنا. إنهم مخربون.»

وصلنا إلى المحطة، وبعد قليل سمعنا صفارة القطار. بدأت الطبول تُقرع والمزامير تصدح. توقف القطار وترجل قادة الحزب. بإشارة من رئيس مجموعة الحمل على الأكتاف، انقضّ الحمّيلة على كبار حزبنا. وهكذا أطبق على كل واحد من الكبار واحد من مجموعتنا. في مواقف التخاطف المماثلة أتخلّف دائماً عن الآخرين وأعجز عن مجاراتهم في سرعة المبادرة. وأنا أتراكض من واحد إلى آخر من كبارنا، وجدتُ أن جميع الكبار قد أصبحوا فوق الظهور، ولم يُترك لي أحدٌ أحمله. إذا أردتم الحق فإن خروجي من المولد بلا حمّص سببه طمعي وعيني الجائعة. فرغبة مني في لفت الأنظار كنتُ قد ركضت هنا وهناك بحثاً عن أضخم كبارنا جسماً وأثقلهم وزناً، إلى أن بقيتُ وحدي في الميدان في حين تم حمل جميع الكبار فوق الظهور. أواه! ماذا سأفعل الآن؟ رحتُ أتطلّع هنا وهناك إلى أن لمحت واحداً من كبارنا واقفاً أمام مطعم المحطة ينظر حوله. أما كيف عرفت أنه من كبارنا، فمن ثيابه.. فأولاً حذاءه يلمع بصورة لافتة، ثيابه سوداء قاتمة، وبنطاله مكوي كحد السيف، وقميصه متماسك وناصع البياض، وقد ثبّت فراشة سوداء على ياقة قميصه الأبيض، فضلاً عن أنه ينصب قامته وينتفخ. كل شيء يدل على أنه رجل من كبار حزبنا، له قامة تبلغ ضعفي قامتي، ويعادل وزنه ثلاثة أضعاف وزني. لتروا إذن أيَ غبي أنا.. لو أن هذا الرجل واحد من الكبار الذين ترجلوا من القطار، أما كان أحد الحمّيلة قد أركبه فوق ظهره، وهل كانوا تركوه لي؟ لم أفكر بهذا أبداً. هل حزرتم أيها الأصدقاء من كان ذاك الرجل الضخم؟ لقد كان رئيس الندل في مطعم المحطة، وقد وقف أمام المطعم ليراقب كبار الحزب عن بعد. وكيف لي أن أعرف أنه نادل. وقد تلبس هيئة مطابقة لهيئات كبارنا.. ولم أكن قد رأيت قبل ذلك نادلاً بتلك الهيئة،

وهل يعمل المرء نادلاً بعد أن يرتدي مثل تلك الثياب.. فالرجل في هيئة والٍ، أو قائم مقام على الأقل.. مهما يكن، سميت بالرحمن وولجت بين فخذيه، فأجلسته فوق نقرتي. لا بد أن الله تعالى قد أشفق عليَّ فمنحني قوةً أتاحت لي حمل ذلك الرجل الضخم فوق نقرتي مثل ريشة يحدوني الأمل في لفت الأنظار. تراكض عدد من الأشخاص نحوي يريدون مساعدتي، لكني طردتهم صارخاً بهم: «أفسحوا أيها السفلة! سأحمله بنفسي!» وذلك على مبدأ أجدادنا الذين قالوا إنه لا يجوز اختطاف عظمة من فم كلب. لو أني لم أطردهم لكانوا اختطفوا الرجل الكبير من فوق ظهري ليحملوه بأنفسهم، وبذلك أبقى وحدي من جديد. فلم أكن أعرف أن الرجل ليس من الكبار. ولو كنتُ أعرف أنه نادل لأطحت به أرضاً. ولا بأس بوزنه الثقيل، لو أنه يجلس هادئاً فوق رقبتي فسوف أحمله مهما بلغ وزنه، ولكنه ينتفض صارخاً بي:

«اتركني ولاك! أنزلني ولاك!»

لا تستهينوا يا أخوتي بالعمل الحزبي، فهو صنعة في غاية الصعوبة. كانوا من جهة يذبحون الأكباش ذوي القرون المزينة والإليات المُحنّاة والأعناق المطوقة بالشرائط الملونة، ومن جهة أخرى يتراكض المسؤولون بالشارات الحزبية على صدورهم والكتافيات الحزبية على أذرعتهم. وكان البعض يتسلق الطريق صعوداً وعلى ظهره أحد الكبار من الوزن الثقيل، لاهثاً مثل جاموس مهتاج.

لينتفض الرجل الراكب فوق ظهري، ما شاء له ذلك. فقد قبضت على الرجل الكبير، ولن أنزله عن ظهري قبل أن نصل إلى الساحة، وبالذات أمام التمثال. فقد أردت أن أقلب الرجل عند أسفل قدمي تمثال سيدنا أتاتورك. لكنه لا يهدأ أبداً. ولا يكتفي بعدم السكون، بل يشتمني أيضاً وبلا توقف. والجوّ شديد الحرارة وأنا أتعرق بإفراط. ذلك الرجل الضخم الذي شعرت به خفيفاً في البداية، ازداد ثقلاً، وأنا امشي... فلأقل طناً، ولنقل طنين... مع كل خطوة أخطوها يزداد الرجل ثقلاً.. ويتململ فوق رقبتي.. عندما لم أعد أحتمل، قلت له:

«لا تتأرجح سدى يا سيدي، فقد تمكنت من إركابك على ظهري، ولن أتركك قبل أن أوصلك إلى أسفل التمثال!»

فصرخ قائلاً:

«أنا نادل ولاك!»

«أوه يا سيدي، أستغفر الله.. أي كلام هذا! أوتظننا جهلة لم نر شيئاً من العالم إلى هذا الحد؟ ألم نر نادلاً في حياتنا!»

عاد يكرر:

«أنا نادل ولاك! نادل!»

«أية وقاحة من نادل ليلبس مثلك يا سيدي!»

عندما أدرك بأنه لن يفلت مني بدأ يتوسل إليّ ويرجوني، ويتابع من جهة أخرى شتائمه لي:

«لديَّ خدمة يا أخي، اتركني وحياة أحبائك.. عندي وليمة ولاك! وإذا لم أتواجد في المطعم فسوف يطردونني.. اتركني ولاك يا عديم الشرف!»

ثم راح يوسخ في الكلام أيضاً:

«يا حماراً ابن حمار، أنا لست نادلاً من نوع صبي بائع البيواظ[*] المعروف لديك. أنا رئيس الندل في مطعم المحطة.»

«أستغفر الله.. أنت تختبرني يا سيدي..»

شتمني شتيمة ثقيلة جداً، لم تتحملها رجولتي، فقلت له:

«اسمع. لن تتمكن من إقناعي بأنك نادل.. ولكن حتى لو كنت نادلاً بالفعل فلن أتركك. سوف أحملك حتى أسفل التمثال حتى أقبض نقوداً من الحزب لقاء حملك..»

تأكد الرجل من أنه لن يفلت مني، فتوقف عن الحركة واسترخى على ظهري. لماذا لا يقفز عن ظهري؟ لأنه لا يستطيع.. فهو ذو كرش كبير جداً وجثة ضخمة لا يتيحان له القفز والنطوطة. لو أنه وقع من فوق رقبتي إلى الأسفل فسوف ينكسر فيه شيء ما. هذا ما يخيفه.

صحيح أنني لم أُنزل الرجل الضخم عن ظهري، لكنني ندمت على ذلك. لأن وزنه ازداد كثيراً، وضغط بثقله عليّ. وأنا لم آكل شيئاً بعد الكعكة التي أكلتها ظهيرة البارحة. لذلك ارتجفت ساقاي من الجوع. رحتُ أتطلع يميناً وشمالاً على أمل أن أرى واحداً من أبناء الإسلام يحمله عني. لكن الجميع قد تجاوزوني راكضين. وتخلفت عنهم في مؤخر الركب. أوصلته إلى الساحة لاهثاً متنهداً. وفي اللحظة التي بلغت فيها أسفل التمثال، لا أعرف كيف حدث ذلك، فقد وقعت بطولي على الأرض. لعل قدمي زلَّت، أو اعترض

---

[*] بصل مفروم مع البقدونس، منكه بالسماق أو الليمون يقدم كمقبلات مع الشواء

أحدهم قدمي بقدمه متسللاً خلفي، أو ربما نفدت طاقتي من شدة الجوع. وهكذا تمددت أمام سيدنا أتاتورك في وضعية السجود، مع الثقل الذي فوقي.

سكت يشار يشامز. انتظر نزلاء المهجع لبعض الوقت آملين أن يستأنف الكلام. وإذ لم يصدر عنه صوت، سأله أحدهم:

- ما أخبار النقود؟ هل حصلت عليها؟

أجابه يشار قائلاً:

- أية نقود يمكن أن تحصل عليها يا صاح وممن؟ فقد اختفى الجميع كلٌ في جهة. باب مكتب الحزب مثل جدار أصم. لكنني لم أستسلم. اهتديت إلى ذلك الرئيس الحزبي وقلتُ له:

«إني أبحث عنك. جئت لأقبض نقودي.»

كان الزنديق المدعو داوود برفقته. وإذ به يقول لي:

«لكنك لم تحمل لوحدك. ساعدك شخص آخر.»

«أيُّ شخص آخر! لقد حملت وحدي كبيرنا الضخم.. فقط في اللحظة التي كنت أرفعه فيها على ظهري، ساعده أحدهم في الركوب بأن احتضنه من الخلف. هل يقال عن هذا إنني لم أحمله بمفردي..»

عندئذٍ قال ذلك السافل المدعو داوود بيك:

«هه! عرفت! هذا هو الذي ألقى بحمله على الأرض عندما وصل إلى وسط الساحة»

«والله لم ألق به يا سيدي الرئيس. والله إن الرجل الذي فوقي قد ألقى بنفسه. وعندما قصّ أحد عديمي الشرف قدمي بقدمه وقعت أنا أيضاً.»

هذه المرة نطق ذلك الرئيس الحزبي ليقول:

«وما أدراني أنك حملت أحداً؟ هل تريدنا أن نوزع نقوداً على كل من يدعي بأنه شارك في الحمل؟»

لحسن الحظ تعرَّف عليَّ شخصٌ آخر من الموجودين راح يضحك ويكركر. سأله كل من الرئيس وذلك الداوود بيك عما يضحكه، فكان يمعن في الضحك كلما ألحوا عليه بالسؤال. أخيراً أجاب من بين ضحكاته:

«نعم، هذا الرجل شارك في الحمل على ظهره، وأنا شاهد على ذلك. لكن الرجل

الذي حمله بعد أن أرغمه على الركوب على ظهره هو رئيس النُدل في مطعم المحطة».

انطلقت ضحكاتهم جميعاً، وطردوني لأنني حملت الرجل الخطأ، لم يبق إلا أن يضربوني بالعصيّ أيضاً.

صرخ نزلاء المهجع بصوت واحد:

- خووووود!

أحد النزلاء:

- إذن لم تحصل على النقود؟

يشار:

- دعك من النقود، فأنا لم أتمكن حتى من الحصول على تذكرة قطار من أجل العودة. عدتُ إلى المحطة لأشتري تذكرة.. وإذ مددتُ يدي داخل جيبي لأخرج نقوداً.. أوّاه!

- ماذا حدث؟

- وماذا تتوقع؟ لقد حدث ما حدث.. ففي حين كنتُ أحمل ذلك الرجل الثقيل على أمل كسب بضعة قروش، ولعلني ألفت أنظار جماعة الحزب ليستصدروا لي بطاقة شخصية، وأنا غارقٌ في العرق، فقد سرقوا مني محفظتي. ولم أكن وحدي في ذلك. فقد اندسَّ النشالون بين الجمهور وأفرغوا جيوب جميع رافعي السيارات وحاملي الكبار. عندما لم أعثر على محفظتي في جيبي، ركضتُ إلى المخفر وأنا أصرخ. قلت للشرطة:

«لقد سرقوني!»

انتبه الشرطي إلى أنني غريب عن المنطقة، فقال لي:

«حسناً، لننظم ضبطاً بالحادثة. هاتِ بطاقتك الشخصية لنعرف من تكون وما هو عملك ومن أين أنت.»

عندما قال ذلك عرفتُ أنني انتهيت.

مرة أخرى صرخ نزلاء المهجع بصوت واحد:

- خووووود!



-٩-

على الجهة المدعية إبراز الوثائق الضرورية

كان السجان «النص نصيص» يمشي في الممر متقدماً باتجاه المهجع الأول وهو يصرخ حيناً وينفخ في صفارته حيناً:

- هيه! اسكتوا واسمعوا! ستذاع عليكم قائمة بأسماء من لهم زيارات.كل من يسمع اسمه يخرج إلى الزيارة. البقية إلى المهاجع.. هيا إلى الداخل. إلى الداخل أقول لكم!

في العاشرة من صباح يوم الزيارة كل أسبوع كانت تقرأ قائمة بمن لهم زيارات. كانت أبواب المهاجع تترك مفتوحة على السجناء، لكن أحد المحكومين قتل الأسبوع الماضي أثناء استقباله لزواره، طعناً بالسيخ، لذلك فقد تقرر إغلاق المهاجع على السجناء من باب الاحتياط.

كانت الزيارة تستغرق ربع ساعة، لكن وقتاً طويلاً كان يمضي بين إعلام السجناء بالزيارات وإدخالهم إلى المكان المخصص للمقابلات. لذلك تعلن قائمة بالأسماء كل ساعة، يتلوها سجين شاب ذو صوت جهوري يعمل في إدارة السجن لأنه مدعوم. كان يقف في باب الباحة ويتلو الأسماء.

كان النص نصيص ينفخ في صفارته وهو يرغم السجناء على دخول مهاجعهم، وصوت الشاب قارئ قائمة الزيارات يدوي هادراً بحيث يسمع في جميع المهاجع:

- قائمة! زيارات، زيارات، زيارااااات! قائمة! كمال طهطة قلعلي... مظفر الأرتست، علي الإعدام، نيازي المختلس، راضي العريان، رجب الدمبك، رجب الدمبك!... مصطفى الكفتة... حيدر الدخان... نجاتي الضابط... رضا القديد! ولاك يا رضااااا! مظفر الأرتست!

قال أحد السجناء من نزلاء المهجع الأول محدثاً نفسه بصوت مسموع:

- لا أحد يسأل عنا! اللبن بعشرين!

ثم التفت إلى يشار الذي كان منشغلاً بسازه فوق سريره:

- يا يشار!

- مرني يا أخي.

- أنت أيضاً ليس لديك زوار؟

- أنا ميت يا أخي. أنا لا أنتظر أحداً ليزورني.

تدخل سجين آخر وقال لذاك الذي كان يسأل يشار:

- وهل لديك من تنتظره حتى تتحدث هكذا؟

رد الآخر:

- لا... أنا لا أنتظر أحداً ولا من يحزنون. لكنني لم أولد من فجوة في صخرة. في الأيام الأولى على سجني كان ثمة من يأتي إليّ ويذهب. ولكن مع مرور السنوات انقطعت أرجل الجميع.

- لماذا إذن ما تزال بانتظار زيارة؟

- قلنا يعني، مثلاً.. ربما... اللبن بعشرين... اللبن بعشرين!

إن تعبير «اللبن بعشرين» يعني في لغتهم أن سعر اللبن قد انخفض ولكن ما من مشتر، ويعني أن لا أحد يأتي ويذهب، لا أحد يسأل أو يهتم، لا نقود ولا رغبات ولا آمال.

كان ليوم الزيارة طعم مرير بالنسبة لأولئك الذين لم يزرهم أحد وأولئك الذين لا أمل لهم في زيارة. وقد كان نزلاء المهجع الأول يحفظون أغنيات يشار التي ألف كلماتها بنفسه وغناها بكثرة بمرافقة صوت الساز، وأصبح البعض منهم يرددها.

بدأ ذلك السجين الذي كان يصرخ «اللبن بعشرين» ويتنهد يغني أغنية يشار:

حظ أسود طاردني

أثار آمالاً وشاغلني

من حيث لا أجرح جرحني

نادوا على أمي لتضمد جرحي.

كان يستبدل كلمة «آنشتي» في أغنية يشار بكلمة «أمي» حتى تنطبق الأغنية عليه.

كان يشار جالساً فوق سريره يطنطن أوتار سازه. صرخ أحد السجناء وهو منهمك في تدخين سيكارته ذات الورقتين:

- انحن على سازك يا سبعي. دعه يحكي يا عزيزي يشار!

شرع يشار يغني أغنية:

لو أفضيت بهمي فاضت البحار

لو حكيت لقاض، صدم القاضي

إذا طالبت بحقي قيل إني ميت

أما لدفع الضرائب فالميت حي

إن شاؤوا وجدوا له موقعاً في الكتب

وإذا شاؤوا قالوا إن عيسى حي

فإذا سألتم من هو القائل

إنه بائس ميت وهو حي.

عندما حل المساء ارتفع صوت صفارة النص نصيص وصرخاته المعتادة «إلى الداخل! إلى الداخل!». فدخل السجناء إلى مهاجعهم.

في مساء أيام الزيارات كان حزن مرير لا تعبر عنه الكلمات يجثم بثقله على الجميع، سواء في ذلك من تلقوا زيارات ومن لم يتلقوا. في أوقات الفرح كما في أوقات الحزن، كانوا يطلبون يشار، فيجلس هذا في المكان الأكثر ملائمة من المهجع ويحكي لهم قصة ميتته وهو حي.

بعد انتهاء التفقد وتناول العشاء اتخذ نزلاء المهجع الأول مواقعهم كالعادة بما يتيح لهم الإصغاء إلى يشار بأفضل ما يمكن. لم يكن يشار يحكي مغامراته هكذا بلا مقدمات. فكما أن الملاكمين يقفزون وينطون قبل المباراة للتحمية، وكما أن لاعبي كرة القدم ينزلون إلى الملعب قبل بداية المباراة، يركضون ويقفزون، كذلك هو يشار. كان عليهم أن يفتحوا حديثاً عن الموضوع قبل أن يبدأ يشار بالكلام. قال واحد من نزلاء المهجع، وكان يعرف هذا الأمر:

- طيب يا يشار، ماذا حدث بخصوص موضوع الإرث؟

- لكي أحصل على الميراث، علي أولاً أن أثبت بأنني أحيا.

- ولكن ألم ترفع دعوى في المحكمة؟

- نعم، رفعت ولكن...

- إذن؟

- أنت يا أخي تلقي بكلام أخيك يشار خلف أذنيك. فقد حكيت لكم كيف أننا كنا نلعب لعبة الأحزاب وقد رفعنا أيدينا إلى الأعلى لنصفق لكبار قادة الحزب ولنرفع سياراتهم إلى الأعلى ولنحمل قادتنا فوق رؤوسنا، فتقاطر جميع نشالي وطننا تركيا إلى المكان وأفرغوا جيوبنا منتهزين فرصة ارتفاع أيدينا إلى الأعلى. لقد جردونا أقول لك. هكذا يكون التشليح!

كان في المهجع الأول إثنان من مشاهير النشالين المختصين بالاجتماعات الجماهيرية التي تسمى «ميتينغ». علق عليهما بسخرية لصوص ونشالون احترفوا العمل في مجالات أخرى:

- لعلكما من شلح أخانا يشار ولاك!

تابع يشار قصته:

- لقد استولوا على محفظتي وانصرفوا. ولم لا؟ فقد انشغلت بحمل ذلك الرجل الذي بضخامة الجاموس على أنه أحد الرجال الكبار، وذلك رغبة مني في لفت الأنظار. فلم تعد عيناي تريان شيئاً غيره. ولو أنهم اقتلعوا كبدي أو طحالي وأخذوهما بدلاً من محفظتي، فلن تشعر روحي بذلك. نعم إلى هذا الحد تفانيت في سبيل الحزب. طارت النقود التي أعطانيها صديق الوالد، لابأس... لكن الأنكى من ذلك أن الورقة التي أخذتها من المحكمة وعليها تاريخ ورقم، قد طارت بدورها. فقد كانت في داخل محفظتي... قصدت صديق الوالد مرة أخرى وقلت له: «لقد حدث كذا وكذا يا عمي. لقد سرقوا مني النقود التي أخذتها منك وكذلك ورقة المحكمة.»

قال صديق الوالد:

«لا تخش شيئاً يا بني. إذا كان أبوك قدمات، فأنا موجود. لنوكل محامياً لك حتى يساعدك في الوصول إلى نتيجة في قضية الإرث. أعرف محامياً يخلص المجرم من حبل المشنقة. هيا نذهب إليه.»

ذهبنا إلى المحامي. حكيت له كل ما جرى، وما سهوت عنه أكمله صديق الوالد. قال المحامي:

«أية سخافة هذه! سوف نكسب هذه القضية إن شاء الله.»

ورفع المحامي دعوى الميراث أمام المحكمة. بدأت الجلسات وبين الجلسة والجلسة شهران أو أربعة أشهر أو أكثر... وفي كل جلسة كانت تحضر آنشة وأبوها وكذلك صديق الوالد. ومعروف لماذا يحضرون فإذا حصلت على الميراث سيزوجني أبو آنشة ابنته. أما صديق الوالد، فمهما كان رجلاً طيب القلب وصديقاً لأبي، فأنا مدين له بمبلغ لا بأس به. سيسترد الرجل نقوده، ويشاركني في عمل رأس ماله مني. كانت آنشة الجالسة في قاعة المحكمة تحدق في عينيّ وتشجعني:

«سوف تحصل على حقك من الميراث يا حبيبي يشار. لا تخش شيئاً!»

أما أنا فقد تخليت عن الميراث منذ وقت طويل. يكفي أن أحصل على بطاقة شخصية. لدي بضع قطع أرض بقيت لي من أبي، سوف أبيعها وأتخلص منها ثم أتزوج آنشة وأجد عملاً نعيش منه. هذا هو همي... كانت المحكمة تسير سيراً حسناً. القاضي على وشك الاقتناع بأنني حي وأنني ابن أبي... وإذ بمحام... ومن أين انبثق ذلك المحامي؟ نعم جاء محام ليحضر إحدى الجلسات. انتصب أمام القاضي وقال: «أنا محامي الخزينة العامة!»

أيعقل هذا! أترون هذه المصيبة! وما الأمر يا سيدي؟ بما أنني ميت في السجلات، فليس من حقي - كما زعم - أن أمتلك الحقول التي خلفها أبي، وأن تلك الحقول ستعود إلى الخزينة العامة!

صاح نزلاء المهجع بصوت واحد:

- خوووووود!

حتى ذلك الوقت كان يشار يحكي ما جرى معه من أحداث من حيث هو جالس - لكنه هذه المرة وقف وراح يحكي كما لو كان ممثلاً فوق خشبة مسرح. أمسك بعلبة ثقاب أفرغها من الأعواد، ثم لف حولها قطعة مطاط شدها وحشر بينها وبين العلبة عود ثقاب، راح ينقر عليها بإصبعه، فتصدر عن ارتطامها بالعلبة أصوات شبيهة بتكتكات مفاتيح الآلة الكاتبة «تكْ تك تاك... تك تك تاك تك..». كان يشار يحاكي كاتب المحكمة

فيتظاهر بطباعة كلام المحامين والقاضي، ويلعب دور كاتب المحكمة والمحامين في الوقت نفسه، فيقف مرة في هذه الجهة ليتكلم بلسان محاميه، وينتقل مرة إلى الجهة المقابلة يتكلم بلسان محامي الخزينة العامة، ونزلاء المهجع يتابعون تمثيل يشار فتدمع عيونهم لشدة الضحك.

قال يشار منتحلاً صوت وكلام محامي الخزينة العامة:

«سيدي القاضي. قبل كل شيء إن هذا الشخص الذي يزعم بأنه ابن المرحوم رشيد وبأنه وريثه الوحيد، لم يثبت رسمياً وبصورة قانونية أنه حي يرزق. إن مزاعم شخص غير موجود بالمعنى القانوني في حقه في الميراث، هي تناقض منطقي. ذلك أن ادعاء ذلك الشخص الذي يقول أن اسمه هو يشار، والذي لايستند كونه على قيد الحياة إلا على زعمه - مع أنه ليس حتى موجوداً بالمعنى القانوني - سواء بأنه يشار أو بأنه ابن المرحوم رشيد ووريثه الوحيد، هو ادعاء بلا سند وبالتالي باطل قانوناً.. لأن شخصاً أو أشخاصاً آخرين قد يظهرون غداً ليزعموا بأنهم أولاد المرحوم رشيد ويطالبون بحصتهم من الميراث. طالما أن هذا الشخص الذي يزعم بأنه يشار وبأنه ابن المرحوم رشيد، لم يثبت رسمياً أو بصورة قانونية بأنه بالفعل يشار وبالفعل على قيد الحياة، فمن الواضح أنه لا يستطيع أن يرث المرحوم رشيد. بناء عليه وبالاستناد إلى مواد القانون المنطبقة على حالته، وبما أنه ليس ثمة أي وريث على قيد الحياة للمرحوم رشيد، يتوجب إذاً انتقال جميع أموال المرحوم المنقولة وغير المنقولة إلى ملكية الخزينة العامة.»

كان يشار يحكي كلام محامي الخزينة بالشكل الذي حفظته فيه ذاكرته، وفي الوقت نفسه يصدر أصوات الكتابة على الآلة الكاتبة بواسطة علبة الثقاب ذات المطاط، ويحول وسط المهجع إلى ما يحاكي قاعة المحكمة.

- عندما سمعت ما قاله الرجل المسمى محامي الخزينة العامة، انتهيت. استولى علي خوف كبير لا أستطيع التعبير عنه بالكلمات. أما سبب خوفي فهو أن يدفع هذا المحامي بي إلى السجن بتهمة انتحالي لشخصية ابن المرحوم رشيد بهدف الاستيلاء على تركته.

ندمت ألف مرة لأنني رفعت هذه الدعوى، ولكن ما نفع الندم؟ رمقت آنشة خفية فرأيتها تنظر إلي بدورها. وكم كانت حزينة حبيبتي آنشة بفعل كلام محامي الخزينة. كانت على وشك البكاء.

أعلن القاضي أن الدور في الكلام هو لمحامي يشار يشامز، وإذ وقف المحامي سأله

القاضي:

«ما هو ردكم على أقوال محامي الخزينة؟»

إنه محامي خزينة دولة كبيرة بحالها، فما الذي يمكن قوله رداً عليه؟

سعل محاميَّ الخاص منظفاً حنجرته، ولوح بردن عباءته الواسع بقطر ذراع، ثم بدأ الكلام:

«سيدي القاضي، موكلي الذي نراه جميعاً، ويراه السيد محامي الخزينة بالذات، في هذه اللحظة حياً يرزق، ويمثل في حضرتكم سليماً معافى، كيف يمكن الزعم بأنه ميت بالاستناد إلى خطأ ما في السجلات؟»

أووووه! الحمد لله! فرحت على أثر كلام المحامي لأنني سأحصل على بطاقتي الشخصية وأضع يدي على تركة أبي التي هي من حقي، لكن محامي الخزينة قفز من مكانه وبدأ :

«ولكن من الممكن سيدي القاضي الزعم في هذه الحالة بأن جميع الموتى هم أحياء، ما يعني...»

كنت أقول لنفسي «أوّاه، لقد احترقت!» عندما قفز محامي من مكانه وقاطع الرجل المدعو محامي الخزينة قائلاً:

«اسمحوا لي... إن موكلي الذي يزعم السيد محامي الخزينة المحترم بأنه ميت، قد سدد جميع ديون أبيه للأشخاص العاديين والاعتباريين والضرائب المستحقة عليه للدولة، بصفته الوريث الوحيد لأبيه، ولم يزعم أحد بأنه ميت عندما حصلوا منه ديون المرحوم أبيه، لقد طبقت على موكلي يشار الإجراءات التي يتم تطبيقها على كل مواطن حي. هل سبق ودفع أحد الموتى ضرائب، والأنكى من ذلك أنها ضرائب أبيه المرحوم»

آه عشت أيها المحامي! أرأيتم محاميَّ الخاص! لولا أننا في قاعة المحكمة لكنت عانقته وقبلته. حلال عليه ما أخذ من نقود. وإذا حصلت على هذا الميراث، فلا أكون يشار إذا أنا لم أعطه أكثر مما يستحق له!

النتيجة في منتهى الوضوح: نحن الذين سنكسب القضية. نعم سنكسبها.. ولكن، آه لو أن محامي الخزينة يسكت.. لكنه لا يسكت.. هاهو يقفز من مكانه واقفاً، يلوح بردن عباءته الواسع في الهواء ويستلم دفة الكلام:

«سيدي القاضي الموقر، إن محامي الطرف الآخر يتناسى نقطة هامة وهي أن الوثائق الرسمية وحدها نافذة ومعترف بها أمام المحكمة. لقد أبرزنا أمام عدالتكم وثيقة رسمية حصلنا عليها من دائرة نفوس المدعي، تفيد بأن هذا الشخص المدعو يشار قد استشهد إبان معركة جنق قلعة»

أواه ثم أواه! محامي الخزينة قد أثبت موتي بالوثائق. محامي بدوره ليس هيناً. عاد إلى الكلام وهو يلوح الردن الواسع لعباءته:

«ونحن ليدنا شهودنا في هذا الموضوع سيدي القاضي. نعم لدينا شهود. سنقدم لكم وثائقنا كما سنريكم شهودنا، وكلاهما سيؤكد لكم بأن يشار هو ابن المرحوم رشيد ووريثه الوحيد.»

هنا دخل المحاميان في جدال حار، فهذا يؤكد صلاحية الوثائق، وذاك يصر على أولوية الشهود. كبر الجدال بينهما وبدآ ينقضان أحدهما على الآخر مثل ديكة في حلبة صراع. لم يبق إلا أن يتضاربا.

لحسن الحظ تصرف القاضي في الوقت المناسب وقال: «قررت المحكمة..» فمنع بذلك وقوع القتال بين المحاميين. نهضنا جميعاً واقفين لنسمع القرار:

«قرر ت المحكمة: على الجهة المدعية أن تبرز أمام محكمتنا الوثائق الضرورية وأن تحضر صورة عن قيد نفوس المرحوم رشيد من دائرة النفوس، وصورة عن أمر تسريح يشار ابن المرحوم رشيد من شعبة التجنيد، وتقرر تعليق الجلسة حتى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ٩ شباط.»

انتحل يشار دور القاضي وهو يتلو قرار المحكمة، ويؤدي في الوقت نفسه وظيفة كاتب المحكمة بإصداره أصوات الآلة الكاتبة على علبة الثقاب. وعندما انتهى من كتابة القرار سكت. واستمر سكوته لبعض الوقت.

أحد المستمعين أفسد الصمت قائلاً:

- وبعد ذلك؟

قال يشار:

- بعد ذلك، ألم أقل لكم كيف أن المحاميان تصارعا كالديكة في قاعة المحكمة؟ ألم أقل إن قلبي قد أصبح داخل فمي خوفاً من أن يتضاربا بالأيدي.... تبين أن خوفي كان بلا مبرر.

فعندما خرجا من قاعة المحكمة إلى الممر شابك كل منهما ذراعه في ذراع الآخر. محامي الخاص قدم سيجارة لمحامي الخزينة، في حين أخرج هذا قداحته وأشعل سيجارة محاميه. انصرفا وهما يتبادلان الكلام والضحكات. قلت لصديق الوالد:

«يا له من مسرح ياعم! ألم يتصارعا قبل قليل وكأن كل منهما متعطش لدم الآخر؟»

صديق الوالد الذي عركته تجارب الحياة، قال لي:

«يا بني يا يشار.. لو أن كل محاميين يتصارعان في المحاكم ينتهيان إلى مقاطعة أحدهما الآخر، لما بقي محاميان يتبادلان التحية.»

«صحيح ما تقول ياعم، ولكن بما أن الأمر كذلك، عليهم أن يتركوا مجالاً لتبادل التحيات... ألم تر كيف كانا يتبادلان الهجوم أحدهما على الآخر..»

«إنه واجبهما. فمحامي الخزينة يحصل على راتب شهري من الخزينة، ومحامينا يقبض لقاء أتعابه. وحتى يستحقوا النقود التي يحصلون عليها، فهم يفعلون في المحكمة كل ما في وسعهم، حتى ينظر إليهم موكلوهم ويقولوا: «حلال عليهم..»

بالفعل كنت قد قلت أكثر من مرة بيني وبين نفسي: «حلال عليه النقود التي أخذها بل إنه أخذ أقل مما يستحق.» نفذ صبر أحد متابعي حكاية يشار، فسأله:

- ماذا حدث بعد ذلك يا يشار؟ هل حصلت على التركة؟

تابع يشار:

- ثم يا أخوتي، ذهبت إلى المحامي، أفصحت له عن مخاوفي. فقلت إن محامي الخزينة شديد البأس، وإنه سيتهمني بالنصب ومن المحتمل أن يلقي بي في السجن بدعوى أنني ظهرت لأزعم بنوتي لأبي حتى أستولي على تركته، وأضفت أخيراً أنني أريد أن أتخلى عن القضية. ابتسم محامي وقال:

«إذا فعل ما تقوله، فهذا لصالحنا... ليتهمك إذن بالنصب والاحتيال بدعوى أن رجلاً ميتاً يتظاهر بأنه حي حتى يستولي على التركة!»

ولما لا يفعل؟ إن ما حدث لي حتى الآن لم يكن أقل استحالة مما يفترضه المحامي.

صرخ أحد نزلاء المهجع ممن يستمعون إلى حكاية يشار..

- فلقتنا يا يشار! قل لنا أخيراً هل تمكنت من الحصول على بطاقة شخصية؟ هل استطعت الحصول على تركة أبيك؟

رد عليه يشار قائلاً:

- حصلت على هواء! هواء!

- كيف ذلك يا يشار؟

- لقد حدث... استمرت المحاكمة ثلاث سنوات. أحضر وثائق... أحضر شهوداً... أحضر وثائق... أحضر شهوداً... بذلك مرت سنوات ثلاث... لو كنت قادراً على التحمل، لتحملت لفترة أطول، لكن والد آنشة لم يتحمل أكثر. في نهاية إحدى الجلسات أمسكني من ذراعي في الممر وقال لي:

«اسمع يا بني. لقد انتظرتك آنشة طويلاً على أمل أنك ستحصل على بطاقة شخصية. بسببك داست على نصيبها مرات كثيرة. لقد آذيت ابنتي التي مثل الورد. أنت ترى أنهم لن يمنحوك بطاقة شخصية.»

ثارت أعصابي فقلت له:

«لكنك تعرف يا عمي بأنني حي ولست ميتاً.»

«وما النفع إذا عرفت أنا يا بني؟ المهم أن تعرف الدولة، لذلك، الأفضل أن تتخلى عن ابنتي آنشة. فليس من حق الميت أبداً أن يتزوج:»

لو تعرفون أيها الأخوة ما فعلته بي تلك الكلمات.. بدأ سقف مبنى المحكمة الضخم وأرضيته يدوران ويدوران. أما آنشة فبقيت واقفة وهي ممسكة بيد أبيها. نظرت في وجهها وإذ بها.. أواه يا آنشة أواه! من عينيها الجميلتين طفرت دموع مثل حبات اللؤلؤ سالت على خدها الورد.. عند هذا الحد لم أعد أبالي بالمحكمة ولا بالقضية. وماذا لو اهتممت؟

قلت لنفسي: «يشار أيها الأبله.. هل ستعرف أكثر من الدولة إن كنت ميتاً أو حياً يا غبي؟ كيف تجرأت وعاندت الدولة لسنوات مصراً على أنك حي! هل أنت من سيكذّب الدولة يا عديم العقل؟ إذا كانوا يقولون لك طوال سنوات بأنك لا تحيا فمعنى ذلك أنك لا تحيا. فلتزهق روحك يا يشار حتى يصح ما تظهره الوثائق الرسمية..»

فكرت هكذا ونويت أن أقتل نفسي، لكن خبراً جاء من آنشة... روح يشار فداء لمن بعث ذلك الخبر ولمن أوصله أيضاً... لقد كتبت آنشة في رسالتها تقول:

«حبيبي يشار. طالما لم تتخل عني، فلن أتخل عنك. لا تهتم بما قاله أبي. إني أفضل

أن أقتل نفسي على أن أصبح لأحد غيرك يا يشاري الحبيب. حتى لو زعم العالم كله بأنك لا تحيا، فأنت تحيا في قلب آنشة يا يشاري. أينما ذهبت فأنا معك. يكفي أن ترسل لي خبراً فآتي إليك.»

انفعل نزلاء المهجع فتأوه البعض منهم وتنهد البعض الآخر، في حين عبر آخرون عن مشاعرهم بالكلام:

- حلال عليها.. إنها فتاة شهمة!

- فتاة كهذه تستحق مهما فعلت من أجلها.

- عش يا يشار! عش نكاية بهم! عش من أجل آنشة..

قال يشار:

- أريد أن أعيش يا أخوتي، لكنهم لا يتركونني أعيش. ولا يستطيع المرء أن يعيش بلا بطاقة شخصية.

صرخ أحد النزلاء:

- كان عليك أن لا تتخلى عن قضيتك أمام المحكمة!

- يا أخي، لو أنك تعرف كم ترددت على تلك المحكمة.. إلى درجة أن ما بقي عندي من تلك الجلسات عبارة عن هدير من الأصوات المتداخلة في أذني: «استحالة... منطقياً....مستحيل..مناف للمنطق... وفقاً للمنطق... أموال... مال... نقود... غير المنقول.. العدالة... الحق... الحق.. الحقوق.. التحقق..»

تدخل أحد السجناء وكان يعتبر كبير اللصوص:

- آخ..آخ... يا بني يشار، لم لم تذهب لتقابل نظامي بيك القره قبلي... لو أنك قصدته، لا ستصدر لك بطاقة شخصية على طلبك، وحصل لك تركة أبيك على الفور. ليس فقط ما ورثته عن أبيك، بل ما خلَّفه أعمامك أيضاً.

يشار:

- ولكن ليس لي أعمام!

- ولو! حتى إذا لم يكن لك أعمام، فإن نظامي بيك يستطيع أن يختلق لك عماً ثرياً، ثم يجعلك ترثه.

صرخ أحد السجناء:

- الحقنا يا نظامي القره قبلي الحقنا!

يشار:

- لم لا تقولون إذن إن هذا النظامي القره قبلي أشبه ما يكون بخضر عليه السلام..

- خضر؟ وأي وجه للمقارنة بينه وبين نظامي بيك القره قبلي!

سجين آخر أيد هذا الكلام قائلاً:

- إن خضر عليه السلام لا يستطيع إنجاز أي شيء ما لم يحصل على رسالة توصية من نظامي بيك القره قبلي..

ذهل يشار كثيراً بسبب ما يقال عن هذا المدعو نظامي بيك القره قبلي.

سيطر خدر عذب على أولئك المنهمكين في تعاطي الحشيش. أما أولئك الذين لم يكونوا يتعاطون الحشيش فقد كانوا «مسلطنين على الريحة». قال أحد هؤلاء:

- هيا يا عزيزي يشار، أنطقْ سازك.

انحنى يشار فوق الساز وراح يغني:

لو أفضيت بهمي فاضت البحار

لو حكيت لقاضٍ صُدِم القاضي

إذا طالبت بحقي قيل إني ميت

أما لدفع الضرائب فالميت حيّ

إن شاؤوا وجدوا له موقعاً في الكتب

وإذا شاؤوا قالوا إن عيسى حيّ

فإذا سألتم من هو القائل

إنه بائس ميت وهو حيّ.



-١٠-

بطاقة توصية أغلى من الذهب

أصبح يشار يعرف عمله الذي بات واجباً ومصدر رزق له. فقد كان زملاؤه في المهجع يعتنون به. فضلاً عن إطعامه، كانوا يدفعون له ثمن سجائره أيضاً. والحال أن يشار سيحكي لهم حتى لو لم يعطوه أي شيء. لأنه يتخفف من همومه عندما يحكي لزملائه، ويرتاح كمن أنزل عبئاً عن كاهله، ويقاسم زملاءه في مصاعبه. ويمكن أن يجن إذا لم يحك. بل يمكن الاعتقاد بأنه من الممكن أن يستأجر شخصاً يصغي إليه لقاء النقود، إذا لم يجد أحداً يصغي إليه فيما لو كان ثرياً. هو الآن في أحسن حال، فهم يستمعون إلى ما يحكي ويدفعون له نقوداً ويعتنون به ويطعمونه.

وفي الأوقات التي يعجز فيها عن رواية الأحداث التي جرت له، كان يتخفف من همومه بالعزف على سازه، وبالغناء. أكثر أغنياته ليست من الأغنيات المعروفة، لأنه كان ينظم كلماتها بنفسه، ويضبط ألحانها بنفسه. كان الساز صديقه الوحيد في وحدته، وينظر إليه باعتباره مخلوقاً حياً يتكلم بوساطة أوتاره.

انسحب نزلاء المهجع كل إلى سريره. والبعض منهم تحلقوا حول طاولة خشبية عتيقة في وسط المهجع. خيم على المهجع صمت عميق بحيث بدا الصوت الصادر عن الماء الذي يغلي فوق موقد الشاي، مثل أنين متشك. إنه الموعد المعتاد الذي يبدأ فيه يشار بحكايته. أمسك يشار بدفة الحديث:

- إن من لم يجرب لا يعرف، هذا أولاً، والمتخم لا يحس بما يكابده الجائع، وهذا ثانياً. أيها الأصحاب والأحباب، أنتم لم تتعرضوا لشيء بالقياس إلى ما جرى لي من أحداث ومصائب.. إذا كنت كلب شوارع جائعاً في مدينة كبيرة، فسوف تنبش علب القمامة فتشبع بطنك. لن تموت جوعاً بالتأكيد... وإذا كنت ذا قلب شجاع فسوف تختار المكان الذي يلائمك وتدخله لتسرق.. أما إذا كنت جباناً مثلي حتى أمام السرقة فأي

خراء ستأكل؟... أن تكون إنساناً، وفضلاً عن ذلك إنساناً معدماً ومتشرداً وبلا رجاء، لهو أسوأ ألف مرة من أن تكون كلب شوارع.

لص مسن له ملف سوابق عند مديرية الأمن منتفخ مثل بطن امرأة حامل، لم تعد الدفاتر والاضبارات تتسع لجرائمه، جلس إلى الطاولة وانهمك في ارتشاف الشاي بصوت مسموع. تدخل في الحديث قائلاً:

- انظروا إلى هذا الصبي الذي يدعى يشار يشامز..إنه يتنطح لتعليمنا ما هو الفقر وما هو التشرد. دعك من ذلك الكلام يا بني واحك لنا ما جرى لك من أحداث، من حيث توقفت.

وقال شاب متمدد على فراشه:

- وآنشة؟ ماذا حدث لآنشة؟ آه يا آنشة البائسة!

قال يشار رداً على اللص المسن:

- على رأسي يا عم. قبل أن أحكي عن مصيبتي، أردته مدخلاً للكلام. ولم أنجح، اعذرني.

ثم تابع قصته:

- ليعش صديق الوالد، لولاه مت جوعاً. ولأنني لم أتمكن من تسديد ديني القديم، فلم أكن أجرؤ على الاقتراب منه. ذات يوم كنت أتجول في مركز المدينة بلا هدف، ولا أعرف ماذا أفعل أو إلى أين أتجه، عندما أمسكني أحد ما من كتفي وهزني. التفت لأرى من يكون فرأيت صديق الوالد. غمغمت بأصوات لا معنى لها بسبب خجلي منه، فقال لي:

«مهلاً يا بني. وتعقل! هل طالبك أحد بدين! هل ثمة من أتى على ذكر الدين! ما هذا؟ لقد ساءت أحوالك كثيراً وأصبحت أعمى وعيناك تريان.»

«من؟ تقول من؟ من هو؟»(*)

«صاتي بيك يا عزيزي، صاتي بيك...»

«من يكون صاتي بيك هذا؟»

---

* على الأرجح ثمة انقطاع في هذا الموضع، ربما لخطأ طباعي

استغرب صديق الوالد كثيراً عدم معرفتي صاتي بيك، فقال:

«الله الله! كيف لا تعرفه؟ إنه ابن البلد.. ابن «حقي الجرق.» هل تذكرت؟ يمكن القول بأنه نشأ تحت رعاية أبيك.. إن لأبيك عليه الكثير من الأيادي البيضاء.»

«أووه! هل قلت إنه ابن حقي الجرق يا عم؟ تقصد صاتلمش أليس كذلك؟»

«نعم..هو.»

«إذن صاتلمش... لكنك ذكرت اسماً آخر قبل قليل...»

«أنت لا تعرف إذن؟ نعم إنه الصبي الذي نعرفه صاتلمش.. ابن البلد.. لقد أعطاه الله دفعة وقال له: «امش يا عبدي امش!» وقد امتثل لمشيئته وسار قدماً... ويا له من تقدم! لقد احتل مناصب رفيعة للغاية.»

قلت بفم اتسع من الدهشة:

«ما الذي تقوله يا عم؟»

«نعم، هذا ما حدث.. وعندما ارتفع لم يعد يعجبه اسم صاتلمش(*) بدعوى أنه اسم فلاحي، فاختصره ليصبح صاتي بيك.»

وفقاً لما عرفته من صديق الوالد فإن صاحبنا صاتلمش، فضلاً عن تغيير اسمه بترقيته إلى صاتي، أصبح يخفي عن معارفه الجدد انتماءه إلى بلدتنا، فيدعي بأنه من استانبول.

«إن كلمة منه في هذه الأيام لهي أكثر قوة ونفوذاً من القانون يا بشار.. اقصده الآن بلا إبطاء. ولكن عليك أن تعرف بأنه يتظاهر بعدم التعرف على أهل بلده. لا أعرف إن كان سيتعرف عليك؟»

«معقول؟ وكيف لا يعرفني؟»

«قابله إذن. يستطيع أن يجد لك عملاً في أي مكان تشاء، هذا إذا أراد..»

عرفت عنوان صاتلمش فنسيت جوعي وكل ما بي، تحركت مباشرة فصاح بي صديق الوالد:

«إياك أن تناديه خطأ بصاتلمش. إنه الآن صاتي بيك وليس صاتلمش. صاتي بيك...

---

*معنى الاسم: مباع

يقال بأنه لا يعطي وجهاً لمن يقصده من أهل البلد، لكن الوضع معك مختلف. سوف يعرفك.. ناده صاتي بيك.. لا تنس ذلك..»

لم يبق أحد من بلدنا لم يستعذ بالله من عديم الأصل هذا المدعو صاتلمش. إنه يكبرني ببضع سنوات، لكنه كان يبدو أصغر مني بسبب قامته التي بقيت قزمة. كانت أمه امرأة لعوب هربت متخلية عن بيتها وأسرتها. عندما مات أبوه حقي الجرق كان صاتلمش صغيراً. ولأن أقرباءه فقراء فقد اعتنى به أبي فترة لا بأس بها. لكن صاتلمش هذا كان لعنة من رب العالمين، صبياً في منتهى الشقاوة، اجتمعت فيه كل الصفات المؤذية. كان الجميع يقولون عنه: «إذا أصبح هذا الصبي بشراً، فإن كلاب الشوارع ستصبح بشراً أيضاً...» لكنه أصبح كما ترون..إذن أخذت عنوانه من صديق الوالد وذهبت فوراً إلى مكان عمله حيث أخبروني بأنه ذهب إلى المكان الفلاني لإلقاء خطاب. وهل سيأتي غداً؟ قالوا إنه سيذهب غداً إلى المكان كذا لإلقاء خطاب آخر. في اليوم التالي وصلت إلى المكان المذكور منذ الصباح الباكر. تذكرون أنني حكيت لكم عن حملي لأحد كبارنا على ظهري. كلبنا الصاتلمش هذا أصبح مثل ذلك الكبير تماماً، فقد حملوه على الظهور والأيدي والرؤوس إلى الكرسي الذي سيخطب منه. ويا له من خطاب ذاك الذي ألقاه من فوق الكرسي يا أخوتي، ليس بوسعكم أن تعرفوا أي خطاب كان إذا لم تسمعوه. حتى أنا، بالرغم من معرفتي بماضي هذا السافل، فقد نسيت جوعي وتعبي وبطالتي وجميع مصاعبي وانسقت وراء خطابه.. ليس لأنني أفهم ما يقوله، بل لأن المستمع إليه يستبد به الخوف والانفعال بسبب صراخه وشتائمه الموجهة إلى أشخاص معينين. أنهى خطابه والحمد لله.

وفجأة بدأت الطبول والمزامير تعزف والبالونات الملونة تنفجر، وقصاصات الأوراق الملونة يلقى بها من فوق أسطح المنازل. تلاميذ الابتدائي بملابس فرقة «المهتر»، تقدموا نحو صاتلمش مثل جنود أقزام من الانكشارية وهم يعزفون الصنجات والطبول والدفوف والدربكات. كان علي أن أقابل صاتلمش من كل بد. وهكذا اخترقت كل ذلك الحشد من غلاوة الروح، ومررت عبر فراغات أتيحت لي، متجاوزاً الموانع الواطئة، وألقيت بنفسي أمام صاتلمش. ما إن وجدت نفسي أمامه حتى احتضنني صاتلمش بذراعيه وقبلني على جبيني وخدي بصوت مسموع.

عندما قبلني رأيت أنه من المعيب ألا أقبله بدوري، فقبلته متناسياً سفالاته القديمة.

أرأيتم افتراء صديق الوالد حينما ادعى أن صاتلمش لا يتعرف على أبناء بلده، وأنه أصبح متكبراً! فضلاً عن تعرفه علي من النظرة الأولى، ها هو يقبلني أيضاً بحرارة.. يعانقني ويشد على يدي كلتيهما.

لم أكد أبدأ بشرح مشكلتي قائلاً: «أرجوك دلني على طريق. أنا عاطل عن العمل..» حتى كان قد التقط ما لم أتفوه به بعد وراح يرفع قبضته في الهواء ويخاطب الحشد صارخاً:

«إليكم مواطن آخر ذو شجون... واحد من ملايين البؤساء.. واحد من الموجوعين... أنا في إمرة المواطن... أنا رهن أوامركم..» قلت محاولاً إيصال صوتي إليه: «أستغفر الله، أي كلام هذا.. من أنا حتى تكون تحت أمري. روح يشار فداك. يشار تحت أمرك» لكن الصخب كان يمنع صوتي من الوصول إليه. هل ترون كم هو إنساني صاتلمش هذا! يقول بأنه تحت أمري. خطر لي فجأة أن أطلب منه شيئاً من النقود بما أنه تصرف معي بكل تلك الحميمية! لكني تخليت عن الفكرة عندما فكرت بأنه من المعيب أن أطلب منه نقوداً بين كل هؤلاء الناس ومنذ اللقاء الأول به بعد سنوات من الفراق. واضح أنه سيعطيني نقوداً إذا طلبتها منه بل إنه سوف يعطيني بقدر ما أطلب.. رضاء الله عليه.. قلت لنفسي إنني سأطلب منه عندما أقابله على انفراد في مكان عمله، فسألته قائلاً:

«أين يمكنني أن أقابلك؟»

«أنا تحت أمركم في كل مكان.»

«حسناً، متى آتي لأقابلك؟»

«أنا تحت أمركم في كل وقت.»

استغفرت مرة أخرى وغادرت المكان. طوال ذلك اليوم دعوت لله من أجل صاتلمش. في هذا الزمن الرديء يندر أن تجد رجلاً طيباً مثله.

لن أطيل عليكم. لاحقت صاتلمش فترة من الزمن حتى أقابله وأتحدث إليه. ولكن هيهات! حتى وجهه لم أتمكن من رؤيته. نعم قال لي: «أنا تحت أمرك في كل مكان» ولكن أين هو ذلك الكل مكان؟ قال أيضاً «أنا تحت أمرك في كل وقت» ولكن متى يكون ذلك الكل وقت؟

هل رأيتم أي مغفل أنا حتى لا أفهم أن كل مكان يعني ولا مكان وأن كل وقت يعني ولا

في أي وقت. إذا أردتم التهرب من مقابلة شخص، عليكم أن تقولوا له: «إني أنتظرك في كل مكان! تعال في كل وقت!». لقد تعلمت هذا يا أخوتي من البواب الواقف أمام باب صاتلمش. فقد وصلت إلى مكان عمل هذا الصاتلمش. البواب الواقف أمام باب مكتبه لم يسمح لي بالدخول. فقلت له:

«لا تفعلها يا رجل! فهو يعرفني. وإذا عرف بأنك منعتني من الدخول فسوف يستاء منك كثيراً.»

«من أين يعرفك؟»

حكيت له من أين يعرفني وأضفت: «ذهبت منذ يومين إلى حيث كان يلقي خطاباً. وما أن رآني من بعيد حتى فتح ذراعيه وركض نحوي فعانقني وقبلني على خدي. ليسلم، فهو لم ينسني بالرغم من مرور سنوات طويلة.. لقد أمسك يدي بيديه الاثنتين وشد عليها بقوة. ثم وضع يديه فوق كتفي وربت على ظهري فأفرحني.»

قال البواب السافل:

«إن صاتي بيك يشدُّ في اليوم الواحد على أيدي مئة شخص ويعانق سبعين ويقبل عدداً لا أعرفه من الناس... كيف له أن يعرف كل شخص يعانقه أو يقبله»

«ماذا تقول يا عزيزي! وهل الرجل مجنون حتى يعانق ويقبل من يعرفه ولا يعرفه، أو يصافح كل من يصادفه ويربت على ظهره!»

«ليس مجنوناً لكنه سياسي... ألا تعيش في هذا البلد؟»

«وإذا كنت أعيش؟»

«إنه سياسي. طبعاً سيقبل الجميع ويعانقهم ويحبهم.»

واضح أن الرجل يريد أن يخادعني حتى يمنعني من الدخول إلى مكتب صاتلمش. لا تفعلها يا رجل.. إنه صديقي من أيام الطفولة. قلت له كلاماً من هذا القبيل، لكن البواب لا يريد أن يفهم. ألححت عليه، لكنه بقي على عناده. ثم سألني أخيراً:

«هل لديك موعد؟»

«وكيف لا؟ طبعاً عندي موعد. فقد سألته متى آتي، فأجابني بأنه تحت أمري في كل وقت. سألته أين يمكنني أن أراه، فقال إنه سينتظرني في كل مكان، وإنه تحت أمري في كل مكان.»

في أثناء مجادلتي للبواب، كان عدد من البوابين الآخرين في الممر قد اقتربوا منا. وعندما سمعوني أقول كلامي الأخير راحوا يضحكون كما لو انهم رأوا مني مكاناً عارياً. اخبرني البواب الأول بعد أن انتهى من الضحك بأن هؤلاء السياسيين يقولون لمن يريدون التخلص منه «تعال في كل وقت. أنتظرك في كل مكان» وأضاف: «لو أن صاتي بيك أراد أن يقابلك فعلاً لحدد لك الزمان والمكان بوضوح.»

إن كان عقلي ميالاً إلى الإقتناع بما قاله البواب، فإن قلبي لم يكن يريد أن يصدقه لأنه لا يتفق مع ما أرغب. قلت له:

«مستحيل! مستحيل أن يرغب رجل ذو ضمير مثله في التخلص مني! لقد قال لي إنه تحت آمري.»

أطلقت جماعة البوابين ضحكات جديدة. قال لي بواب صاتلمش:

«الظاهر أنك مغفل جداً. فذلك مجرد كلام ساسة قيل على سبيل الكلام. أتريد لسيد كبير مثل صاتي بيك أن يصبح تحت أمر أبله مثلك؟!»

ما يقوله صحيح، لكنني لم أصدق مع ذلك. تظاهرت بالانصراف وكمنت في الطرف الأقصى من الممر بانتظار أن يبتعد البواب من مكانه أمام باب المكتب، فيتسنى لي التسلل إلى الداخل ومقابلة صديقي صاتلمش. وسيكون أول ما أطلبه حين أراه، هو أن يطرد هذا البواب. ولعله يستخدمني بدلاً منه. فهو صديق مقرب إلى هذا الحد، ومن أبناء البلد، وعندما رآني بعد سنوات طويلة وسط كل ذلك الازدحام، عانقني. مكثت في كميني مختبئاً وأنا أراقب البواب. لعله ذهب ليتبول أو لسبب آخر، فقد ابتعد عن الباب بعد فترة. أسرعت وتسللت داخل مكتب صديقي صاتلمش. كنت أتصوره واحداً من تلك المكاتب التي نعرفها والخاصة بالشخصيات الهامة، فتبين أنه مكان كبير جداً فيه غرف داخل غرف. لم أر أحداً في المكان الذي دخلته. اتجهت وجهة وصلتني منها ضحكات وأحاديث.

نظرت من خلال الباب المفتوح. هه! ها هو صاحبنا صاتلمش. لم أقتحم الغرفة الداخلية فوراً، وأدركت مما رأيت لماذا لم يسمح لي البواب بالدخول. كانت ثمة فتاة جالسة وراء طاولة، من أولئك اللواتي يسمين سكرتيرات. أما صاحبنا صاتلمش فقد وقف وراء الفتاة وإحدى يديه فوق كتفها واستند بيده الأخرى إلى الطاولة، بحيث التصق بالفتاة بكل ثقله. في يدها قلم تتظاهر بكتابة شيء ما. أما صاتلمش فقد التصق برقبتها

وهو يلهث متظاهراً بقراءة ما تكتبه يكاد يطوقها من الخلف. وهو يقول لها ويكرر: «لقد كتبت جيداً يا صغيرتي... كتبت جيداً جداً...» من غير أن يعرف ما يقول... الفتاة تتململ في محاولة للتملص وتدفع بكتفها للتخلص من ثقل صاتلمش. عندما عجز صاتلمش عن إنضاج الفتاة طلب منها إحضار كتاب لعله بعنوان «اجتهاد» أو شيء من هذا القبيل. انتقلت الفتاة إلى غرفة أخرى امتلأت حتى سقفها بالكتب، حيث تسلقت سلماً بثلاث قوائم لتنزل الكتاب من الأعلى. وإذ بالسافل صاتلمش يقف أسفل السلم ليشاهد مؤخرة الفتاة من تحت! لقد انخدعت به لأنه تعرف علي وسط كل ذلك الجمهور وعانقني. قلت لنفسي وأنا أراه يراقب مؤخرة الفتاة:

«حلال عليه! يا له من رجل! مثل رجال بلدي تماماً.» كلما مدت الفتاة يدها إلى أحد الكتب كان يشاغلها بالقول: «ليس هذا، بل ذاك الذي في الطرف الآخر...لا، لا، إلى الأعلى» وعيناه على فخذي الفتاة.

بدا لي أنه لن يسمح للفتاة بالنزول، وأنه لن يتاح لي الجلوس معه. فسعلت معلناً عن وجودي. التفت إلي على صوت السعال. قلت لنفسي إنه من المعيب أن أبقى في مكاني ببرود، بينما عانقني هو وقبلني قبل يومين، فاندفعت نحوه مفتوح الذراعين. وإذ به يتراجع إلى الوراء بحركة مفاجئة، فأوشكت أقع على وجهي لولا أنني تمسكت بالسلم الذي كانت الفتاة تهبط درجاته. سألني صاتلمش بصوت أكثر برودة من الثلج وأكثر صلابة من الحديد: «ماذا تريد؟»

ما الذي يمكن أن أقوله الآن لهذا الرجل وكيف سأتحدث إليه؟

أليس كذلك؟ فهل علي أن أقبل أذياله وأخاطبه بـ «فخامتكم» أم أناديه بالسيد صاتي أم بـ «ولاك صاتلمش»؟ هل يحسن بي أن أخاطبه بصيغة الجمع أم بصيغة المفرد؟ فإذا خاطبته بصيغة المفرد، سيكون ذلك معيباً وهو رجل كبير، وإذا خاطبته بصيغة الجمع، سيبدو وكأنني أهزأ منه، فبيننا صداقة مديدة. لقد تحدثت إليه بطريقة مشوشة وأنا أخاطبه حيناً بالسيد صاتي، وحيناً بـ «ولاك صاتلمش.»

«نعم؟ ألم تعرفني؟ ألست يشار إذن؟ ألا تتذكر كيف تعانقنا وتبادلنا القبلات اول البارحة؟»

راح صاتلمش يشير بظاهر يده أن أخرج، وقال للفتاة التي حاول احتضانها قبل برهة: «اسأليه عما يريد.»

وقفت الفتاة بيني وبينه وسألتني:

«عمن تبحث ومن أنت؟»

تجاهلت الفتاة وتوجهت بكلامي إلى صاتلمش:

«أيها السيد صاتلمش... ألسنا صديقين قديمين ولاك؟. ألم تقض طفولتنا معاً، مع ذاتكم الكريمة ولاك؟ ألست ابن حقي الجرق من البلد يا صاتي بيك؟ حتى أن ذاتكم الكريمة سرقت من حديقتنا أجاصاً، وقد رآك المرحوم أبي، أما أنا فطاردتك. هل تذكرت؟ حتى أنك سقطت من فوق الشجرة ولاك. وقد كانت ثمة صفيحة توتياء على الأرض، وقعت عليها فتشققت شفتك.»

خيم على صاتلمش الهدوء وأنا أحكي ذاك الكلام. أما سكرتيرته المزعومة فقد أرادت طردي بأن قالت لصاتلمش.

«لديكم موعد يا سيدي... سوف تتأخرون عليه.»

قال صاتلمش:

«اسمي صاتي.»

«سواء صاتي او صاتلمش... هذا لا يفعل بي شيئاً. المهم أن تجد حلاً لمشكلتي.. لقد أخبرني أولاد البلد بأنك غيرت اسمك فلم أصدقهم. إذاً فقد أصبحت صاتي؟ مبروك عليك.. فهذا الاسم أكثر رفعة بالرغم من كل شيء...»

«لابد أن ثمة خطأ. فأنا لم أعرفك.»

«نعم، لقد أخبرني أولاد البلد بأنك لا تتعرف على أحد. اسمع لأعرفك بنفسي كما ينبغي.. هل تتذكر يوم ضبطتك في الإسطبل في الصباح؟»

أسكتني صاتلمش وقال لسكرتيرته:

«اتركينا وحدنا... اتركينا وحدنا.»

انتقلت السكرتيرة إلى الغرفة المجاورة وأغلقت الباب خلفها. دعاني صاتلمش إلى الجلوس.

الآن تفاهمنا... لو لم أنبش في ملفاته لما كان السافل تعرف علي. جلست حيث أشار لي على الكنبة. إن كلمة جُلست لا تعبر بصورة صحيحة عما حدث فقد كانت الكنبة من

الطراوة بحيث أنني غطست فيها عندما أردت الجلوس، حتى أن ساقي ارتفعا في الهواء. ثم تمالكت نفسي. قدم لي السجائر داخل صحن لامع، وأشعل السيجارة التي أخذتها بقداحة تشبه بركاناً وقال لي:

«لا تؤاخذني، فأنا لم أعرفك للوهلة الأولى.»

«وكيف ذلك! منذ يومين ذهبت إلى حيث كنت تلقي خطاباً. ما إن رأيتني من بعيد حتى سارعت إلى معانقتي واحتضاني وتقبيلي.».

«صحيح؟ هل حصل ما تقول؟» أدركت وقتها أن بواب مكتبه كان على حق. فهو بالفعل لم يحضنني ويقبلني لمعرفته بي، بل تنفيذاً لمهمة. أكثر ما أدهشني هو ان صاتلمش قد قلب لسانه بعد إبعاده للسكرتيرة وراح بتحدث بلهجتنا المحلية.

«ما هي أخبارك يا بشار، وماذا تعمل؟»

«وماذا تعمل؟ لا شيء كما ترى. ومن اجل ذلك جئت إليك. أنا بلا عمل... دخيلك دبر لي عملاً.»

«العمل أمره سهل.»

«سهل؟ أنجدني...».

«هل لديك شهادة؟ شهادة مدرسية؟»

«لا. لم اذهب إلى المدرسة.»

«هممم.. إذن ليست لديك شهادة... سنعطيك عملاً مرموقاً.»

أوه! ماذا يقول؟ ظننت أنه أساء فهمي، فقلت له:

«لم أحصل على أية شهادة من أية مدرسة.»

«حسناً، لكنك لن تحصل على عمل صغير إذا لم تكن لديك شهادة.»

راح يهمهم وهو يعدد لي وظائف من نوع عضو مجلس الإدارة في إحدى الشركات، أو عضو هيئة ما في بنك ما، أو وظيفة ما في مؤسسة ما... ثم سألني أن اختار بين تلك الوظائف. قلت له:

«هل تسخر مني يا صاتلمش حتى تتخلص مني. إني أقول لك بأنني لم أدرس في مدرسة...»

«ولهذا السبب أفكر من أجلك بوظائف مرموقة. حتى لو أردت أن تصبح والياً أو سفيراً فلا حاجة بك إلى الشهادة، في حين أنه لو أردت أن تعمل حارساً ليلياً في إحدى الحارات، فسوف تطالب بشهادة.»

«أنا أريد منك عملاً صغيراً أتعيش منه.»

«في هذه الحالة فإن الأمر صعب. الشهادة ضرورية وستدخل مسابقة.. قبل بضعة أيام تقدم إلى وظيفة كاتب محكمة أربعمائة من حملة شهادة البكالوريا، لكننا جعلنا ابن أحد معارفنا ينجح في المسابقة بالقوة - وهو الذي لم يكمل دراسته الجامعية - وأعطيناه الوظيفة. بالنظر إلى أنك لم تحصل على شهادة دراسية، فسوف نجد لك وظيفة مرموقة.»

«يا أخي، شغلني خادماً أو عاملاً في مكان ما.»

«حسناً. سوف أوقع لك على بطاقة.»

«شكراً لك. فنحن أولاد بلد بالرغم من كل شيء.»

أعطاني بطاقة بعد أن كتب خلفها شيئاً ما.

«عشت يا صاتلمش! سلمت يا صاتي بيك.»

خرجت من الغرفة، وقرأت ما كتبه خلف البطاقة:

«الرجاء تقديم كافة التسهيلات اللازمة لحامل البطاقة يشار بيك. - صاتي تشايرلي»

لم أفهم شيئاً يذكر. ذهبت إلى صديق الوالد الذي كان قد طلب مني أن أطلعه على النتيجة بعد مقابلتي لصاتلمش. سألني ما هي الأخبار؟

«الأخبار جيدة يا عم. لقد أراد أن يتجاهلني لولا أنني ذكرت حادثة الإسطبل. فما إن لَمحت إلى الإسطبل حتى عرفني على مضض حتى أسكت. لقد عرض علي أن ينصبني والياً أو سفيراً بدعوى أنني لا أملك شهادة دراسية. لكنني لم أوافق. فأعطاني هذه البطاقة.»

«أهي بطاقة توصية؟»

«واضح أنها كذلك.»

«الآن أصبح وضعك سليماً. بوسعك أن تجد عملاً في أي مكان. لن تهزم بعد الآن.»

«أرجوك يا عم. لقد قرأت المكتوب على البطاقة لكني لم أفهم المعنى. اقرأه بدورك، لنر ماذا أراد أن يقول.»

قرأ صديق الوالد:

«الرجاء تقديم كافة التسهيلات اللازمة لحامل البطاقة يشار بيك. - صاتي تشايرلي -»

سألت صديق الوالد:

«والآن، ماذا أراد أن يقول فيما كتبه على البطاقة؟»

«يريد أن يقول إنه بإمكانك تقديم هذه البطاقة لأي شخص كان في أي زمان ومكان، وعندها سيقدم لك ذلك الشخص كل أنواع التسهيلات. ستفتح لك الأبواب المغلقة.»

«لكنني لا أريد تسهيلات يا عمي، بل أريد عملاً.»

«الأصول تقتضي ذلك يا بني. فالرجال رفيعو المقام لا يكتبون طالبين عملاً لأحد، بل يكتبون بهذه الطريقة. فهذا الكلام يعني: أعطوه العمل الذي يريده.»

«ولماذا لا يكتبون بصورة مباشرة: أعطوه عملاً؟»

«لأنه في تلك الحالة، أي إذا كتبوا: «أعطوه عملاً» بصورة مباشرة، فإن ذلك يعتبر التماساً، الأمر الذي يدخل في باب عدم النزاهة والتعدي على حقوق الغير. أما عندما يكتبون بالطريقة التي كتب بها صاتلمش بطاقتك، فإنهم يقدمون لك عملاً ووفقاً للأصول. إن صاتي بيك رجل مستقيم لا يقدم التماسات.»

فجأة تذكرت شيئاً فضربت بيدي على ركبتي وصرخت:

«تفووووو!»

سألني صديق الوالد عما حدث، فقلت له:

«أترى ماذا فعلت يا عمي! يا له من رأس حمار هذا الذي أحمله!»

«ما الذي حدث يا ابني؟»

«وما الذي يمكن أن يحدث أكثر مما حدث؟ نعم لقد أعطاني صديقي صاتلمش هذه البطاقة مشكوراً. هذا جيد، ولكن لمن سأبرز بطاقة التوصية هذه؟ ممن سأطلب عملاً؟ أما كان علي أن أسأل عمن سأبرز له البطاقة وأطلب منه عملاً؟ أوااه! هل سأذهب الآن

إلى صاتلمش مرة أخرى؟ مستحيل أن يسمح لي البوابون بالاقتراب منه أو الدخول إلى مكتبه. انتهيت يا عمي!»

كركر صديق الوالد ضاحكاً على حالتي وقال:

«مهلاً يا بشار يا بني، لا تعذب نفسك مجاناً! أليس عندك نظر أبداً؟»

«ماذا تعني يا عمي؟»

«انظر إذن إلى التوقيع الذي على البطاقة! التوقيع! اسم من مكتوب على هذه البطاقة؟ اسم صاتي تشايرلي بيك.. ثمة توقيعات نافذة في مكان واحد فقط، وتوقيعات نافذة في بضعة أمكنة، وتوقيعات يسري مفعولها في كل مكان! ما معنى توقيع صاتي بيك؟ معناه أنه نافذ في كل مكان... لقد حصلت على توقيع فعال في كل مكان. وهذا يعني أنك لن تهزم في هذه البلاد بعد اليوم. إذا أردت أن تبيع هذه البطاقة الموقعة في المزاد العلني، سوف ترى كم تدر عليك من النقود.»

«قل إذن أنني فزت بالجائزة الكبرى في اليانصيب دونما علم مني.»

«نعم، إن هذه البطاقة ستفعل فعلها إن شاء الله في كل ولاية، في البلديات والدوائر الرسمية والخاصة، في البحر والبر والجو وفي كل مكان.»

«إذن علي أن أطرق أبواباً كبيرة يا عمي.»

«انتظارك خطيئة... اختر أي عمل ترغب به واشتغل.»

ذات يوم من أيام طفولتي، اصطحبني أبي إلى المدينة حيث أخذني إلى أحد المتاحف. أما سبب ذهابنا إلى المتحف، فهو أن أحد أقاربنا كان يعمل مستخدماً فيه، وأراد أبي أن يقابله. لقد أمسك ذلك القريب بيدي واصطحبني في جولة داخل المتحف. وكم أدهشني ما رأيته: أشخاصاً مصنوعين من حجر بأحجام ضخمة! أشار قريبي إلى أولئك الأشخاص المصنوعين من الحجر وقال لي:

«أنا مسؤول عن كل هؤلاء الذين تراهم، يمكن القول بأنني ملك عليهم جميعاً.»

واضح أنه كان يتبجح أمامي لأنني طفل. مهما يكن من أمر، فإن ذلك المتحف لم يبارح خيالي قط، حتى أنه دخل أحلامي. وإذا سألني أحد ما «ماذا تريد أن تصبح حينما تكبر؟» كنت أجيب: «سأصبح مستخدماً في متحف.»

فهل هو بالأمر القليل أن يحكم المرء ملء متحف من الناس، حتى لو كانوا تماثيل من

حجر؟ أن يكونوا من الحجر فهذا أفضل، فهم لن يعترضوا مثل البشر الأحياء. فكرت إذن أن أذهب إلى أحد المتاحف لأعمل فيه مستخدماً، ما دامت بطاقة صاتلمش سارية في كل مكان. ولكن إذا بقيت في تلك المدينة فإن والد آنشة لن يتركنا في حالنا.

تبادلت الرأي مع آنشة، فانتهى بنا الأمر إلى ضرورة الفرار والرحيل إلى استانبول. تقرر أن أسافر أنا أولاً، فأعمل مستخدماً في أحد المتاحف، وأستأجر بيتاً وأؤثثه، ثم أطلب من آنشة أن تأتي إلى استانبول. وعندما أعمل في المتحف سوف أحصل من كل بد على بطاقة شخصية أو أية وثيقة يمكن أن تحل محلها. وبذلك سيكون من السهل القيام بإجراءات الزواج.

في يوم سفري جاءت آنشة إلى محطة القطار لتودعني. وقد حملت لي معها ملء جعبة من الطعام زوادة سفر. صحيح أن وجهها كان يبتسم مثل وجهي لكننا كنا ننزف دماً من الداخل. إنه الفراق...

قلت لها:

«لقد انقلب الحظ لصالحنا يا آنشتي.»

«لينقلب، فهذا يكفي..»

ركبتُ القطار، أخرجت رأسي من نافذة المقصورة. قالت لي:

«تدبر عملاً قبل كل شيء.»

وكانت قد كررت لي هذا ربما مئة مرة.

«سأعمل إن شاء الله.. وفي متحف.»

«اكتب لي رسالة وأخبرني ما إن تجد عملاً.»

«طبعاً سأكتب. فالعمل مضمون طالما أن هذه البطاقة معي.»

«لن أطيع أبي أبداً. عندما تجد عملاً سألحق بك إلى استانبول فوراً.»

«طبعاً ستأتين.»

«ستتدبر لي عملاً أيضاً.»

«سأفعل بالطبع.»

«لكنني أريد زواجاً. فلتعرف هذا!»

«طبعاً سنتزوج... وهل يجوز أن نبقى بلا زواج؟»

«فإذا عقد قراننا غفر لنا أبي وتصالحنا.»

«نعم، سوف يصالحنا...»

أطلق القطار صفارته ودارت عجلاته. سألتني آنشة كما لو أن الأمر خطر لها فجأة:

«هذه البطاقة التي معك، هل هي سارية في استانبول؟»

كانت قد سألت هذا السؤال ربما مئة مرة، فأجبتها كما في كل مرة:

«طبعاً. قيل لي إن هذه البطاقة نافذة في كل مكان من البلد، في المدن والقرى، في الصيف وفي الشتاء، في الجبل والسهل... إنها بطاقة صاتي بيك... أغلى من الذهب.»

هتفت بكلماتي الأخيرة بصوت مرتفع، لأن القطار تحرك، وكانت آنشة تركض بمحاذاته. رأيت دموعاً كحبات اللؤلؤ تتساقط من عينيها. قلت لها:

«لا تبكي يا آنشة! وهل يجوز البكاء في يوم مفرح كهذا؟»

قالت وهي تمسح دموعها بمنديلها:

«أنا أبكي من الفرح يا يشاري، من الفرح.»

كانت تبتسم بعينيها الدامعتين.

«مع السلامة يا يشاري، مع السلامة»

«إلى اللقاء قريباً.»

«اكتب رسائل... رساااائل...»

«طبعاً سأكتب»

قالت شيئاً آخر، لكني لم أسمع، فقد ابتعد بي القطار وخرج من المحطة. بقيت لفترة أرى يدها الخافقة مثل جناح عصفور.

في كل ليلة بعد أن ينتهي يشار يشامز من حكاية قسم من قصته، كان نزلاء المهجع يظهرون مشاعرهم ببعض الكلمات. أما في تلك الليلة، فلم يصدر أي صوت عن أحد، وذلك لأنهم تأثروا كثيراً. بدا وكأن كل واحد من المستمعين قد عاش الحادثة المحكية بنفسه. والبعض منهم كان يحيي في خياله صورة لآنشة ما.

عندما توقف يشار يشامز في تلك الليلة سمعت في المهجع تنهدات عميقة. صاح

البعض بالأوجقجي طالبين تجديد كؤوس الشاي، لكن أصواتهم لم تكن بالقسوة وانعدام الحس المعهودين، بل بطراوة صوت طفل تعرض للأذى.

كان الجو ملائماً تماماً لإنطاق الساز، لولا أن الوقت قد تأخر كثيراً. راح مدخنو الحشيشة يتداولون فيما بينهم سيجاراتهم الثخينة مثل باذنجانة محشية، ويتنشقون أنفاساً كبيرة من دخان الحشيشة. اللص العجوز الذي امتلأت الاضبارات بسوابقه وفاضت، اختبأ مع أربعة من أصحابه تحت بطانية عتيقة فرشوها فوق رؤوسهم مثل خيمة، حتى لا يضيع شيء من دخان الحشيشة، وراحوا يدخنون بوساطة نارجيلة صنعوها يدوياً. بعد قليل خيم الصمت تماماً على المهجع.

ومن حين إلى آخر كنت تسمع هذيانات النائمين وأنّاتهم.



-١١-

أمرونا بأن نريك.. نريك إذن

كان المهجع الأول من الجناح الثاني، بعد التفقد وتناول السجناء لعشائهم، قد غرق في صمت عميق وعبق بدخان السجائر التي لها رائحة القنب المشتعل. إنها رائحة الحشيشة التي تدخن إما بوساطة نارجيلة القرع أو ملفوفة مع سجائر التبغ. إن نارجيلة القرع هي في الأصل ثمرة مجوفة يتم استخدامها كنارجيلة. ولكن إذا لم توجد ثمار قرع في السجن، فإن السجناء يصنعون نارجيلات القرع من كأس شاي أو حتى زجاجة - كان تدخين الحشيشة بوساطة النارجيلة يمنع ضياع قسم من الدخان في الهواء، فتتلقى الرئات معظم الدخان، بحيث تتم الاستفادة منه بأقصى ما يمكن، ويكون الهدر أقل ما يمكن.

تجمع نزلاء المهجع الأول في مجموعات من ثلاثة إلى خمسة أشخاص، يدخنون الحشيشة بوساطة سيجارة بثخن الإبهام تدعى ذات الورقتين لأنها تلف في ورقتي سجائر ألصقتا ببعضهما بوساطة اللعاب، أو بنارجيلة القرع التي يشعلون في صحنها الحشيشة، وكانت السيجارة أو أنبوبة النارجيلة تتنقلان من يد إلى يد. لم يبق خارج مجموعات المحششين سوى موزعي الشاي وصبية الخدمة.

لأن السجن مكان تصبح فيه كل الأشياء بقيمة الذهب بما في ذلك قطع العملة الصغيرة التي تكاد تكون بلا قيمة في حياة الحرية، وبسبب صعوبة إدخال الحشيشة إلى السجن، فإنه يتوجب استنشاق دخان الحشيشة من غير إهدار نفس واحد منه. لهذا السبب كان نزلاء المهجع الأول يتجمعون في مجموعات ثلاثية أو خماسية ويدخلون تحت بطانية أو معطف ويدخنون. اجتمع ثلاثة سجناء تحت لحاف قذر وراحوا يتداولون فيما بينهم سيجارة من نوع ذات الورقتين. كل من يستلم السيجارة المحشوة بالحشيشة يسحب الدخان إلى رئتيه بشغف كما لو كان يشرب كأساً من عصير الفاكهة دفعة واحدة بواسطة قصبة مص، ثم يعطيها للجالس بجانبه، كانوا يسحبون دخان الحشيشة مطولاً حتى

ينتهوا إلى السعال كما لو كانوا يختنقون، فتنتفخ خدودهم وتندفع عيونهم خارج محاجرها وتزرق وجوههم. تدور سيجارة الحشيشة الكبيرة التي بثخن إبهام بين الأشخاص الثلاثة فتنتهي قبل أن تتم دورتها الثانية، والدخان يحتجز تحت اللحاف فلا يتسرب إلى الخارج، وبذلك يستفاد منه بالكامل.

اندست مجموعة أخرى من السجناء تحت إحدى البطانيات، فبدا وكأنهم تحت خيمة متقوضة. تتحرك البطانية من حين إلى آخر في هذه النقطة أو تلك، ثم ترتفع أصوات سعال مكتوم. وتكومت مجموعة أخرى من الحشاشين تحت معطف عتيق.

امتلأ المهجع بالدخان إلى درجة أنه حتى غير المدمنين على الحشيشة راحوا يتنشقون الدخان الذي يملأ فضاء المهجع، فيستغرقون فيما يسمى «سلطنة على الريحة».

سوف ينتهون من تدخين سيجارات الحشيش ويشربون بعدها الشاي المخمر على طريقة السجن، فيسلطنون كما ينبغي، ثم يستمعون إلى مغامرات يشار يشامز.

إن سبب إصغائهم إلى حكايات يشار بكل هذا الاهتمام وكل تلك العناية، هو أنهم يجدون في تلك الحكايات أنفسهم. فقد عاشوا بدورهم أحداثاً مماثلة إلى هذا الحد أو ذاك. إن ما يحكيه لهم يشار هو الشيء المشترك في حياة كل منهم، وكأن يشار يشامز يجمع هموم الجميع ويوحدها في نفسه، ثم يحكيها باعتبارها همومه الخاصة. لذلك يحدث أن يقاطع بعض المستمعين حديث يشار ويصرخوا فجأة:

- هذا ما حدث بالضبط.

بدأ يشار حديثه في ذلك المساء قائلاً:

- وصلت إلى استانبول أيها الأخوة.

حتى يثبت كلامه في فضاء المهجع المملوء بالدخان، حرك أوتار سازه كمن يثبت صورة على الجدار بمسمار. ثم أضاف كلماته إلى نغمات الساز وأفضى بما في قلبه:

جئنا استانبول وقلوبنا ملأى بالأمل

فتمددنا على حجارة أرصفتها

جمعنا نقوداً بطلوع الروح

فسرقتيها مني يا استانبول

ارتفعت صيحات التشجيع من السجناء:

- عشت!

- يسلم فمك يا يشار!

- سلمت يداك يا شهم.

كان من عادة يشار يشامز، إذا لاحظ أن مستمعيه واقعون تحت سلطنة الحشيشة بعمق، أن يبدأ بالعزف على الساز قبل أن يتحدث وذلك ليوقظهم - ارتعش الهواء على وقع ارتعاش الأوتار، وارتعشت قلوب المستمعين على وقع ارتعاش الهواء الكثيف.

بدأ يشار يشامز الكلام:

- وصلت إلى استانبول يا أخوتي. في هذه المدينة الكبيرة لا أعرف يميني من يساري، لا أعرف مكاناً ولا طريقاً. وجدت واحداً من أبناء بلدي كنت قد حصلت على عنوانه قبل أن أسافر. أخبرته عن وضعي بالتفصيل. وعندما رأى البطاقة التي أحملها التمعت عيناه واستضافني في غرفته في الفندق الذي يقيم فيه. ويا له من فندق وسخ وبائس، حتى أن الخانات في بلدتي ستبدو فاخرة بالقياس إليه. وماذا في ذلك... لا بأس بقذارة الفندق إذا كان ابن البلد يدفع الأجرة عني...

سألني ابن البلد أين سأستخدم البطاقة التي معي ومن أجل أي شيء. فقلت له بأنني سأطلب العمل في واحد من المتاحف الكبيرة في استانبول كمستخدم أو حارس أو بواب أو أي شيء آخر. فقال لي:

«أنت فقدت عقلك يا بني.»

سألته عن السبب، فقال بأن البطاقة التي أحملها كنز ثمين، وكيف يمكن التفكير في العمل في متحف كحارس أو مستخدم، بوجود بطاقة توصية كهذه؟ قلت له:

«وهل تريدهم أن يعينوا واحداً مثلي مديراً للمتحف!»

«وما قيمة الإدارة إذا كانت في يدك هذه البطاقة!»

«إذن ماذا نفعل بالبطاقة؟»

«نبيعها يا صاحبي، ولقاء أموال الدنيا. وبتلك الأموال نقيم مشروعاً أنا وأنت. مشروع عمل رفيع المستوى. ولا تهتم بشيء بعد ذلك.»

«إن ما تقوله غير ممكن أبداً يا ابن البلد. لماذا؟ لأن اسمي مكتوب على هذه البطاقة: حاملها يشار بيك. ألم تقرأ؟ لقد كتبت البطاقة باسمي.»

«وليكن.. ألا تعرف ما هو الشيك المصرفي يا صاحبي؟ حتى لو كان الشيك المصرفي محرراً باسم شخص محدد، فإن ذلك الشخص يمكنه أن يُظهِّر ذلك الشيك لشخص آخر. وأنت تستطيع أن تفعل ذلك.. ثم ما الفارق؟ سواء كان اسمك مكتوباً على البطاقة أم لا. فقيمة هذه البطاقة ليست مستمدة من كتابة اسمك عليها، بل من طباعة اسم صاتي بيك عليها.»

لم أفهم شيئاً مما قاله، لكني أحسست بوجود نية خبيثة ما وراء كلامه، فلم أتجاوب مع اقتراحاته ورفضت كل محاولاته لإقناعي. ذلك أنني لم أرتح لسلوك هذا الرجل بالرغم من استقباله لي في غرفته ومده ليد العون. فعندما سألته ماذا يعمل وأين وكيف يكسب معيشته في هذه المدينة الكبيرة، قال إنه لا يقوم بأي عمل ولا يشتغل في أي مكان. ولكن كيف؟ وأين هو الماء الذي يجب أن يحرك هذا الطاحون؟ عندما ألححت عليه بالسؤال حكى لي فقال إنه استدعى زوجته من البلدة، وشغلها خادمة في بيت من بيوت الأثرياء في استانبول. وهكذا صارت زوجته تشتغل خادمة فتكسب النقود، ويقوم هذا القواد بسحب النقود منها. لم أثق به لأنه ممن يتعيشون من نقود النساء.

بعد البحث والاستفسار اهتديت إلى أكبر متاحف استانبول. قلت لهم إنني أريد مقابلة السيد المدير، فأخبروني بأنه لن يستطيع استقبالي في ذلك اليوم لأن لديه ضيوفاً. عدت إلى المتحف مجدداً في اليوم التالي فقالوا لي:

«لديه اجتماع. تعال يوم الاثنين.»

ذهبت يوم الاثنين، فقالوا هذه المرة بأنه أخذ إجازة لمدة شهر.

انتظرت شهراً على مضض. هل من السهل الانتظار شهراً كاملاً في استانبول بلا نقود ولا عمل؟ كان ابن البلد يعطيني كل يوم مصروف جيب بحدود بضع ليرات ويدفع عني أجرة الغرفة، لأنه يعرف القيمة السوقية لبطاقة التوصية التي أحملها، ويأمل بأنه سيستعيد نقوده مني مستقبلاً مع الفوائد، وربما يأمل بمنافع أخرى أيضاً، لكن المرء يشعر بالمهانة من مد يده للآخرين لفترة طويلة. على كل... انتظرت شهراً، وعاد المدير من إجازته، لكنه الآن مريض، وعلي أن أنتظر حتى يبلّ من مرضه. بعد ذلك ذهبت إلى المتحف فقالوا لي:

«مشغول، لا يستطيع استقبال أحد.»

وفي اليوم التالي:

«سيأتي الوزير. اليوم غير ممكن.»

وهكذا تلاحقت الأيام. ذات مساء قال لي ابن البلد:

«الجو سيء جداً.»

«هل تمزح يا صاحبي؟ إنه جو صيفي ولا أحلى!»

«إن الجو يميل إلى التردي. فلتسمع ما أقوله لك. أسرع في مقابلة المدير واحصل على الوظيفة، وإلا انتهيت.»

وما علاقة الجو بالعمل في المتحف؟ قال ابن البلد:

«إني أتحدث عن الجو السياسي... في كل يوم يزداد الجو سوءاً. سوف يطيرون ذلك الصاتي بيك من موقعه. وفي هذه الحالة لن يُزمّر مزماره، ولن يبقى عليك بعد ذلك غير أن تمزق بطاقته مزقاً مزقاً وتقحمها في أمه!»

«أوه! صحيح؟»

«إما أن تحصل على تلك الوظيفة قبل أن يطرد صاتي من موقعه، أو تصبح تلك البطاقة أسوأ من العملة المزورة.»

كنت أبذل ما في وسعي من جهد، فأذهب إلى المتحف كل صباح قبل موظفيه، وأعود بعد انصرافهم. وفي أحد تلك الأيام التي كنت أواظب فيها على الذهاب إلى المتحف، وبينما كنت مقرفصاً قرب بوابة الباحة، اقترب مني أحد العاملين في المتحف وسألني عن العمل الذي أؤديه في المتحف، فأجبته بأنني لا أعمل هناك، فقال لي:

«رأيتك تأتي مبكراً كل صباح، وتنصرف متأخراً، فذهب بي الظن إلى أنك واحد ممن يعملون هنا. فما هي مشكلتك؟»

«وهل ثمة أحد هنا لا يعرف مشكلتي أو لم يسمع بها؟ إذن أنت لا تعرف؟ منذ أشهر وأنا آتي وأنصرف. أريد أن أقابل المدير وأقدم إليه بطاقة توصية لأحصل على وظيفة هنا. ولكن.. سمعت بأن فترة صلاحية البطاقة سوف تنتهي هذه الأيام، لأن الجو يتردى كما قيل. مقابلة السيد المدير مستحيلة، وأنا آتي وأذهب بلا جدوى. آتي في كل صباح فيقولون لي إن المدير غير موجود، ويقولون إنه في إجازة، ويقولون إنه مريض، ويقولون إن لديه عملاً، ويقولون إن لديه ضيوفاً..»

أشفق الرجل علي وقال:

«هات أرني تلك البطاقة!»

مددت يدي إلى جيبي الداخلي... أواه! أين البطاقة؟ فتشت جيبي الآخر، نقبت في جيب ثالث... أوه! تابعت البحث وأنا أقول:

«كنت قد حشرتها هنا. في أي ثقب اختفت النجسة!»

«تراها سرقت منك؟»

«لا قدر الله... ومن يستطيع أن يسرق بطاقة توصية مكتوبة على اسمي؟»

«إذا كان أحد النشالين سرقها منك، فهو محظوظ.»

تفو! ليست في المحفظة أيضاً، ولا بين صفحات الدفتر!

«لعلها وقعت منك سهواً، فعثر عليها شخص محظوظ واستخدمها بدلاً منك»

أخيراً وجدتها داخل بطانة سترتي، وقد وصلت إلى هناك بسبب تمزق الجيب الداخلي للسترة. أخرجتها بصعوبة وأعطيتها للرجل. وضع هذا نظارتيه على عينيه وتمعن في البطاقة جيداً وهو يقربها ويبعدها عن عينيه، ثم سألني:

«ما الذي كان مكتوباً على بطاقتك هذه؟»

«ماذا تعني بكان مكتوباً؟ أليس ثمة كتابة الآن؟ لقد كتب عليها: نرجو عرض التسهيلات اللازمة لحامل البطاقة يشار بيك.»

«واعجبي!»

«ما الذي حدث؟»

«وماذا سيحدث أكثر من هذا! لكثرة ما أخرجت هذه البطاقة وأدخلتها في جيبك امحت الكتابة وباتت غير مقروءة. انظر... كلمة "حامل" ممحية.»

«ما الذي تبقى من الكتابة؟»

«نرجو عرض التسهيلات البطاقة يشار بيك.»

«أنا أتعرق كثيراً... لابد أن الكتابة امحت بفعل التعرق.»

«واضح أنك تعرقت كثيراً» قال ذلك وهو يقرب البطاقة من أنفه ويشمها، ثم جعّد وجهه بنفور وتأفف وقال:

«واضح أنك تعرقت كثيراً. تحولت البطاقة إلى عجين.»

«وماذا سأفعل الآن؟»

«هذه البطاقة تمشي حتى وهي في هذه الحال.»

«إذن ساعدني حتى أقابل المدير.»

«ليته هنا لتقابله.. لقد ذهب اليوم إلى اجتماع اللجنة.»

بقيت أتردد يومياً على المتحف، وبات كل المستخدمين والعاملين يعرفونني. في أحد الأيام ألح الجنائني علي طالباً مني أن أظهر بطاقتي للعاملين. قلت له:

«هذه البطاقة يا صاحبي لم تعد تحتمل التنقل من يد إلى يد. فقد امحت الكتابة التي عليها لكثرة ما أخرجتها من جيبي وأعدتها إليه.»

ألح أكثر. فهو يريد أن يرى الآخرون البطاقة ليسخروا مني. انقضوا علي يريدون أخذ البطاقة عنوة. رفعت يدي في الهواء وأنا أمسك بها بعيداً عن متناولهم. لكن واحداً منهم تمكن بطريقة ما من الإمساك بطرف البطاقة! قف أرجوك! لا تفعلها! وتمزقت البطاقة نصفين بحيث احتفظت بالنصف الأكبر في حين أصبح النصف الأصغر في يده.

لن أتمرجل الآن أمامكم يا أخوتي فأدعي بأنني تصرفت بشجاعة.

عندما تمزقت البطاقة لم أتمالك نفسي فأجهشت بالبكاء من قهري وغضبي ورحت أشتم الرجل في أمه وزوجته وكل سلالته بلا استثناء أو إهمال لأحد منها. تجمعوا حولي وحاولوا أن يعزوني.

قال واحد منهم طيب القلب:

«معك كل الحق في أن تغضب وتشتم... لا تزعج نفسك أبداً، لدي مهارة في ترميم الأوراق النقدية المهترئة، هات بطاقتك لألصقها بطريقة مموهة بحيث تبدو أكثر جدة مما كانت.»

أعطيته نصفي البطاقة، وضعهما الرجل بعناية جنباً إلى جنب، فوق طاولة، ثم وصلهما بشريط لاصق، ثم رفع قبضته في الهواء وهوى بها فجأة فوق الطاولة حتى يلتصق الشريط بالبطاقة بقوة. وعندما رفع قبضته ثانية في الهواء... أواه! ألا تصادف المصائب أحداً غيري!

فعندما ضرب الرجل بقبضته التصق الشريط اللاصق بيد الرجل بدلاً من البطاقة. وقد قشر ذاك الشريط السافل بضع كلمات أخرى مما هو مكتوب فوق البطاقة! وهكذا

لم يبق من عبارة «نرجو عرض التسهيلات البطاقة يشار بيك» التي كانت مكتوبة على البطاقة، سوى الكلمات التالية:

«نرجو عرض البطاقة ليشار»

خجل الرجل الذي أراد لصق البطاقة كثيراً فقال:

«أمضيت عمراً في لصق الأوراق النقدية المهترئة، هذه أول مرة يحدث معي فيها خطأ كهذا.»

أشفق المتحلقون حولي على حالتي البائسة وقالوا لي:

«لا تخش شيئاً قط. بما أن اسم صاتي بيك لم يمح وما يزال مقروءاً، فإن هذه البطاقة لم تفقد قيمتها وتبقى نافذة في كل مكان.»

لعلها ما تزال نافذة بالفعل، ولكن لو أنني أتمكن من الإمساك بهذا المدير... إذن بالمواظبة على الذهاب كل يوم... وما الذي يصمد في وجه الإصرار؟! أمسكت بالمدير في أحد الأيام بمشيئة الله، في موعد الانصراف المسائي، وكان خارجاً من باب المتحف في طريقه إلى بيته، لكم أن تتخيلوا كيف تحمست وانفعلت عندما رأيت أمامي فجأة ذاك المدير الذي لاحقته مطولاً من غير أن أتمكن من الإمساك به، وكيف استولى علي الخوف من إضاعة الفرصة السانحة. مدفوعاً بهذا الحماس وهذا الخوف انقضضت على الرجل. لم أكن أرى نفسي، فلا أعرف كيف انقضضتُ عليه. ما أعرفه هو أن المدير ارتعب كثيراً من انقضاضي عليه، فصرخ مستنجداً من غلاوة الروح، بالمستخدمين والموظفين الذين هرعوا للفصل بيني وبينه.

رحت أنتفض وأصرخ:

«اتركوني، أريد أن أقابل السيد المدير.»

في حين كان المدير يصرخ من جهته قائلاً: «امسكوا به! اقبضوا عليه! هو فوضوي أم ماذا؟... إياكم أن تقتلوه!»

سألني واحد ممن يمسكون بي:

«لماذا تريد أن تقابل المدير؟»

فصرخت وأنا ألوح بالبطاقة وأحاول حمايتها ممن يحيطون بي:

«جئت إلى المدير حاملاً بطاقة من صاتي بيك.»

آه يا أخوتي لو تعرفون ماذا حدث عندما سمعوا اسم صاتي بيك... المدير وجميع من يحيطون به جمدوا في أماكنهم، تماماً مثل الصورة التي تجمد على شاشة السينما عندما تتعطل آلة العرض أثناء عرض أحد الأفلام... ظننت أنهم تعرضوا لضربة جِنّي. على كل حال تململوا قليلاً بعد الصدمة الأولى. قال المدير:

«قال من؟ قال من؟ هل ذكر اسم صاتي بيك؟ اتركوه... اتركوه يقترب.»

تركني من كانوا يمسكون بي أو يلوون ذراعي. وضع المدير يده على كتفي ناسياً أن المتحف قد أغلق أبوابه وأنه يريد الذهاب إلى بيته، وقال لي بصوت أرق من الحرير وأكثر طراوة من القطن:

«هل يصح أن يحمل المرء بطاقة من صاتي بيك، ويتأخر عن مقابلتي؟ لم لم تقل إنك جئت ببطاقة من صاتي بيك يا بني؟»

«منذ أشهر وأنا آتي إلى هنا وأذهب يا سيدي، منذ أشهر وأنا أتجرجر هنا. اليوم فقط حظيت برؤيتكم يا سيدي.»

«يا بني، يا ولدي! إذا لم تعطهم اسم صاتي بيك، كيف سيعرفون من الذي أرسلك إلينا؟»

احتفظ بيده فوق كتفي واقتادني إلى مكتبه: «تعال، تعال!»

حينما أصبحنا داخل مكتبه قال لي: «لماذا تبقى واقفاً يا بني، تفضل اجلس أرجوك.» وهو يشير لي أن أجلس. ثم سألني عما إذا كنت أرغب في شرب القهوة أو الشاي أو شيء بارد.

«شكراً لك. لا أريد شرب الشاي ولا القهوة ولا أي شيء بارد. بطاقة صاتي بيك..» قلت ذلك ورحت أفتش عن البطاقة في جيوبي التي قلبت بطانتها خارجاً. فتش إذن لتعثر عليها! في أي جحيم اختفت هذه البطاقة مرة أخرى؟ حشرت يدي داخل البطانة لعلها سقطت هناك ثانية، لكنها غير موجودة..... الطريقة التي اضطربت بها وأنا أفتش عن البطاقة، وأمزق جيوبي وأنتف ثيابي، جعلت المدير يشفق علي ويقول:

«مهلاً يا ولدي... لا تفعل هذا بنفسك... فتش على مهلك.... فتش أيضاً في جيب بنطالك الخلفي!»

«أوه، أستغفر الله! وهل أسمح لنفسي بوضع بطاقة صاتي بيك في الجيب الخلفي!

لا بد أنها تسللت إلى مكان ما هنا.»

«فتش على مهلك... لا بد أن تظهر في مكان ما.»

السيد المدير محق في إشفاقه علي. إن هندامي مهترئ أصلاً، فإذا مزقت ثيابي بحثاً عن البطاقة، سأصبح عارياً تماماً. في تلك اللحظة قال واحد من الذين دخلوا المكتب معنا:

«لعل ما تبحث عنه هو تلك البطاقة التي في يدك؟»

وبالفعل كانت البطاقة في يدي، في حين كنت أفتش عنها في جيوبي! أعطيتها للسيد المدير، فسألني:

«هل كنيتك هي كرت؟»

«لا.. أعني.. هكذا كتب.»

«إذن لقبك هو كرت؟»

«كانت حامل الكرت، ثم لطول بقائها في جيبي امحت حامل..»

قرأ السيد المدير البطاقة مجدداً وهمهم همهمة طويلة ثم قال:

«لقد أمر السيد صاتي بيك بعرض ليشار الكرت.»

نعم هذه ال- «عرض ليشار الكرت» هي ما بقيت من عبارة: «نرجو عرض التسهيلات اللازمة لحامل الكرت يشار بيك» بعد كل ما انفصل عنها وامحى من كلمات.

«بما أنهم أصرُّو أن نعرض، فلنعرض إذن» قال المدير ذلك ونهض واقفاً وأمسك حزام بنطاله بيديه الاثنتين. في مثل هذا الموقف يقول أهل بلدتي: «اعرضه على حمار أبيك الميت!» بلعت هذه العبارة التي وصلت إلى طرف لساني ولزمت الصمت. قال المدير:

«بطيبة خاطر... على رأسي.... لنقدم لك عرضاً. ما الذي تريد رؤيته؟ هل ترغب في رؤية المتحف كله، أم أنك تريد رؤية قطع النقود القديمة؟»

«لقد جئت على أمل أن أشتغل في هذا المتحف يا سيدي.»

«والله، هذا الكرت ليس من أجل العمل. لقد أمر صاتي بيك أن نريك. على رأسي.. النقود القديمة.؟»

من أين جاءت هذه النقود القديمة؟ وما أدراني ما تكون؟

«إن كنت تهتم بالنقود القديمة، فسنريك إياها.»

«لا أريد.»

الرجل مصر على أن يريني النقود القديمة. قال:

«المصكوكات التي عندنا قديمة جداً ومتنوعة.»

«لا أريد رؤية أية مصكوكات قديمة كانت أم حديثة...»

«إذن ليرافقك أحد الموظفين ويريك المتحف كله.. أما أنا فسوف أكتب إلى صاتي بيك لأخبره بأننا نفذنا كل أوامره.»

عدت إلى الفندق وقد انهار العالم فوق رأسي. دخل ابن البلد الغرفة وأخبرني بوصول رسالة إلي. شعرت بشيء لاذع في قلبي، فقد أدركت أن الرسالة هي من آنشة. ومن لي غيرها ليكتب لي؟ فمنذ وصولي إلى استانبول وهي تكتب لي مرة أو مرتين كل أسبوع، طالبة مني أن آتي بها لتنضم إلي.

في ردودي على رسائلها الأولى كنت أشاغلها بكلمات من نوع: «مهلاً يا آنشة. أنا على وشك استلام عمل. انتظري قليلاً لأبدأ العمل وبعدها سآتي بك إلى استانبول»

لكني بعد ذلك لم أعد أجد كلمات مشاغلة أو عزاء، فامتنعت عن الرد على رسائلها.

نعم..كانت الرسالة من آنشة، وعندما فتحتها وقرأتها شعرتُ كمن أصيب بطعنة في قلبه. فقد كتبت آنشتي في رسالتها تقول:

«لم تعد لدي القدرة على البقاء هنا، ولا على التحمل. فقدت طاقتي واحتمالي. إن كنت تريدني أن أنضم إليك فلتأخذني من هنا، وإلا فإن أبي وأمي يريدان تزويجي لابن أحد الأثرياء، وهما يلحان علي ويضغطان.

إما أنني سأقتل نفسي أو سأختار ما هو أسوأ من الموت بالنسبة لي، فأتزوج ذلك الشاب من أبناء الأثرياء.»

سكت يشار يشامز، وصدرت عن سجناء المهجع الأول أصوات تألم لا يمكن التعبير عنها كتابة. ثم ارتفعت أصواتهم:

- انقر على أوتارك يا يشار.

- أنطق سازك واجعله يبكي يا يشاري.

- لامس صدر سازك المهموم، داعب شعر سازك، واجعله يحكي يا يشار!

انحنى يشار يشامز على سازه الذي هو الشيء الوحيد في العالم الذي يتقبل دلال يشار وأوامره، وراح يعزف ويغني:

جئنا استانبول وقلوبنا ملأى بالأمل

وتمددنا على حجارة ارصفتها

جمعنا نقوداً بطلوع الروح

فسرقتيها مني يا استانبول

استانبول هي عرش الأثرياء

والحكومة قيدتني من عنقي

اي قَدَرٍ قَدَرُ يشار المسكين

تركتيني أسيراً لأشواقي يا استانبول

حجارة رصيفها تؤذي ركبتي

وماؤها كالرصاص يؤذي قلبي

كثيرة حسناواتها يؤذين عيني

ترسخت في العين والقلب يا استانبول

آنشتي تأخر عليك خطيبك

قد أعمى البكاء عيني يشار

جمرة قلبي تحرق كل الدنيا

أصبحت هماً فاخترقت قلبي يا استانبول.



-١٢-

لولا نظامي بيك قره قبلي لكان أمرنا منتهياً

صاح باحاتي المهجع الأول:

- هيه! هل رأى أحد منكم يشار يشامز؟ بحثت عنه في كل مكان فلم أره.

أجابه أحد السجناء:

- ذهب إلى الطبابة في الصباح، ولم يعد. لعله سينام في المستوصف.

سأل أكبر نزلاء المهجع سناً:

- هل هو مريض؟

- أخذ برداً.

- في رأسه(*)؟

- لا تتبارد.

- بدأ الجو يميل إلى البرود، طبيعي أن يأخذ الصبي برداً، فلا لحافاً عنده ولا فراش. هذا هو المتوقع.

قال السجين العجوز:

- لنتعاون فنجد طريقة ما حتى لا يبرد ابننا يشار.

سمعت صفارة النص نصيص وهو يصرخ بالسجناء: «إلى الداخل إلى الداخل!». وفي أعقابه دخل يشار يشامز ممر الجناح الثاني. قال أول من رآه من نزلاء المهجع الأول:

- ها هو! وقديماً قالوا: اذكر الديب وهيء القضيب... لقد جاء صاحبنا.

ابتهج سجناء مهجعه لمرآه، قال له السجين العجوز:

---

*يستخدم تعبير "اخذ برداً" بمعنى أصابه مسٌ في عقله

- سمعنا بأنك مريض يا يشار؟

- أخذت برداً يا عم.

تدخل سجين ذو صوت غليظ:

- أي سؤال هذا! وهل بوسع يشار أن يمرض؟ حتى لو أراد أن يمرض فهو لا يستطيع.

- ولم ذلك؟

- المسكين ليس حياً، فكيف يمرض؟

انفجرت في المهجع ضحكة جماعية. قال يشار وهو يبتسم:

- لا تقل ذلك يا أخي. مهما كنت لا أعيش بصورة رسمية، فأنا أيضاً عشت إلى هذا الحد أو ذاك في بعض الأيام، أو كنت فيها شبيهاً بمن يعيشون.

- أوه! ماذا تقول؟ أحقاً؟ قد عشت إذن؟ احك لنا ذلك.

قال ذو الصوت الغليظ:

- حتى الآن حكيت لنا دائماً عن أنك لا تعيش.

- لماذا تقول ذلك يا أخي؟ عندما جندوني في الجيش، وعندما أرغموني على دفع ديون المرحوم أبي للدولة، وعندما أدخلوني مشفى الأمراض العقلية، ألم يقولوا لي في جميع تلك الحالات إنني أعيش؟.. ولكن في إحدى المرات أوشكت أن أعيش فعلاً.

- ماذا تقول؟! احك لنا ذلك يا يشار!

- حسناً يا أخوتي.

كان النص نصيص يتقدم وهو يدفع بسجناء الجناح الثاني إلى داخل مهاجعهم كمن يدخل الماشية إلى زرائبها، إلى أن وصل إلى المهجع الأول وأخذ التفقد اليومي الذي أنهاه بعبارته المعهودة:

- بالخلاص يا شباب!

أجابه السجناء بصوت واحد، ولكن من أطراف شفاههم:

- تسلم!

انتهى النص نصيص من التفقد في جميع مهاجع الجناح، فأغلق باب الجناح ذي

القضبان الحديدية ودربسه وعلق الذراع الحديدية ثم انصرف.

كان يشار يشامز قد ذهب في ذلك الصباح إلى الطبابة، فطلب منه طبيب السجن أن ينام في المستوصف. مكث يشار في المستوصف، لكنه مع اقتراب المساء شعر بالاختناق داخل الجدران البيضاء القذرة، فضلاً عن أنه أحس بنفسه جيداً بفعل الأدوية التي تناولها، فأراد العودة إلى مهجعه.

لم تكن رغبته في العودة إلى مهجعه بسبب تماثله للشفاء أو بسبب شعوره بالضيق من البياض القذر لجدران المستوصف. لقد اعتاد على أن يحكي ما مرّ معه من مغامرات لزملائه في المهجع، فيتخفف ويرتاح كثيراً. لهذا لم يعد قادراً على المكوث في المستوصف مع حلول المساء. فالواقع أن حلقه ما يزال يحرقه وصدره ما يزال متعباً يدفعه إلى السعال. أخبر المسؤول الصحي الذي هو أحد المساجين، بأنه يريد أن يعود إلى مهجعه، على آن يعود إلى المستوصف في اليوم التالي للحصول على الدواء. لم يعترض المسؤول الصحي على رغبة يشار يشامز، لأن المعتاد هو أن السجناء يستميتون للنوم في المستوصف.

بعد انتهاء عملية التفقد تناول نزلاء المهجع الأول عشاءهم بلا إطالة وراحوا ينتظرون يشار كي يبدأ بسرد حكايته.

كان يشار قد مهد مسبقاً للقسم الذي سيحكيه ذلك المساء، فسأل رغبة منه في إعادة إحياء اهتمام مستمعيه:

- أين وصلنا أيها الأصدقاء؟

أجابه أكثر من واحد معاً:

- إلى الفندق.

- لقد سلمك ابن بلدك رسالة آنشة.

- وقد قرأت الرسالة.

بدأ يشار الكلام متظاهراً بأنه لم يكن يعرف إلى أين وصل من حكايته، وتذكر فجأة:

- آه! نعم.

أخذ نفساً وبدأ يحكي:

- في تلك الغرفة الردئية في الفندق... نعم... سألني ابن البلد عما جرى معي في

المتحف في ذلك اليوم، وعما إذا تمكنت من مقابلة مدير المتحف أم لا. فأخبرته بأنني قابلته وأنني أعطيته بطاقة صاحبنا السافل صاتلمش الذي غيّر اسمه إلى صاتي، وبأن المدير قال لي: «على رأسي، نريك إذن يا سيدي.» وبأن موظفاً رافقني في جولة على المتحف، بناء على أوامر المدير، حيث رأيت أشخاصاً من حجر بأذرع مقطوعة وأنوف مكسورة. كان ابن البلد يصغي إلي وينفجر ضاحكاً. والحق أن ما حدث معي في المتحف يستحق الضحك. فقد تبين أنني انتظرت على باب المتحف طوال أشهر طالباً مقابلة المدير، لكي أرى تلك التماثيل ذات الأنوف المكسورة والأذرع المقطوعة. انتبه ابن البلد إلى حزني فسألني:

«ما الأمر؟ هل ثمة أخبار سيئة في رسالة آنشة؟»

فأفضيت له بما كان مكتوباً في الرسالة. قال لي بأنني مغفل لا أمل في شفائه وأضاف يقول:

«إذا كانت لديك ذرة عقل، فعليك أن تأتي بآنشة إلى استانبول وتشغلها خادمة في بيت من بيوت الأثرياء، كما فعلت مع زوجتي. سوف تشتغل الفتاة فتصرف على نفسها وعليك، فضلاً عن أنها سترى في استانبول العالم الحقيقي بدلاً من هدر حياتها في البلدة.»

فجأة ثارت أعصابي، أردت أن أقول له: «ولاك يا سافل، هل تريدني أن آكل مثلك نقود النساء؟ هل سألعب الورق في المقهى حتى المساء بنقود النساء؟» ولكن كيف أقول له ذلك؟ إن من لا يملك النقود لا يملك أية شهامة. إذا طردني من غرفته في الفندق، سوف أجوع في الشوارع. يضاف إلى ذلك أنني مدين له. لذلك لم أتفوه بكلمة. لا بد أنه أدرك من عبوسي ما كان يدور في ذهني، فقال لي:

«لا يتوجب عليك بالضرورة أن تستولي على نقود آنشة. ستعمل الفتاة وتكسب لنفسها.. إذا لم تسرع في إحضار آنشة إلى هنا، فإنهم سيزوجونها لشخص غريب من الأثرياء: ها أنا أؤكد لك ذلك وأسجله هنا.»

ما يقوله صحيح، سوف تطير آنشة من يدي. مال عقلي بعض الشيء إلى ما قاله ابن البلد. بالفعل، ما الضير في أن تعمل آنشة طالما لا أستولي على نقودها! سألته قائلاً:

«لا بأس فيما تقوله ولكن أين ستشتغل آنشة؟ هل نستطيع أن نعثر لها على بيت جيد يلائمها؟»

«هذا سهل... اترك هذا الجانب لي. ثمة سماسرة لتأمين الخادمات، غداً نذهب إليهم ونسألهم.»

شعرت بالغثيان عندما سمعت كلمة سماسرة. أوضح ابن البلد بأن الشخص الذي سيؤمن بيتاً تشتغل فيه آنشة سيأخذ من آنشة نسبة مئوية من راتبها الشهري. قلت له:

«يجب أن أرى مسبقاً البيت الذي ستشتغل فيه آنشة كخادمة.»

«طبعاً، طبعاً... هذه استانبول.. سيرينا السمسار البيت، ونساومه على الأجرة. بعد ذلك ستطلب من آنشة أن تأتي إلى استانبول.»

في صباح اليوم التالي اصطحبني ابن البلد إلى إحدى الحدائق. إنها حديقة البلدية في داخلها حديقة أطفال حيث كانت الأمهات والمربيات والخادمات قد وضعن الأطفال داخل العربات ودرن بهم داخل الحديقة، أما الأطفال الأكبر سناً فكانوا يلعبون وحدهم في الحديقة.

اتضح لي أن تلك الحديقة هي سوق للخادمات حيث يلتقي السماسرة والخادمات ومعهن أزواجهن وتجري المساومات على قدم وساق. حتى أن هناك رجالاً ممن تزوجوا عرفياً ثلاث نساء أو أربع، ويشغلونهن جميعاً خادمات منازل. كان ابن البلد قد أصبح خبيراً في هذه الشؤون. قصدنا سمسارنا، جلسنا على مقعد خشبي وأشعلنا السجائر. استفسر الرجل عن عمر آنشة ووزنها ومدى تعاونها وكل شيء يخصها. قال بعد أن عرف كل ذلك:

«ثمة بيت يناسبها تماماً. إنه قصر سيدة شريفة جداً... سيدة استانبولية تقليدية ولا أرقى... اسمها غوهر هانم. ليس ثمة من لا يعرفها في منطقة «بوغاز إيجي». سوف تكون آنشة مرتاحة في قصر غوهر هانم، تأكل وتشرب وتعيش.»

اتفقنا على الراتب الشهري وقيمة السمسرة وكل شيء. عندما عدت إلى الفندق كتبت إلى آنشة قائلاً: تعالي بلا إبطاء. وجدت لك عملاً.» وردت علي برسالة أخبرتني فيها بموعد وصولها إلى استانبول.

أصبحت وجهاً لوجه مع يوم وصولها. في تلك الليلة لم أنم لحظة واحدة.

في الصباح الباكر ذهبت إلى محطة حيدر باشا وبدأت أنتظر القطار.

كان من المفترض أن يصل القطار قرابة المساء، أما أنا فوقفت أنتظره منذ الصباح الباكر. كلما اقترب موعد وصول القطار ازدادت خفقات قلبي تسارعاً وقوة. آن أوان

وصول القطار، ومضى الوقت لكن القطار لم يظهر. ثم أعلنوا أنه سيصل متأخراً ساعة كاملة. وبعد مرور ساعة أعلنوا أنه سيتأخر نصف ساعة أيضاً. بعد بضع مرات من تأخيرات متتالية أمطر واحد مثلي ممن جاء لاستقبال أحد الركاب، إدارة الخطوط الحديدية بشتائم مقذعة، ثم انتهى إلى القول صارخاً:

«إذا كان أي قطار من قطاراتنا لا يصل في أي يوم إلى أي مكان في موعده، لماذا إذن يأكلون الخراء فيضعون القوائم بمواعيد الرحلات؟!»

قال له سيد مسن يضع نظارات:

«إنهم يضعون قوائم المواعيد ليعرفوا كم تتأخر القطارت. كيف سنعرف في غياب القوائم كم ساعة تأخر القطار؟»

في تلك الأثناء وصل القطار الأسود، ركضت باتجاه نوافذه، رحت أندفع من نافذة إلى أخرى، على أمل أن أرى آنشة. الازدحام مثل يوم القيامة.. وماذا إذا لم أعثر على آنشة؟ ستتوه في استانبول الكبيرة، وليس لديها مكان تذهب إليه. وأنا أركض في جميع الاتجاهات بحثاً عن آنشة، حطت يد على كتفي:

«يشار!»

التفتُّ وإذ هي آنشة!

لو أنها لم تهتد إلي كنت سأبحث مطولاً. القادمون من السفر ومستقبليهم يتعانقون ويتبادلون القبلات، أما نحن فتبادلنا النظرات، لأن المعانقات والقبل أمام أنظار الناس يعتبران أمراً معيباً في بلدنا، لكن النظرات التي تبادلناها أين منها المعانقات والقبلات! لقد اجتمعت بآنشتي فملكت العالم بأسره. التقطت من يدها حقيبتي السفر الخشبيتين والبقجة. إحدى الحقيبتين الخشبيتين مغلفة بتوتياء ملونة عليها صور أزهار وعصافير، بحيث أنها بدت شبيهة بصندوق عروس... واضح أن آنشتي قد هربت من بيت أهلها حاملة معها «جهازها» الذي واظبت على إعداده لسنوات. قلت لها:

«أهلاً وسهلاً يا آنشتي، اشتقت إليك كثيراً.»

«أنا أيضاً اشتقت إليك يا يشاري، وأي شوق!»

لم أعرف ماذا أقول، والأصح أنه لم يكن لدي ما أقوله لها، وما كان لي وجه لأتحدث إليها. لذلك قلت لها فجأة:

«اسمعي يا آنشة! لقد وجدت لك عملاً ويا له من عمل... ستأكلين وتشربين

وتامين... إنه عمل مريح جداً... عند سيدة ثرية جداً وطيبة جداً» وتابعت مكرراً عليها ما سمعته من سمسار الخادمات:

«تدعى غوهو هانم، ليس ثمة من لا يعرفها في «بوغاز إيجي». إنها سيدة تقليدية من سيدات استانبول، وستكونين سيدة ثانية في قصرها»

«وأنت يا يشاري، ماذا فعلت؟ لا بد وأنك تشتغل في عمل ما؟»

«لم أشتغل، لم أجد أي عمل حتى الآن.»

«وماذا عن بطاقة ذاك الصاتلمش؟ ألم تنفع في شيء؟»

«ببطاقته قدموا لي جولة مجانية داخل المتحف. بل وأرغموني على ذلك. لم تنفع البطاقة في أي خراء آخر.»

لم أكن أملك أية نقود تكفي لاستئجار غرفة لآنشة في أحد الفنادق لليلة واحدة، فاصطحبتها فوراً إلى بيت غوهر هانم الذي ستشتغل فيه، كان السمسار قد أراني القصر من قبل، لكنني لم أر السيدة غوهر وقتها.

قلت للمرأة التي فتحت باب القصر، بأنني أتيت بالخادمة التي وعدت بها، كما قلت لآنشة بأنني سأمر عليها كثيراً. أشاحت آنشة بوجهها عني ومسحت عينيها بطرف منديل رأسها، رغبة منها في إخفاء دموعها عني.

عدت إلى الفندق بعد منتصف الليل.

لم أعد أملك وجهاً أطلب به نقوداً من ابن البلد. كنت أتجول جائعاً في الشوارع بحثاً عن عمل. كنت أتطفل على من يمسكون بجرائد، فأقرأ الإعلانات الخاصة بفرص العمل، وأسارع إلى كل مكان يطلبون فيه عملاً.

أينما ذهبت، طلبوا مني البطاقة الشخصية. تابعت تجوالي في الشوارع. ومرة رأيت على واجهة أحد المخازن ورقة كتب عليها «مطلوب أجير»، فدخلت.

ليس مهماً ماذا أشتغل، أجيراً أو خادماً أو أي شيء، المهم أن أشتغل. لكنهم طالبوني أيضاً بالبطاقة الشخصية. دخلت أماكن أعلنت عن حاجتها إلى بوابين، فخرجت أيضاً محني الرأس.

لقد أتيت بآنشة إلى استانبول لتكون معي، لكنني لا أستطيع الذهاب إليها لأراها. بدأت أشتاق إليها أكثر من السابق. إن قصر غوهر هانم الذي تشتغل فيه يقع في مكان بعيد من «بوغاز إيجي»، والوصول إليه يكلف غالياً. انطلقت إلى هناك ذات يوم في

الصباح الباكر، سيراً على الأقدام، فلم أصل إلى القصر إلا بعد الظهر، وكانت حالتي كحالة ميت بسبب التعب والجوع. لم أمتلك الشجاعة الكافية لأقرع الباب وأسأل عن آنشة، فرحت أدور حول القصر لعلني ألمحها أو أسمع صوتها... وفجأة رأيت آنشتي الشقية في الطابق الأرضي، في غرفة ذات واجهة زجاجية بالكامل، وكانت تدور وتتحرك بسرعة من غير أن تتوقف لحظة واحدة. لو أنك تنظر إليها من بعيد ولا تعرف ماذا تفعل فسوف تظن بأنها مجنونة. الغرفة التي تتحرك فيها آنشتي غرفة كبيرة تصلح لجميع الأعمال، يمكن أن تكون مطبخاً أو غرفة غسيل أو قاعة طعام. وقد غيرت آنشتي من هندامها وأصبحت فتاة استانبولية أصلية، ألقت بالشروال ولبست تنورة. المسكينة غائبة عن الدنيا، تتراكض داخل الغرفة تارة في هذا الاتجاه وتارة في الاتجاه الآخر. أثارت فضولي لمعرفة ما تفعل فأسندت رأسي على الزجاج واستغرقت في مراقبتها. في تلك اللحظة كانت آنشة تدير مفتاح الشواية الكهربائية فوق موقد المطبخ. فبدأت طنجرة الضغط تصدر صفيراً. وفي اللحظة التي أرخت فيها آنشة صمام أمان الطنجرة، توقف الشيء الصخاب الذي سأعرف لاحقاً أنه يدعى خلاّط فواكه، فركضت آنشة وأعادت تشغيله. وإذ بالدخان يتصاعد من الشواية فوق الموقد. ركضت آنشة إليها والتقطت منها قطع الخبز المحمص، فانطلق صوت جرس اتضح أنه جرس الهاتف.

فركضت آنشة إلى الهاتف. يا سلام يا آنشتي! هل ترون؟ لقد تعلمت أيضاً الرد على الهاتف، تعلمت كيف تقول «آلو» وكيف تقول «مرسي». لم تكد تضع سماعة الهاتف مكانها حتى أسرعت إلى الغسالة التي توقفت، فأدارت فيها مفتاحاً وأعادت تشغيلها. والآن انطلق جرس آخر.. إنه جرس المنبه، ويا له من جرس، يخيل إليك أنه جرس مصنع. ركضت آنشة إلى المنبه فأوقفت رنينه، ثم أوقفت آلة كانت تعمل وما أدراني أية آلة هي! باختصار لم يكن لدى آنشة لحظة واحدة تأخذ فيها نفساً. كانت تتحرك وتدور طوال الوقت راكضة من تلك الآلة إلى هذه، من الشواية الكهربائية إلى الهاتف، ومن الهاتف إلى الغسالة، ومن الغسالة إلى خلاط الفواكه، ومنه إلى المنبه، ثم إلى طنجرة الضغط، ثم إلى مفتاح الكهرباء، فإلى المكنسة الكهربائية، فإلى فرن الغاز، وهكذا... لكثرة تراكضها من آلة إلى أخرى، بدا كما لو كانت هي نفسها آلة.

مسكينة آنشة، تتحرك مثل مكوك... كيف يتحمل الإنسان كل تلك الحركة؟ دعك من الإنسان، حتى الآلة لا تتحمل ذلك. عندما رأيتها في تلك الحال رغبت في البكاء. ترى متى تعلمت آنشتي كل تلك الأعمال الصعبة ومن علمها؟ شعرت بدوار وأنا أتابع حركتها

الدائبة وغامت عيناي، ثم تمالكت نفسي قليلاً ونقرت بأصابعي على الزجاج الذي كنت أراقبها من خلاله، بالطبع لم تسمع آنشة صوت نقراتي على زجاج الباب في كل ذلك الضجيج من أصوات الآلات والمواقد والأجراس والصفارات. نقرت بقوة أكبر، فالتفتت وهتفت باسمي، ثم جففت يديها من رغوة الصابون بمريولها، وخرجت إلي من خلال الباب الزجاجي، ودعتني إلى الدخول:

«ادخل... ادخل.»

«ألا يسبب دخولي إزعاجاً لأصحاب البيت؟»

أخبرتني بأنهم سيأتون مساءً، وبأنه لا أحد في البيت الآن غير غوهر هانم، وهي مقعدة، لا تتحرك من مكانها وتنام باستمرار.

تابعت آنشة حركتها المكوكية داخل المطبخ، فلم يتح لنا حتى أن نتبادل قبلة.

قلت لها:

«أوقفي هذه الأشياء الصخَّابة والمفاتيح والأزرار والآلات وما لا أدريه لنتحدث كلمتين على رواق.»

«أوه! عليّ إعداد ألوان الطعام ليكون جاهزاً في موعده.. وعليّ الانتهاء من جميع الأعمال... تكلم وسأصغي إليك... أذني معك.»

وهل يمكن للعين أن تكون على العمل والأذن عند الحبيب؟ أي مكان هذا! إنه أشبه ما يكون بقسم المحركات في إحدى السفن... ضجيج كثير وحركة كثيرة. رحت أتحدث بصوت مرتفع. سألتها من باب الكلام:

«هل أنت مسرورة من عملك هنا؟ إذا لم تكوني كذلك، يمكنني أن أتحدث إلى السمسار ليجد لك مكاناً آخر.»

«إنه مكان جيد جداً. أنا مسرورة جداً لأنني اشتغلت هنا، ومرتاحة جداً. ليس لدي أي هم باستثناء التفكير بك.»

قالت ذلك ثم أحنت رأسها وقد غامت عيناها. قالت:

«يشار!»

«مريني.»

«سأقول لك شيئاً.»

«قولي خمسة أشياء يا روحي.»

«سمعت أن أبي قد عرف بمكاني، وأرسل من يتعقبني، وسوف يأخذني من هنا. أسرع في موضوع عقد القران...»

وماذا أستطيع أن أقول لها؟

«طبعاً... وما الذي أسعى إليه غير ذلك؟... لأجد أولاً عملاً لي. ثم سأسعى للحصول على بطاقة شخصية. وما إن أحصل عليها حتى نذهب من فورنا إلى المحكمة لنعقد قراننا.»

أمسكت آنشة بيدي، في حين كانت يدها الأخرى على مفتاح موقد الغاز، وقالت:

«لا بأس حتى لو لم تجد عملاً، لا بأس حتى إذا بقيت بلا نقود. ها أنا أشتغل. وما أكسبه يكفينا كلينا.. أريد منك أن تفعل شيئاً واحداً فقط: عقد زواج.. يكفيني ذلك.»

لو أنني نطقت بحرف واحد، لما تمالكت نفسي وبكيت مثل طفل. التزمت الصمت حتى لا أنهار أمام آنشة.

كانت تتصاعد مما يطبخ على الموقد أبخرة ذات روائح طيبة، فبدأت أمعائي تقرقر لشدة جوعي. لعلها أدركت بأنني لم أذق لقمة واحدة منذ البارحة، فقد قالت لي:

«سأضع لك طعاماً لتأكل.»

«لاااا... لا أريد... قبل مجيئي إلى هنا أكلت حتى التخمة.»

لقد تأثرت كثيراً بوضعها، فلم يعد بمقدوري الاستمرار في البقاء. قلت لها مودعاً:

«سأعود إليك، وآتي إليك بأخبار جيدة.»

ذهبت إليها ثانية وثالثة، وإذ بها تعرض عليّ النقود أيضاً. قالت إنها تراكم راتبها الشهري لأنها لا تحتاج أي شيء فلا تصرف أية نقود:

«وما حاجتي إلى النقود؟ خذها، لتبق معك.»

رفضت النقود. وكيف آخذها؟

لقد مضى على عملها في قصر غوهر هانم ستة أشهر. وكان ابن البلد الذي يستضيفني في غرفته في الفندق، قد بدأ يعبس في وجهي. فهمت أنه مستاء لأنني لم آخذ نقوداً من آنشة لأسدد له ديوني.

بالفعل شكلت عبئاً عليه لفترة طويلة. ولم أكن أكسب أية نقود حتى بما يكفي للإقامة

في ذلك الفندق الرخيص. ولأن الجو كان حاراً، فقد قررت النوم في الشوارع. في اليوم نفسه الذي اتخذت فيه ذلك القرار، وكنت جالساً في المقهى الذي يشغل الطابق الأرضي من الفندق، وشارداً عما حولي مستغرقاً في همومي المؤلمة، اقترب مني رجل كنت قد تعرفت إليه في الفندق، وضع يده على كتفي وقال لي ممازحاً:

«منذ مدة وأنا أناديك فلا تسمعني... ما الذي يشغلك يا صاحبي؟ هل غرقت سفنك في البحر الأسود؟»

«ليتني أملك سفناً فتغرق. الحال أسوأ بكثير يا صاحبي!»

وهكذا حكيت له كل شيء بالتفصيل، مؤكداً على أن أحداً لا يستخدمني لأنني لا أملك بطاقة شخصية. فقال لي:

«واضح أنك شاب شريف وذو ضمير. سوف أعمل لك معروفاً كأخ حتى تدعو لي على مدى عمرك صباحاً ومساءً.»

«دخيلك، قل لي ما الأمر! أنقذني فأصبح عبداً لك.»

«سوف ندخل في شراكة عمل ونكسب أطناناً من النقود.»

«أي عمل هو؟»

«سنفتح دكاناً لبيع الخضار والفواكه، في موقع جيد. سنستأجر محلاً ثم نملأه بالبضاعة ولير الناس.. هذا العمل هو عملي، أنا خبير فيه. أتعرف كيف أعمل؟ إني أضع حجارة في سفط ثم أبيعها على أنها بطيخ وجبس! وأملأ السلال بالحصى فأبيعه على أنه خوخ أخضر.. إن المهارة في هذا العمل تقوم على ثلاث: أولاً عرض نماذج فاخرة، ثانياً اللسان الحلو، ثالثاً: تزيين البضاعة وتسويقها.. لا أحد يبزني في هذا العمل.. إني أبيع الخيار المبذّر على أنه لوز أخضر يانع. شاركني في هذا المشروع، وسنكسب النقود بالأطنان. لا أريد منك أي شيء آخر. فقط ادع من أجلي مقابل المعروف الذي سأقدمه لك.»

«كل ما تقوله جيد يا أخي، لكني سبق وأخبرتك بأنني لا أملك بطاقة شخصية.»

«وليكن. إذا لم تكن تملك بطاقة، فأنا أملك. نوقع عقد إيجار الدكان باسمي، ونستصدر الرخصة باسمي أيضاً، فيتم الأمر. أنا لن ألمس النقود أبداً. النقود تبقى معك. وكل مساء نتحاسب. تبقى النقود معك دائماً.»

فكرت بأنه لن يستطيع أن يُنجّر لي خازوقاً، طالما أن النقود ستكون معي. قال:

«نحتاج فقط إلى شيء من رأس المال.»

قلت له ببلاهة:

«ماذا قلت؟ رأس مال؟»

«ليس كثيراً. تدبر ثلاثة آلاف ليرة فقط، وسنؤسس مشروعاً يكلف الآخرين ثلاثين ألفاً... كلها على بعضها ثلاثة آلاف لا غير.. وماذا تساوي ثلاثة الآلاف في هذه الأيام... سترى، كيف سنقص النقود من دكان الخضار والفواكه وكأننا ندير آلة لطباعة النقود. اجلس أنت أمام الصندوق ولا تفعل شيئاً سوى عد النقود، أما الأعمال الأخرى فجميعها عليّ.»

تذكرت أن آنشة تحاول أن تعطيني نقوداً كلما ذهبت إليها، تريدني أن أستخدم نقودها كرأس مال وأقيم به مشروعاً. وكنت أرفض في كل مرة. لكن الأمر مختلف هذه المرة. سوف نقيم مشروعاً ذا ربح مؤكد، وسيكون لي شريك ذو خبرة في عمله. سآخذ النقود من آنشة، ثم أكسب، فأعيدها إليها مع الأرباح. سألته:

«لنقل إنني استدنت المبلغ من أحد ما، فكم يلزمنا من الوقت حتى نسدّد ديننا؟»

لم أقل «ديني»، بل «ديننا» لجعله مشاركاً في الاستدانة، حتى يبذل كل جهوده لتسديد الدين.

«لنفتح دكاننا أولاً.. وهل ثلاثة آلاف مبلغ ذو شأن؟ إذا أردنا، فنحن نستطيع تسديدها خلال أسبوع واحد.»

«هل سأتمكن بعد ذلك من الحصول على بطاقة شخصية أيضاً؟»

«بوجود النقود، لا شيء يمتنع علينا. سوف تستطيع استصدار ثلاث بطاقات بدلاً من واحدة إذا شئت.»

ازداد حماسي على إثر هذا الكلام، يمكنكم القول إنني أصبحت عصفوراً وحلقت في الهواء، أو ريحاً وعصفت. بعد ساعتين سيراً على قدمي كنت في قصر غوهر هانم، في حين أنني كنت أقطع المسافة نفسها في ست ساعات. رأيت آنشتي مرة أخرى في المكان نفسه ذي الباب الزجاجي في الطابق الأرضي من القصر، تتحرك كالمكوك بين الطناجر والغسالة والمكواة وطنجرة الضغط وما لا أدريه من أدوات. كانت الأبخرة والأدخنة تتصاعد من المواقد والطناجر والحلل والغسالة والمكواة وما إلى ذلك، وآنشتي داخل الأدخنة والأبخرة. عندما رأتني عانقتني وقالت:

«أوه! إن وجهك وضاء اليوم وعيناك تضحكان. هل تحمل لي بشرى سارة؟»

«نعم بشرى، ويا لها من بشرى! سأشارك شخصاً ذا خبرة لنؤسس مشروعاً مربحاً.»

وهكذا نقلت إليها كل ما قاله لي شريكي بلا نواقص.

«سوف أجلس أمام الصندوق، وتبقى النقود معي دائماً... لن يلمس شريكي النقود أبداً. سوف يشتغل وحسب. ويا له من بائع خضار وفواكه! ليس من النوع الذي تعرفينه. إنه يلم الحجارة والحصى من الشارع، فيزينها ويرتبها في السفط وفوق الأوراق الخضراء، ثم يبيعها لهذا الزبون على أنها كرز، ولذلك الزبون على أنها مشمش، لكل زبون وفقاً لطلبه.. إنه بائع بهذه البراعة. سوف نكسب نقوداً بالأطنان... ولكن...»

بعد تلك ال- «ولكن» حنيت رأسي وسكت، فسألتني آنشة بفضول:

«ولكن؟ ولكن ماذا؟»

أجبتها محتفظاً برأسي محنياً:

«لكن هذا المشروع يحتاج قليلاً من رأس المال، حتى نستأجر محلاً في موقع ممتاز.»

لم تتأخر آنشة لحظة واحدة، ابتعدت راكضة، ثم عادت بعد قليل وهي تلهث ودلقت النقود التي في حجرها أمامي قائلة:

«ها هي. خذها!»

عددت النقود، فكانت أربعة آلاف وخمس مئة ليرة. قلت لها:

«سأعيد لك هذا المبلغ خلال أسبوع، وفي أسوأ الفروض أسبوعين.»

«سواءً أعدته أم لا... ولكن لنسرع يا يشار في عقد القران، أرجوك. وإلا فسوف يهتدي إلي أبي ويرغمني على الذهاب معه.»

«لا تهتمي لأي شيء. كل شيء في أوانه. لنفتح الدكان أولاً ونكسب النقود. بعدها سأحصل على البطاقة الشخصية... الزواج أمره سهل.»

لو أن حمامة زاجلة كانت في مكاني، لما عادت بالسرعة التي عدت بها إلى شريكي. أعطيته من النقود ثلاثة آلاف، في حين احتفظت بالباقي كاحتياط. وحسناً فعلت، لأن توقيع العقد والحصول على رخصة وفتح دكان ليست بالأمور السهلة. فهي تتطلب توزيع رشاوى وهبات ومصاريف وإتاوات وما شابه ذلك... وتمطمطت الإجراءات وتشعبت، حتى طارت كل النقود التي معي وتلاشت، فلم يبق منها قرش واحد. النقود طارت لكننا وضعنا

المشروع على سكته تقريباً، قال لي الشريك:

«يا أخي يشار. أنت قدمت رأس المال، علي تأسيس العمل والسير به إلى الأمام. لقد استأجرنا المحل، وحصلنا على الرخصة من البلدية، والآن جاء الدور على عقد الشراكة الذي يجب أن نوقعه.»

«إنني أحترم كلمتي. الكلمة عندنا هي الشرف. أنا أثق بك وأصدق كلامك، فلا ضرورة لعقد.»

قلت ذلك لأنه لم تبق معي أية نقود لدفع تكاليف العقد. ولكن يا له من رجل شريف، فقد قال لي:

«لاااا... لا يصح ذلك.... ثمة حياة وثمة موت.... لا أريد أن أدين بشيء لأحد في هذه الحياة الفانية... لن أشاركك في هذا المشروع بغير عقد.»

حسناً إذا كان هو مصراً على ذلك فليكن. ولكن أين النقود؟ ذهبت مرة أخرى إلى آنشة، شرحت لها الموقف وعدت ومعي مبلغ إضافي من المال. ذهبنا، شريكي وأنا، إلى كاتب عرائض وطلبنا منه أن يحرر لنا عقد شراكة تام الأركان، ويا له من كاتب عرائض بارع! إنه من الكتبة الذين تقطر أقلامهم دماً. ما زلت أذكر إلى اليوم، العقد الذي حرره الكاتب على آلته الكاتبة:

«وفقاً لعقد الشراكة المبرم بين يشار من جهة أولى، و«سالم ناصع النظافة» من جهة ثانية، فإن عقد إيجار المحل ورخصة البلدية يكونا باسم «سالم ناصع النظافة»... كذا وكذا... وبحيث تقتسم الأرباح على الشريكين بالتساوي... كذا وكيت... يثبت ذلك على هذا الوجه..الخ...الخ... وينظم هذا العقد بيننا على نسختين... الخ...الخ..»

وضعنا توقيعينا على ذلك العقد المكتوب، فأخذ نسخة وأخذت نسخة ودسستها في جيبي. تصافحنا وكل منا يهنئ شريكه، ثم بدأنا العمل فوراً، فملأنا الدكان بالفاكهة والخضار. كان شريكي قد أعطاني عن شطارته صورة أقل بكثير من الواقع، فمهما مدحته لن أفيه حقه من الخبرة والبراعة، وكما قال لي كان البيع أكثر كثافة من طاقتنا، وبدأنا نكسب نقوداً بالأطنان. عندما يحل المساء نخفض الدرابة المعدنية، نفتح الصندوق فنجده مليئاً عن آخره.. فنستغرق في عد النقود. وما أحلى عد النقود.. كنت أنقض على يدي شريكي وأقبلهما، وأقول لنفسي ووجهي يضحك: «لقد انقلب الحظ لصالحك يا يشار يشامز. من الآن فصاعداً انتهت حالة «اليشامز» بالنسبة لك، وستكون دوماً يشار

يشار...»

كنت أقبل يدي شريكي وأقول له:

«لتنل رضاء الله»

فيرد عليّ قائلاً:

«لا أهمية لذلك: لا شيء يذكر... أديت لك معروفاً وحسب. ولن تنسني حتى آخر يوم في حياتك.»

وهل ينسى رجل قدم لي معروفاً من هذا النوع!

انقضى أسبوع على افتتاحنا للدكان. أغلقنا في ساعة متأخرة من الليل. كان الصندوق يطفح بما فيه من نقود. جلسنا لنتقاسمها مناصفة. فقال شريكي:

«يا أخي يشار... ما رأيك أن نتوسع في مشروعنا؟ وذلك يتطلب أن نضيف إلى رأس مالنا ما كسبناه من نقود.»

فكرة سديدة وكلام سليم. لم نعد نمد يدنا إلى أرباحنا إلا بما يقيم أودنا بأدنى مستوى. كان حذائي قد اهترأ في أسفله، لكني لم أشتر حتى شحاطة رخيصة من البلاستيك، حرصاً مني على مراكمة رأس المال. كانت آنشة تغادر القصر بإذن من سيدتها من حين لآخر، فتأتي إلى الدكان وتتمنى لنا التوفيق في تجارتنا. كانت ترى نجاحنا والنقود الكثيرة التي نربحها، فتفرح. لكنها تذكرني من حين لآخر فتقول:

«يجب أن لا نتأخر في الزواج يا يشاري. لقد أرسل أبي رجالاً يتعقبون أثري، ويبحثون عني في كل مكان.»

فأرد عليها قائلاً:

«ها أنت ترين: لقد سلخنا الشاة ولم يبقى منها إلا ذيلها. تحملي قليلاً من الوقت، لم يمض على فتحنا للدكان سوى بضعة أشهر. لا نسحب نقوداً لأننا نريد أن نضخم رأس مالنا. حتى أنني لم أشتر لنفسي أية ثياب.»

كانت آنشة من النوع المرن، لذلك كانت توافق ملتزمة الصمت. فيما كان العمل يسير هكذا سيراً حسناً. جئت ذات صباح إلى الدكان مثل كل صباح، فتحت القفل ورفعت الدرابة متمتماً:

«يا الله يا بسم الله... باب الدكان باب الخير..»

يا إلهي! ماذا أرى؟! لا شيء يمكن أن أراه... فالدكان فارغ بالكامل! لم يبق فيه رأس بصل ولا عود كُرَّات. رحت أصرخ مستنجداً بالجيران:

«النجدة يا أخوتي! قد دخل لص دكاننا! النجدة النجدة!»

تحلق حولي جيراني بعد سماعهم لصرخاتي. قال القصّاب:

«لماذا تصرخ فتستنفر الناس بلا سبب! لم يدخل دكانك أي لص»

«كيف لم يدخل لص؟ ألا ترى الدكان فارغاً من كل شيء!»

تدخل صاحب المقهى المجاور لدكاننا، فقال:

«جاء شريكك في الصباح الباكر، في عتمة الفجر، حمّل البضاعة في سيارتين وانصرف.»

وقال الحلاّق:

«لقد سألته فأجابني بأنه افتتح دكان خضار وفاكهة في مكان آخر.»

في تلك اللحظة من الصدمة والذهول وصل ساعي البريد وسأل:

«أين هو سالم ناصع النظافة؟»

قلت له:

«لقد ذهب من هنا.»

قرأ ساعي البريد الكتابة فوق مغلف طويل:

«حسناً.. وأين هو يشار يشامز؟»

«إنه أنا!.... أنا شريك المذكور.»

«حسناً. وقع هنا إذن!»

وجعلني أوقع على سجل البريد المسجل، وعلى وصل الاستلام، ثم أعطاني المغلّف الكبير وانصرف.

كان فوق المغلف كتابة مطبوعة، واضح إذن أنه صادر عن جهة رسمية. وكم فرحت أيها الأخوة! أليس كذلك؟ إذا كانت جهة رسمية ترسل رسالة باسمي، فما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن الجهات الرسمية قد اقتنعت بأنني أحيا... طلبت من الجيران أن يقرأوا لي محتويات المغلّف، فعرفت أنه صادر عن إدارة الضرائب، وأن دكاننا مدين بما يفوق الألفي

ليرة ضرائب، وأنه علينا أن نسدد تلك الضرائب خلال خمسة عشر يوماً.

عند هذه النقطة من الحكاية صرخ نزلاء المهجع الأول الذين كانوا يصغون إلى يشار بصمت كامل، معلنين عن دهشتهم بصوت واحد وكأنهم تلقّوا أمراً بذلك:

- خووووود!

قال السجين الأكبر عمراً موجهاً كلامه ليشار:

- لعلك لم تدفع لهم الضريبة أو ما إلى ذلك يا بني...

وقال سجين شاب:

- ولم يدفع؟ هل هو مغفل؟ هل يدفع ضريبة من لا يحيا؟

قال صاحب الصوت الغليظ:

- كيف يدفع الضريبة إذا كان عقد الإيجار ورخصة البلدية كليهما ليسا باسمه. بطبيعة الحال سيدفع الضريبة شريكه الذي سطا على الدكان.

وقال يشار يشامز:

- ما كنت أريد أن أدفع، لكني لم أتمكن من تجنب ذلك.

- ولماذا؟

- إذا امتنعت عن دفع الضريبة سأخسر الدكان، في حين أنني فكرت بعد أن سطا الشريك على الدكان وهرب، أن أتابع العمل بمفردي. فقد تعلمت العمل، وسوف آخذ من آنشة شيئاً من النقود كرأس مال وأتابع العمل. لهذا كان علي أن أدفع الضريبة حتى أشغل الدكان. في البداية ذهبت إلى دائرة الضرائب وقلت لهم إن على شريكي أن يدفع الضريبة. لكن ثمة عقد شراكة، يضاف إلى ذلك أنني تعهدت ضمن العقد بأن أكفل شريكي وذلك دون علم مني. ودائرة الضرائب تقوم بتحصيل حقوقها من أي واحدٍ من الشركاء أو المتكافلين. لا بأس بذلك، فليأخذوا مني الضريبة. إذا كان في ذلك اعترافاً من الجهات الرسمية بأنني حي أرزق. فإذا حصلت على وصل يؤكد دفعي للضريبة، سأكون أثبت بأنني أحيا. تدخل السجين ذو الصوت الغليظ قائلاً:

- لِمَ لم ترفع دعوى على شريكك؟

- وكيف لم أرفع يا أخي؟ بالطبع فعلت. قاضيته مستنداً إلى عقد الشراكة الموقع بيني وبينه. جاء الشريك إلى المحكمة وقال للقاضي:

«ذلك الدكان لي. ها هو عقد الإيجار، وها هي الرخصة، كلاهما باسمي.»

فأظهرت للقاضي بدوري عقد الشراكة وقلت:

«وماذا سيقول عن هذا العقد؟ لقد قام شريكي بالسطو على الدكان من وراء ظهري.»

عندئذ قال شريكي المنحط:

«على هذا الرجل أولاً أن يثبت من يكون. عليه أن يبرز بطاقته الشخصية، ويتحدث بعد ذلك. إن هذا الشخص هو نصاب، ينتحل اسم شهيد مبارك من شهداء وطننا كان قد استشهد في معركة جنق قلعة، وأنا مستعد لإثبات ما أقول.»

بدأت أرتعد خوفاً، وأنا محق في خوفي، فإذا تمادى هذا الوغد قليلاً سوف يستخرج من السجلات الرسمية واقعة استشهاد ابنه يشار في جنق قلعة، وسوف يدعي بأنني أنتحل هوية الشهيد. كما ترون يا أخوتي سأكون منتحلاً هويتي الخاصة! لذلك لم أعد أتفوه بكلمة في المحكمة، وخسرت القضية شئت أم أبيت.

قال له السجين العجوز:

- لو أنك لم تدفع الضريبة يا بني...

- ما كنت سأدفع يا عم. لقد ذهبت إلى دائرة الضرائب وقلت لهم:

«أثبتوا بأنني حي أرزق، فأدفع لكم هذه الضريبة.» أليس كذلك؟ وهل يدفع الموتى ضرائب؟

فقال لي الموظف المسؤول وهو يبتسم بمكر:

«وهذا التوقيع على عقد الشراكة، أليس هو توقيعك؟ كيف وقعت على هذا العقد إذا لم تكن حياً؟ منذ متى أصبح الموتى يشاركون الأحياء وراحوا يوقعون عقوداً معهم؟»

ارتفعت ضحكات الموظفين والمواطنين الذين كانوا حاضرين.

ضحكت بدوري، لأن ما يقوله الموظف صحيح... وهكذا انتهى بي الأمر إلى أن دفعت الضريبة. أخذت شيئاً من النقود من آنشة وبدأت أشغل الدكان بمفردي. وسرعان ما رفع علي صاحب الدكان دعوى قضائية قائلاً: «من هذا الرجل؟ ليس بيني وبينه عقد إيجار، إنه فضولي يحتل دكاني بغير علمي.» وهكذا جاءت الشرطة وأخرجتني من الدكان بالقوة.

لشدة ذهولهم أطلق نزلاء المهجع صرخة أخرى:

- خووووود!

وظلوا فاغري الأفواه.

قال شاب كان يوزع كؤوس الشاي على صينية ذات علاّقة:

- إذن فأنت لم تكن موجوداً بين أربعين مليون إنسان؟

رد يشار قائلاً:

- موجود حينما يرغمونني على دفع الضريبة، وغير موجود إذا أردت فتح دكان.

تدخل الشاب ذو الصوت الغليظ:

- آه يا يشار.. لماذا لا تقصد نظامي بيك قره قبلي؟ لو أنك لجأت إليه لكان هوّن عليك كل مصاعبك ووضع أمورك في نصابها.

وقال السجين العجوز:

- ألف حمد لك يا رب! على الأقل ثمة في هذا البلد نظامي بيك قره قبلي. لولاه، كنا انتهينا تماماً.

أكد موزع الشاي على كلام العجوز، قائلاً:

- هذا صحيح. لولا وجود قره قبلي نظامي بيك لكان أمرنا منتهياً. الموت أرحم من ذلك.



-١٣-

أبرز بطاقتك الشخصية

خذ قبعتك

كان ثمة عدد من السجناء الموهوبين جداً في مهجع يشار يشامز، فالشاب الذي يحتل السرير المجاور له يصنع المواقد والمناقل من كل ما يقع تحت يده من صفائح السمنة أو الكيروسين أو أي من علب الصفيح بما في ذلك علب الكونسروة الصغيرة، ويقوم ببيعها، لذلك كان يُلقب بـ «الملطزجي»، أي صانع المناقل. إن كثيراً من مناقل السجن ومواقدها هي من صنع يديه.

السرير الذي يجاور سرير يشار من جهة اليسار، احتلَّ طابقيه سجينان آخران من أصحاب المواهب. وفي الواقع كان شاغل الطابق العلوي هو الذي يحظى بموهبة كبيرة، فهو يصنع من لُبّ الخبز تماثيل وتحف وميداليات وتماثيل نصفيَّة، لذلك فقد لُقِّبَ بـ «النحات». وقد استخدم المسكين الذي يحتل الطابق الأول من السرير، ليُجهز له لُبَّ الخبز.

كان النحات يشتري الخبز الذي يبقى من حصص السجناء اليومية، بثمن بخس ويُسلمها لأجيره الذي تتلخص مهمتُهُ في مضغ لب الخبز مطولاً داخل فمه حتى يصبح عجيناً، ثم يُسلم النحات مارا كمه من عجين. وبسبب اختصاصه هذا كان يُلقب بـ «هَمُرْكار» أي العجان. وهو يملك فكين قويين جداً، لأنه يمضغ الخبز منذ استيقاظه صباحاً وحتى ساعة نومه في الليل بلا توقف، باستثناء أوقات الطعام. حتى في وقت السهرة وهو يصغي إلى حكايات يشار يشامز، كان يتابع مضغ الخبز وصناعة العجين، إلى درجة أنه ينام في بعض الأحيان وفي فمه خبز، أو عجين.

كان النحات قد وضع مقياساً لجودة العجين بما يلائم عمله، فيشتري عجين رغيف

واحد ممضوغ بخمسة قروش. وبذلك فإن الهمركار يكسب ليرة واحدة في اليوم كحد أقصى، إذا مضغ لب الخبز طوال اليوم، فالنحات لا يشتري عجين الخبز الممضوغ أقل مما يجب. وكان عليه أن يعجن العجين الممضوغ بيديه أيضاً حتى يصل إلى الكثافة المطلوبة لصناعة تمثال.

جلس الملطزجي في ممر الجناح يبيع المناقل والمواقد التي صَنَعَها مؤخراً، وإلى جانبِهِ الهَمُركار الذي انهمكَ في مضغ الخبز بلا توقُّف، فكان يُخرج من فمه العجين الذي انتهى من مضغِهِ إلى المستوى المطلوب، ويلتقط قبضة كبيرة من فضلات الخبز المكومة أمامه فيحشرها في فمه، في حين انشغل النحات في تشكيل جسد امرأة عار بارتفاع شبرين من عجين الخبز الممضوغ.

كان عدد من السجناء يطبخون طعام العشاء على المواقد والمناقل المشتعلة.

رَفَعَ واحدٌ منهم — وكان يتخذ موقعه بجانب النحات- غطاء طنجرته وغرفَ ملعقةً من الطعام الذي يغلي فوق الموقد ويتصاعد منه البخار، وراح ينفخ عليها بشفتيه المزمومتين قبل أن يتذوق الطعام.

لقد انهمكوا جميعاً في أعمالهم وتابعوا في الوقت نفسه ثرثراتهم:

-هل نجح بشار في تدبير عمل؟

أجاب النحات من غير أن يبعد عينيه عن العمل الذي يقوم به، أصابعه عن ردفَيْ التمثال الأنثوي العاري الذي يقوم بتشكيله:

-والله لا أعرف. حتى لو وافقوا على عمله في الورشة فكم سيعطونه؟ لقد أردتُ أن أعمل معروفاً، فقلتُ له يا أخي بشار تعال لأعطيك كل يوم ليرة ونصف وتمضغ لي خبزاً، رفض.

اهتم الجميع بهذا الحديث، أولئك الذين كانوا يُذكُّون جمر مناقلهم بتحريك الهواء فوقها، والذين يتذوقون طبخاتهم، والنحات وكاتب العرائض والملطزجي، تركوا ما في أيديهم من عمل وسألوا الإداري.

- ما الأمر؟ ماذا هناك؟

- لماذا لا يقبلونه؟

- ألم يوافقوا على دخوله إحدى الورشات؟

أوضح الإداري:

- تعرفون أنه كان قد تقدم بعريضة طالباً قبوله في إحدى الورشات، فكبس المدير موافقتهُ.

- وإذن؟ كيف لم يُقْبل بعد أن أعطى المدير موافقته؟

كان الإداري يحكي ما يعرفه بالقطارة حتى يستمتع بالتحدث إلى السجناء:

- المُدعي العام التنفيذي وَقَّعَ أيضاً بالموافقة...

قال له أكبر نزلاء المهجع سناً:

- لا تستمني بالكلام ولاك، وقل باختصار: من الذي يمنع يشار من الانضمام إلى إحدى الورشات؟

أجاب الإداري:

- لن يُشَغِّلوا يشار حتى لو وقّع الله تعالى على عريضته.. كيف لهم أن يشغلوه وهو لا يملك بطاقة شخصية؟ إذا حدث واشتغل، أليس من المفترض أن يقبض أجرَهُ كل أسبوع؟ أي أن اسمه سينزل في قوائم حسابات الأجور. كيف لهم إذن أن يُدْرِجوا اسمه في الحسابات وهو لا يملك بطاقة شخصية؟ ما الذي سيحدث إذا جاء أحد المفتشين ودقق في الحسابات واكتشف أنهم يقبضون نقوداً على اسم شخص غير موجود وليست له بطاقة شخصية؟.. لقد أراد كل من السيد المدعي العام والسيد المدير، ورئيس السجانين، أن يُشغلوا يشار، لكنهم وقفوا عاجزين عندما أوضح لهم السيد الكاتب هذا الموقف.

دُهشَ السجناء لهذه الأخبار، فصاحوا بصوتٍ واحد تعبيراً عن دهشتهم:

- خووووود!

لم يتمالك الهمركار نفسه فشاركهم في تلك ال- «خووود!»، فصفَعَهُ النحات «طيارة» على رقبته وقال له:

- تابع شغلك ولاك، لا تفتح فمك!

ظهر النص نصيص في أول الممر وهو ينفخ في صفارتهِ ويصرخ بالسجناء:

- إلى الداخل.. إلى الداااخل!

لقد كان النص نصيص هذا يشعر بسعادة كبيرة عندما يصرخ بالسجناء: «إلى

الداخل!» أكثر من كونه يؤدي واجباً. كان يُسْعِدُهُ الوقوفُ على أصابع قدميه عندما يطلق صُفَّرتَهُ أو صيحة «إلى الداخل!» في محاولة منه لإطالة قامتهِ، ونَفْخُهُ لجسده الملتوي الأعوج، واحناؤهُ لرأسه غير المتاسق جانباً، ومحاولته النظر من عَلٍ حتى إلى السجناء ذوي القامات الطويلة. فهو يحشر كل ذلك العدد من السجناء داخل مهاجعهم بإطلاق صفارته والصياح والصراخ. فهل ثمة سعادة أكبر من هذه بالنسبة له؟!

كان يشار يشامز آخر الداخلين إلى الممر، وقد تسلل ماراً بجوار النص نصيص ودخل مهجعهُ، حيث جلسَ على سريره. رآه نزلاء المهجع حزيناً، فلم يسأله أحدٌ منهم لماذا لم يتم قبوله في إحدى الورشات.

انتهى السجناء من تناول طعام العشاء، وخيم ذلك الصمت المُتوتِّر لساعات أول المساء.

كان هذا الصمت يتمزق مثل ورقة بأصوات أولئك الذين يصرخون ويصيحون أو يدندنون أغانٍ مرغمين أنفسهم على ذلك ليبددوا ذلك الجو الثقيل.

قال سجين كان أصدقاؤه يعتبرونه أكبر اللصوص من أصحاب السوابق، مخاطباً يشار:

- لاتهتم يا بنيّ... إذا أغلق الله باباً، فإنه يفتح آخر...

- آه يا أخي، لا باب يُفْتَح أمامي سوى باب السجن...

قال أكبر نزلاء المهجع سناً:

- كن منصفاً، فقد انفتح أمامك كذلك باب مشفى المجانين.

فضحك الجميع وتبدد ذلك الصمت الخانق.

وَزَع الأوجقجي شايه المخمر بلون دم الأرانب في الكؤوس ذات الخصور الأنثوية، واشتعلتَ السجائر، فبدأ يشار يحكي:

- لقد مرضْتُ يا اخوتي مرضاً وخيماً ولا أعرف إذا كان ذلك بسبب الحزن، أم أن هموم الداخل قد انعكست خارجاً، أم أنني أخذت برداً في غرفة الفندق الباردة كثلاجة في ذلك البرد الشتائي.

قال الملطزجي:

- حذار أن تموت ولاك يشار. وإلا فإنهم لن يدفنوك لأنك لا تملك بطاقة شخصية،

فتتجرجر جيفتك هنا وهناك.

- معك حق يا صديق، طبعاً لن أموت. لن نموت قبل الحصول على البطاقة الشخصية إن شاء الله.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك أصبحت طريح الفراش حيث بقيت أسبوعاً بلا وعي. وحين استعدتُ رشدي لم تكن بي القدرة على تحريك إصبع من أصابعي، وشيء آخر: مددتُ يدي إلى رأسي، فوجدتُ فيها كتلة من شعري الذي راح يتساقط. إذن فقد أصاب المرض شعري، إذا استمر الحال هكذا سيتساقط كل شعري ويتعرى رأسي تماماً.

ثم تسلط عليَّ بعد ذلك المرض عُطاسٌ لا مثيل له، فبتُ لا أتحمل ريحاً أو تيار هواء، بحيث أن أخف نسمة أصبحت تستثير عندي سلسلة من العطسات، ويالها من عطسات، أبعدها الله عنكم.إذا عطست دخل الحابل بالنابل، فإذا كنتُ داخل غرفة سُمِعَتْ عطستي في الشارع..لا أعرف كيف أحكي لكم عن المصيبة التي ابتليتُ بها.

أنا في غرفة مغلقة من كل الجهات، البابُ مُغلَقٌ والستائر مسدلة، فإذا حدث وتسلل الهواء من ثقب بقدر خرم إبرة، بدأت بالعطس، وإذا استبدتْ بي نوبة عطاس، انتهيت.. حمداً لك ياربي، ذلك أنَّ الناس الطيبين لم ينتهوا بعد عن بكرة أبيهم في هذا البلد. صديق طيب القلب من نزلاء الفندق عالج رأسي ببعض الأدوية التي وإن لم توقف تساقط شعري، إلا أنها قَلَّلَتْ منه. فقد استمر في التساقط ولكن ليس بمقدار قبضات كما في السابق.

قال لي ذلك الصديق الذي قلل من تساقط شعري بالأدوية:

«عليك أن ترتدي قبعة وتحتفظ برأسك دافئاً حتى تنجو من هذا العُطاس. كما أن ذلك سيقلل أيضاً من تساقط شعرك.»

اشتريت كاسكيتاً صُنِعَ من قماش سميك وضعتُهُ على رأسي. بالفعل قَلَّ عطسي بعد ارتدائي للكاسكيت، وكذلك تراجع تساقط شعري. لكن المشكلة أنني لم أعد أستطيع رفع الكاسكيت عن رأسي، فما إن أفعل حتى تداهمني نوبة عطاس لا تتوقف.

حين تراجع المرض وبدأت أقف على قدمي وأمشي، بدأتُ أبحث عن عمل. ولأنني أعرف أنني لن أجد عملاً ما دمت لا أملك بطاقة شخصية، فقد كنتُ راضياً أن

يستخدمني فاعل خير مقابل طعامي، ومهما كان العمل.

بالرغم من كل شيء فإن أولاد البلد يبقون نافعين بعضهم لبعض. فقد اهتديتُ إلى واحد من أولاد البلد يعمل في البناء، وطلبت منه أن يتحدث إلى رب عمله ليشغلني، مضيفاً بأنني مستعد لحمل الإسمنت والرمل والبحص، ولخلط الطينة. وعندما تحدَّث إلى رب عمله، قال هذا:

«يأتي إلى هنا الفلتانون والفارون من السجون، فيختبئون داخل البناء من أعين الشرطة، فأتورط في مشكلة مع الشرطة. لذلك على ابن بلدك أن يُحضر بطاقتهُ الشخصية وشهادة حسن سلوك حتى أُشَغِّلَهُ.»

أريد أن أحمل الرمل والبحص على ظهري، فيطالبونني أيضاً ببطاقة شخصية. أخبرني ابن البلد عندئذٍ بأن واحداً آخر من أبناء البلد يعمل بواباً في إحدى دوائر الدولة، وطلب مني أن أقصده وأشرح له وضعي لعله يتمكن من تشغيلي في تلك الدائرة.

قلت له: «إنه مجرد بواب مسكين، كيف له أن يجد لي عملاً!»

ضحك ابن البلد وقال لي:

«عليك ألاَّ تستخف بالبوابين. ففي أمور من هذا النوع، يكون البواب أهم من الموظف، بل ومن المدير أيضاً. ذلك أن الدخل الشهري للبواب أعلى من دخل المدير»،

«وما الذي أسمع؟! هل يمكن لراتب بوّاب أن يكون أعلى من راتب المدير؟!».

«يمكن... أنت لا تعرف شيئاً عما يدور في هذا العالم.. عندما يقصد أحد المواطنين دائرة حكومية لمصلحة تخصه، فمن يقابل أولاً: المدير أم بوابه؟».

«بوابَهُ..»

«إذن؟ ألم تفهم بعد؟ ها أنت تنظر إليَّ ببلاهة. لا بد أن لدى الموظف أو المدير ما يطلبانه من المواطن لقاءَ إنجاز ما جاء من أجله، أليس كذلك؟ بالطبع لديهما ما يطلبانه. ولكن هل يتنازل المدير وهو في عليائه، فيطلب ما يريد أن يطلبه، من المواطن مباشرة بنفسه؟ لن يطلب. لماذا؟ لأن ذلك لا يليق بمكانته. ولماذا نَصَبَتْ الدولة بواباً أمام غرفته؟ لمجرد أن يرسله المدير في طلب القهوة والشاي؟ لو كان هذا هو السبب لا ستخدم الجرس الذي تحت يده، وينطبق هذا على الموظف أيضاً. يكفي أن يضغطا على زر الجرس فيأتي عامل البوفيه، فيطلبان ما يريدان شربه منه مباشرة. إذن ثمة سبب آخر

لنصبهم بواباً على باب كل موظف ومدير. ألم تفهم بعد يا أبله؟ إن البواب يطلب من المواطن ما يريده الموظف أو المدير، بحيث يتم الأمر كما لو أن المذكورين لا علم لهما به فالبواب يأخذ ما يريد من المواطن، ويعطي بالطبع شيئاً منه للموظف أو المدير. أليس كذلك؟ أما المواطن فهو يعطي ما يعطيه طواعيةً وبسرور لتيسير أموره وإنجازها بسرعة.»

حين وصل يشار بحكايته إلى تلك النقطة قال أكبر النزلاء سناً:

-رضاء الله على نظامي بيك قرة قبلي.

وتابع يشار حكايته:

-إذن وجَّهني لأذهب إلى ذلك البواب من أبناء بلدنا، وقال إن بوسعه أن يجد لي عملاً عنده، إذا أراد ذلك، لماذا؟ لأن المدير وموظفيه مدينون له إلى هذا الحد أو ذاك، فهم مستعدون من أجل ذلك لتلبية ما يطلبه منهم البواب. كما أخبرني أن البواب المذكور يعرف حدوده، فيأخذ حصتهُ الخاصة بما يتوافق مع تلك الحدود، ولو أنه حاول أن يتذاكى فأخذ أكثر من حصتِه لكانوا طردوه فوراً واستخدموا واحداً آخر في مكانه.. لماذا أخفي عليكم ما يعرفهُ الله؟ لقد صليت لربي لكي أحظى بوظيفة مماثلة، فأعمل بواباً أمام غرفة مدير دؤوب في دائرة حكومية مزدحمة بالعمل. لقد نصحني ابن بلدي ألا أتصرف كبواب بتذاك ولا بجشع وإلا أحسَّ الموظف الذي تعمل عنده وطردك من الوظيفة. كيف يُحسّ؟ إنه رجل واظب على المدرسة سنوات طويلة واهتلك كوعاه على مقاعدها، فكيف لا يحس بأن الحصة التي تصله قليلة. أعطاني ابن البلد الذي يعمل في البناء عنوان الدائرة التي يعمل فيها جارنا، فشكرته وانصرفت، لكنه ناداني قائلاً:

«انتظر لحظة.. لا يصح أن تذهب وعلى رأسك هذا الكاسكيت الرديء!».

«لماذا»؟

«لأن أحداً لن ينظر في وجهك».

«أواه إذن! إذا خلعتُ هذا الكاسكيت فإنني أعطس رشاً مثل المدفع المضاد للطائرات.. عندما أصل إلى الدائرة سأرفعها عن رأسي وأحتفظ بها في يدي.»

«لا جدوى من ذلك».

«لماذا»؟

«يجب أن يروا فوق رأسك قبعَة فوتر من النوع الجيد، حتى ينظروا إليك باحترام ... أعني على منوال عباءة جحا.. في هذا الزمان لا أحد يرتدي العباءة، لكن القبعة هي التي تشير إلى مكانة الرجل عليك أن تضحي بالنقود فتشتري قبعة جميلة.. خذ هذه النقود، وسوف تعيدها لي حينما تشتغل. اذهب أولاً للحصول على قبعة تضعها على رأسك، واذهب بعد ذلك إلى الدائرة. إذا ذهبتَ وعلى رأسك كاسكيت بائعي الكعك هذا، فإنهم لن يسمحوا لك بإلقاء نظرة داخل الدائرة الحكومية.»

أخذت منه النقود وذهبت مباشرة إلى حيث محلات بيع القبعات، حيث رحتُ أشاهد القبعات في الواجهات الزجاجية ولم أجرؤ على أن أخطو خطوة واحدة داخل المحلات. فبعد أن رأيت أسعار القبعات في الواجهات، عرفتُ أنه لا جدوى من دخولي فالنقود التي أعطانيها ابن البلد لا تكفي لشراء أرخص القبعات. وإذا بعتموني فلن يعادل ثمني ثمن قبعة. نعم، وجدتُ القبعات بهذا الغلاء. لكن الطريف في الأمر أنني كنتُ عاجزاً أيضاً عن الابتعاد من أمام الواجهات، ففيها قبعات جميلة جداً. وبدأت أختار ما يعجبني وأضعها على رأسي واحدة بعد أخرى، أقصد أنني رحتُ أتخيل نفسي وأنا أرتدي تلك القبعات، فأتخيل أنني أمُدُّ يدي من خلال زجاج الواجهات، وألتقط القبعة التي تعجبني فأضعها فوق رأسي. هذه غير ملائمة، ألقي بها وألتقط تلك الأخرى. هه، هذه أكثر ملائمة. أُبدل القُبعات وأشاهد نفسي على زجاج الواجهة كما لو كانت مرآة، فأدور مرة إلى اليمن ومرة إلى اليسار. إن ابن بلدي على حق. فبوسعك أن تصحبني إلى أية دائرة حكومية تشاء، وتنصبني مديراً عليها، بإحدى هذه القبعات على رأسي، ومن يراني سوف يخاطبني ب- «يشار بيك». لو أنني لم أشعر بالجوع، لما فارقتُ تلك الواجهات. إلى هذا الحد طابت لي مشاهدة القبعات. وكيف لا يا عزيزي... فلم أعرف إلى حينه أنني وسيم إلى ذلك الحد. إن رجولة المرء تظهرها القبعة. ذهبتُ إلى بائع الكفتة الذي يشوي الكفتة على عربة يد بواجهة زجاجية وطلبتُ منه وجبة ونصف مع الكثير من البصل.

دفعتُ للبائع جزءا صغيراً من النقود التي أعطانيها ابن البلد لأشتري بها قُبعة، وأكلت حتى الشبع. عليك أن ترتدي قُبعة فوتر وبطنك شبعان، وعند ذلك ستصبح رجلاً مرموقاً.

ذهبت مباشرة إلى سوق الملابس المستعملة، وياله من سوق! يبيعون فيه ليس الملابس المستعملة فقط، بل كل شيء، حيث لا وجود لكلمة «غير موجود». ستجد هنالك ما تعرفه

وما لا تعرفه من أشياء، لكنها جميعاً مستعملة. أكياس مستعملة للهنود، أعني ما تلبسه النساء.. أسنان اصطناعية مستعملة، عكازات من النوع الذي يتأبطها العرجى. إذا سألت عن النساء فإنهم يبيعون النساء أيضاً هناك، لكنهنَّ مستعملات بكثرة. بدأت أبحث عن قُبَّعة، ووجدتُ قبعات فوتر جميلة جداً، لكن نقودي لا تكفي لشراء واحدة. أخيراً وجدت قُبعة طلبَ البائع ثمناً لها ضُعفي ما في جيبي من نقود، لكنني فكرتُ بأنه بإمكاني أن أشتريها بثلث سعرها إن شاء الله، إذا ساوَمْتُ بإلحاح. القُبعة جميلة جداً لولا عيب واحد هو أنها كبيرة جداً على رأسي، فعندما أرتديها على رأسي تصل حتى عنقي، أردتُ شراءها بالرغم من كبر قياسها، لأنها بضاعة جيدة. بل إن كبرها أمرٌ لصالحي، لأنه سيكون ذريعة لي تساعد في كسر سعرها. قلتُ للبائع إنها كبيرة على رأسي، فقال: «ليست كبيرة أبداً. إنها من مقاس رأسك بالضبط».

«لكنها تصل حتى عنقي.. أقول لك بأنها كبيرة...»

التفت البائع إلى الناس المزدحمين قربه وسألهم بصوت مرتفع:

«كرمى لله اشهدوا أيها المواطنون: هل هذه القبعة كبيرة على رأس هذا الرجل؟» لقد كان أولئك الناس زملاء للبائع، لذلك فقد أجابوا متضامنين مع رأيه:

«إنها ملائمة تماماً لرأسه، وكم هي جميلة على رأسه»

لم أكن قادراً على رؤيتهم لأن القبعة التي على رأسي غطت حتى ذقني وحجبت عيني، فقلتُ لهم:

«تقولون إنها جيدة لكن عيني اخْتَفَتَا داخل القُبعة، وأنا لا أرى شيئاً.»

فقال أحد الوقحين:

«ولِمَ تريد أن ترى ولاك.. ما النفع في أن ترى؟ هل ثمة خراء يستحق الرؤية في هذا العالم؟»

انفجرت الضحكات في أرض السوق. رفعتُ القبعة عن رأسي، فاقترب مني أحد الواقفين وهمس في أذني بود:

«لا تدع هذه القبعة تضيع منك، فهي بضاعة جيدة.»

«لا اعتراض لي على جودة البضاعة، لكن عيني تختفيان داخل القبعة».

فقال لي بصوت مرتفع:

«افتح فيها ثقبين لترى من خلالهما».

انفجرت ضحكات أخرى. واضح أنهم يهزؤون بي. قال البائع:

«هذه القبعة صناعة إيطالية أصلية، ليس ثمة ما يفوقها جودةً. إذا دفعتَ خمس مئة ليرة في هذه الأيام فلن تحصل على قُبعة مماثلة. اشتر هذه القبعة وستدعو الله من أجلي.»

دعكم من الإطالة، ولأختصر: اشتريتُ القُبعة بعد مساومة ساخنة ومتعبة، ثم وضعتها على رأسي ورحتُ أنظر إلى واجهات المحلات الزجاجية لأرى كيف أبدو بالقبعة على رأسي، وأنا أصطدم بالمارة على الرصيف، فوجدت أن القُبعة تبدو ملائمة بالفعل آهٍ لو لم تكن بهذا الحجم...

اصطدمتُ بأحد المارة، فقلت له معتذراً:

«القبعة كبيرة، كبيرة جداً.»

فقال أحد المارة:

«القبعة ليست كبيرة، بل رأسك هو الصغير.»

ارتديت القبعة دافعاً بها إلى الخلف حتى لا تصل إلى عنقي، بحيث أنها باتت تغطي رقبتي. وأنا أمشي في طريقي وأشاهد نفسي في الواجهات الزجاجية والقبعة تغطي رقبتي، وإذا بالريح تقتلع القبعة من فوق رأسي طارت القبعة وارتفعت وراحتْ تبتعد. ولسوء الحظ فإن الشارع مزدحم بالسيارات المسرعة. ركضت خلف القبعة.. تفوووه سوف تدهسُني إحدى السيارات فأخسر حياتي وأنا ألاحق القبعة... ليكن.. علي أن أمسك بها.. حَطتْ القبَّعة على الأرض وراحت تتدحرج. ركضت إليها، وصلت ومددتُ يدي لأمسك بها.. آه أيتها القبعة السافلة! وكأنها كائن حي ويريد أن يتلاعب بي... فهي تبقى ساكنة إلى حين أمُدُّ يدي إليها، فتقفز فجأة وتبتعد... في اللحظة التي أمد يدي تطير مبتعدة.. وكل أولئك الناس في الشارع تركوا أعمالهم ومشاغلهم، توقفوا عن متابعة طريقهم ليتفرجوا علي، والجميع يضحك. وكأن داخل القبعة جني.. ثمة امرأة كانت تضحك أكثر من الجميع وكادتْ تفقد وعيها لشدة الضحك.. يقال إن المال شقيق الروح، ما أصح ذلك! فيما قُبعتي تطير في الهواء مثل عصفور بلا جناحين، وتهرب مني مثل كائن حيٍّ كي لا أمسك بها، وإذ بسيارة مسرعة تدهسها تحت عجلاتها! شعرتُ فجأة

وكأن قطة أو كلباً انسحقا تحت العجلات، بدا لي وكأن القبعة كائن حي، فألقيتُ بنفسي تحت العجلات مخاطراً بحياتي. مرَّتْ السيارة وابتعدتْ، في حيْن التصقت قبعتي بالأرض وهي مجعدة ومسحوقه. قلتُ لنفسي إنها باتت في حال لا تسمح لها بالطيران والفرار، فمددتُ يدي، وفي اللحظة التي كدتُ أمسك بها أفلتتْ من بين أصابعي وطارتْ مثل نورس وحَطتْ فوق رامة ماء! لا أدري كيف قفزتُ فوقها وبأي اندفاع، لكنني أمسكتُ بها وغطستُ في الماء ولطخني الوحل. المهم أنني أمسكتُ بالقبعة. كان الجميع يضحكون عليَّ، فقمتُ بدورة وراء الشارع حتى وصلتُ إلى مكان مقفر حيث عصرتُ القبعة وجففتها، ثم قولبتها بيدي ووضعتها على رأسي. بدا لي أن لها نوايا سيئة، تريد أن تطير من فوق رأسي..فكما أن السروال لا يثبت على مكان لم يعتد عليه، كذلك فإن القُبعة لا تثبت على رأس لم تعتد عليه. ومعها كل الحق، فكيف لقبعة بهذا الحجم أن تثبت على رأسي الصغير؟... رأيت جريدة تتطاير في الشارع، التقطتها فطويتها بصورة ملائمة و حشرتها داخل البطانة الجلدية للقبعة بشكل دائري..هه! يا سلام!... الحمد لله أنها لم تعد تصل حتى ذقني. حشرتُ أيضاً إحدى صوري التي أحتفظ بها في جيبي، داخل البطانة حتى إذا حدث وأضعتها أو نسيتها في مكان ما، فإن من سيعثر عليها يمكن أن يهتدي إلى صاحبها بوساطة الصورة. ارتديت القُبعة، فوجدت أنها أصبحت تنزل فوق رأسي بارتياح، فهي إذن لن تطير بعد الآن. بالرغم من ذلك أمسكت القبعة بإحدى يدي من باب الاحتياط، لأنني لم أتخلص من الخوف أما إذا عَصَفَتْ الريح بقوة فكنت أمسكُ بها بكلتي يديَّ.

اهتديت إلى الدائرة التي يعمل فيها ابن البلد بواباً، بسؤال الناس في الطريق وأنا أمسك بالقبعة التي فوق رأسي بيدي الاثنتين. دخلتُ الدائرة وبحثتُ عن ابن البلد من غير أن أسال أحداً، لكنني لم أره في أي مكان رأيتُ باباً يدخل الناس منه ويخرجون بكثرة، فأردت أن أدخل وألقي نظرة. في تلك اللحظة صرخ بي رجل يقتعد كرسياً بجانب الباب ويفتل شاربيه –لابد وأنه بوَّاب– فقال:

«إلى أين؟»

كل هؤلاء الناس يدخلون ويخرجون، فيختارني من بين الجميع ليسألني وحدي.

قلتُ له:

«ثمة شخص من البلد يشتغل هنا، إني أبحث عنه.»

قال من غير أن ينظر إليَّ، متوجهاً وجهة أخرى:

«أين نحن؟ إننا في دائرة رسمية.»

«أعرف.»

قال محتفظاً بوجهه بعيداً عني:

«لا تعرف.. لو أنك تعرف، لكنت خلعت قبعتك وأنت تتحدث إليَّ. هيا اخلع قبعتك وادخل!»

«من الأفضل أن تبقى على رأسي.»

«لا يمكنها أن تبقى!»

«لتبق، فهي لا تضرني في شيء.»

«قلنا لا يجوز! لا أحد يدخل دائرة رسمية من دوائر الدولة وعلى رأسه قُبعة. أيُّها البدائي! ارفعها عن رأسك وعَلقها على هذا المشجب!»

قلتُ كأنما بفعل حدس:

«ماذا لو ضاعتْ أو أخذها أحد ما؟»

«ماذا تعني! في أي مكان نحن؟ إنه دائرة من دوائر الدولة.. لن يأخذها أحد ولو كانت ذهباً.... ومن الذي سيتنازل إلى مستوى قُبَّعتك الرديئة؟»

رفعتُ القبعة عن رأسي على مضض وعلقتُها على المشجب المستند إلى جدار الممر وراء الباب، ثم دخلتُ فلم أر أحداً يشبه ابن البلد. صدقوني يا شباب إذا قلتُ لكم إنه لم يمض دقيقتان بين دخولي وخروجي من ذلك الباب. عندما خرجت مددتُ يدي إلى حيث علقْتُ القبعة من غير أن أنظر في ذلك الاتجاه —فقبعتي هناك على كل حال!— لكن يدي لامَسَتْ قضيب المشجب.. قُبعتي ليست هناك! رحت أصرخ وأصرخ:

«قبعتي!! قبعتي!»

البواب ما يزال يفتل شاربيه. سألني دون أن تهتز له شعرة:

«ما بها قُبعتك؟»

«ألم أُعلق قُبعتي على هذا المشجب قبل دقيقة واحدة أمام عينيك يا عزيزي؟ لقد رأيتني أُعلقها، وقد دخلتُ وخرجت فوراً، فلم أجد قُبعتي. أين هي إذن؟»

«وهل أنا ناطور لقبعتك؟!»

«بالطبع لست كذلك.. لكنك طلبت مني أن أخلعها وأُعلقها، ففعلتُ. لا بد وأنك رأيت من أخذها... أرجوك أخبرني... ترى هل أراد أحد أن يمازحني؟ لقد اشتريتها اليوم.. أي مُزاح هذا! أرجوك قُبعتي...»

«لا تواصل صراخك! هذه دائرة رسمية.. ولا أحد يمكن أن يسرق قُبعتك الرديئة.»

«إذا كان الأمر كذلك فأين هي إذن؟ لم تَطِرْ في الهواء بالتأكيد..»

رحت أدور في الممر وأنا أصرخ:

«وضاعتْ قُبعتي الجميلة.. لقد كانت صناعة إيطالية.. بضاعة إيطالية أصلية.. لا يمكن شراؤها ولا بخمس مئة ليرة في هذه الأيام... هل من أحد رأى قُبعتي؟»

اندفع فتى من بين الناس المتزاحمين في الممر وقال:

«أنا رأيتها.»

«أين يا صاحبي؟»

«رأيتها قبل قليل على الموقف، استقلت الباص وذهبت.»

راحوا يضحكون على تعليق الشاب، فلا أحد منهم لديه ما ينشغل به.

«إنها قُبعة جديدة في منتهى الجدة أيها المواطنون.. لم أرغب بخلعها، فأرغمني البواب على ذلك.. علَّقتُها على هذا المشجب.»

قال شخص آخر:

«هذه دائرة رسمية لا يضيع فيها أي شيء!»

فرد عليه آخر:

«نعم لا يضيع شيء، ولكن إذا فتشت فلن تجد ما تبحث عنه!»

كنتُ أدور وأتلفت بحثاً عن القبعة عندما سألني شخص يبدو من ثيابه أنه مستخدم:

«هل قبعتك خضراء؟»

«نعم خضراء.. خضراء مثل رأس بطة.»

«مُوبرة؟»

«نعم موبرة.. وَبَرُها طري مثل وبر الأرانب.»

«أهي قبعة كبيرة؟»

«نعم، إنها هي بالضبط.. أين هي؟»

«وهل شريطتُها سوداء؟»

«نعم، سوداء. كف عن وصفها وأخبرني أين هي؟»

قال ذلك الرجل الذي صرح قبل قليل بأن شيئاً لا يضيع قط في دائرة رسمية ، بعد أن سمع وصف المستخدم لقُبعتي:

«هل رأيت؟ ألم أقل لك بأن شيئاً لا يضيع قط في دائرة رسمية؟»

استمر المستخدم في طرح أسئلته عليَّ:

«هل طرفاها محنيان إلى الأعلى؟»

وصلت العبارة إلى طرف لساني، فأردت أن أقول له: «إنها عكازة أمكّ» لكني لم أقل شيئاً خشية أن يستاء فيمتنع عن إعلامي بمكان القبعة.

«نعم طرفاها محنيان.»

«محنيان إلى الأعلى، أليس كذلك؟»

«نعم ولاك، إلى الأعلى»

«وفيها ثقبان للتهوية على الجانبين؟»

أردت أن أبدأ بالثقوب فلا أترك له أُماً أو أختاً أو زوجة، إلا وأسبهن جميعاً، لكني ضبطت نفسي بصعوبة:

«لا حول ولا قوة إلا بالله! إني سأنفجر من غيظي.. إن تلك القُبعة هي قبعتي يا أخي.. قل لي أين هي.»

«إذن هي قُبعتُك؟»

«حمداً لله أنك فهمت.»

«لقد ظننتُ أن أحداً نسيها على المشجب وذهب من هنا.»

«ايه؟»

«أخذتها وسلمتُها لوجدي بيك.»

«ومن يكون وجدي بيك؟»

«وجدي بيك موظف في القسم الثاني.. مسؤول عن الأشياء المفقودة وتلك التي يتم العثور عليها.»

اندفعت داخل الغرفة التي دلني عليها المستخدم، رأيت فتيات جميلات يكتبن على الآلة الكاتبة كما لو كن يَفْقُسْنَ بأصابعهنَّ ويَرْقُصْنَ. اتجهت إلى أحد الرجال وقلتُ له:

«إني أبحث عن وجدي بيك.»

«إنه أنا. ماذا تريد؟»

«أحد المستخدمين في هذه الدائرة عثر على قُبعتي وجاء بها إليكم.»

توتر ذلك الوجدي بيك بصورة مُفاجئة وراح يصرخ:

«كأنه لا عمل لدينا، فتنسون قُبعتكم هنا وهناك لتشغلونا بها»

التفت إلى إحدى الفتيات ممن يكتبن على الآلات الكاتبة وقال لها: «ماذا حدث بشأن الأوراق التي تخص القبعة التي تم العثور عليها؟ فقد أمليتُ عليك الموضوع قبل قليل.»

أجابت فتاة الآلة الكاتبة:

«لقد أرسلتها إلى الديوان يا سيدي ليتم تسجيلها.»

«أواه! إلى أين؟ إلى أين؟»

قال المدعو وجدي بيك صارخاً:

«عجزت عن المحافظة على قبعتك.. إنها قبعة تم العثور عليها على المشجب في الممر.. لقد نظمنا الأوراق الخاصة بها ورحلناها!»

«ماذا سأفعل الآن؟»

سأل وجدي بيك فتاة الآلة الكاتبة:

«أين هي مسودة الأوراق التي نظمناها؟ ابحثي عنها!»

راحت الفتاة تنقب وتضطرب بين الأوراق والأضابير مثل دجاجة تنقب في مزبلة فوجدت بعد ربع ساعة ورقة مكتوبة أعطتها لوجدي بيك الذي قال لي:

«سأقرأ عليك المسودة. افتح أذنيك واسمع جيداً!» ثم بدأ يقرأ:

«الموضوع باختصار: قبعة تم العثور عليها على المشجب في الممر، لونها أخضر غامق، لها وَبَر طويل، مستعملة كثيراً..»

قاطعته معترضاً:

«ليست مستعملة إلى هذا الحد، بل يمكن اعتبارها جديدة.»

تابع الرجل قراءته:

«مستعملة كثيراً، وسخة وعتيقة، بشريطة سوداء وثقبين للتهوية على جانبها الأيسر يتعلق الموضوع بقبعة لا صاحب لها.»

«ما أجمل ما أمليتم من كتابة، سلم فمكم.. الحمد لله أننا عثرنا على الأوراق، لو أننا نعثر الآن على القبعة أيضاً، بعون الله..»

قالت فتاة الآلة الكاتبة:

«ثبتنا أصل هذه الورقة على القبعة بدبوس وأرسلناهما إلى الديوان. انزل إلى الطابق الأرضي، امش بصورة مستقيمة حتى تجد أمامك باباً كبيراً، أدخل منه، الباب الثالث على اليسار هو باب غرفة الديوان. ستجدها هناك.»

«أكثر الله خيرك يا سيدي»

أسرعت إلى الغرفة التي دلتني عليها، دخلت فلم أجد أحداً في الداخل. أمامي تله كبيرة من الأوراق والأضابير مكومة فوق بعضها البعض. كنتُ في سبيلي إلى الخروج لولا أنني سمعتُ سعالاً تحت تلك التلة. سمعتُ السعال، لكن أحداً لم يظهر. «أما من أحد هنا؟»

تحركت الأوراق المكومة ، ثم سمعتُ صوتاً يقول:

«ماذا تريد؟»

أخيراً رأيت رأساً صلعاء تبرز من تحت تلك الأوراق:

«أواه يا سيدي! لقد أرسلوا لكم الأوراق الخاصة بقبعتي. وقد ثبتوا الأوراق بدبوس على قبعتي التي هي بضاعة إيطالية أصيلة.. أكان من الضروري أن يثبتوها بدبوس!..»

«ما هو الرقم؟»

«الله وحده يعلم كم هي النمرة* ... لعلها تسعة وخمسين...»

فأعاد عليَّ السؤال:

«كم رقمها؟»

«تسعة وخمسين..»

راح الموظف الأصلع يقلب كومة الأوراق وهو يُردد: «تسعة وخمسين.. تسعة وخمسين ...» ثم قال:

«حذار من الخطأ..»

«ولعلها ستين.»

فصرخ بي قائلاً:

«قل رقماً محدداً، تسعة وخمسين أم ستين؟»

أخافني بصراخه،فقلت:

«إذن واحد وستون.»

قلت ذلك متذكراً أن القبعة كانت كبيرة جداً على رأسي.

تابع الموظف العجوز تنقيبه في كومة الأوراق المتراكمة أمامه وهو يردد:

«واحد ستين.. واحد وستين...»

ثم سحب إحدى الأوراق وقال بابتهاج: «هه!» ثم قرأ ما فيها:

«خلاصة الموضوع: بخصوص تأخير ترقيتي الوظيفية لأسباب سياسية، وتغيير مكان عملي بصورة تعسفية».

ثم رفع رأسه عن الورقة وسألني:

«أهذه هي معاملتك؟»

«لا يا سيدي، إن موضوعي يتعلق بالقبعة.»

«لقد قلت لي إن رقم معاملتك هو واحد وستون. هذه هي الرقم واحد وستون!»

---

* الموظف يسأل عن رقم المعاملة، في حين يتحدث يشار عن مقاس القبعة. كلمة "نمرة" تعني الرقم والمقاس.

«اعذرني يا سيدي ... وما أدراني برقم المعاملة؟ لقد ظننت أنكم تسألونني عن مقاس القُبعة.»

أمضى فترة أخرى في لخطبة تلك الأوراق حتى أصبحت في فوضى كاملة،لكنه وجد الورقة المطلوبة أخيراً:

«هاهي: أنت محظوظ..» قرأ محتوياتها: «خلاصة الموضوع: قُبعة ذات لون أخضر غامق تمَّ العثور عليها على المشجب في الممر...»

قاطعتُه حتى لا يكمل:

«نعم، إنها قُبعتي..»

لكنه تابع القراءة مع ذلك:

«ذات وَبَر طويل، مستعملة كثيراً..»

«ليستْ مستعملة إلى هذا الحد، بل يمكن اعتبارها جديدة.»

بأي حق يعلنون على الملأ أن قُبعتي مستعملة كثيراً؟ لم يبق أحد إلا وعرف. ولكنهُ تابع قراءة الورقة:

«... مستعملة كثيراً، وسخة وعتيقة..»

لم أعد أحتمل، فصرختُ:

«سواءً أكانت وسخة أو قذرة، ما علاقتكم بقُبعتي! أعطوني قبعتي لأذهب!»

«لقد أرسلنا تلك القُبعة إلى مدير الدائرة.»

«لكن القُبعة ليستْ لمدير الدائرة، بل هي لي، فلماذا أرسلتموها إليه؟»

«هكذا هي الأصول. إن الأشياء الضائعة تُرسل إليه، فيُسلمها بدوره إلى المستودع.»

فصرخت قائلاً:

«أوااااه! المشكلة أنه ليس لدي معارف بين الشخصيات المهمة، حتى يسحب قُبعتي من الدائرة الحكومية التي استولتْ عليها، حتى أرتديها مجدداً.»

خرجت من تلك الغرفة،صعدتُ إلى الطابق العلوي بحثاً عن مدير الدائرة، شعرتُ بالتعب فجلستُ على مقعد خشبي بجوار امرأة مُسنة امتلأ حجرها بأوراق مكتوبة. سألتني:

«ماهي مشكلتك يا بني؟»

«لقد علقتُ قُبعتي على ذلك المشجب هناك، فتلاشت واختفت في غمضة عين ظن واحد من المستخدمين أنها ليست لأحد، فأعطاها لموظف يدعى وجدي بيك الذي أحالها بدوره إلى الديوان. ومن هناك أرسلوها إلى القسم الثاني فإلى السجلات، ثم إلى مدير الدائرة...»

قاطعتني المرأة وسألتني بدهشة:

«ما شاء الله..ما شاء الله.. كم احتجت من الوقت لإنجاز معاملة بهذا الطول؟»

«نصف ساعة أو أقل...»

«آه، كم أنت محظوظ.. كم أنت محظوظ.. أما أنا فمنذ شهرين وأنا آتي وأذهب، آتجرجر من غرفة إلى غرفة، ولكنني لم أتمكن من نقل معاملتي من غرفة إلى الغرفة المجاورة لها.» ثم أضافت قائلة: «إنهم ينجزون معاملة من يشاءون على الفور. إما أنك حركت وساطة رفيعة المقام ، أو أنك وجدت طريقة ما...»

«آه يا خالة، لست على جهل بهذه الدوائر الرسمية. ليستْ لدي أية وساطة ولا رشوت أحداً. لو أن المعاملة تتعلق بأمر ذي نفع لي، لما انتقلت من طاولة إلى أخرى في ستة أسابيع ومن غرفة إلى أخرى في ستة أشهر، تماماً مثل معاملتك.. أما وأنها ذات ضرر لي، فقد آنجزوا جميع الإجراءات في ست دقائق، وأنا أركض وراءها، فلا أتمكن من اللحاق بها لأمسك بقبعتي.»

أخيراً اهتديتُ إلى مدير الدائرة بمشيئة الله، وبعد أن ركضتُ هنا وهناك قلت له:

«المعذرة يا سيدي.. كانت لي قُبعة..»

«وما علاقتي بقبعتك هل هذا المكان فستيير*؟»

«لا... أعني.. إن قبعتي خضراء غامقة.. لها ثقبان جانبيان للتهوية،صناعة إيطالية خالصة..»

قاطعني وقال وهو يهز رأسه يمينا وشمالاً:

«واعجبي! إن كل المجانين يأتون إلي فأبتلي بهم...»

---

* الفستيير: غرفة صغيرة تترك فيها المعاطف والقبعات وما إلى ذلك، في المطاعم او المسارح.. إلخ.

«سيدي، إن قبعتي مع الأوراق الخاصة بها...»

لم يتركني أكمل كلامي، قال:

«هه! المعاملة المتعلقة بالقبعة ذات اللون الأخضر..»

«نعم»

«لقد تراكمت تلك الأوراق فأصبحت كدسة، فقمنا بترتيبها وفقاً لتاريخ كل منها ثم جمعناها في إضبارة ثبتناها إلى القُبعة بدبوس..»

«دخيلك أين هي؟ أريد قُبعتي»

«أحلناها إلى الجهة التي تعود إليها.»

«ولِمَ كل هذه العَجُلة؟»

«عمل المعروف خسارة فيكم. من جهة يتبرمون من بطء الإجراءات في الدوائر الرسمية، ويستاءون من جهة ثانية لأننا أسرعنا في تسيير معاملاتهم.»

«لو أنكم أخرتم قُبعتي قليلاً، كنتُ لحقتُ بها.»

«هذا ليس مكتب أمانات.»

عدت أدراجي واهتديت بالسؤال والاستفسار إلى المستودع الذي انتهت إليه قُبعتي الإيطالية مع إضبارتها، قلتُ للموظف المسؤول:

«عذراً يا سيدي هنا المستودع،أليس كذلك؟»

«نعم، المستودع، ماذا تريد؟»

«لقد أرسلوا إليكم قُبعتي مع إضبارتها..»

«آه.. القُبعة التي أُرسلتْ قبل قليل.. المعاملة المتعلقة بالقبعة الخضراء..»

«نعم، إنها هي. إني أسأل عن تلك القُبعة.»

«لماذا تسأل عنها؟»

«لأنها قبعتي. جئت لآخذها.»

«لا، لا أستطيع أن أعطيك تلك القُبعة.»

«إنها لي يا سيدي؛ قُبعتي الخاصة.»

«ومن أين سأعرف بأنها تخصك؟»

«سأصفها لك بالتفصيل، فإذا كانت متوافقة مع الصفات التي سأذكرها، فهي لي، أما إذا لم تتوافق فلا تعطني إياها.. إن قبعتي موبرة.»

«كثيرة هي القُبعات الموبرة..»

«طرية، وَبَرُها طويل ويشبه وبر الأرانب.»

«العالم مملوء بالقبعات ذات الوبر الطويل.»

«ومقاسها تسعة وخمسين.»

«من الواضح أنها ليست لك، فرأسك بحجم ثمرة جوز، والقبعة ذات النُمرة تسعة وخمسين ستبدو مثل خيمة فوق رأسك.»

«يا عزيزي، ماذا يهمك إذا كان رأسي بحجم ثمرة جوز أو بندق؟ القبعة لي، وهي صناعة إيطالية خالصة، في داخلها اسم المصنع الذي أنتجها. حتى لو كان لونها حائلاً بعض الشيء، فإن مصدرها الإيطالي واضح.»

«مؤكد أن المصنع الإيطالي لم يصنع قبعة واحدة خصيصاً لك..»

«لكن قُبعتي ذات شريطة سوداء.»

«وهل قُبعتك وحدها ذات شريطة سوداء؟»

«ولها فتحتان جانبيتان للتهوية.»

«إن جميع القبعات إما أن تكون بثقوب أو بلا ثقوب.»

«وفي داخلها صورتي يا أخي! لا بد وأنهم لا يدسون صورتي داخل كل القبعات.»قلتُ ذلك بصوت صارخ.

«إذا كانت لك صورة بداخلها، فالأمر منتهٍ. لأن كل الأوصاف التي ذكرتها تتطابق مع محضر الضبط. إذن فهي قُبعتكَ.»

«منذ ساعة وأنا أحاول أن أفهمك ذلك.»

«إنها لك ولكن...»

«وهل ثمة بعد مجال لأي «ولكن» .القُبعة لي. هاتها لأنصرف.»

في تلك اللحظة كان صوت جرس يدوي مطولاً وبما يسمح حتى للأصم بسماعه.

«ها هو جرس الانصراف كما تسمع. عليك أن تأتي غداً.»

«لا تفعلها أرجوك يا سيدي. كل ما عليك فعله هو أن تمد يدك لتأتي بالقبعة وتسلمني إياها. أبوس قدميك لا تتكاسل فتؤجلني إلى الغد.»

«لا، ليس تسليم القُبعة بهذه السهولة، فهو يتطلب إجراءات.. عليك الصعود إلى غرفة السيد المدير، فتأخذ منه أمراً كتابياً يفيد إعطاءك القبعة، فأعطيك القبعة. فأنا هنا عبد مأمور، ولا أستطيع أن أعطيك شيئاً بدون أمر»

أوضحت له بأنني أمرض إذا لم أضع القُبعة فوق رأسي، وأعطس، وكل شيء، لكني لم أتمكن من تليين قلبه المُتحجر. حسناً، لأعد في اليوم التالي، لكن اليوم التالي هو السبت، والذي يليه الأحد، أي أن الدوائر الرسمية تغلقُ أبوابها. بقي رأسي بلا قُبعة يومين، فعاد العطاس وتسلط عليَّ، أبعده الله عنكم.. ذهبتُ إلى تلك الدائرة في صباح الاثنين وأنا أعطس بلا توقف.كان الموظفون يعرفونني لطول دوراني خلف قبعتي قبل يومين. عندما رأوني مجدداً راحوا يشيرون إليّ قائلين: «صاحب معاملة القُبعة الخضراء» ويتضاحكون. هل ترون أي عقل عند أولئك الموظفين! إنه عقل موظفين حقاً! فهم يقولون «صاحب معاملة القبعة الخضراء» بدلاً من «صاحب القبعة الخضراء» لأنهم عاجزون عن تصور الناس بلا أوراق ومعاملات. إذا كان المرء يتحمل سخرية الموظفين الرجال على مضض، فإن الصعوبة تكمن في تحمل سخرية الموظفات. قلت لهم: «اضحكوا إذن.. إن من لم يفقد قبعته لن يفهم حال من فقدها.» ثم أضفت ما كنتُ قد حفظته من كلام بائع القبعات: «إنها صناعة إيطالية خالصة.. لن تحصل عليها في هذه الأيام حتى لو دفعت فيها خمس مائة ليرة.»

وكان كلامي ينقطع بالعطسات. ولحسن الحظ فإن عطساتي كانت جافة بلا ماء، لكنها كثيرة الهواء.

قيل لي إن عليَّ أن أحصل على الأمر الخطي الذي يتيح لي استعادة قبعتي من المستودع، من الغرفة الملاصقة لغرفة السيد المدير. دخلتُ الغرفة المذكورة فوجدتها تعج بضاربات الآلة الكاتبة وغيرهن من البنات، وأمام كل واحدة منهن آلة كاتبة وأوراقٌ، وقد انهمكن في طباعة الأوراق.. طق..طق.. لم أتمالك نفسي فأطلقتُ في لحظة دخولي عطسة من القوة ما جعل الأوراق المكدسة أمام البنات تندفع إلى الأعلى مثل سربٍ من الحمام المذعور وتتطايرِ في فضاء الغرفة. لو أني اكتفيت بعطسة واحدة لهان الأمر، لكن

سلسلة من العطسات داهمتني مثل بندقية آليّة..

أُغلق فمي.. سُدى، أُحني رأسي.. سُدى. ارتفعت صرخات ضاربات الآلة الكاتبة وصيحاتهن:

«أوااه ... منذ الصباح وأنا أُرتب هذه الأوراق بطلوع الروح.. كفى توقف عن العطس!»

«هل يملك المرء أمر عطساته يا سيدتي.. هل أعطس بإرادتي.. إن العطاس أشبه ما يكون بفرمان سلطاني.»

«اخرج إذن.. إن شئت فلتعطس خارج الغرفة، وإن شئتَ افعل ما تشاء!» قلت بين عطستين:

«أعطوني ورقة تتيح لي الحصول على قُبعتي فأخرج.»

في التو واللحظة أعطينني الورقة المطلوبة، فأخذتها فوراً إلى موظف المستودع:

«تفضل.. هاهي الورقة التي طلبتها مني، وقد وقعها السيد المدير، إنها تطلب منك أن تعطيني القُبعة.»

راح ينظر إلى الورقة ويقلبها بين يديه كما لو كان لا يجيد القراءة والكتابة أبداً، ثم قال:

«بما أن الأمر الخطي صدر، فعلى رأسي.. سأعطيك قُبعتك.. أرني بطاقتك الشخصية!»

«بطاقة شخصية؟»

«نعم بالطبع بطاقة شخصية.»

«لكني لا أملك بطاقة.»

«فكيف سأعطيك القبعة؟»

«دخيلك يا سيدي.. إنها قبعتي كما ترى. وفي داخلها صورتي. والله بالله إنها لي! أقسم بشرفي أنها قبعتي!»

«لا تقسم بلا جدوى. أنا أيضاً أعرف أن القبعة هي قبعتك. ولكن إذا حدث وجاءني غداً شخص آخر، فزعم بأن القبعة له، فماذا سأقول له؟ ينبغي أن تبرز لي بطاقتك، حتى

أنظم ضبطاً وأعطيك القُبعة.»

نعم هكذا أيها الأخوة.. على مدى حياتي وضعت لمرة واحدة قبعة فوتر على رأسي فاختطفتها مني دائرة حكومية... خسرتُ قبعتي الحلوة، لقد كانت خضراء غامقة، ولها وَبَر طويل، وشريطة سوداء، وكانت صناعة إيطالية خالصة، لا يمكن شراؤها بخمس مئة ليرة في هذه الأيام، وكان فيها ثقبان جانبيان للتهوية. طارت قُبعتي، طارت واختفت.. أردت الحصول على عمل، فخسرتُ قبعتي الحلوة أيضاً.

صدر عن السجناء تعبير تعجب نعس وثقيل:

-خووود!



-١٤-

أنت مَلاك يا حلوتي

استقرت في ذهن يشار فكرة البحث عن نظامي بيك قَرَة قَبْلي، الرجل المحب للخير الذي يهرع لنجدة كل من يحتاجه. سوف يهتدي إليه يرجوه المساعدة في الحصول على بطاقة شخصية. وبالرغم من وجوده في السجن، لم يعد يشار يائساً كما في السابق، فقد بات يحذو حذو المحكومين أحكاماً قاسية والذين يخففُون عن زملائهم من أصحاب الأحكام الخفيفة بالقول: «الأيام المعدودة تمضي بسرعة يا سبعي.»، فيعزي نفسه بالقول إن الأيام المعدودة تمضي بسرعة.بمجرد أن يخرج من السجن سيكون عمله الأول البحث عن نظامي بيك القرة قبلي.

كانت فكرة البحث عن نظامي بيك القرة قبلي تُلحُ على يشار يشامز بصورة مستمرة، وكيف لا والسجناء يأتون على ذكره طوال اليوم، فضلاً عن «الملك سامي» الذي يغني كل مساءٍ بعد التفقد أغنية «قرة قبلي نظامي» التي ألف كلماتها وإيقاعها بنفسه.

الملك سامي هذا صعلوك من نوع فريد، ومع ذلك يلقبونه بالملك لأنه صاحب الرقم القياسي في السوابق، بل إنه يدَّعى الرقم القياسي العالمي. لا يعرف كم كان عمرهُ حينما بدأ يسرق، ويقول مُكشراً: «منذ أن وعيتُ نفسي وأنا أسرق أحذية المغفلين.» لقد كان لصاً منذ الولادة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أمه كانت نشالة بارعة.

بعد التفقد والعشاء كان الملك سامي يأخذ على عاتقه فرض النظام على جو المهجع وتأمين الهدوء فيه استعداداً للاستماع إلى يشار يشامز، إذا لم يستعد السجناء من تلقاء أنفسهم. وفي غضون ذلك كان يغني أغنيتهُ التي نظمها من أجل قرة قبلي نظامي:

أمام الجسر جامع

نانانينا نينامي[*]

يصل مثل خضر

قَرَة قَبْلي نظامي

كان يكرر كلاً من السطرين الثاني والرابع مرتين، فضلاً عن أنه كان يلفظ البيت المختلقَ «نانانينا نينامي» على شاكلة كلمة بذيئة وبما يجعله شبيهاً جداً بتلك الكلمة المعيبة، وهذا أثار حماسة السجناء لهذه الأغنية، ودفعهم جميعاً إلى ترديدها. بل إنها انتقلت إلى المهاجع الأخرى أيضاً. حتى السجناء المحترمين في مهجع السادة، والمحكومين بالاختلاس من ذوي البيجامات الحريرية، والموظفين المسنين والتجار الحريصين على إبراز ثرائهم، كانوا يدندنون ب- «نانانينا ننامي» دون وعي وبالطريقة نفسها التي يرددها الملك سامي.

شهرته تملأ العالم

نانا نينا نينامي

يجعل المستحيل ممكناً

قَرَة قبلي نظامي.

كان الملك سامي من مهاجري بلاد الروم[**] ويحكي بلكنتهم، فكان يلفظ الكسرة مشدَّدَة.

يملك الخانات والحمامات

نانانينا نينامي

نحن نحيا بفضلك

يا قرة قبلي نظامي

يُخَلِّصُ المرء من الحبل

نانانينا نينامي

---

[*] لازمة لا معنى لها.

[**] الشطر الأوروبي من تركيا.

يلقّنُ المحامي دروساً

قَرَة قبلي نظامي.

مع غنائه للرباعية الأخيرة ينضم إليه كل من في المهجع فَيؤَدون الأغنية مثل نشيد:

لصٌ ومشؤوم سامي

نانانينا نينامي

الوطن مُمْتنُ لك

ياقَرَة قبلي نظامي.

يشار يشامز كان ينضم بدوره إلى غناء أغنية نظامي بيك القرة قبلي بصوته وسازِهِ أيضاً.

لقد امتلأتْ أذنا يشار يشامز باسم نظامي بيك القرة قبلي لفرط ما سمعهُ ليلاً نهاراً. وما الذي لم يقله عن نظامي بيك السجناء الذين يعرفونه.. كلما حكى يشار عن المغامرات العجيبة التي حدثت معه، قالوا له: «آه آه ... لو أن نظامي بيك القرة قبلي ...» أو: «إن نظامي بيك القرة قبلي يْخَلِّصُ المرء من حبل المشنقة، فلم يَدْعوهُ عبثاً بِقَرَة قبلي نظامي بيك..»

في يوم ماطر من أيام الشتاء لم يخرج سجناء المهجع الأول إلى الباحة، بل مكثوا في المهجع و انهمكوا في الأحاديث والثرثرات. وكان موضوع حديثهم نظامي بيك القرة قبلي كما هي العادة. السجين المدعو بالإداري بسبب عمله في الإدارة. كان في المهجع أيضاً في ذلك اليوم.

عاد صياد أعقاب السجائر إلى امتداح نظامي بيك القرة قبلي، فقال يشار:

-لم يسبق لأحد أن أخبرني بشيء عن هذا الذي تدعونه بنظامي بيك القرة قبلي، وقد سمعتُ باسمه هنا للمرة الأولى.. ما أصح من قال إن في كل أمر خيراً ما.. وإذا لم يصبح العبد في ضائقة، فلن يبادر الرب إلى نجدته.. كان عليَّ إذن أن أُسجن حتى أسمع منكم عن نظامي بيك القرة قبلي. هذا يعني أنه ثمة خير في دخولي السجن. إذا كان مقدراً لي أن أخرج من هنا، فإن أول ما سأقوم به هو البحث عن نظامي بيك القرة قبلي.

انفجرت ضحكة جماعية على أثر كلام يشار. لقد ضحكوا كثيراً على غبائه، ولم يفهم يشار لماذا يضحكون عليه فراح ينظر إليهم ببلاهة، الأمر الذي أضحكهم أكثر

وأكثر. قال له الإداري:

- يالك من صبي ساذج يا يشار!

-لماذا يا أخي؟

-لأن نظامي بيك القرة قبلي هو هنا.

-كيف هنا؟ أووه.. حذار أن.. أهو في السجن؟

-طبعاً.

-كيف ذلك يا أخي؟ إنه نظامي بيك قرة قبلي بكل مهابته، إنه من يحول المستحيلات إلى ممكنات.. أين هو إذن؟

-وهل تريد له أن يكون في مهجعنا يا يشار الأبله؟ إنه بالطبع في مهجع السادة.

-حسناً يا أخي، ولكن كما فهمتُ من أحاديثكم فإن حضرة نظامي بيك القرة قبلي يخلص المحكوم بالإعدام من حبل المشنقة يُلقن المحامين أدق الدروس في المحاماة، وهو بمثابة خضر معاصر، فكيف يحدث أن يقع في السجن وهو يمتلك كل تلك المهارات والمواهب الفريدة، ثم يعجز عن إنقاذ نفسه؟

أوضح الإداري ليشار بأن نظامي بيك القرة قبلي ليس موجوداً في السجن وحسب، بل في كل زمان ومكان، لكن يشار لم يفهم شيئاً من ذلك، بل زاد على ذلك بأن بدأ يشعر بالشفقة على نظامي بيك القرة قبلي الموجود في مهجع السادة، قائلاً لنفسه إن خير الرجل هو من أجل الآخرين فقط.

بدءاً من ذلك اليوم وصاعداً راح يشار يتقرب من نزلاء مهجع السادة على أمل أن يتعرف على نظامي بيك القرة قبلي. وكان في مهجع السادة أكثر من ثمانين سجيناً من الأثرياء. ترى أيُ واحد منهم هو نظامي بيك القرة قبلي؟

اقترب يشار ذات يوم من الإداري وهمس له خلسة حتى لا يسمعه الآخرون.

-روحي فِداك يا أخي، قل لي من هو نظامي بيك القرة قبلي من بين نزلاء مهجع السادة؟ دُلني عليه من بعيد.

كان الإداري خنزيراً أزعر لا يضاهى. قال ليشار:

-أذهب إلى مهجع السادة واسألهم: «أيكم هو نظامي بيك القرة قبلي؟»

-حسناً يا أخي، لكن النحات قال لي بأنه يستخدم اسماً مستعاراً للتمويه على نفسه، ويحتفظ بسر شخصيته لنفسه.

أراد الإداري أن يسخر أكثر من بلاهة يشار يشامز، فقال له:

- صحيح، هو كذلك.. وفي هذه الحالة عليك أن تعتمد على حدسك في العثور عليه.

منذ ذلك اليوم بدأ يشامز يراقب نزلاء مهجع السادة عن قرب، في محاولة منه للتعرف على نظامي بيك القرة قبلي عن طريق الحدس، وانتهى أخيراً إلى تحديد واحد منهم باعتباره ملائماً لتصوره عن نظامي بيك القرة قبلي، تلك الصورة التي كونها في ذهنه عن الرجل من خلال سماعه ما يحكى عنه.

إن صورة نظامي بيك قرة قبلي التي رسمها في مخيلته تشبه بعض الشيء صاتلمش، أي صاتي بيك، وبعض الشيء مُدير دائرة النفوس التي قصدها برفقة أبيه، وتشبه أخيراً الرجال الذين رآهم في القصر العدلي حيث أقام دعواه من أجل البطاقة الشخصية والتركة. فقد كان الرجل مربوع القامة، منتفخ البطن، وذا رقبة ثخينة، تثير احترام المرء حتى بهيئته وحدها، ويشعر يشار قربه بالانسحاق والضآلة. لابد لنظامي بيك أن يكون هذا الرجل. فعل يشار المستحيل حتى وجد ذريعة للتحدث إلى الرجل، فراح هذا يستخدم يشار يشامز في قضاء حاجاته الخاصة بعدما رأى من خضوعه له بصورة تلقائية، كما لو كان خادمه الخاص.

- يشار يا بني.. اطلب لي فنجاناً من القهوة ولتكن بسكر قليل.

- على رأسي.

- يشار يا بني...

- مُرني!

- اطلب لي كأساً من الشاي المُخمرْ.

- يا يشاااار!

- أمرك!

- اشتر لي سجائر!

- على رأسي.

ويسرع يشار إلى البوفيه فيشتري السجائر ويأتي بها إليه. فلا يكون من الرجل المربوع إلا أن يرمي بعلبة السجائر في وجه يشار ويصرخ به:

-ولاك يشار! أنت لن تصبح رجلاً قط! كم مرة قلت لك أيها الغبي بأنني لا أُدخن سجائر غير مفلترة.

فيسرع يشار ليشتري له سجائر مفلترة.

لقد أصبح يشار عبداً لنظامي بيك قرة قبلي، وراحت نقوده التي جمعها قرشاً قرشاً تتجه نحو الاضمحلال، تلك النقود التي كان يتلقاها من زملائه في المهجع لقاء ما يحكيه لهم من مغامراته. ذلك لأن الرجل الذي يمطره بسيل من الطلبات «هات شاياً»، «اطلب لي قهوة!»، «اشتر لي سجائر!» لم يكن يمد يده إلى جيبه أبداً وكأنه فيه عقرب، ويدفع يشار ثمن تلك الطلبات. وليته يطلب من أجله فقط! كان يطلب لجلسائه أيضاً الشاي والقهوة و الكازوز ويُقدم لهم السجائر.

- يشاااار! أين أنت ولاك!

ويسرع يشار ليقف أمامه في وضعية الاستعداد ضارباً كعبي حذائه أحدهما بالآخر كجندي حاجب حسن السلوك ثم يقول:

- مُرني!

- هيا بسرعة! اطلب لنا أربع كؤوس من الشاي المخمر وفنجاني قهوة سكر وسط، وكأساً من عصير الفاكهة!

- على رأسي!

ويركض يشار لتنفيذ الأمر.

حلال عليه. فما أهمية النقود إذا كان سيؤمن بطاقة شخصية من أجل يشار لقد اقتنع يشار يشامز إلى حد كبير بأن هذا الرجل هو نظامي بيك قرة قبلي، مستدلاً على ذلك من عدم صرفه قرشاً واحداً ومن طريقته في إصدار الأوامر، وكم كان إصدار الأوامر يليق به! وثمة شيء آخر هو براعته في الكلام، فعندما يتحدث كان المستمعون إليه يموتون من الضحك.

أوشكت النقود إلتي جمعها يشار بشق النفس على النفاذ وفي الوقت الذي كان يشتري فيه لنفسه تبغ أعقاب السجائر التي يجمعها صياد الأعقاب من الباحة، فيلفُّها

ويُدخنها، كان يشتري لنظامي بيك آغلى أصناف السجائر المفلترة، فأية نقود يمكن لها آن تصمد آمام ذلك؟.

عليه أن يتكلم ويخبره بالأمر.

جلس بضعة سجناء من نزلاء مهجع السادة في البقعة الظليلة تحت الدرج، وراحوا يثرثرون. اقترب يشار من نظامي بيك القرة قبلي وقال له بخجل وتهيب:

- لديَّ مشكلة لا يمكن أن يجد حلاً لها سوى نظامي بيك القرة قبلي.

آي آنه آراد آن يوصل إلى الرجل آنه عَرِف بأنه نظامي بيك القرة قبلي ولا جدوى من التمويه على هويته. رد عليه الرجل:

- نظامي بيك قرة قبلي؟ ومن يكون؟

فقال يشار بخجل وتَهَيُّب أيضاً ومع ابتسامة ماكرة تعني «لا تستطيع أن تخدعني، فأنا أعرفك!»:

- قيل لي إنه في مهجعكم، مهجع السادة.

- من قال لك ولاك؟

- ثمة إداري في مهجعنا، ويدعى كذلك لأنه يعمل في خدمة إدارة السجن، ذلك الإداري إذن هو من أخبرني بذلك.

رفع ذلك الرجل المربوع صوته وراح يلقي خطاباً على الجالسين معه حول الإداريين:

- الإداري إذن؟ قه قه قه! وما الذي يديره؟ هل ثمة شيء يمكن إدارته؟.... نحن شعب إداري إلى أقصى الدرجات. لا أحد في العالم يضاهينا في إدارة الأمور، ولا وجد شعب في التاريخ يدير الأمور ببراعتنا، ولن يوجد في المستقبل. اسألوني لماذا؟ ثمة إداريين كثر في مناطق أخرى من العالم بلا شك، هذا صحيح، لكنهم يستطيعون إدارة ما هو موجود فقط. يستطيع أي إنسان إدارةِ ما هو موجود، وتكمن المهارة في إدارة شيء غير موجود. لأعطيكم مثلاً.. قولوا لي كرمى لله، هل لدينا ماء؟ هل يوجد ماء؟

لقد كان السجن مثل كربلاء، فالماء يتدفق من الصنابير ما بين عشر دقائق وربع الساعة ليلاً. أما باقي الوقت فيتدفق الهواء من الصنابير حتى المساء، وبعد ذلك ينقطع حتى الهواء. صحيح أن استانبول كلها تعاني من شح الماء، لكن الأمر لا يطاق بصورة خاصة في السجن. لذلك فقد أجاب الحاضرون على سؤال الرجل المربوع بصوت واحد:

- لا يوجد!

- هل رأيتم؟ إذن لا يوجد ماء، ولكن ثمة إدارة لشؤون المياه. انظروا إلى البراعة الإدارية عندهم، فهم ينجحون في إدارة شيء غير موجود حسناً، الماء غير موجود، فهل الكهرباء موجودة؟ الكهرباء؟

كرر الحاضرون الجواب نفسه:

- لا!

ففي أسوأ الأوقات في الليل أو النهار كان التيار الكهربائي ينقطع في السجن، فيبقى السجناء في الظلام. إن البقاء في الظلام داخل السجن لا يشبه أبداً بقاء المرء في الظلام في بيته، ذلك لأن جميع من في السجن له أصدقاء وله أعداء، من المحتمل أن يُقتل المرء على يد مجهول. بل حدث مرةً أن نزلاء أحد المهاجع قاموا بضرب أحد السجانين ضرباً مبرحاً ظناً منهم بأنه النص نصيص مستفيدين من انقطاع التيار الكهربائي.

- هل رأيتم؟ ليس ثمة كهرباء، ولكن ثمة إدارة للكهرباء. أية معجزة هذه يا رفاق! حتى النبي موسى عليه السلام لم يجترح معجزة مماثلة ليدير ما هو غير موجود. حسناً، لا كهرباء ولا ماء، فهل يوجد غاز؟ هل كان في بيوتكم غاز؟

ارتفعت أصوات الحاضرين مرة أخرى وهي تجيب:

-لا!

-لم يكن في بيوتكم غاز، نعم صحيح، ولكن ثمة إدارة للغاز. لم يُسمونا من الفراغ بالشعب الإداري. قولوا لي، هل ثمة هاتف؟ هل رأيتم خط هاتف يعمل ويمكن الاتصال من خلاله؟

- لا. لم نرَ.

- نعم م م م.. الهاتف غير صالح للاستخدام، ليس ثمة هاتف، ولكن ثمة إدارة للهاتف.

وتابع على المنوال نفسه وهو يَعد الأشياء غير الموجودة والتي لها إدارات مع ذلك، حتى انتهى إلى القول:

- هل ثمة حكومة؟ هل توجد حكومة يا شباب؟

هذه المرة لم يصدر أي صوت من الحاضرين، فأطلق ضحكة وقال:

- ليس لنا كلام على الحكومة، فهي تديرنا كما تلاحظون.

ثم أشار إلى يشار وقال للحاضرين:

- هذا الأبله يتحدث عن شخص يُلقب بالإداري لأنه يعمل في خدمة إدارة السجن. أية إدارة ولاك؟ أي نوع من الإدارة هذا؟ إن الهيروئين و الأفيون والحشيشة تباع في السجن بحرية وهي الممنوعة في الخارج، وتدخل المسدسات والسكاكين بحُرية، وما يزالون يتحدثون عن الإدارة.. أقول لكم إن إدارة ماهو غير موجود أمرٌ نختص به وحدنا. إذا حدث وقال الموظف المسكين لرئيسه: «لا يوجد يا سيدي؟» عن أي شيء من الأشياء فإن الرئيس يدير يده في الهواء ويقول لمرؤوسه: «دبرها!». الإدارة عندنا تعني تدبير ما هو غير موجود. لماذا انتهى الرجل الى القول بعد أن نفدت طاقته على الاحتمال: «قد فقدنا الإدارة، ولم يبق في اليد سوى المصلحة!»؟ لا أحد يفوقنا في الإدارة يا شباب. ألا ترون معي أنه لا وجود للديمقراطية، ومع ذلك ثمة إدارة ديمقراطية!

منع الخوف الحاضرين من الضحك على كلام الرجل المربوع. وقال هذا ليشار:

- ماهي مشكلتك؟ هيا أخبرنا.

ابتهج يشار متعلقاً بأذيال الأمل، فحكى مشكلته الخاصة بعدم تمكنه من الحصول على بطاقة شخصية لأن السجلات تُظهرهُ ميتاً. قال الرجل المربوع:

- يمكن للمرء أن يموت بعدة طرق: يمكن أن يموت قانونياً، أو يموت سياسياً، أو جسدياً أو نفسياً. وحتى يكون المرء حياً بصورة كاملة، عليه أن يحيا بكل هذه المعاني.

لم يفهم يشار شيئاً من هذا الكلام، لكنه عرف أن معناه عميق، ولا يمكن أن يتفوه بكلام بهذا العمق سوى شخص واحد هو نظامي بيك قرة قبلي.

أولئك الذين كانوا يضحكون بصخب قبل قليل سكتوا فجأة وتسللوا مبتعدين واحداً بعد آخر، وظهر النص نصيص وراح ينفخ في صفارته و يصرخ:

-إلى الداااخل، إلى الداخل!

لقد حَلَّ المساء وبدأ إقحام السجناء في مهاجعهم.

عندما دخل يشار يشامز مهجعه لم يكن بقي في جيبه قرش واحد، لكنه كان سعيداً جداً لقناعته بأنه قد اهتدى أخيراً إلى نظامي بيك قرة قبلي، وسوف يتوسل إليه أن

يؤمن له بطاقة شخصية. وهكذا بعد الانتهاء من التفقد المسائي وتناول السجناء العشاء بدأ الملك سامي يُهيئ الجميع للاستماع إلى بشار وهو يغني أغنيته، فتحمس بشار بشامز وانضم إلى الملك سامي في الغناء كما رافقه عزفاً على الساز، ثم انضم كل نزلاء المهجع إلى الغناء:

أمام الجسر جامع

نانانينا نينامي

يصل مثل خضر

قَرَة قبلي نظامي

شهرتُهُ تملأ العالم

نانانينا نينامي

يجعل المستحيلَ ممكناً

قَرَة قبلي نظامي

يملك الخانات والحمامات

نانانينا نينامي

نحن نحيا بفضلك

ياقرة قَبلي نظامي

لصٌ ومشؤوم سامي

نانانينا نينامي

الوطن ممتن لك

يا قَرَة قبلي نظامي

وهكذا أفضى السجناء ما بأنفسهم بالصراخ والغناء، وإذ توقف بشار عن العزف

أصبحوا جاهزين للاستماع إليه. حدث صمت قصير، فيشار الذي يتمتع بموهبة قص بارعة لا يبدأ الكلام رغبة منه في زيادة اهتمام مستمعيه. أخيراً نفذ صبر النحات فقال ليشار مازحاً:

- هيا يا بني أبدأ، وإلا سأبدأ بسلالتك حتى سابع جد.

فقال يشار رغبة منه في مفاقمة اهتمامهم وفضولهم:

- إني أفكر لأتذكر أين توقفنا مساء البارحة.

قال الملك سامي:

-مساء البارحة توقف الحديث عند قبعتك الإيطالية الأصلية التي فيها ثقبان للتهوية...

لم يتمكن الملك سامي من إتمام جملته، لأن الجميع أخذوا يعدون صفات القبعة:

- القبعة الكبيرة..

- ذات الشريطة السوداء...

- وجوانبها محنية..

- بل ومحنية إلى الأعلى.

- ولونها أخضر غامق.

- فضلاً عن أن وبَرها طويل.

- في جانبها الأيسر فتحتان للتهوية...

- ومقاسها تسعة وخمسون...

- مستعملة كثيراً ووسخة...

يشار يشامز بمزاجه الفرح الذي استمده من تعرفهِ على نظامي بيك القرة قبلي في مهجع السادة، ردَّ فوراً على السجين الذي تفوه بالكلام الأخير، فقال مازحاً:

- لم تكن مستعملة إلى هذا الحد.. عتيقة.. رثة.. خراء... أياً تكن، أعطوني قُبعتي.

انفجرت ضحكة جماعية.

قال السجين البدين ذو الصوت الشبيه بصفارة إنذار:

- قل لي يا بني ما الذي فعلته بآنشة؟ هل جئت بها إلى استانبول وتركتها في البؤس؟

- حسنا أنك طرحت هذا السؤال ياعم، فقد آن أوان الحديث عن آنشة. على راسي، سأحكي لكم.. آنشة تشتغل في قصر غوهر خانم.

- من تكون غوهر هانم ولاك؟

- ألا تتذكرون؟ أما أخبرتكم بأنني جئت بآنشة إلى استنبول وشغلتها بوساطة أحد الأصحاب خادمة في أحد قصور «بو غازايجي»؟ إنها صاحبة ذلك القصر. لقد مَرَّ وقت طويل على عمل آنشة في ذلك القصر ولم أر بعد وجه غوهر هانم. وكلما سألت آنشة عنها أجابتني بأنها في الطابق العلوي وأنها لا تنزل إلى تحت أبداً.

«ولِمَ لا تنزل؟ هل هي مُقعدة أو ما إلى ذلك؟»

«وضعها أسوأ من ذلك. إنها بدينة جداً ولا تتحرك من مكانها أبداً. تقتصر حركاتها على التنقل من سريرها إلى الكنبة، ومن الكنبة إلى الشيزلونغ ومنها إلى الأريكة، ثم إلى السرير مرة أخرى.. لكن لها قلب من ذهب، إنها امرأة لا يضاهيها أحد في الطيبة.»

صحيح أن لغوهر هانم أولاد وبنات وأصهر، لكنهم تفرقوا بعيداً وبقيت هي وحدها في القصر مع آنشتي.. وهذا الوضع لاءمني كثيراً، لأنني واظبت على الحضور إلى القصر كل مساء مع حلول الظلام.

قال صياد أعقاب السجائر:

- وهل كنتَ تمكث في القصر ليلاً؟

- لا !!!! هذا غير وارد.. كيف أبقى والكافرة آنشة لا تسمح لي.. وكم ناشدتها و توسلت إليها من أجل ذلك، لكنها تردُّ بعناد: «لا يجوز قبل عقد القِرانْ!»

ذات مساء حارّ من مساءات حزيران أو تموز -لا أذكر بدقة- وصلتُ إلى القصر، وأنهتْ آنشة أعمالها، وأوْصلتْ عشاء غوهر هانم أفندي.. آآه، عليَّ أن أشرح لكم هذا.. إن تلك السيدة التي لم أر وجهها حتى ذلك الوقت لا تنادى بغوهر هانم، بل بأحد اللقبين التاليين: إما «السيدة الكبيرة» أو «غوهر هانم أفندي». حتى أصحاب المحلات والباعة ينادونها بتلك الطريقة. فإذا سألت عن قصر السيدة الكبيرة، يعرف الجميع في تلك المنطقة من تقصد. نعود إذن إلى ذلك المساء الصيفي.. فقد أطعمت آنشة سيدتها وأضجعتها على فراشها ثم عادتْ إليَّ. كان الجو حاراً، فخرجنا إلى حديقة القصر،

ويالها من حديقة كبيرة، عرفتُ من آنشة أنها كانت تلقى عناية كبيرة فيما مضى، ثم أهملت فتراجع وضعُها كثيراً. توغلنا في زاوية منعزلةِ من الحديقة وراحت تهبُّ من البحر نسمةٌ خفيفة تداعب البشرة المتعرقة مداعبة ريش الحمام، وبَدَتْ السماء لا كالسماء، بل قُبة زرقاء من المخمل زرعوا فيها من أجلنا نجوماً تتألق بلون الذهب. ياالله.. إنها ليلة يا أعزائي يعجز لساني عن وصفها.. وضوءُ القمر انعكس على ماء البوغاز، في حين انهمكت آلاف الحشرات في الصرير والغناء من أجلنا.. سامحوني أيها الأخوة إذا قلتُ لكم إن دمي بدأ يغلي وحليبي يفور.

ثارت حماسة كاتب العرائض فقال:

- وما الذي تنتظره يا يشار، ضُمَّ الفتاة بين ذراعيك واقلبها على الأرض.

- تتكلم هكذا لأنك لا تعرف آنشة يا صاحبي، فهي ليست من البنات اللواتي يرضخن للقوة ويستسلمنَ.

وقال الملطزجي:

- وهل تريدك آنشة بدورها وتهواك؟

- وكيف لا يا أخي.. وإلا لماذا تحتمل من أجلي كل ذلك الهوان.. بمقدار تعلقي بها، تلتهب حباً لي.

أراد «البصَّاق» الذي يعمل لصالح النحات أن يدلي بدلوه ويقول شيئاً، لكن أحداً لم يفهم شيئاً مما قال، لأنه كان قد مضغ العجين طوال اليوم من أجل النحات مثل كل يوم فجف فمُهُ وعجز لسانه عن الحركة بصورة طبيعية.

قال الملطزجي:

- وقديماً قالوا «عاريان في حمام» ينطبق هذا القول عليكما تماماً، أنتما ملائمان أحدكما للآخر كالنغمات المنسجمة... هيا ضُم الفتاة ولاك يشار!

- غلطان يا أخي.. صحيحٌ ما قيل من أن العاريين يلائمهما الحمامُ لكن آنشة لم تعد عارية كما في السابق، فقد أصبحت سيدة في قصر السيدة غوهر، وأصبحت تلبس ثياب سيدات استانبول وتسلك سلوكهن. ومن حيث النقود معها نقود. لقد تغيرت طباع الفتاة في بيت الأثرياء. أعني أن القوة لا تجدي مع آنشتي فكرت بأنه عليَّ أن أستخدم عقلي.

علق صياد الأعقاب قائلاً:

- ومن أين لك العقل ولاك!

- عندي قليلٌ منه يا أخي بما أنهم لا يُوزعون العقل على الناس مع البطاقة الشخصية.

وهكذا أسلمتُ نفسي لحزن عميق داخل المظهر الفردوسي لتلك الليلة الصيفية، أشْفَقَتْ آنشة عليَّ عندما لاحظت صمتي وحزني، فداعبتْ شعري وقالت لي:

«أواه يا يشاري من حظك السيئ! إذن فقد سرق شريكك السافل كل ما في دكان الخضار من بضاعة ونقود وهرب بعيداً.. لتكن أكبر المصائب، فلا تزعج روحك يا حبيبي.»

وإذ رأتني مستمراً في صمتي قالت:

«ها أنا أشتغل.. سنكسب النقود مجدداً.. لا تهتم بشيء.. المهم الصحة.»

«لكن الصحة وحدها لا تكفي.»

لم يكن تأثير الهواء العليل لتلك الليلة من ليالي الصيف، وجمال المنظر، وتغريد آلاف الحشرات الليلية، مقتصراً عليَّ، فقد تأثرت آنشة أيضاً، واقتربتْ مني كثيراً وراحت تداعبُ شعري بأصابعها، فوانتني قُوةٌ يا أخوتي قادرة على صرع العمالقة ودَك الجبال.

«اسمعي يا آنشة. سوف أجد عملاً بدوري في وقت قريب، سأشتغل وأربح نقوداً كثيرة، بل كثيرة جداً جداً، ستفاجأين لكثرتها وتعجزين عن عدها، ولن تكوني مضطرة للخدمة في بيوت الناس.»

قال يشار موجهاً كلامة لزملاء مهجعه:

- ليس ثمة ما أخفيه عنكم يا أخوتي. لم أقل ما قلت لآنشة رغبة مني في خداعها، بل قلتُ لها ما نبع من قلبي.. تلك الليلة من ليالي الصيف أصابتني في العمق يا أخوتي، ذلك الجمال قضى عليَّ، وأصبحتُ مثل السكارى، اقتنعتُ أنا نفسي بما قلتُهُ لآنشة.

ضحكت آنشة بسذاجة الأطفال وفرحهم وقالت متسائلة:

«وعندما تُصبح معنا نقود كثيرة كثيرة؟»

رأيت في عينيها لمعان ضوء القمر. قلت لها:

«سأحصل أولاً على بطاقتي الشخصية»

كنتُ أعرف أنها تنتظر مني ذلك الجواب. سألتني:

«جيد جيد.. جيد جداً.. وبعد ذلك؟»

«بعدها معروف، سنتزوج فوراً.»

«سنتزوج» قالتْ.

«طبعاً !!!!»

قطفت زهرةً برية كانت قربها وبدأت تلعب بها، فسألتُها:

«لماذا سَكتِّ هكذا يا بنت؟»

«هل سيكون لنا شهر عسل؟»

«شهر عسل؟ أي عسل هذا؟ لم أسمع بشيء مماثل.»

أوضحت لي ما هو شهر العسل. ألم أقل لكم إنها تعلمتْ أشياء كثيرة في قصر غوهر هانم أفندي؟ شهر العسل هذا واحدٌ من تلك الأشياء. أخبرتني أن بنات غوهر هانم وأولادها كانوا يسافرون في شهر العسل. وآنشة التي سمعتْ بذلك تريد شهر عسل.

«وهل ستأخذني في رحلات على السفن والبواخر والقطارات والطائرات عند ما نتزوج؟»

«وما هذا؟ هل تزعجنا الراحة؟ أم أن في بيتنا ما يُنفر؟»

«لا يا يشار، ليس الأمر كما تقول. إنه تجوال، أي رحلة شهر العسل. هل سنسافر في شهر العسل؟»

وكيف نسافر في رحلة شهر عسل؟ فأنا ألاقي صعوبة في تأمين مصاريف النقل للوصول كل مساء إلى هذا القصر، ويحدث أن آتي وأعود سيراً على الأقدام. فإذا قلتُ لها: «هل جننت يا بنت؟ أية سفينة وأية طائرة تتحدثين عنهما؟!» فسأفسد لها حلم اليقظة الذي تراءى لها في هذه الليلة الجميلة، لذلك قلتُ لها:

«طبعاااً..»

«هل سنفعل كما فعلتْ ابنة السيدة عندما تزوجت، فنرسل بطاقات ملونة كتب عليها: من البندقية مع الحب؟»

«طبعاااا...»

«وهل سنفعل كما فعل ابن السيدة عندما تزوج، فنرسل بطاقات ملونة كتب عليها: من باريس مع الحب، من لندن مع الحب؟»

«طبعاااأ!»

«وهل سنفعل ما فعله صهر السيدة وكنتها، فنرسل بطاقات ملونة كتب عليها: من مدريد مع الحب، من برلين مع الحب؟»

«طبعاااأ! ولماذا لا نرسل البطاقات إذا كنت تريدين يا آنشتي.»

فتحمستْ الفتاة وقالت لي:

«روح آنشتك فداك!»

كلامها هذا قضى عليّ تماماً.

ساد بيننا صمت. واضح أن جمال تلك الليلة الصيفية قد فعل فيها، فكرتُ برهة ثم قلت لها:

«آنشة!»

«مُرني!»

«سأفي بوعدي وسنسافر في رحلة شهر عسل كما سنرسل بطاقات مُلونة نكتب عليها: من البندقية مع الحب - من لندن مع الحب، بما أنك تريدين ذلك، ولكن..»

قلتُ ذلك وسكتُ، فسألتني:

«ولكن ماذا؟»

«لمن سنرسل تلك البطاقات يا آنشة؟ ليس لي أحدٌ في هذه الدنيا، أما أنتِ فأبوك يقاطعك.. لمن سنرسل تلك البطاقات إذن؟»

«معك حق، لمن سنرسلها؟»

«بما أنه ليس لدينا حتى من يمكن أن نرسل له بطاقات، وبما أن أحداً لن يسمع برحلة شهر العسل التي سنقوم بها، فلماذا نبذر كل تلك النقود؟ ما رأيك يا آنشة؟»

حَنَتْ آنشة عنقها وقالتْ:

«لا شيء.. وماذا أقول؟ حسناً، لا أريد شهر عسل أو رحلات أو ما إلى ذلك!»

اقتربت منها أكثر. كنا جالسين فوق أكمة يمتد تحتها منخفض يغطيه القش. ورحنا

ننزلق تدريجياً نحو المنخفض. قلتُ لها:

«أنت ملاك يا آنشتي... ما دمت لا تريدين رحلة شهر عسل، فسوف أتخلى عنها كرمى لك.»

كما لو أنها هي الرافضة لشهر العسل!

«ولكن لتعرف بأنني أريد هدية العرس.»

«معقووول!..طبعاااا! وستكون أفضل وأغلى هدية.»

استندت عليَّ فانزلقنا أكثر نحو المنخفض. قلتُ لها:

«هل تعرفين ماذا خطر في بالي يا آنشة؟»

«ماذا؟»

«ما الداعي لتبذير أموال طائلة على توافه الأمور من خرز وما شابه بحجة هدية العرس؟ فبتلك النقود نشتري الأشياء الضرورية لبيتنا. فما رأيك؟»

حَنَتْ المسكينة عنقها ثانية وقالتْ:

«وما الذي سأقوله؟ لا أريد هدايا...»

عانقتُها وقَبَّلْتُها:

«أنت ملاكٌ يا آنشتي.. إذا كنتِ لا تريدين هدية فلن أرغمك على قبولها مني.. فما دمتِ لا تريدين هدية، سأتخلى عن شرائها لك، فلا تزعجي نفسك سدى!»

آه من النقود آه، لعنة الله على النقود... لو أنني أملك شيئاً، أما كنتُ سأشتري لها هدية؟ لكنتُ زينتها من رأسها حتى قدميها بالذهب والفضة. كنت أخادعُ المسكينة لأنني لا آملك شيئاً.

«ولكن اسمع يا يشار، أريد حفلة عرس.»

«معقووول! طبعاااا! وأي عرس! سأجعل الأصدقاء يضحكون، والأعداء ينفجرون غيظاً.. سيكون عرساً لسبعة أيام بلياليها، كما في الحكايات».

التصقت آنشتي بي جيداً فانزلقنا أكثر نحو الحفرة.

تحايلتُ على الوضع وقبلتها مرة أخرى:

«وهل يجوز ألا نقيم حفلة عرس!»

«وهل ستكون ثمة فرقة جاز في قاعة العرس؟ وهل ستكون هناك مشروبات، ويسكي وما شابه، وحلوى وما إلى ذلك؟»

«طبعاااا! معقووول؟.. سيكون كل شيء موجوداً.. سيكون عرساً تتناقله الألسن يا روحي.»

بعد شيء من الصمت قلتُ لها:

«عرس.. عرس أليس كذلك؟ اسمعي ما خطر في بالي يا آنشة.»

«ماذا خطر في بالك أيضاً؟»

«سيأتي عدد كبير من الناس إلى العرس، فنطعمهم ونسقيهم، وفوق ذلك لن يعجبهم هذا أو ذاك من ترتيبات الحفلة، فيتبادلون النمائم بحقنا، أليس كذلك؟ أرى أنه من الأفضل أن نتخلى عن العرس، فماذا تقولين؟»

حَنَتْ رأسها وقالت:

«وماذا أقول يا يشار.. حسناً، لا أريد عرساً أيضاً!»

التصقتُ بها وقَبلتُها وهتفت قائلاً:

«أنت ملاك ملاك!» ثم أضفتُ: «إذا كنتِ لا تريدين عرساً، فلن أعاند وأكسر بخاطرك.. حسناً سأتخلى بدوري عن العرس».

«ولكن اسمع يا يشار، أريد بيتاً.»

«معقووول! طبعاااا! وهل يمكن الاستغناء عن البيت؟ بالنقود التي كنا سنصرفها على العرس نستأجر بيتاً».

«ولكن فلتعلم يا يشار، أريد البيت في منطقة جيدة. لتكن شقة جميلة في إحدى البنايات. ولكن مُجهزة بالتدفئة المركزية والماء الساخن. وليكن فيها موقد صالون.»

«معقووووول؟! طبعاااا! ولتكن مجهزة بمرحاض تركي ومرحاض إفرنجي، لتدخلي ما يشتهيه قلبك.»

وَضَعَتْ يدها على كتفي، فأمسكتُ بخصرها:

«ولكن..»

«ماذا أيضاً يا يشار؟»

«اسمعي ما فكرت به يا آنشة.. إيجارات الشقق في هذه الأيام مثل النار.. إنهم يطلبون تزويج أمهاتهم باسم الإيجار. لماذا نشتغل ونتعب ليلاً نهاراً حتى يفتني عديمو الشرف. يمكن لنا أن نستأجر بيتاً صغيراً كأعشاش العصافير في إحدى الحارات الهامشية.. هه، ماذا تقولين؟»

«لا شيء... وماذا سأقول يا يشار، ماذا أقول! حسناً!»

«ملاك أنتِ ملاك.. بما أنك لا تريدين شقة في بناية، فسوف أتخلى عنها كرمى لك.. حسناً، تخليتُ عن الشقة.»

وبعد صمت قصير:

«آنشة!»

«مُرني!»

«أتعرفين ما خطر في بالي؟»

«ماذا أيضاً يا يشار؟»

«أليس من الأفضل أن نبني بأنفسنا بيتاً مخالفاً؟ فما الداعي لدفع الإيجارات؟ هه؟ ما هو قولك؟»

«وماذا أقول يا يشار، ماذا أقول؟ حسناً.»

«لك قلبٌ من ذهب يا آنشتي.»

انزلقنا تماماً إلى الحفرة وانقلبنا فوق القش. قالت:

«لكنني أريد ثوب زفاف جميلاً.»

«معقووووول! طبعاااا! وهل يمكن الاستغناء عن ثوب الزفاف يا روحي؟ حتى إذا لم تطلبيه فأنا لن أوافق. ولكن..»

«ماذا هناك أيضاً يايشار؟»

«اسمعي ما فكرتُ به آنشتي. سوف ترتدين هذا الثوب لفترة لن تتجاوز عشر الدقائق، ولن ينفع في شيء بعد ذلك. لماذا نشتري ثوب عرس من أجل خمس دقائق وندفع فيه أموال الدنيا! يمكن لنا أن نستأجر لك واحداً لمدة نصف ساعة، أما النقود التي كنا سنصرفها على شراء الثوب..»

قاطعتني قائلة:

«حسناً، حسناً، لا أريد الثوب أيضاً!»

استلقت على ظهرها، انحنيت عليها وقبلتها قائلاً:

«أنت ملاك يا بنت يا آنشة.. بما أنك لا تريدين ثوب عرس فلن أرغمك على قبول ثوب عرسٍ.. ليس أمامي إلا أن أتخلى عن شرائه.. ليكن ذلك..» انحنيت عليها وحدقتُ في عينيها، رأيت فيهما لمعان ضوء القمر الذي أضاء المكان كما لو كان الوقت نهاراً. سألتني:

«بأية شيطنات تُفكر أيضاً؟»

«اسمعي ماذا خطر في بالي..» قلتُ هذا لكنني بدأتُ أرتعش.

«لا، أرجوك، مهلاً...مهلاً!»

«إذا اتحد قلبان، فلن يكونا بحاجة إلى شهر عسل ولا إلى عرس أو شقة أو ثوب زفاف أو أي شيء آخر...إذا اتحد قلبان تحوَّل مخزن التبن إلى قصر»*..

وشددتُها نحوي...

«توقف أرجوك يا يشار.. هذا المكان غير مناسب... أرجوك لا تفعل يا روحي..» وحاولت التملص بلا جدوى.

«وهل من مكان أحسن من هذا يا بنت؟ قال أجدادنا إن مخزن التبن يصبح قصراً بالنسبة للعشاق.. هل ستفهمين أكثر منهم يا ابنة الزنادقة!»

«لم تأخذني في رحلة شهر العسل، ولا استأجرتَ لي شقة في بناية، ولا أقمت عرساً ولا ألبستني ثوب زفاف.. إني أتضور جوعاً.. اتركني لأذهب إلى المطبخ وآتي بشيء نأكله.»

إذا تركتُها ستهرب إلى داخل القصر، فأبقى حتى الصباح منتظراً أمام الباب «مهلاً، مهلاً.. وهل هذا وقت الطعام؟ سأشتري لك ساندويتشات لاحقاً وخبزاً محمصاً أيضاً.. كُفي يابنت.. أقول إنني سأشتري لك..كلام رجال! سأشتري لك! وسأطلب لك زجاجة كازوز بعد الطعام.. وعلكة أيضاً... لتمضغيها بسرور..»

---

* مثل شعبي.

«ابتعد عني..»

«كيف لي أن أبتعد يا عديمة الإيمان.»

سكت يشار متأثراً بما يحكيه، واستغرق في ذكرياته الحلوة. حتى الهمركار «البصّاق» الذي جف فمه لفرط ما مضغ الخبز طوال اليوم من أجل النحات، اشتغلتْ غدده اللعابية على أثر ما سمعهُ من يشار، وترطب فمهُ، فقال:

-واي يا يشار واي! يا صاحب القلب الحجري.. قد أغويت الفتاة إذن؟

-أي إغواء يا أخي! كيف أعقد قراني عليها بدون بطاقة شخصية؟

وقال الملطزجي:

- نفهم أنك قد أطعت إبليساً.

قال يشار بعد تنهيدة عميقة:

- نعم، لقد حدث ما حدث، وأطعت إبليساً. ولكن الله يعرف مافي قلبي. لم تكن لديَّ أية نوايا سيئة... آهٍ لو كنتُ أملك بطاقة شخصية.

قال الملك سامي:

-ولاك يشار.. ليتك قصدت نظامي بيك القرة قبلي.

مازال يشار مستغرقاً في فرحته بالعثور على نظامي بيك قرة قبلي، لكنه لا يريد إظهار ذلك أمام أصدقائه. ردّ قائلاً:

-وما أدراني في ذلك الوقت بمن يكون نظامي بيك القرة قبلي...

فقال السجين العجوز ذو الصوت الشبيه بصفارة الإنذار:

-ألا تحيا في هذا البلد يا بني؟!

وقال النحات:

-هل يجوز أن يحيا المرء في هذا البلد ولا يعرف نظامي بيك القرة قبلي! فبالنسبة له ليس ثمة ما هو غير موجود، وهو يحول المستحيل إلى ممكن.

أراد يشار أن يُعمق الحديث أكثر معتمداً على شعوره بالأمان لكونه قد تعرف على نظامي بيك، فسأل:

- ولكن كيف؟

- إليك: إنه يُكيِّف كل شيء بما يتوافق مع كتابه، وما معنى ذلك؟ معنى ذلك أنه يكيف الأمور بما يتوافق مع القوانين ذات الصلة.. لذلك تسمى القوانين بـ- «قرة قبلي» أي «الكتاب ذو الغلاف الأسود». هذا يعني أن الرجل يكيف الأمور بما يتوافق مع الكتاب ذي الغلاف الأسود، ويعمل وفقاً للنظام.

كاتب العرائض زاد في الإيضاح:

لهذا السبب فهو يدعى نظامي بيك ذو الغلاف الأسود.

بصورة تدريجية تعاظم الشك والتوجس في قلب يشار. فحتى هذه اللحظة كان يظن بأن ثمة رجلاً يدعى نظامي بيك وأن كنيته هي قرة قبلي. ولهذا فقد ظن أن الرجل الذي في مهجع السادة هو نظامي بيك. مع أن هؤلاء السجناء سبق وقالوا ليشار إن نظامي بيك القرة قبلي هو في كل مكان وكل زمان. وقال لنفسه: «يالي من غبي وأبله!» نعم لقد قالوا له إن نظامي بيك هو في كل مكان، المهم أن تفهم لُغتهُ.

لقد صحا يشار الآن، ولكن بعد أن أضاع نقوده على ذلك الرجل المربوع في مهجع السادة، وبدون أن يطلب منه الرجل شيئاً، بل تخلى عن نقوده طوعاً.

قال الملطزجي:

-لو أنك قصدت نظامي بيك القرة قبلي، لكان أعطاك خمس بطاقات شخصية بدلاً من واحدة، وكنتَ اخترت مكان ولادتك بنفسك.

وقال الإداري:

- وكان أعطاك شهادة أيضاً.

سأله يشار:

-شهادة ماذا؟

-أية شهادة تشاء.. شهادة ابتدائية أو إعدادية أو ثانوية، بل حتى شهادة جامعية.

قال صياد الأعقاب:

-إن قرة قبلي نظامي بيك يمنح شهادات أكثر مما تفعل الوزارة.. وماذا يفعل الرجل؟ فقد رأى أن الوزارة تتباطأ في أعمالها، لذلك فقد تطوع لمساعدتها.

وقال السجين ذو السوابق وصاحب الصوت الشبيه بصفارة الإنذار:

-كما أنه يعطي جوازات سفر لمن يطلب. لنقل إن الحكومة تمنح خمس مائة جواز سفر في اليوم الواحد، أما نظامي بيك -أدامه الله علينا- فهو يمنح جوازات سفر لألف شخص كل يوم.

صياد أعقاب السجائر:

- يشار يا بني، لقد كابدتَ كل تلك العذابات سدى.

اغتم يشار كثيرا لأنه أوقع نفسه في مقلب وأضاع نقوده على ذلك الرجل الضخم في مهجع السادة ظناً منه بأنه نظامي بيك القرة قبلي، فلم يعد يتفوه بكلمة. أما زملاءه في المهجع فقد تحمسوا لموضوع نظامي بيك، على العكس منه، وراحوا يغنون بصوت جماعي تلك الأغنية بقيادة الملك سامي، وقد ألحوا على يشار بأن يرافقهم بالعزف، لكنه لم يستجب لهم.

كان سجناء المهجع الأول من الجناح الثاني مستغرقين في الغناء بحماسة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، إلى درجة أن صوتهم كان مسموعاً حتى في مبنى الإدارة، ولم يكونوا على دراية بذلك:

أمام الجسر جامع

نانانينا نينامي

يصل مثل خضر

قرة قبلي نظامي

شهرتُهُ تملأ العالم

نانانينا نينامي

يجعل المستحيل ممكناً

قَرة قبلي نظامي

يملك الخانات والحمامات

نانانينا نيامي

نحن نحيا بفضلك

يا قرة قبلي نظامي

لصٌ ومشؤومٌ سامي

نانانينا نينامي

الوطن ممتن لك

يا قرة قبلي نظامي.

لقد ارتفعت أصواتهم بالغناء كثيراً إلى درجة أن السجان المناوب ظن أن سجناء المهجع الأول قد أعلنوا التمرد، فأبلغ قوات الدرك التي تصرفت على أساس وقوع تمرد، فبدأت الصفارات تدوي في الباحة المتوسطة التي امتلأت بالسجانين والدرك. سمع سجناء المهجع الأول أصوات الصفارات التي مزقت صمت الليل، فأدركوا أن الاستنفار يتعلق بهم، وأحسوا بالخطر فسكتوا فوراً، انسحب كل سجين إلى سريره وغرق المهجع في صمت عميق.

انسحب الدرك والسجانون من الباحة بعد قليل، لأنهم لم يرغبوا في التورط في مشكلة في هذه الساعة المتأخرة من الليل.



-١٥-

لا يتركونك تموت
ولا يتركونك تحيا

لقد أصيب يشار بإحباط كبير، كان يُحسُّ بألم شديد في أعماقه بفعل المقلب الذي عَرضَ نفسه له طواعيةً عندما ظن أن ذلك الرجل من مهجع السادة هو نظامي بيك قرة قبلي. لم يبق معه قرش واحد، فحفزَّهُ هذا الوضع على السعي من أجل كسب النقود. لقد أصبح الآن يعرف من هم أولئك السادة الذين يُطلق عليهم نظامي بيك ذو الغلاف الأسود، وسوف يقصد واحداً منهم عند خروجه من السجن ويُحل مشكلاته التي استعصت عليه على مدى عمره، فيحصل أولاً على بطاقة شخصية ويحيا رسمياً مثل الآخرين. وحتى يستطيع أن يتفاهم مع نظامي بيك ذي الغلاف الأسود، تلزمه النقود، ولأنه سيخرج من السجن بعد وقت قصير عليه أن يكسب النقود بأسرع ما يمكن.

منذ مدة والنحات يلاحق يشار ليشغله تحت يده، يتشكى باستمرار من أجيره البصّاق فيقول عنه:

-إني اطلب لهذا الحقير عشرة كؤوس من الشاي كل يوم، حتى يسيل لعابه بكثرة هذا القواد.. لكن لعابه يجف كلما شرب شاياً أكثر، كأنما نكاية بي. لم أر في حياتي رجلاً جافاً بلا ماء مثل هذا.. ما إن يُقحم في فمه لقمتي خبز ويمضغهما عشر دقائق حتى يجف لعابه تماماً.

كان يكرر تبرمه من بصّاقه بهذه الطريقة أمام يشار يشامز، ويغريه بالعمل معه ليكسبا معاً الكثير من النقود.

لديك لعاب غزير ما شاء الله. فأنت تتحدث كل يوم حتى منتصف الليل، ولا يجف فمك مع ذلك. أما أجيري السافل، فهو يبلع ريقه كثيراً حينما يسمع أكثر المواضيع

تشويقاً من حكاياتك فلا يبقى في فمه أي لعاب.

كان يشار واثقاً من أن النحات سيشغله عنده، لكنه عندما طلب العمل غير النحات لهجته. قال ليشار وهو يتابع عمله في تشكيل رأس أتاتورك من غير أن ينظر إلى العجين الذي بين أصابعه:

- لديَّ بصَّاق يعمل لي منذ وقت طويل، أنا أخاف الله، فكيف تريدني أن أفصله من عمله بلا سبب؟ يعلم الله أنني استخدمت أربعين أو خمسين صفيحة من لعاب هذا الرجل في تماثيل العجين التي صنعتُها. نعم، صحيح أن لعابه ليس غزيراً، لكنه فعَّال في اللصق أكثر من غراء النجارين. لذلك لا أستطيع أن أطرد بصَّاقي.. على كل حال، أنت غلامٌ طيب وأريدك أن تكسب بضعة قروش... فما رأيك أن تشتغل مع البصاق القديم على أن تتقاسما بينكما الأجرة نفسها التي يتقاضاها الآن وحده؟

فهم يشار أن النحات يريد أن يُشغل أجيرين تحت يده بالأجرة اليومية نفسها. وهكذا قصد يشار صياد أعقاب السجائر الذي سبق واقترح عليه العمل عنده. وكان الصياد يستخدم شابين من مهجع المعدمين، يجمعان له حتى المساء أعقاب السجائر التي يُلقى بها في باحة السجن، ويقوم الصياد بتفتيتها وتنظيمها وخلطها، ثم يبيعها تبغاً.

قال الصياد ليشار بأن العمل قد تراجع في الفترة الأخيرة، الطلب على التبغ المستخلص من أعقاب السجائر ارتفع عما قبل، لأنه أكثر ملائمة لتدخين الحشيشة معه، ولكن السجناء بالمقابل لم يعودوا يلقون بأعقاب السجائر بكثرة كما في السابق، بل أكثر من ذلك، ففي السابق كانت الباحة تمتلئ بأعقاب طويلة لسجائر لم يُدخن منها أكثر من نصفها، أما الآن فباتوا يدخنون السيجارة حتى النفس الأخير ولا يلقون بها إلا بعد أن تحرق أصابعهم. خلاصة الكلام أن صيد أعقاب السجائر لم يعد عملاً مربحاً كما في السابق، وليس بوسعه إطعام أربعة أشخاص.

لم يعدم يشار التفكير في العمل صياد أعقاب سجائر لحسابه الخاص، لكن آغا الجناح ما كان ليسمح له بذلك، لأنه كان يحصل على خوة من الصياد لقاء الحماية التي يؤمنها له. فإذا قام يشار بصيد الأعقاب لحسابه الخاص يمكن أن ينتهي إلى نهاية وخيمة قد تصل إلى تلقي عَلَقَة ساخنة من آغا الجناح. فلا يجوز في عرف السجون أن يقطع أحدٌ رزق آخر إلا بإذن من الآغا.

ثم أراد أن يعمل أجيراً عند صانع المناقل، وقال له إنه سيتعلم العمل في وقت قصير

وإنه سيعمل لقاء أجرٍ قليل جداً، ولكن صانع المناقل لم يوافق لأنه كان يستخدم سجيناً مهنته صناعة الصفائح.

كان ثمة سجين في المهجع المجاور يعيش من عمله في أشغال الخرز، لكنه لا يستخدم أجراء، بل يعتمد على مهارته اليدوية في صناعة المحافظ والحقائب والسبحات والأحذية النسائية من الخرز ثم يبيعها إلى الزوار كتذكارات سجن. كان يصنع من الخرز الملون أشياء جميلة جداً تخطف الأبصار ولا تشبع العيون من مشاهدتها. طلب يشار العمل عند صانع الخرز، مبدياً استعداده لتعلم الشغل بسرعة ورضاه بأجر قليل. لم يوافق الرجل على استخدام يشار لأنه لا يريد أن يظهر منافس له في عمله.

حيثما مَدَّ يشار يَدَهُ بحثاً عن مصدر رزق، جفتْ أمامه الينابيع. كان الوقت قبيل الظهر والسجناء في الباحة، حين جلس يشار على سريره وراح يعزف خفيفاً على سازهِ ويغمغم بكلام ما، وفجأة دوى صوتُ النص نصيص في الممر:

-إلى الداااخل، إلى الداخل! الجميع إلى الداخل! لا يبقى أحدٌ في الخارج!

دخل السجناء مهاجعهم وهم يتساءلون عن سبب إقحامهم في المهاجع في مثل هذا الوقت. وما لبثوا أن عرفوا السبب عندما بدأ الإداري يصيح: «جماعة المحكمة، المحكمة!» ثم يتلو قائمة بالسجناء الذين لديهم جلسة محاكمة اليوم. كانت العادة أن يجري إدخال السجناء إلى المهاجع قبل اقتياد من لديهم محاكمات إلى الخارج، درءاً لوقوع اعتداءات بين سجناء متخاصمين.

تابع الإداري صياحه على جماعة المحاكم بصوته المدوّي وهو يتلو أسماءهم واحداً واحداً

-محاكم ... محاكم.. محاكم ...

أما النص نصيص المعتاد على إدخال السجناء إلى المهاجع، فقد تابع صياحه بالرغم من دخول الجميع وبالرغم من إغلاقه لباب الجناح:

-إلى الداااااخل، إلى الداخل! لا أحد يبقى خارج المهاجع سوى جماعة المحاكم.. هيا إلى الداخل!

وكان يشار يشامز شارداً عن كل ذلك وعما حوله في المهجع، يدندن شيئاً ما ويعزف بصوت منخفض جداً، كما لو كان وحيداً في المهجع.

صاحب السوابق العتيق، وأكبر سجناء المهجع سناً سأل كاتب العرائض بصوته الشبيه بصوت صفارة الإنذار:

-أليس من أحد في مهجعنا لديه محكمة اليوم؟

فأجابه كاتب العرائض:

- إن مهجعنا ياعم هو مهجع «الله يرحمه!»

وقال صانع المناقل لجاره وهو يومئ برأسه باتجاه يشار:

-صاحبك يؤلف شيئاً كالعادة.

-عيناه لا تريان أحداً حوله، وهذا يعني بوضوح أنه يؤلف أغنية.

-سنسمعها إذن هذا المساء.

سُمِعَ صوت صفارة النص نصيص ثم صراخه قادمين من بعيد:

-اسمعوا! افتحوا آذانكم جيداً لتسمعوا قائمة بأسماء جماعة المحاكم. ليخرج كل من يُقرأ اسمه، والبقية إلى الداخل... إلى الداااخل، إلى الداخل!

فُتِحَتْ أبواب الأجنحة بعد ذهاب جماعة المحاكم، وخرج السجناء مجدداً إلى الباحة، باستثناء يشار الذي لم يبارح مهجعه، وتابع العزف على سازه بصوت منخفض وهو يدندن شيئاً ما، حتى أنه لم يأكل شيئاً.

بعد التفقد والعشاء اتخذ نزلاء المهجع مواقعهم جاهزين للإصغاء إلى يشار. ناداه الملك سامي:

-هيا يا يشار.. إننا بانتظارك يابني.

أمسك يشار بطرف الحديث:

-نعم أيها الأخوة وأيها الأعمام... هل يمكن العيش بهذه الطريقة؟ وهل هذه حياة؟ ما هذا العذاب الذي أكابده! ما الفارق بين أن أعيش أو لا أعيش، طالما أنني عاجز عن إثبات أنني أعيش...

قال الملك سامي مقاطعاً:

- إياك يايشار.. حذارِ أن..

- أي إياك حذار يا أخي.. لم أعد أحتمل أبداً...

- لا تفعلها.. هل نويت أن تؤذي نفسك؟

- الموت واحد يا أخي. قلت: «اختر لنفسك طريقة للموت يا يشار!».

سأشرب سم الفئران فينقضي الأمر وأنجو... قصدت الصيدلية حيث اشتريتُ زجاجة من سم الفئران من أقوى نوع. وجدتُ داخل العلبة وصفة لطريقة استعمال السم كُتبَ فيها: «يُحذر من ملامسة السم للأيدي أو لأي مكان آخر. فهو شديد الخطر، لا تلمسوه حتى بطرف إصبعكم! قطرة واحدة منه تكفي لقتل ألف فأرة!»

إنه بالضبط السم الذي أبحث عنه. اختليتُ في مكان بعيد عن الأنظار حيث شربتُ زجاجة السم وتمددتُ عند أسفل الجدار بانتظار الموت. الآن سيسري الشلل في أطرافي، الآن ستنكمش عروقي، الآن سيجف فمي وحلقي، سترتجف قدماي وأفطس. وكم أنا سعيد لأنني سأموت فأنتهي من عذاباتي.. أنتظر ألماً في بطني وشللاً في أطرافي. كنتُ جائعاً منذ اليوم السابق، ولأنني شربتُ زجاجة سم على جوعي فقد بدأتْ أمعائي تُقرقرُ ومعدتي تؤلمني، لا أعرف إن كان ذلك من الجوع أم بسبب السم. عندما عجزت عن إسكات بطني وأمعائي، قلت لها: «كفاكم شكوى، فقد أعطيتكم آخر ما قُسِمَ لكم. اصرخوا بقدر ما تريدون، فكل ما هو مقدر لكم أن تنالوه يقتصر على تلك الزجاجة، ولا شيء غيرها.»

لقد شربتُ زجاجة سمٍ تكفي قطرةٌ منه لقتل ألف فأرة، ولكن لم يُظهرَ عليَّ أي من أعراض التسممّ.. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى داهمني نومٌ ثقيل. قلت لنفسي: «إذن فهكذا يتسممُ المرء» واسترخيتُ جَيداً حيثُ كنتُ متمدداً فوق النفاياتْ. بدأت أسمع موسيقا ذات إيقاع راقص. يا للغرابة! ما بين النوم واليقظة سمعتُ موسيقا مختلطة مع ضحكات صاخبة، راحت ترتفع وتتصاعد. هَتَفْتُ متسائلاً:

«أيُّ هرج ومرج هذا؟ أين نحن؟»

سمعتُ صوتاً متخماً يَتَرَجَّع صداه من الأعماق، يخاطبني قائلاً:

«إنهُ عرس يا يشار يشامز، عرس.. ألستَ على علم بأن ثمة عرس؟»

يا للغرابة! ترى لمن هذا الصوت الغليظ؟ يعرف اسمي أيضاً؟! إذن فهو يعرفني.

«عرس من هو؟»

ردَّ عليَّ الصوتُ نفسه:

«وهل يصح أن يُدعى المرء إلى عرس ولا يعرف عرس مَنْ هو؟»

«هل تعني أنني مدعوٌّ إلى هذا العرس؟»

«وليس بوساطة بطاقة دعوة اعتيادية، بل ببطاقة ذات شمع أحمر.»

ازدادت الضحكات الساخرة بعد هذا الكلام.

دارَتْ حولي بنات جميلات جداً وهن يرقُصْنَ أنصاف عاريات أو أكثر.

ترجَّع صدى ذلك الصوت الغليظ المتخم مرة أخرى:

«يكفيك ما كابدَتهُ من شقاء على الأرض يا بنيَّ يشار يشامز. لقد أحضرتك إلى الجنة.»

«أوه! أأنا في الجنة؟»

ردَّ عليَّ ذلك الصوت مع ترجُّع صداه:

«بل في جَنَّة الحمير أيضاً.»

ارتفعت الضحكات الساخرة من جديد.

فيما أنا غارقٌ في الذهول، شعرت بآلام في نهاية عمودي الفقري، تبين لي أنها بسبب الركلات التي يوجهها لي أحدهم من الخلف. فتحتُ عيني قليلاً فرأيتُ رجلين فوق رأسي، قال واحدٌ منهما لرفيقه:

«ترى أهو سكران أم ماذا؟»

ويرد الآخر قائلاً:

«واضح أنه مُتَشَرِّد.»

نهضْتُ واقفاً فوجدتُ أن الليل قد حَلَّ منذ وقت طويل وأطبق الظلام أثناء نومي. وأما الرجلان اللذان ساعداني على النهوض، فهما حارسان، وأما الأصوات التي سمعتُها وأنا نائم فظننتها عزفاً موسيقياً وأحاديث بين الناس، فهي مواء القطط ونباح الكلاب في تلك المزبَلَة.

شعرتُ بضيق شديد لأنني لم أمُتْ، فدمدمتُ قائلاً لنفسي:

«للأسف لم أمتْ»

فقال واحد من الحارسين:

«لو أننا تركناك نائماً لفترة قصيرة كانت الكلاب ستمزقك فتموت.»

«أردتُ أن أقتل نفسي فاشتَرَيْتُ بآخر ما أملك من نقود زجاجة من سم الفئران وشربتُهُ. لقد راحت تلك النقود هدراً.»

بدآ يضحكان ويشرحان لي: سألاني عما إذا كنتُ لا أقرأ الصحف أبداً، فهي تقول إن جميع العقاقير في الصيدليات ممدَّدَة وفاسدة، وإن وزارة الصحة تصادر تلك العقاقير عديمة الفعالية. وأخبرني أحد الحارسين بأن كوخُه المبني بصورة مخالفة مملوء بالفئران إلى درجة أنها تأكل أكثر من نصف كمية الخبز التي يشتريها كل يوم بمقدار أربعة أرغفة ويجوع أولاده. ولم يتمكنوا من حماية خبزهم من الفئران بالرغم من كل ما فعلوه. وأخيراً فعل الحارس مثلي فاشترى زجاجة من سم الفئران من الصيدلية، من ذلك النوع الذي كُتِبَ في وصفته أن قطرة واحدة منه يمكن أن تُسممَ الإنسان إذا لامَست جلدَه لقد بلل بمحتويات زجاجة من ذلك السم قطعاً من الخبز وَزَّعها في مختلف أنحاء البيت. لم يسمعوا أية حركة للفئران في تلك الليلة، فابتهجوا ظناً منهم بأن الفئران ماتت متسممة، لكن ابْتهاجهم لم يكن في محله، لأن الفئران هاجَتْ في الليلة التالية بأكثر مما في السابق. اشتروا زجاجة أخرى من السم بللوا بها قطع خبزٍ أطعموها للفئران. دعك من أن تتسمم، فقد بدأت الفئران تتغذى على الخبز المسموم فتسمن ويزداد معدل تكاثرها، إلى أن انتهى بها الأمر إلى إدمان السم، بحيث إذا أهملتْ أسرة الحارس دس الخبز المبلل بالسم في زوايا الكوخ، فإن الفئران تُصدر ضجيجاً لا يُصدَّق. وحتى تتمكن أسرته من النوم بارتياح في الليل بات الحارس المسكين يشتري كل يوم زجاجة سم يطلي بها قطع الخبز ليقدمها للفئران. بل إن زجاجة واحدة لم تعد تكفي في الفترة الأخيرة.

لحسن الحظ أنني لم أُجرب فأشرب سم الفئران مرة ثانية، وإلا فمن المحتمل أنني كنتُ أدمنْتُهُ مثل الفئران.

حتى الموت يحتاج نقوداً. ثمة طريقة وحيدة لقتل النفس مجاناً وهي الإضطجاع فوق السكة الحديد وانتظار قطار يمرُّ فوقي فيسحقني. وهذا ما فعلت. نظرتُ إلى جدول مواعيد الرحلات فوجدتُ أنَّهُ ثمة قطار سيصل بعد عشر دقائق، فابتعدتُ قليلاً عن المحطة واضطجعت على السكة. مَرَّت عشر دقائق، ربع ساعة، نصف ساعة... نهضت وعدتُ إلى المحطة حيث سألت أحد الموظفين:

«إن لدى الناس أعمالهم ومشاغلهم يا أخي.. أين تأخَّر هذا القطار ولماذا؟»

رَدَّ عليَّ بعصبية:

«هل أنتَ قادم من المريخ؟»

«ما الذي يجعلك تقول ذلك؟»

«هل حدث في هذا البلد أن قطاراً تحرك أو وصل في موعده؟»

فصرختُ به:

«فلماذا إذن يضعون جدولاً بالمواعيد؟»

«كيف سنعرف بغير الجداول كم تأخر كل قطار؟»

لم أجد ما أقوله رداً على حجة الرجل. وهكذا تعلمتُ لماذا يضعون الجداول وفيم تنفع.

السموم فاسدة، والقطارات لا تصل في مواعيدها: حسناً إذن ما العمل؟ الحل الأفضل هو الموت اختناقاً بغاز البوتان. كنتُ أقيم في تلك الفترة في غرفةٍ في نزل مع أربعة أشخاص آخرين. ثمة مفتاح غاز في غرفة خادم النزل، ذات يوم دخلتُ غرفته بحجة تنظيفها، وأغلقت الباب خلفي وأقفلته بالرتاج، ثم فتحتُ صنبور الغاز إلى آخره ووضعتُ عليه أنفي. بدلاً من التسمم بالغاز شعرتُ بارتياح وانتعاش. في تلك اللحظة وصل الخادم وراح يدقُّ بقوة على الباب الخشبي السميك، وصرخ مرة أو مرتين طالباً مني أن أفتح الباب. ثم أدخل مفتاحه في قفل الباب وهو يقول لنفسه: «لا بد أنه انتهى من تنظيف الغرفة وانصرف». فصرختُ به من غير أن أبعد أنفي عن صنبور الغاز: «لا تدخل! هناك خطر!»

لكنه فتح الباب ودخل، وإذ رآني واضعاً أنفي على صنبور الغاز سألني:

«ما الذي تفعله يا بشار؟»

«أرجوك اتركني.. شارفتُ على الانتهاء... سوف أتسمم بالغاز.»

ضحك الخادم وقال:

«إنه وقت العشاء يا بني والجميع يستخدم الآن مواقد الغاز في بيوتهم. في هذا الوقت لا يتدفق الغاز من الأنابيب، بل الهواء النظيف.»

«في أي بلدٍ نحن؟ إذا أردتُ أن أعيش فلا يتركونني أعيش، وإذا أردتُ الموت، لا

يتركونني أموت.. السموم لا فعالية لها، والقطارات بلا مواعيد، وأنابيب الغاز لا يجري فيها الغاز.. كيف إذن سنقتل أنفسنا؟»

قال الخادم ظناً منه بأنني أمزح:

«إذا كنتَ تريد أن تقتل نفسك فممَّ يشكو سكين بورصة؟»

رضاء الله عليكَ! لقد أصاب من قال إن للإنسان روحاً لا تساوي أكثر من طعنة سكين! قلتُ للخادم: «شكراً لك، وأطال الله عمرك مع هذا العقل!» وابتعدتُ. لم يكن معي نقوداً أشتري بها سكين. معي سترة سميكة، صحيح أن الفصل شتاء والجو بارد، ولكن ما حاجتي إلى السترة بعد أن أموت؟ بعتُ السترة بثمن بخس واشتريتُ سكيناً جميلاً دسستُهُ في جيبي، كما اشتريتُ ورقة ومُغلفاً لأكتب إلى آنشة رسالة وداعية. دخلتُ أحد المقاهي، وفي اللحظة التي بدأت فيها بكتابة الرسالة بعبارة: «وداعاً أيها العالم الغدار!» داهم المقهى عددٌ من رجال الشرطة يتقدمهم واحدٌ في ثياب مدنية صرخ قائلاً:

«أيديكم إلى الأعلى!»

رفع جميع زبائن المقهى أيديهم في الهواء، وبدأ رجال الشرطة يفتشون أجسام الجميع وثيابهم. الشرطي الذي فتشني عثر على السكين في جيبي فسألني:

«ما هذا؟»

«سكين!»

«لستُ أعمى! أرى أنه سكين. ما الذي تريد أن تفعل به؟»

«سأقشر به الخيار..»

صادَرَ السكين، لكنني والحق يقال لست سيئ الحظ تماماً، فقد كان بوسعهم أن يضربوني بمقدار حمولة سيارة ثم يرفعوا عليَّ دعوى حمل سلاح.

قبل آن أشرع في محاولاتي للانتحار كنتُ أعتقد أن الأمر سهل طالما أن الحياة غير ممكنة، لكنني وجدتُ يا أخوتي أن الموت أيضاً ليس سهل المنال.. الحَبْل. أو تظنون بأنني لم أجربه؟ لقد انقطع الحبل الذي علقْتُهُ بسقف النزل وشنقتُ به نفسي. سمهم فاسد، حبلهم مُهترئ، يصادرون السكين، قطارهم بلا مواعيد، غازهم هواء...

كنتُ لاحظتُ أن أحد نزلاء غرفتي في النزل لديه مسدس، راقبتُهُ خلسة حتى عرفتُ

مكان المسدس، وذات يوم كنتُ فيه وحدي في الغرفة أخذتُ المسدس من مكانه، وضعتُ فوهتهُ على جبيني وضغطتُ على الزناد.. نعم ضغطتُ على الزناد: بمّ! وانقلبت على الأرض. اقتحموا الغرفة على أثر سماعهم صوت المسدس، رأوني على الأرض وانفجروا ضاحكين.. يا أخي ما هذا؟ أنا أحتضر وهم يضحكون. أحسست بالدم ينساب من صدغي إلى الأسفل، لكني لم أشعر بأي ألم.

أتعرفون ما الذي كان يضحكهم؟ لقد كان المسدس عبارة عن لعبة تشبه المسدس الحقيقي إلى درجة التطابق، وعندما تضغط على زنادها يدوي انفجار وينبثق من فوهته طلاء أحمر، وفي الوقت الذي ظننتُ فيه أن الدم يتدفق من صدغي، كان وجهي قد أصبح مثل وجه مهرج بفعل الطلاء الأحمر، وانفجروا ضاحكين.

نعم هكذا أيها الأخوة، إذا أردتَ أن تموت، فلن تستطيع، كما أنك لا تستطيع أن تحيا أيضاً.. تعذب إذن واشق إلى ما شاء الله.

أدركتُ أن المرء إذا عانده الحظ فلن يستطيع أن يموت أيضاً، فقلت لنفسي:

«يا ابني يشار، لا أنت قادر على الحياة، ولا على الموت... لا تبالِ إذن وليحدث ما يحدث!» اقترضتُ شيئاً من النقود من أحد زملاء الغرفة ودخلتُ أحد المطاعم. منذ أيام لم يدخل فمي طعام ساخن. أكلتُ بيضاً بالبسطرمة، وبعدها معكرونة، وبعدها محشي بالزيت.. خرجت من المطعم ودخلتُ محل حلوى حيث أكلتُ قطعتي كاتو مثل الناس الذين مصالحهم ماشية على أحسن حال. يا سلاااام! ثم اشتريتُ جريدة وذهبت إلى الحديقة، جلستُ على أحد المقاعد وانهمكتُ في قراءة الجريدة، ما عاد يهمني العالم بأسره، لا أفكر بعمل ولا بنقود.. وفيما أنا مستغرق في قراءة الجريدة فاجأني ألم فظيع في بطني كأنهُ طعنة سكين، ألم غير قابل للاحتمال، فبدأت أتلوى وأئن. نفدت طاقتي على الاحتمال فتمددتُ على المقعد الخشبي وامتلأ وجهي بالعرق. تحلق حولي الفضوليون. صحيح أن الألم كان يشغلني عما حولي، لكني سمعتُ ما كانوا يقولونه:

«يبدو أن الرجل يحتضر.»

«بل إنه ميت.»

«لا، لم يمت بعد، فهو يتحرك.»

«إيه.. أعني أنه على وشك أن يموت... ألا ترى كيف ازرقّ وجهه!»

«حرام يا أخي، يجب أن نفعل شيئاً للرجل.»

«حذار أن تلمسوه، وإلا ابتليتم به!»

«نعم، نعم، ستجدون أنفسكم في ورطة، الأفضل ألاّ تلمسوه.»

«والله صحيح..تجرجر بعد ذلك بين أقسام الشرطة ومديرية الأمن وما إلى ذلك، عَطل أشغالك وانشغل بالأمر..»

«إذا أسلمت رقبتك مرة لقسم الشرطة، فمن الصعب أن تنجو بعد ذلك.»

«أبعدوا، أبعدوا! إذا سجلوا أسماءكم بين الشهود قُضيَ عليكم.. لن تنتهي الاستجوابات وخلافها قبل مرور شهر.»

«أليس لدى أحد منكم مشاعر إنسانية! أفسحوا لي ولاك، أفسحوا!»

ياله من ألم، شعرتُ كما لو أن أمعائي تتمزق.

قال رجل ذو مظهر لائق:

«لنخبر الشرطة لكي ينقلوه إلى مشفى. حرام ... ثم بدأ يصرخ: «الشرطة!»

كان بين عابري السبيل أمام باب الحديقة رجال شرطة أيضاً، لكن أحداً منهم لم يأبه لنداء الرجل.

بعد أن استمر ذلك الرجل فترة وهو يصرخ منادياً على الشرطة، أدرك أنهم لن يستجيبوا، فشق الزحام الذي كان يزداد باطراد، وقصد شرطياً على الرصيف المقابل، قال له:

«سيدي الشرطي، تفضل معي لو سمحت.»

«ما الأمر؟»

«ثمة رجل يحتضر هناك.»

«أنا لا أتدخل في مثل هذه الأمور. أنا شرطي مرور، ولا أستطيع أن أتحرك من مكاني.»

عاد الرجل إلى الصراخ «شرطة!» في وسط الشارع، وعندما رأى شرطياً بين العابرين ذهب إليه وقال له:

«سيدي الشرطي، لحظة من فضلك! ثمة رجل يحتضر هناك. الق نظرة عليه لو سمحت..»

«رجل يحتضر؟ هذه الأمور ليست من شأني. إنها من اختصاص الشعبة الثانية. أما أنا فشرطي في الهجرة والجوازات.» قال الشرطي ذلك وابتعد بخطوات سريعة.

كانت آلامي تتراجع من حين إلى آخر، ثم تعود فتشتد بصورة مفاجئة.

لم ييأس ذلك الرجل الطيِّب من العثور على شرطي، وراح يتحرك بين الزحام المتزايد باطراد بحثاً عن واحد، إلى أن رأى واحداً وطلب منه المساعدة، فقال له هذا: «لا شأن لي بمثل هذه الأمور، فأنا من شرطة المرافقة التابعة للمحافظة!» لحسن الحظ أن كثيراً من رجال الشرطة كانوا يمرون، قصد الرجل الطيب شرطياً آخر، قال له: «تعال بسرعة وساعدنا، فثمة رجل يحتضر.»

«ليس هذا من شأني، فأنا من شرطة البلدية.» قال ذلك وابتعد مسرعاً وراء البائع الجوال الذي كان يلاحقه.

تابع الرجل صراخه:

«شرطة!! أين الشرطة؟!»

كنتُ في تلك الأثناء أتلوى ألماً، وكان ثمة الكثير من رجال الشرطة، ولكن لا أحد منهم يهتم بمثل هذا الأمر. هرعَ الرجل الى شرطي رآه من بعيد وسألهُ:

«المعذرة، من أية شعبة؟»

«من الشعبة الثانية.»

«آواه، ما أحسن ذلك. ثمة رجل يحتضر هناك، أرجوك ساعده.»

«لا شأن لي بذلك. أنا من قسم مكافحة السرقات في الشعبة الثانية.»

ثم عثر على شرطي آخر من الشعبة الثانية، فابتهج كثيراً، لكن الشرطي قال إنه من قسم التهريب ولا يتعامل مع قضايا الموت.

واصل الرجل الطيب مساعيه من غير أن يسيطر عليه اليأس. رأى شرطياً آخر:

«المعذرة، هل حضرتك من الشعبة الثانية؟»

«نعم ولِمَ تسأل؟»

«من قسم الجنايات؟»

«نعم.»

«ياله من حظ موات! الحمد لله! أرجوك سيدي الشرطي أسرع! ثمة رجل على وشك أن يموت.»

«أين هو؟»

أشار الرجل باتجاهي وقال للشرطي:

«هاهو هناك!»

«لا شأن لي به..»

«لماذا يا سيدي؟ فأنت من الشعبة الثانية، ومن قسم الجنايات.»

«صحيح ولكنها ليست منطقة اختصاصي. فأنا أهتم بالمنطقة التي فوق هذا الشارع.»

ركض الرجل الطيب إلى شرطي آخر:

«هل حضرتك من الشعبة الثانية؟»

«نعم.»

«قسم الجنايات؟»

«نعم.»

«هل هذه منطقتكم؟»

«نعم.»

«ياله من حظ! ثمة رجل يحتضر هناك.»

«لا شأن لي.»

«لماذا؟»

«أنا اليوم في إجازة.»

أصبح الرجل الطيب على شفير اليأس. اقترب مني، وقد خفت آلامي قليلاً. اقترب منه سيد مُسِنّ وسأله:

«هل تبحث عن شرطي؟»

«نعم، لكنني لا أجد واحداً. أما من أراهم فيقولون بأنه لا شأن لهم ثم سيهربون.»

«إذا كنتَ تريد فعلاً أن تأتي الشرطة، فافعل ما سأقوله لك. فالشرطة لا تُطلبْ بالطريقة التي تفعل بها.»

«كيف إذن؟»

«اصعد فوق هذا المقعد واصرخ بما يلي: «أيُّ نظام هذا! أيُّ انحطاط هذا؟ أية سفالة! أية وقاحة!» عندها ستجد أن الشرطة ستنبت كالفطر من الأرض، وستمطر كالغربان من السماء. ستصدمك المفاجأة.»

فقال الرجل الطيب:

«سأفعل ذلك، المهم أن تأتي الشرطة.»

وصعد فوق المقعد الذي كنتُ أتلوى ألما فوقه، ثم دمدم في شبه همس لأنه كان خائفاً على الأرجح:

«أية إدارة هذه، أيُّ نظامٍ هذا!»

ولم يُتح له أن يكمل خطابه، فقد أحاط به على الفور من عشرين إلى ثلاثين شخصاً، وأمسك بعضهم بيديه وذراعية، وبعضهم الآخر بعنقه وثيابه. سأل الرجل:

«من أنتم؟»

«نحن شرطة!»

«شرطة سياسية!»

«شرطة مدنية!»

«عملاء!»

هكذا عرَّفوا أنفسهم. سأل الرجل الطيب واحداً منهم وكان أكثر عدوانية من الآخرين:

«وأنت؟»

«أنا مخبر!»

اتضح أن أكثر مِن نصف الجمهور الذي تحلق حولي من الشرطة السرية. وقد ألقوا القبض على الرجل واقتادوه. لم أعرف إلى أين لأنني فقدتُ الوعي لشدة الألم.

فتحتُ عيني في المشفى، وكان قد مرَّ عليَّ يومان فيه، ولا أعرف من جاء بي إلى المشفى وكيف تم ذلك.

قال لي الطبيب الذي يعتني بي، وكان رجلاً طيباً جداً:

«لماذا حاولتَ الانتحار يا بني؟»

«ومن أين لي هذا الحظ يا سيدي؟ حاولتُ كثيراً، لكنني لم أُفلح.»

أخبرني بأنني تَسممتُ وبأنهم غسلوا معدتي فأنقذوني. فقلتُ له بأنني شربتُ سم الفئران ولم أتسمم، وأن تلك الآلام الفظيعة قد بدأتْ بعد تناولي الطعام في المطعم وعندما عرفَ ما أكلتُ قال لي:

«اتضح الأمر! بسطرمة.. وبعدها معكرونة، ثم محشي بزيت الزيتون، ثم كاتو «بايت» طبيعي أن تتسمم.»

لم أتمالك نفسي فبكيت وقلتُ له:

«سيدي الدكتور، لماذا أنقذوني بعد أن تسممتُ؟»

«لماذا تريد أن تموت؟»

فحكيتُ له قصتي باختصار وانتهيتُ إلى القول:

«فماذا أفعل غير هذا؟ أريد أن أحيا فلا أستطيع، أريد أن أموت فلا أستطيع. قل لي إذن ماذا أفعل؟»

تَنَهَّدَ يشار يشامز تنهيدة عميقة ثم قال لرفاقه في المهجع:

-نعم هكذا يا أخوتي! لا يتركونك تعيش ولا يتركونك تموت!

صاح السجناء بصوت واحد مُعبرين عن دهشتهم:

-خُووووودْ!

لقد تأثر يشار بالفعل كثيراً في تلك الليلة. انحنى على سازه وغنى أغنيته الجديدة:

لم يبقَ لي سوى ظلي -رفيق الروح

أرهقتني نفسي لطول ما حملتُها

ضغطتُ على صدري حَجَراً وحملتُهُ

أحرقني لهيبُ القلب ورَمَّدَني

إذا أردتَ البكاء فلا تستطيع، وإذا أردت الضحك فلا تستطيع

أن تحيا لا تستطيع، وأن تموت لا تستطيع

الموتُ والحياة ممنوعان علينا

نحن أسرى القيود الرسمية

دعونا نموت فهو من حقوقنا

لا الموت ميسور ولا الحياة، فما العمل؟

إذا أردت البكاء فلا تستطيع، وإذا أردت الضحك فلا تستطيع

أن تحيا لا تستطيع، وأن تموت لا تستطيع

عندما وصل يشار بغنائه إلى اللازمة الأخيرة انضم إليه رفاقه في المهجع:

إذا أردتَ البكاء فلا تستطيع، وإذا أردت الضحك فلا تستطيع

أن تحيا لا تستطيع، أن تموت لا تستطيع.

قال يشار:

-الطبيب الذي أنقذني من الموت كان رجلاً طيباً جداً.

وقال النحات:

-كيف لا يكون طيباً وقد أعاد إليك الحياة.

-لم تتوقف طيبته عند ذلك الحد، فقد أرسلني إلى شخص على أن يشغلني بدون بطاقة شخصية.

عرف السجناء بأنهم سيسمعون هذه القصة في سهرة الغد.



-١٦-

أساس كل شيء هو المنطق

إن تعبير «فلان يقتلع رزقه من الحجر» يصبح لا شيء إذا قارنّاه ببراعة يشار يشامز في تحصيل رزقه، فقد بدأ يكسب رزقه من الهواء بعد الضائقة الشديدة التي مر بها ولم يكن يسعى وراء أسباب العيش فقط، بل يريد أن يكسب من النقود أكثر مما يحتاجه لسد الرمق ويبحث عن وسائل لمراكمة النقود.

وذلك لأنه سيخرج من السجن بعد فترة قصيرة، وقد بات يعرف من هو نظامي بيك القرة قبلي، وأنه ليس شخصاً مفرداً، بل ثمة العديد من النظامي بيك ذوي الغلاف الأسود، فمنهم الكبير والصغير، ومنهم الشاب والكهل، موجودون هنا وهناك، في كل زمان ومكان، المهم أن يلتقي المرء بواحد منهم، فيعرفه ويفهم لغته.. ليخرج من السجن أولاً، وهو على ثقة من أنه سيهتدي إلى واحد منهم، فهو لم يقض كل تلك الأشهر في السجن سدى، صحيح أنه سيهتدي إلى واحد منهم،أياً يكن، لكنه لن يحصل على أية مساعدة منه إذا لم يكن في جيبه نقود، لذلك كان على يشار أن يراكم النقود. وبعد أن جعل من نفسه بصورة طوعية خادماً لذلك الرجل الضخم من مهجع السادة ظناً منه أنه نظامي بيك القرة قبلي، وأضاع عليه كل نقوده، بقي يشار صفر اليدين. القروش القليلة التي كان رفاق مهجعه يجمعونها فيما بينهم ويقدمونها له لقاء حكاياته وعزفه وغنائه، لم تكن تكفي لأكثر من طعامه وسجائره، داخل هذه الجدران الحجرية، داخل السجن ذي القلب الحجري الذي لا يخفق.

لقد أراد العمل بصّاقاً عند النّحات وجامع أعقاب سجائر عند صيّاد الأعقاب، لكنه قوبل بالرفض، وأراد العمل تحت يد الملطزجي صانع المواقد والمناقل، فرفضه هذا أيضاً.

أمضى يشار ليلة مسهدة وهو يفكر، وانتهى إلى قرار: سوف يعمل طبّاخاً.

لم يكن يملك نقوداً ولا موقداً ولا طنجرة، لكنه اعتمد على لسانه الحلو القادر على

إقناع الناس.

قصد واحداً من طبّاخي الجناح الثاني، كان عمله كاسداً أكثر من الجميع، وقال له:

- إذا بعت لحسابك عشرة صحون على الأقل من الفاصولياء في كل وجبة، فكم تعطيني عن كل صحن؟

- عشرين قرشاً.

بعد مساومة قاسية انتهيا إلى الاتفاق على خمسة وعشرين قرشاً عن كل صحن. كان صحن الفاصولياء يباع بليرتين، ووفقاً للاتفاق سيحصل يشار على ربع ليرة عن كل صحن بشرط أن يبيع عشرة صحون بالحد الأدنى.

فور إتمام الاتفاق بدأ يشار يصرخ في ممر الجناح:

- جماعة اللوبيا!!!، جماعة اللوبيا!!! أين طالبوا اللوبيا؟ نطبخ لوبيا على العشاء، وباللحمة.. صحن اللوبيا بليرتين.. الدفع سلف والقاضي حلف.. هات الليرتين وكل اللوبيا هنيئاً.. لوبيا باللحمة.. سنطبخ على قدر الطلب، ولا ينفع الندم بعد ذلك حتى لو دفعت خمس ليرات.. الدفع سلف، هات الليرتين!

جمع يشار ثمن ستة عشر صحناً من الفاصولياء حتى قبل إشعال الموقد ووضع الطنجرة عليه، ولم يقتصر البيع على أفراد مهجعه، بل شمل المهاجع الأخرى أيضاً. لقد جمع اثنين وثلاثين ليرة ثمناً لستة عشر صحناً من الفاصولياء، فاحتفظ بليراته الأربع وأعطى الطباخ ما تبقى. القسم الآخر من العمل ليس من شأن يشار، فقد كسب أربع ليرات في ربع ساعة وانتهى دوره، على الطباخ أن يشعل الموقد ويفرم البصل ويطبخ الفاصولياء، فهذا من شأنه.

وفي المساء باع يشار عشرين صحناً من الفاصولياء وأخذ خمس ليرات فوراً.

عندما انتهى الطباخ من طهو الفاصولياء، سكبها في الصحون ساخنة وبدأ يوزعها، فاقترب منه يشار وهمس له قائلاً:

- ما الذي تفعله يا أخي؟ تمّهل.. لا يصح أن توزعها فوراً... ينبغي أن يصرخ الزبائن بأعلى أصواتهم: «أين تلك اللوبيا ولاك!» ويشتموك في أمك وزوجتك، فقط بعد ذلك وزّع عليهم صحون الفاصولياء بكثير من الدلال.

- ولماذا ذلك؟

- يجب أن يجوعوا كثيراً حتى يفقدهم الجوع صوابهم، فإذا أكلوا بعد ذلك طعامك الرديء الذي لا يستساغ، قالوا: «يااااه، ما أطيب هذا الطعام وما ألذّه! في حياتي لم آكل فاصولياء بهذه الروعة!».. يا لك من طباخ أبله! ما النفع في طبخك إذا لم تتقن حيل الطباخين؟ على الزبون أن يموت من الجوع بحيث أنك يمكن أن تضع أمامه صحناً من التراب، فيضرب فيه ملاعقه ويأكله على أنه حلاوة.

لقد ارتفع عدد زبائن الطبّاخ بفضل دعاية يشار يشامز، فلم تعد طنجرة واحدة تكفي، وبدأ الطباخ يستخدم طنجرتين كبيرتين.

قصد يشار يشامز النّحات، وكان يصنع تمثالاً نصفياً لأتاتورك من عجين الخبز الذي يمضغه بصّاقهُ ثم يخرجه من فمه ويكوّمه جانباً. لقد صنع حتى الآن آلافاً من تماثيل أتاتورك بمختلف الأحجام، فبات يشكل العجين بين أصابعه الماهرة بفعل الاعتياد وبدون أن ينظر إلى العمل، وهو يتابع حديثاً.

هذه المرة لم يأت يشار بمذلة كما حدث حينما جاء يطلب منه عملاً، بل بالمزاج الطيب لرجل أعمال، سأله وإحدى يديه في جيبه:

- إذا اشتريت منك دزينة من هذه التماثيل نقداً، فبكم تعطيني الواحد أيها النّحات؟

كان النّحات يعاني من كساد في الفترة الأخيرة، فقال ليشار بضيق:

- اهتم بشؤونك يا بني، ليس هذا أوان المزاح.

- أنا لا أمزح أيها النّحات، أريد أن أشتري دزينة بنقودي، والدفع سلفاً.

لاحظ النحات أن يشاراً يتحدث وهو يلعب بالنقود التي في جيبه، فقال:

- من أيها تريد؟ من تماثيل أتاتورك؟

وكان في الوقت نفسه يتابع تشكيل جبين أتاتورك وأنفه من العجين الذي بين أصابعه.

- لا، من تلك التماثيل الأخرى.

- الجمال؟

- من الجمال ومن الحمير المحمّلة بالسلال..

- تختلف الأسعار بين الجمال والحمير؟

- حسناً، أعطني دزينة من الجمال وأخرى من الحمير. المهم أن نتفق على السعر.

كان النحات يخلط عجينة الخبز التي يمضغها لـه بصّاقـه بطـلاء ملـون، ثـم يقـوم بتشكيلها، فكانت عجينة الجمال بنية اللون وعجينـة الحمير رماديـة، أمـا تمـاثيل أتـاتورك فتكون بلون أخضـر أو كحلـي، كمـا كـان ثمـة تمـاثيل لأتـاتورك بـلا لـون أيضـاً، وقـد رتـب النحات على الجدار الذي وراءه تماثيل نصفيّة لأتاتورك مـن مختلف الأحجام والألـوان. لقد كان يصنع الكثير جداً من تماثيل أتاتورك إلى درجة أنه كان يسمي سريره الذي حوّله إلى مشغل: «مصنع أتاتورك»

كرّر يشار سؤاله:

- قل لي، بكم؟

كان اقتراح يشار صفقة جيدة بالنسبة للنّحات.

- لم أطل الجمال بعد بالورنيش

- متى تكون جاهزة؟

- عند المساء ستجدها جاهزة متألقة.

- حسناً، بكم؟

- دزينة الجمال، لك أنت «فكّر قليلاً».. خمسين ليرة.

- اتفقنا، ولكن سيكون ثمة جَمَّال أمام الجمل.

- لا!!!! جمل فقط.

- مع الجمَّال، وإليك النقود.

- حسناً.

- وماذا بالنسبة للحمير؟

- من أجلك، الدزينة بأربعين.

- سيكون ثمة قائد لكل حمار يمسك بزمامه ويشده، والحمار يتمنّع.

- حسناً.

- ولكن..

- ماذا؟

- لا أريد عجينة فاسدة.

لقد كان البصّاق يملأ فمه بإفراط بلب الخبز، فلا تنتج عن ذلك عجينة باللزوجة الكافية، وتتشقق التماثيل المصنوعة منها. هذا النوع من العجينة غير الممضوغة جيداً مع اللعاب، يسمى بالعجينة الفاسدة. أما التماثيل المصنوعة من لب الخبز الممضوغ مع اللعاب لمدة ربع ساعة أو عشرين دقيقة، فهي تزداد صلابة مع مرور الزمن، بل تصبح بصلابة الحجر، ولا تنكسر إذا قذفتها بقوة.

أخرج يشار يشامز النقود من جيبه وحرّكها في الهواء بطريقة استعراضية أمام النّحات الذي رفض استخدامه بَصّاقاً، وقال قبل أن يعدّ النقود ويسلمها للنّحات:

- أوله شرط: لا أريد تماثيل إذا لم تكن عجينتها ممضوغة نصف ساعة ومعجونة نصف ساعة أخرى.

كان زملاء مهجع يشار يتساءلون عما يريد أن يفعله بتماثيل الحمير والجمال، لكنه طلب من النّحات في مساء اليوم التالي دزينتين أخريين من الحمير ومثلهما من الجمال، ودفع ثمن طلبه سلفاً. سأله النّحات:

- ألا تريد أتاتورك؟

- نعم أريد تمثالاً نصفياً واحداً لأتاتورك، على أن أستلمه منك في يوم إخلاء سبيلي. يجب أن يكون رأساً لأتاتورك ضخماً، بحجم رأسه الحقيقي، هل فهمت؟

- العجين لا يكفي لحجم كهذا ولاك!

- إذا كان الأمر كذلك، استخدم بَصّاقين أو ثلاثة تحت يدك.

حَسَّن يشار علاقته مع الإداري الذي في مهجعه بأن جعله شريكاً فيما يكسبه من نقود من مبيعات الفاصولياء، مقابل أن يتجول بحرية بين الزوار في أيام الزيارات ويبيعهم هدايا وتذكارات صناعة السجن، أي التماثيل التي يشتريها من النحات. أما الإداري فقد وفّر له ذلك بأن توسط لدى رئيس السجانين ليسمح ليشار أن يكسب بضعة قروش ليهتدي إلى سواء السبيل.

وكان الزوار القادمون لرؤية أقاربهم من السجناء في يوم الزيارة، يلتقون أولاً بيشار في قاعة الانتظار، قبل دخولهم إلى المكان المخصص للمقابلات. واحد من كل ثلاثة زوّار

تقريباً كان يشتري تذكارات، ولأنهم يتميزون بالسخاء فلم يكونوا يساومون يشار، بل يشترون منه بالسعر الذي يحدده.

كان يكسب كل يوم حوالي خمسة عشر ليرة في أربعين دقيقة مقسمة على وجبتين، من مبيعات الفاصولياء، كما كان يكسب ما لايقل عن مئتي ليرة مرة في الأسبوع في يوم الزيارة من مبيعاته من الهدايا، ومع ذلك لم تشبع عيناه، لأنه يريد أن يجهز نقوداً لأول نظامي بيك ذي غلاف أسود يقابله بعد خروجه من السجن. وهكذا اتفق أيضاً مع المطرجي الذي ينزل في مهجع يشار نفسه، وبدأ يبيع المناقل والمواقد الصغيرة المصنوعة من علب الكونسروة أو تلك المصنوعة من صفائح الكيروسين، في الأجنحة الأخرى من السجن، ويكسب عمولة بمعدل خمسين في المئة.

لقد فهم يشار لماذا يقال «إن النقود تجلب النقود»، فبالإضافة إلى نشاطاته المذكورة أخذ يعمل أيضاً في الإدانة مقابل الرهن ويكسب نقوداً، حيث يسلمه السجناء الذين يمرّون بضائقة مالية ساعاتهم أو أقلامهم أو قدّاحاتهم أو نظّاراتهم الشمسية أو حقائبهم أو ما شابه ذلك من ممتلكاتهم، رهناً لقاء استدانة النقود. لنفترض أن ساعة قيمتها خمسون ليرة، يعطي يشار لقاء رهنها خمس ليرات لصاحب الساعة، على أن يعيد المدين الليرات الخمس بعد أسبوع ويستعيد ساعته. ولكن ثمة فائدة بمعدّل ليرة واحدة عن كل يوم يمضي حتى يسدد المدين دينه، وفي كثير من الحالات يعجز المدين عن السداد فتنتقل ملكية الشيء المرهون إلى يشار يشامز.

لم يتخلّ يشار عن قص حكاياته في السهرات على زملاء مهجعه بالرغم من كل ما يكسبه من نقود.. فضلاً عن أنه استمر في تلقي النقود من مستمعيه مقابل ذلك، كما في السابق.

في ذلك المساء تكرّر ما يحدث في كل مساء من صوت صفّارة النص نصيص وصراخه على السجناء: «إلى الداااخل، هيا إلى الداخل!»، وإجراء تفقد المساء، وتناول السجناء لعشائهم، وبادر الملك سامي بعد العشاء إلى تنظيم نزلاء المهجع استعداداً للسهرة:

- هيا يا رفاق، كل في موقعه.. صمتاً.

تساءل أكبر سجناء المهجع سناً:

- أين يشار؟

هتف الملك سامي:

- يشار يشاماااز!

- هوب يا أخي! ها أنا!

عند سماعه لجواب يشار، علّق صاحب السوابق العجوز ذو الصوت الشبيه بصفّارة إنذار:

- كم تفتّح هذا اليشار يشامز.

قال النّحات:

- ومثل زهرة قرع.

- هل تذكرون يومه الأول في المهجع؟

- وكيف لا؟ طبعاً.. وقديماً قالوا إن السجن مدرسة.. لقد تعلّم درسه.

- لقد تجاوز القرنان الأذنين يا عزيزي.

هتف الملك سامي مرة أخرى:

- يشار يشاماااز!

- هوب يا أخي! أنا هنا، مرني!

جاء يشار راكضاً ونادى على الأوجقجي سابقاً الجميع:

- هات لنا شاياً يا أخي، شاياتك الطيبات شغل السجن.

صرخ الأوجقجي:

- دم الأرنب قادم.

وزّع الأوجقجي كؤوس الشاي على صينيته ذات الممسك، أصبح نزلاء المهجع مستعدين للإصغاء إلى يشار.

قال كاتب العرائض يريد فتح الحديث:

- هل ذهبت إلى الرجل الذي أرسلك إليه ذلك الطبيب؟

تظاهر يشار بأنه لم يفهم:

- أي طبيب؟

- ألا تتذكر يوم تسممت ودخلت المشفى حيث أنقذك طبيب أشفق عليك عندما سمع منك قصتك..

- هـه، نعم، صحيح ما تقول. أعطاني الطبيب بطاقته وقال إنه سيتصل بصديقه الذي يرسلني إليه، وإنه سيستخدمني بصرف النظر عن عدم امتلاكي لبطاقة شخصية.

وكيف لا أذهب! لم يكن المكان الذي قصدته دائرة حكومية، لكنه أشبه ما يكون بالدوائر الحكومية. لقد أوصاني الطبيب قائلاً: «إذا استخدمك الرجل الذي أرسلك إليه، فعليك أن توافقه بنعم يا سيدي، مهما قال لك».. أقولها.. نعم يا سيدي.. ولم لا؟ هل سيتآكل لساني إذا قلت له «نعم يا سيدي!»؟ قد احترق قلبي من البطالة، وسأقوم بأي عمل يوكل إلي، قمامة أو لمامة.. اتضح لي أن الرجل الذي أرسلني إليه الطبيب هو أحد مديري هذا المكان الكبير الذي يشبه الدوائر الحكومية. وصلت إليه بدلالة من صادفتهم وأبرزت لهم البطاقة التي أحملها، أدخلني بواب مكتبه، فرأيته جالساً وراء طاولته، وأمامه ثلاثة أشخاص. لم أر في حياتي طاولة بهذا الحجم. إنها طاولة باتساع هضبة منبسطة، يمكنك أن تمد فوقها فراشين متجاورين.. حينما دخلت لم يتنازل ويلتفت نحوي، فوقفت قرب الباب بانتظار أن ينتهي من كلامه ويلتفت إليَّ. كان المدير منهمكاً في جدال حول موضوع لم أفهمه مع الرجال الثلاثة. توتر المدير كثيراً وأمسك بزجاجة ماء كانت فوق الطاولة، ظننت أنه سيرمي بها على رؤوس أولئك الرجال، لكنه صرخ بهم وهو يهزها في يده:

«المنطق! المنطق! المنطق هو أساس كل شيء!» ثم سألهم قائلاً:

«هل أستطيع أن أبلل أرضية هذه الغرفة بكاملها، بهذه الزجاجة من الماء، أم أنني لا أستطيع؟ هه؟ قولوا لي إذن، هل أستطيع أن أبللها؟».

تبادل الرجال الثلاثة النظرات فيما بينهم وحاروا فيما يقولون، عندئذ أجاب المدير على سؤاله بنفسه:

«طبعاً لا أستطيع.. وهل يمكن على الإطلاق أن تبتل أرضية غرفة بهذا الاتساع بزجاجة واحدة من الماء؟ طبعاً لا تبتل. منطقي، أليس كذلك؟ فإذا كنت لا أستطيع أن أبللها، فلا أستطيع أيضاً أن أقبل عرضكم».

قال أحد الثلاثة: .

«المعذرة يا سيدي، ولكن ما علاقة العرض بتبليل أرضية الغرفة بزجاجة ماء؟»

فثار المدير بجنون:

«ثمة علاقة طبعاً.. فالمنطق هو المنطق في كل مكان!»

انصرف الرجال الثلاثة بعد أن تعرّضوا لإحراج مريك، فوضعت بطاقة الطبيب فوق الطاولة بهدوء، ألقى عليها نظرة سريعة ثم قال لي:

«لقد اتصل الدكتور من أجلك، أليس كذلك؟ ما هو اسمك إذن؟»

«يشار»

«اسمع يا يشار يا بني، أنا في الثامنة والخمسين من العمر وقد مررت بتجارب كثيرة جداً، انتهيت إلى أن أستخلص منها الحقيقة التالية: كل شيء أساسه المنطق»

«نعم يا سيدي»

أمسك مرة أخرى بزجاجة الماء وقال:

«مثلاً انظر، هذه زجاجة ماء أمامك، أليس كذلك؟»

لقد أوصاني الطبيب أن أوافق هذا الرجل مهما قال، لذلك قلت له:

«نعم يا سيدي»

«إذا سكبت هذه الزجاجة على أرضية الغرفة، فهل تبتل أم لا؟»

لم أعرف أي جواب سيدخل السرور إلى قلب المدير، فكررت القول:

«نعم يا سيدي»

«عفارم عليك»

لكنه سألني مع ذلك:

«قل شيئاً. أنت أيضاً لديك عقل ومنطق. فقل لي هل تبلل الغرفة أم لا؟»

إنها زجاجة ماء، لن تكفي لبلّ أرضية الغرفة، هذا واضح، لكنني لا أعرف الجواب الذي يريده، لذلك مضغت كلاماً لا معنى له:

«والله.. يا سيدي.. يعني.. لا أعرف ماذا أقول.. طبعاً.. بالطبع... لا شك في ذلك.»

عندما مضغت الكلام في فمي بهذه الطريقة، راح يسعل بقوة، فعرفت أنه غاضب،

قلت له خشية أن يطردني:

«أنتم أدرى مني يا سيدي.»

صرخ فجأة:

«دعك مما أعرف واحكِ بصراحة! لا تخف! تبلل أم لا؟»

«تختلف النتيجة من زجاجة إلى أخرى يا سيدي.»

ضرب على الطاولة بأسفل الزجاجة وقال:

«يا أخي هذه هي الزجاجة، وتلك هي الأرضية.. تبللها أم لا؟»

خاطرت بكل شيء، بما في ذلك احتمال أن يطردني وأجبته صارخاً:

«لا تبللها!»

زفر بارتياح وقال:

«أيوه.. أرأيت؟ طبعاً لا تبللها.. وهل يمكن لزجاجة ماء صغيرة أن تبللّ هذا المكان الواسع؟ لن تبللها.. فإذا كانت لا تبللّها، إذن.. على المرء أن يأخذ هذه الحقيقة دائماً بعين الاعتبار، وأن يتصرف وفقاً لذلك بصورة منطقية، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي.»

«عفارم عليك! أنت شاب منطقي، لقد أحببتك، فأنا أحب الناس المنطقيين، على المرء أن يكون منطقياً قبل كل شيء، منطقياً.»

«نعم سيدي»

«أحسنت.»

كلما قلت له «نعم سيدي» كافأني ب- «أحسنت».

«يعمل عندي هنا شخص.. ليس لديه شيء من المنطق.. الآن سأستدعيه وأصرفه من العمل، وستعمل بدلاً منه.»

«أرجوك سيدي المدير، لا أريد أن أكون سبباً لقطع رزق أحد.»

«لاااا، ليس بسببك، بل لأنه غير منطقي. سأستدعيه الآن لترى بعينيك وتسمع بأذنيك مقدار افتقاده للمنطق.»

«سيدي المدير، لا أحب أن أزحلق أحداً.»

«حتى لو لم أستخدمك، فسوف أطرده على كل حال، فأنا لا أستطيع العمل مع أناس غير منطقيين. هذا الرجل سيطققني يا أخي.»

ضغط على زر قربه، فدخل رجل من أحد الأبواب، رجل مضعضع متهدل مسكين، شابك يديه أمام بطنه وقال باحترام:

«مرني سيدي.»

أمسك المدير مرة أخرى بزجاجة الماء نفسها وقال:

«الماء الذي في هذه الزجاجة..» ولم يستطع أن يكمل جملته، لأن ذلك الرجل الذابل المضعضع انتصب فجأة وصرخ: «تبلّهاااا» بصوت هزّ زجاج نوافذ الغرفة.

وقال له المدير:

«على مهلك، على مهلك، فأنا لم أكمل كلامي بعد.»

«لا داعي لأن تكمل، فأنا أعرف على كل حال ما ستقوله، لأنني أسمعه مئة مرة كل يوم. تبلّها والسلام..»

التفت المدير إليّ وقال:

«هاقد سمعت بنفسك يا بني.. لقد سمعت بأذنيك، هاهو يقول تبلّها.»

قال ذلك الرجل:

«إن شئت كتبت لك على ورقة أنها تبلّها ووقعت على الورقة»

صرخ المدير:

«يا أخي لن تبللّها!»

كرر الرجل بهدوء شديد:

«تبلّها!»

«لن تبلّها!»

«تبلّها!»

كانا يكشران عن أسنانهما مثل كلبين يستعدان للانقضاض على بعضهما بعضاً.

«لن تبلّها!»

«تبلّها!»

راح المدير يصرخ بأعلى صوته وهو ينتفض في مجلسه ويضرب الطاولة بقبضته:

«لن تبلّها ولاك! لن تبلّها! لن تبلّها!»

كلما توتر المدير أكثر، كلما قال الآخر بأعصاب باردة:

«تبللها!»

«هذه زجاجة ماء كما ترى.. إني أسكبها على الأرض أمام عينيك، لنر إن كانت ستبلّ كامل الأرضية أم لا؟ انظر بعينيك!»قال ذلك وراح يرش الماء على أرضية الغرفة. لم يبتل فيها حتى خمس مساحتها. ابتسم المدير ابتسامة من كسب الرهان وقال:

«هل بللّتها؟»

قال الآخر بهدوء يفلق الصخر:

«تبلّها، تبلّها..»

«لا تبلّها، لا تبلّها ولاك!»

«تبلّها.»

«أوه، سيغمى عليَّ. آه سوف أنفلق.»

«لاتتعب نفسك سدى سيدي المدير، تبللها.»

بدأ المدير يتوسل إليه:

«يا أخي أليس في قلبك رحمة أو شفقة.. قل إنها لن تبلّها فأزيد راتبك الشهري. قل إنها لن تبلّها فأعينك رئيس قسم.. قل لن تبلّها ولاك!»

«تبللها!»

التفت المدير إلي:

«تكلم أنت يا بني يا يشار. حلَّفتك بدينك وضميرك وإيمانك، حلَّفتك بالطلاق أن تقول الصدق: هل تبلّ زجاجة ماء واحدة كل هذا المكان؟»

«لن تبلّه يا سيدي.»

«هه! هذا هو الكلام.. هل ترى الرجل المنطقي؟ فإذا كانت لا تبلّها، فإن الذي يقول إنها تبللها لا يمكنه الاستمرار في العمل هنا.. إني أنهي عملك.. انقلع!»

استدار الرجل ليخرج، فقال له:

«على مهلك، سلم العمل للسيِّد يشار، ثم انصرف بلا إبطاء، هيا!»

بدا على الرجل كما لو كان مسروراً من طرده، قال بما يشبه الشكر:

«دمتم، سلمتم!»

وخرج من الغرفة فتبعته وأنا أقول لنفسي: «يا أخي إذا كنت ستتضاءل أمام مديرك إلى هذا الحد، فلماذا لم تقل إنها لن تبللها، فتتجنب الطرد؟» دخلنا غرفة صغيرة، أخرج الرجل أغراضه من خزانة. قلت له:

«أنا آسف جداً يا صديقي. لقد توسلت إلى المدير كثيراً لكي لا يطردك بسببي، لكنه لم يستجب».

كان الرجل في مزاج طيب، قال:

«لا يا عزيزي لا.. لا تزعج نفسك، ومن قال إنه بسببك. فهو سيجد أحداً ليحل محلي على كل حال».

«لكن اعذرني لتدخلي، ماذا سيحدث لو أنك قلت إنها لن تبللها؟»

«مهما شرحت لك فلن تفهم علي الآن.. سوف تفهم كل شيء بعد انقضاء بضعة أيام على عملك. أنا خامس بواب يعمل عنده خلال عام واحد، لم أحتمل أكثر من شهرين ونصف وصلت معي إلى هنا.. حتى لو لم يطرح علي سؤاله عن تبليل الغرفة بالماء، كنت سأصرخ من تلقاء نفسي بأنها تبللها، وحتى لو لم يطردني كنت سأترك العمل بنفسي، لكني خجلت من ذلك فانتظرت حتى يطردني هو. ها قد لملمت أغراضي وأنا راحل.»

«على مهلك يا صديقي، ماذا بصدد ماستطلعني عليه؟ لقد قال المدير سلمه العمل، فأخبرني عما هو مطلوب مني.»

«لا شيء يستوجب الإيضاح. إذا حدث وجاء أشخاص لمقابلة المدير، ثم احتد بينهم الجدال، فإن المدير سيضغط على الزر ويستدعيك للتوكيد على وجهة نظره. ما إن تسمع صوت الجرس اركض إلى الغرفة، عندئذ سوف يسألك: «إذا سكبت زجاجة واحدة من الماء على أرض الغرفة، فهل تبللها أم لا؟» وتقتصر مهمتك على الإجابة بالقول:

«لن تبللها يا سيدي!» هذا كل شيء، فإذا قلت إنها لن تبلل الأرض، فأنت رجل منطقي. عندئذ سيلتفت السيد المدير إلى ضيوفه ويقول لهم: «إذا كانت لن تبللها، فإذن..» مثبتاً بذلك أنه على حق. ليكن الله في عونك يا صديقي وليمنحك الصبر.»

«إذن فعملي سهل.»

«سهل، في منتهى السهولة. أعرف معنى البطالة، لذلك لا أريد أن أثير خوفك منذ يومك الأول.»

«وأين ستعمل الآن؟»

«ليس لدي عمل.. أنا راض بالبطالة والجوع، المهم أنني نجوت بجلدي من هنا.. هيا، أستودعك الله.»

«مع السلامة.»

خرج البواب السابق من الغرفة، ورن الجرس فركضت فوراً إلى غرفة السيد المدير:

«مرني يا سيدي.»

«هه... حسناً، تعال.. أنا بحاجة لرجال منطقيين أريد ممن يعملون معي أن يكونوا منطقيين، وليست لدي مطالب أخرى. لأن الإنسان المنطقي يمتلك جميع المزايا.»

«نعم يا سيدي.»

«المنطق قبل كل شيء.. ما معنى المنطق؟ لنفترض أنني سكبت زجاجة الماء هذه على الأرض، فهل تبللها أم لا؟»

«لا تبللها يا سيدي.»

«أحسنت يا بني. اذهب الآن، إذا سمعت صوت الجرس تعال.»

خرجت عائداً إلى غرفة البواب الصغيرة وجلست على كرسي وبدأت أفكر: هل هذا الرجل مجنون؟ إن هذا غير ممكن، فهو أحد المدراء القائمين على مؤسسة ضخمة، موقعه عال جداً، ويأتي لمقابلته رجال رفيعون مثله، يتحدثون ويتحدثون، ثم يبدأ جدال، أحياناً في السياسة، وأحياناً في التجارة.

كنت أصغي إليهم من وراء الباب، فلا أفهم في أغلب الحالات شيئاً مما يقولون. فهم يتحدثون بلغة رفيعة. ومهما كان موضوع الحديث، تأتي لحظة يرغب فيها المدير أن يظهر

صحة وجهة نظره، فيقول لمحاوريه: «إذا سكبت زجاجة الماء هذه على الأرض فهل تبللها أم لا؟» ثم يجيب بنفسه:«زجاجة ماء صغيرة.. وغرفة كبيرة جداً.. طبعاً لن تبللها. ذلك أنه ثمة منطق. إذا كانت لا تبللها، فإن..»

إذا ضاقت به سبل الإقناع استنجد بي فرن الجرس واستدعاني ثم سألني:

«إذا سكبت الماء الذي في هذه الزجاجة..»

فأجيبه على الفور بصوت صارخ:

«لا تبلِّلها يا سيِّدي!»

فيقتنع بأنه من وجهة نظر منطقية على حق. كان يستخدم منطقه هذا لإثبات صحة وجهة نظره أمام من يتبرمون من التردد على المؤسسة منذ ستة أشهر من أجل توقيع أو موافقة، ومن يستصغر السمسرة بمعدل ثلاثة في المئة، وأمام المتعهدين الذين أنجزوا العمل المطلوب منهم ولم يقبضوا مستحقاتهم، والعمال الذين لم يقبضوا أجورهم، كما يستخدمه في الجدال حول أي حزب سيفوز في الانتخابات، ومئات المواضيع المماثلة، يستدعيني حتى يشهدني على صحة وجهة نظره:

«الماء الذي في هذه الزجاجة..»

فأرد على الفور:

«لا تبللها يا سيدي.»

«هل رأيتم؟ المنطق قبل كل شيء.. إذا كانت لا تبللها، فلا تقل يا سيدي إنها مجرد موافقة. فهذه تتطلب إجراءات، لا يمكن إنجازها خلال يومين.» وبهذه الطريقة يتخلص من المراجع.

كل ما هو مطلوب أن تقول «لا تبللها». يبدو لكم الأمر في منتهى السهولة. لكن ذلك يتكرر أربعين أو خمسين مرة كل يوم.. إنه أصعب بكثير من أن تحمل أحجاراً على ظهرك، ويفوق طاقة الإنسان على الاحتمال. لقد فهمت لماذا لم يحتمل البوابون الذين سبقوني، لكني فهمت متأخراً جداً. وإلا فهل يتخلى المرء عن باب رزقه؟ لقد ضقت ذرعاً من تكرار كلمة «لا تبللها». يا لها من ورطة! لأول مرة يستخدمني أحد ما بدون أن يطالبني ببطاقتي الشخصية لكنني لا أحتمل.. إنه لا يحتمل يا أصدقائي.. المنطق، المنطق، المنطق..

يشهد الله على ما أقول، أصبح يقتحم أحلامي ويسألني: يبللها أم لا؟ فأصرخ: «لا تبللها!» وكم مرة أفقت على صراخي وأنا أرتعد.

ذات صباح، جئت كالعادة إلى مكان عملي. بعد قليل رن السيد المدير الجرس فأسرعت إلى غرفته حيث رأيت رجلاً واقفاً.

«مرني سيدي المدير!»

«انتظر لحظة!»

قال الرجل الواقف:

«سيدي المدير، لقد استخدمت بناءً على أوامركم ثمانين عاملاً في البناء و شق الطريق. إنهم يعملون منذ ثلاثة أسابيع، ويطالبون بأجورهم. إنهم عمال يا سيّدي، جئت مرات لكنكم لم تأمروا بعد بصرف أجورهم. فما العمل الآن؟»

«المنطق، المنطق.. إن أساس كل شيء هو المنطق.»

«سيدي، إذا لم تصرف الأجور..»

«المنطق.»

«إذا لم ندفع لهم حقوقهم..»

«يا سيدي العزيز، زجاجة الماء هذه..»

«سوف يتوقف العمال عن العمل.»

«واعجبي! المنطق يا سيدي.. مثلاً زجاجة الماء هذه..»

انفجر الرجل:

«لقد سمعنا كثيراً عن زجاجة الماء تلك.. النقود، النقود..»

التفت المدير إليّ وقال:

«قل لي أنت يا بني يشار: إذا سكبت زجاجة الماء هذه على الأرض، فهل تبللها أم لا؟»

اندفع الرجل يقول:

«سواء بلّلتها أم لم تبللها، ما شأني بذلك! هل ستأمر بصرف أجور العمال أم لا؟ ما علاقة هذا بالماء؟»

«أنا لا أفهم بهذا أو ذاك.. لقد عشت كل هذا العمر فانتهيت إلى الحقيقة التالية: إذا حاول المرء أن يبلل مكاناً بزجاجة ماء في حين أنه بالكاد يمكن أن يبل بدلو من الماء، فإن هذا غير ممكن، إنه سلوك غير منطقي.»

وسألني مجدداً:

«زجاجة الماء هذه..»

قاطعته قبل أن يكمل كلامه، تماماً كما فعل البواب الذي قبلي، فصرخت قائلاً:

«تبللها!»

ذهل، وظن أنه سمع خطأ أو أنني أسأت فهم السؤال، فقال:

«يشار يا بني..»

«تبللها!»

«حتى أنت يا يشار؟»

«تبللها!»

كنت على وشك الانفجار لأنني أقول له «لا تبللها» خمسين مرة في اليوم. الأفضل أن أقول له: «تبللها» حتى ينفلق هو.

قال لي بصوت رقيق:

«يشار يا بني، انظر، هذه زجاجة ماء.. ها أنا أسكبها على الأرض أمام عينيك. فهل بللتها؟ طبعاً لا تبللها..»

«تبللها سيدي المدير تبللها..»

صرخ قائلاً:

«لا تبللها!»

سوف يطردني على كل حال. صرخت مرة أخرى بأعلى صوتي:

«تبللها!!!!»

وأطبقت الباب خلفي بقوة ثم خرجت من غرفته.

كنت أسمع صراخ المدير من غرفتي الصغيرة:

«هل يمكن لهذه الزجاجة الصغيرة من الماء أن تبلل أرضية هذه الغرفة الواسعة!»

سمعت أيضاً صراخ الرجل الذي معه في الغرفة:

«ولاك يا قوّاد، سواء بللتها أم لا، من يهتم بذلك بمقدار كذا.. إذا لم تأمر الآن بصرف أجور العمال، فسوف أبللك بأحسن ما يكون البلّ!»

سمعت صوت تحطم زجاج. أعتقد أن زجاجة الماء التي هي المعيار المنطقي لدى المدير، قد تحطمت على رأس واحد منهما. إذن فقد خرجت من غرفته في الوقت المناسب.

لملمت أغراضي وغادرت. أووه! لقد ضغطت على نفسي يا أخي فتحملت ثلاثة أشهر كاملة. لم يسبق لأي بواب أن تحمل هذا الرجل ثلاثة أشهر. كما ترون يا أخوتي، صادفت رجلاً وافق على استخدامي بدون بطاقة شخصية، لكنني هربت.

قال صاحب السوابق ذو الصوت الشبيه بصفارة إنذار:

- تشردت مجدداً، أليس كذلك؟

- نعم يا عم.

انسحب السجناء كل إلى سريره.

لم ينم يشار إلا قرابة الصباح، لأنه أمضى الليل وهو يفكر في وسائل يكسب منها نقوداً أكثر.



-١٧-

لن أسمح لشخص بلا بطاقة أن يدخل بيتي

ابتكر يشار وسائل جديدة لكسب المال، وكلما ازداد ما يكسبه من نقود، كلما تظاهر أمام زملائه بمزيد من الفقر. فبالرغم من أرباحه الكبيرة لم يشتر ثياباً، بل اكتفى بخياطة ما تفكك من أسماله البالية وترقيع ما تمزق منها. مع أنه يوجد من يبيعون ثيابهم الجديدة بأبخس الأسعار بوساطة بائعي الأشياء المستعملة، بسبب ضائقات يمرون بها. بوسع يشار إذا شاء أن يشتري بضعة مجموعات من الثياب المستعملة قليلاً، لكنه لا يفعل حتى لا يعرف أحد بأنه يكسب نقوداً كثيرة. لأنه إذا عرف السجناء بأنه يكسب كثيراً، فسوف يبالغون في تقدير ما يملك فيجعلون الليرة ألفاً ويطمعون في نقوده، كما أن آغوات المهاجع والأجنحة سوف يطالبون بحصصهم. أما إذا امتنع عن دفع الخوة فسوف يأكل عصياً بالأطنان فضلاً عن إغلاق أبواب الكسب في وجهه.

أغوات السجن يقومون بدور شرطة الانضباط من وجهة نظر معينة، فينظمون شؤون السجن بطريقتهم. لولا النظام الذي قاموا بفرضه لكان السجن قد غرق في بحر من الدماء. وإدارة السجن مقتنعة بأن الآغوات يفرضون النظام والانضباط، لذلك فهي تغض النظر عن الخوة التي يبتزونها من السجناء. لقد فهم يشار يشامز هذا النظام جيداً، لو أن الآغوات وجدوا له عملاً لكان من حقهم طبعاً أن يطالبوه بحصتهم من الأرباح، لكنه خلق وسائل الكسب بنفسه. كان يدفع حصصاً من أرباحه من بيع أعمال النحت والخرز للزوار كتذكارات من السجن، للسجين المدعو بالإداري ولآغا المهجع وللنص نصيص عن طريق الإداري نفسه، وذلك مقابل سماحهم له ببيع التذكارات في يوم الزيارة. ولكن ما الداعي لأن يدفع خوة لأحد من السمسرة التي يحصل عليها من بيع الطعام المطبوخ، ومن أرباحه من الإقراض بربا، ومن مبيعاته من المواقد والمناقل ومن أعماله الأخرى المشابهة؟

فيما يشار يخطط للحصول على ملابس مستعملة بسعر رخيص استعداداً لخروجه من السجن الذي لم يعد بعيداً، انفتح أمامه بتلقائية باب جديد من أبواب الكسب.

كان ثمة سجين يبيع كل ما يمكن أن يخطر على بال بدءاً من فراشي الأسنان المستعملة وحتى حزام الفتاق المستعمل،، مروراً بالأسنان الاصطناعية المستعملة، فشم رائحة النقود عند يشار مثل كلب صيد أصيل شم رائحة طريدة، اقترب من يشار ذات يوم من غير أن يلفت انتباه أحد وقال له:

- يا أخي يشار، لدي طقم ثياب لقطة، مناسب لك تماماً وعندي خبرة سنوات في تجارة الأشياء المستعملة، وأنا أفهم في البضاعة. اسمع مني ولا تدع هذه اللقطة لغيرك. إنه من قماش أكسترا ومن صنع خياط بارع من الصنف الأول، لا تفوت هذه الفرصة يا آخي يشار.

«يا أخي يشار(*)!» إنها المرة الأولى التي يدعى فيها بلقب أخي في السجن، أفرحه ذلك كثيراً، بالرغم من معرفته أن البائع يخاطبه بـ- «أخي» حتى يغويه بالصفقة، هو إذن بائع جيد، رد عليه يشار بأنه لا يملك ما يشتري به الملابس، فقال بائع المستعملات:

- ليس بالنقود يا أخي يشار، إن صاحبها مدمن هيروئين، سيبيعها بأي ثمن. إنه يريد النقود فوراً ليشتري الهيروئين، هل تفهم، والله أرخص من المجاني.

لقد حول السجن يشار إلى ثعلب ماكر. من المحتمل أن آغا المهجع دسَّ بائع المستعملات حتى يستكشف عما إذا كان لدى يشار نقود. أقسم يشار قائلاً:

- إذا كانت عندي نقود فلتلتصق بكبدي!

فاقترب البائع أكثر وقال له:

- إذن أعطني خمسين ليرة يا أخي لأشتري طقم الملابس، يمكنني أن أبيعه في غمضة عين بألف ليرة، ثم نتقاسم الربح فيما بيننا.

إنها صفقة رابحة، أقنعت يشار، فقال للبائع:

- ليس لدي أكثر من خمس وأربعون ليرة هي ثمن الكفن.

- اتفقنا يا أخي يشار، أعطني الخمسة وأربعين ليرة، لن يمضي أسبوع حتى أكون بعته.

- لكني أريد خمس مئة وخمسة وأربعين ليرة.

(*) الكلمة التركية تعني الأخ الأكبر، وهي لقب احترام.

- يا عيب الشوم، طبعاً.

مع هذه البداية أصبح يشار شريكاً للبائع، مشترطاً عليه ألاّ يعرف أحد بهذه الشراكة.

كان البائع يحصل على نسبة مئوية من صفقات البيع التي يقوم بها، أما بعد مشاركته ليشار فقد بدأ يشتري لحسابه ويدفع ثم يبيع لحسابه.

بدأ يشار يكسب جيداً من هذه الشراكة، وقد اشترى طقمَي ملابس يمكن اعتبارهما جديدين لقلة استعمالهما، لكنه لم يلبسهما أبداً، بل دسهما في حقيبته خفية عن أنظار الآخرين. كان عليه أن يظهر أمام نظامي بك ذو الغلاف الأسود بهيئة جيّدة بعد خروجه من السجن.

تم التفقّد المسائي وجلس السجناء إلى العشاء في مجموعات أو فرادى. قال صياد الأعقاب وكان يتعشى ضمن مجموعة:

- يا أخي أنا لا أصدّق ما يحكيه هذا اليشار، يبدو لي أنه يختلق..

وقال الملطزجي:

- لكن الأحداث التي يرويها ليست خارقة للمألوف، بل يحدث لنا جميعاً ما يشبهها كل يوم.

- هذا صحيح ولكن أحد تلك الأحداث يمرّ معي، وآخر معك، وثالث مع شخص آخر، فهل يعقل أن جميع تلك الأحداث جرت مع يشار يشامز نفسه؟

قال صاحب السوابق العتيق ذو الصوت الشبيه بصفّارة إنذار:

- لعله يبالغ قليلاً حتى يزيّن كلامه ويزخرفه، لكن ما يحكيه في رأيي صحيح في أساسه.

- وما الذي يدل على صحة ما يحكيه؟

- أمضيت أكثر من خمسين سنة من عمري في السجون. أعرف أن السجناء القدماء يختلقون جميعاً إلى هذا الحد أو ذاك. لقد رأيت عدداً كبيراً من أصحاب السوابق وأصغيت إليهم، لكني لم أر أو أسمع من يحكي ببراعة يشار، فضلاً عن أنها المرة الأولى التي يدخل فيها السجن، أي أنه ليس معتاداً بعد على الاختلاق.

وقال السجين الملقب بـ «بابا» لأنه أكبر نزلاء السجن على الإطلاق:

- أنا أيضاً أرى أنه صادق فيما يحكيه، لأنه يحكي أحداثاً لا يمكن لأحد أن يختلقها، بما في ذلك أشهر أصحاب السوابق العتيقين.

قال النحّات:

- لو أننا عرفنا سبب سجنه، لكنّا عرفنا أيضاً ما إذا كان يحكيه صحيحاً أم لا.

وقال الملطزجي:

- لماذا يحكي كل شيء ولا يحكي كيف سجن؟

قال «البابا» من بين سعاله:

- يا أخي ذلك هو كل ما يحكيه الفتى.. من الأول وهو يحكي كيف وصل به المطاف إلى السجن. وحينما يحكي لنا سبب سجنه، سيكون قد انتهى من قصته.

قال الإداري بنوع من التفاخر الذي يشي بأنه يعرف بعض الأسرار بسبب عمله في الإدارة.

لا أعرف إذا كان ما سمعته في الإدارة صحيحاً أم لا، لقد قالوا إنه سجن بسبب إهانته للحكومة.

دهش البصّاق إلى درجة أنه انتصب فوق ركبتيه فجأة وقال:

- ماذا؟ ماذا؟ إهانة الحكومة؟ ومن يظن نفسه حتى يوجّه إهانة للحكومة!

قال الإداري:

- والله هذا ما بلغ مسمعي.

- إنه لا يملك حتى بطاقة شخصية.. ويوجه إهانات إلى الحكومة!

- ألا نفعل ذلك كل يوم ولاك!

- نحن لسنا مقياساً يا بابا. صحيح أننا نوجه الإهانات إلى الحكومة كل يوم، لكنهم لا يعتبروننا بشيء فلا يبالون بما نقول. حتى الشرطة تتجاهل ما تسمعه، أما إذا قام أحد المثقفين، أي أولئك الذين يقرأون ويكتبون كثيراً، بتوجيه الإهانة للحكومة، فإنهم يسلخون جلد الرجل.

قال الصياد:

- لا يا عزيزي، لا يعقل أنه وجّه إهانات للحكومة، وحتى لو فعل فمن الذي يأبه

بشخص تافه الشأن مثله فيلقي به في السجن؟

- وهل كانوا وضعوه في مهجعنا لو أنه سجن بسبب إهانته للحكومة؟

قال الصياد:

- صحيح. ففي تلك الحالة كانوا وضعوه إما في مهجع السادة أو في مهجع السياسيين.

وانهمكوا في نقاش حول جرم «إهانة الشخصية المعنوية للحكومة» الذي لا يمكن أن يرتكبه إلا مثقّفيّ مهجع السياسيين أو أثرياء مهجع السادة، حتى قاطعهم صوت الملك سامي الذي كان يعلن عن بدء السهرة:

- هيا يا رفاق! كل إلى موقعه! سيبدأ برنامج يشار يشامااااز!

أنهى السجناء عشاءهم بسرعة ورفعوا بقاياه.

نقر يشار يشامز أوتار سازه بضع نقرات ليجتذب اهتمام جمهور مستمعيه ويحقق الصمت في المهجع، ثم بدأ الكلام:

- بعد أن تركت العمل عند ذلك المدير الذي كان يكرر قوله إن المنطق هو أساس كل شيء ويسألني أربعين مرة في اليوم: «هل بوسع هذه الزجاجة الصغيرة من الماء أن تبللّ أرضية الغرفة؟»

قال «البابا»:

- عدت إذن إلى التشرد.

- نعم يا بابا، عدت إلى التشرد.

وقال البصّاق:

- حتى لو كنا في السجن، يجب أن نحمد الله على حالنا صباحاً ومساءاً. على الأقل لدينا بطاقات شخصية.

وقال الملطزجي:

- ليست مشكلة يشار عدم وجود بطاقة شخصية، فلو كان الأمر كذلك كان الحل سهلاً، وذلك باستصدار بطاقة جديدة، لكن الحكومة لا تعتبر يشار حياً، هنا تكمن الصعوبة.

- إن من لم يجرب لا يعرف يا أخوتي، لا أتمنى أن يحدث هذا حتى لأعدائي. ومع ذلك فإن مشكلتي تهون إذا قارنتها مع مشكلة «غوهر هانم أفندي».. آه لو تعرفون ما جرى معها من أحداث..

أحد المساجين:

- ومن تكون؟

- غوهر هانم أفندي؟ ألا تذكرون أن خطيبتي آنشة اشتغلت في أحد قصور «بوغاز إيجي»؟ إنها صاحبة ذلك القصر. عندما تركت العمل عند ذلك الرجل المنطقي ونجوت بجلدي، ذهبت إلى القصر لأرى آنشة وأروِّح عن نفسي. وصلت مع بوادر المساء، فوجدت آنشتي في المطبخ كعادتها تتراكض هنا وهناك بلا توقف. نقرت على الزجاج فأجفلت إجفالاً عظيماً وأطلقت صرخة هلع وضغطت بيدها على صدرها ثم جلست على كرسي. انتظرتها لفترة حتى تفتح لي. شربت ماء ثم فتحت الباب الزجاجي.

«ما هذا يا بنت! تطلبين مني أن أنقر على الزجاج، وترتعبين كلما فعلت ذلك..»

«أوه يا يشاري أمان.. كدت تتسبب لي بإسقاط طفلي لشدة الخوف.»

«ماذا! طفل!» صرخت بفرح، فأسكتتني آنشة:

«مهلاً أرجوك، أخفض صوتك، وإلا سمعتك السيدة الكبيرة..»

«يابنت آنت حبلى، فلماذا لم تخبريني من قبل حتى أفرح أكثر؟»

«لم أخبرك قبل أن تحصل على عمل حتى لا تبتئس وتفكر بكيفية العناية بطفل وأنت عاطل عن العمل. الحمد لله لديك الآن عمل مضمون وراتبك الشهري جيد.. وها أنا أبشرك الآن.. لا تجفلني مرة أخرى وأنت تنقر على الزجاج.. اتفقنا؟»

شعرت كما لو أن ماءاً بارداً دلق فوق رأسي.. هل ترون سوء الحظ الذي يلازمني.. في اليوم الذي أفقد فيه عملي أعرف أنني سأصبح أباً.. وهل ترون رقة آنشة؟ إنها لا تخبرني عن الطفل وأنا عاطل عن العمل حتى لا أبتئس.. أيها الأحمق، هل يصح أن تترك عملك في ظرف كهذا! فلأول مرة في حياتي وجدت عملاً، كما أنني سأصبح أباً.. ماذا؟ يسألني الرجل أربعين مرة في اليوم «تبللها أم لا؟». وليسأل.. حتى لو سبَّك في أمك طالما أن الأمر مجرَّد كلام...

سألتني آنشة:

«مابك؟ ألم تفرح؟»

بذلت جهداً حتى أبتسم:

«وكيف لا! لقد فرحت فرحاً لا مثيل له..»

«عبس وجهك، بل اصفرَّ أيضاً.»

كيف سأخبرها بأنني تركت العمل بعد أن بشرتني بأنها حامل؟..

«أراك صامتاً..»

«لاشيء يا روحي..»

«إن لم تخبرني فلن أبشِّرك بخبري الثاني..»

«أخبريني يا بنت!» قلت لها ذلك وعانقتها وقبلتها.

«كل هذا لا ينفع. إذا لم تخبرني بما تخفيه عني فلن أبشِّرك..»

التزمت الصمت متظاهراً بالحرد.

«كثيراً ما أخبرتني بأنك ضقت ذرعاً من مديرك الذي لا يكف عن سؤالك «تبلّها أم لا تبلّها؟».. ففكرت أنه..»

«بم فكرت يا بنت؟»

«فكرت بأنه سيكون من الأفضل أن نعمل كلانا في مكان واحد..»

«وأين هو مكان العمل الذي سيستخدمنا معاً؟»

«لقد وجدته. وهذه هي بشراي الثانية! لقد وجدت لك عملاً.»

«أين؟»

«هنا. بقيت السيدة الكبيرة وحدها في القصر بعد زواج كل من ابنتها وابنها الصغير ورحيلهما. وهي تبحث عن أحد لشؤون الخدمة، وكذلك لحراسة القصر. فحدّثتها عنك.»

«بصفتي ماذا؟»

«وماذا تريدني أن أقول لها؟ طبعاً بصفتك خطيبي.»

«ألن تطالب ببطاقتي الشخصية؟»

«وهل هذه دائرة رسمية حتى تسألك عن البطاقة؟»

«متى سأبدأ العمل؟»

«حالاً.»

أمسكت بذراعها وشددتها إليّ وقلت لها بفرح:

«إذن سأمكث هذه الليلة هنا، أليس كذلك؟»

«لا. فالسيدة الكبيرة لم ترك بعد. لا يصح.»

«حسناً، لتراني الآن..»

«ليس في هذا الوقت. تعال في صباح الغد.»

«لا تفعليها بي يا آنشة! فعلى كل حال سأقيم في هذا القصر عندما أستلم العمل.»

«نعم، ستقيم.»

«سوف تستخدمني السيدة الكبيرة على كل حال، أليس كذلك؟»

«نعم.»

«لماذا إذن علي الذهاب بعيداً في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ثم العودة ثانية في الصباح. لا يستحق الأمر كل هذا التعب. دعيني أبقى.»

«لا لا يجوز أن تبقى بغير سماح السيدة الكبيرة.»

كل ما قلته لم ينفع في إقناع بنت الخنزير، لقد أزعجتني بصورة جدية هذه المرة وليس مزاحاً. غادرت القصر في وقت متأخر من الليل، ثم عدت صباحاً. لم أنقر زجاج نافذة المطبخ كما هي العادة، بل اتجهت مباشرة إلى باب القصر وقرعت الجرس، فلم يعد ثمة ما نخفيه. فتحت آنشة الباب فدخلت. قالت آنشة:

«قلت للسيدة الكبيرة بأنك ستأتي.»

«حسن. لنذهب إليها إذن.»

أمسكتني من يدي وشدّتني وهي تقول:

«مهلاً، ليس هكذا!»

«كيف إذن؟»

«السيدة الكبيرة حسّاسة جداً، لا تسمح لأحد بدخول غرفتها منتعلاً. هيا اخلع حذاءك!»

أطلقت آهة لا شك أن القدر اللعين نفسه قد سمعها. وكيف لا أيها الأصدقاء؟ فإذا خلعت حذائي سيمتلئ القصر برائحة إذا لم تقتل السيدة الكبيرة، فسوف تدوّخها من كل بدّ. إن آنشة فتاة ذكية ومتفهمة جداً، وقد فهمت سبب تأوهي بدون أن أخبرها بشيء، فأمسكت بيدي واقتادتني إلى الحمام:

«منشفة القدمين هناك، وسوف أحضر لك زوجاً من الجرابات النظيفة، هيا اغسل قدميك!»

غسلت قدمي، ثم صعدنا إلى الطابق الثاني حيث دخلنا غرفة السيدة الكبيرة، يا الله! أية غرفة هذه! هل أقول إنها مثل غرف نوم الملوك؟ حتى غرف الملوك لا يمكنها أن تكون هكذا. لقد كان الأمر كما لو أن أحداً حكى حكاية خرافية، ووجدت نفسي داخل تلك الحكاية.. الجدران والأبواب مطليّة ومزخرفة، وكذلك هو السقف.. أما السيدة الكبيرة فبدينة بدانة لا تصدَّق. حينما دخلت الغرفة ظننتها حملاً أو مجموعة من الفرشات المرتبة بعضها فوق بعض، أو كومة كبيرة من الأشياء، فبدأت أتلفت حولي بحثاً عن السيدة الكبيرة، لكزتني آنشة وهمست لي: «التفت إلى هذا الاتجاه!» لأنني في بحثي عن السيدة الكبيرة كنت قد أدرت ظهري لكومة الفرشات. وكم كانت دهشتي عندما رأيت تلك الكومة الموضوعة فوق الديوان تتحرك، أشبه ما تكون بالمواعين في مياه «خليج». لعلها في السبعين من عمرها أو الثمانين، أو أكثر من ذلك.. الآن فهمت لماذا قالت آنشة إنها لا تخرج من غرفتها. فقد أصبحت المرأة شبه مقعدة لفرط بدانتها. عند دخولنا إلى الغرفة كانت مسترخية فوق ديوان أشبه ما يكون بعرش ملكي. قالت آنشة متوجهة بكلامها إلى السيدة:

«سيدتي لقد أخبرتك عن قريب لي، إنه هنا.»

«وما الموضوع؟»

«كنت قد طلبت أحداً ليعمل في القصر.»

«هه! أهذا هو؟ خطيبك، أليس كذلك؟ - أدارت رأسها نحوي - تعال هنا، اقترب لأراك جيداً.»

اقتربت منها، فبدلت نظارتها بأخرى وتفحصتني من رأسي حتى قدمي كمن يتفحص بضاعة يريد شراءها.

«ماهو اسمك؟»

«اسمي يشار.»

«أقيم في هذا القصر وحدي، ابنتي وزوجها في أمريكا، ابني وزوجته يأتيان مرة كل أسبوع، آنشة تقوم بأعمال المنزل، أما أنت فسوف تهتم بالأعمال في الخارج، أعني الحديقة والسوق وأمور الشراء وما إلى ذلك..»

«على رأسي.»

«أنا مسرورة جداً من آنشة. أنت خطيبها، وقد أوصتني بك، اشتغل وسوف نرى. - التفتت إلى آنشة - دلّيه على غرفته ومكان عمله...»

«سأفعل يا سيِّدتي.»

خرجنا من غرفتها، فقلت لآنشة:

«يا بنت، هذه السيدة لم تقل شيئاً عما ستدفعه لي، ولا ساومناها. ترى كم ستعطيني شهرياً؟ أم أنها ستشغلني مقابل طعامي فقط؟»

استاءت آنشة كثيراً وقالت لي:

«صه! ومن أين لك أن تعرف الناس المرموقين.. السيدة الكبيرة لا تساوم أبداً، ويدها مبسوطة».

بدأت العمل في اليوم نفسه، واتضح أن ما قالته آنشة عن سخاء السيدة هو صحيح. فهي ترسلني إلى السوق، إلى البقّال أو الفاكهاني أو غيرهما فتعطيني نقوداً، وعند عودتي أعيد لها الباقي فتقول لي:

«اتركها معك.»

ما تتركه من فوارق الحسابات يفوق راتب موظف، أما النزول إلى السوق فليس بالعمل المتعب، لأن مختلف الباعة يرسلون أجراءهم إلى القصر كل صباح، فلا يبقى لي إلا القليل من العمل، في حين أنني أعمل أكثر في الحديقة، أشذب الأشجار وأقص الأعشاب وأسقي الأزهار التي زرعتها. وحين يحل الليل لم تعد آنشة تطردني كما في السابق.. حمداً لله كم وضعنا مريح.. فقط وبختني آنشة لأنني خاطبت السيدة بضع

مرات بـ- «هانم أفندي» فقط دون أن أضيف كلمة «الكبيرة» إلى لقبها، وذلك لصعوبة اللقب على لساني.

«إذا خاطبتها بـ- «هانم أفندي» فقط فبم ستخاطب إذن ابنتها أو كنّتها؟ عليك أن تخاطب أولئك السيدات بـ- «هانم أفندي»، أما هذه فبلقب أرفع هو «هانم أفندي الكبيرة..»

ما أكثر ما علّموه لآنشة! إن كل سكان المنطقة وصولاً حتى المرفأ، يعرفونها والجميع يسميها «هانم أفندي الكبيرة» أو «غوهر هانم أفندي» والجميع يكنّ لها الاحترام.

تلاحقت الأيام ونحن نواصل حياتنا في القصر بتلك الطريقة، إلى أن كان صباح قرع فيه جرس الباب. كان من عادة بائع الحليب أن يأتي كلّ صباح في مثل تلك الساعة، لذلك التقطت وعاء الحليب وفتحت الباب وأنا اتابع حديثاً لي مع آنشة، مددت يدي بالوعاء ووجهي متجه إلى آنشة. لم أنظر إلى من في الباب لمعرفتي بأنه بائع الحليب، ومازحته قائلاً:

«تقول السيدة الكبيرة بأن حليبك فاسد..»

فقد كان من عادتي أن أتبادل المازحات مع بائع الحليب كل صباح. عندما لم أسمع رداً منه التفت إلى الباب فرأيت بدلاً من بائع الحليب شرطياً يقف هناك، وواضح من تعبير وجهه أنه مستاء من عبارة «فاسد الحليب*» التي أطلقتها عليه.

«آسف جداً، ظننتك بائع الحليب، اعذرني.»

«هل غوهر هنا؟»

ساءني كثيراً قول الشرطي عن «غوهر هانم أفندي» غوهر فقط. أية جرأة! كيف يمكنه أن يدعوها باسمها المجرّد، في حين تدعوها المنطقة كلها بـ- «غوهر هانم أفندي»! في أسوأ الأحوال خاطبها بـ- «غوهر هانم» يا أخي! قلت له مناكداً:

«ليس هنا من يدعى بـ- «غوهر»، بل «غوهر هانم أفندي». هذا قصر السيدة غوهر هانم أفندي.»

«آنا لم أسألك عن هوانم أو ستّات، إني أسألك عن غوهر. هل غوهر هنا؟»

---

* يعني تعبير فاسد الحليب = فاسد التربية

أجبته نكاية:

«غوهر هانم أفندي موجودة.»

«ناده إذن، ليأتي إلى هنا**.»

«لا تستطيع أن تأتي!»

«كيف لا يستطيع أن يأتي؟»

«كما أقول لك.. قل لي ما تريد، فأصعد إلى الطابق الثاني وأبلّغها. فهي لا تستطيع النزول.»

«ولم لا يستطيع؟! بل سيأتي وهو يطير!»

«حسناً إذن، اجعلها تأتي لنر..»

«يا سلام! ماذا تعني؟ هل تعني أنه يرفض الانصياع لسلطة القانون؟»

«لا يا عزيزي، ولم تعص القانون؟ إنها بدينة جداً إلى درجة تمنعها من النزول على الدرج.»

عندما قلت ذلك اتسعت عيناه دهشة كمن سمع شيئاً مثيراً جداً للاستغراب:

«كيف لا يستطيع النزول على الدرج؟ هل يمكن لإنسان فتي أن يكون بهذه البدانة؟»

هذه المرة جاء دوري في الاندهاش:

«أي إنسان فتي! أي شباب تتحدث عنه! إنها تفوق السبعين، بل ربما الثمانين.»

بقي برهة فاغر الفم، ثم دمدم قائلاً:

«يا الله.. يا للعجب! يا له من أمر!»

«ما الموضوع؟ لماذا أنت مستغرب؟»

قال وهو يضرب بيده فوق رزمة أوراق يمسكها بيده الأخرى:

«يا أخي مكتوب هنا أن عمره اثنان وعشرون عاماً. هذا ما تسجله الأوراق الرسمية.»

«أوه يا سيدي، ما بالك تنظر بجدية إلى الأوراق الرسميّة.. إنها مجرد أوراق رسميّة،

** نلفت نظر القارئ إلى عدم تمييز اللغة التركية بين المذكر والمؤنث في الضمائر.

يمكنها أن تكتب ما تشاء.. إن تلك الأوراق الرسمية تشير إلى أنني ميت، بل أنا ميت قبل أن أولد.»

لوى شفته السفلى باستغراب وقال:

«إذن في السبعين من العمر؟»

«كما قلت لك، ربما ثمانين.»

«طيب، كيف حدث إذن أنه لم يؤد خدمته العسكرية حتى الآن؟»

داهمتني ضحكة:

«من هو الذي لم يؤد الخدمة العسكرية؟»

قرأ الاسم من ورقة في يده:

«غوهر»

«ما الذي تقوله! غوهر هانم أفندي! إنها امرأة! امرأة!»

كان عليكم أن تروا الشرطي المسكين، كيف أضاع زمام نفسه تماماً.

«شيء غير مفهوم. إن شعبة التجنيد تلاحقه باعتباره فاراً من الخدمة العسكرية. هذا يعني أن غوهر المطلوب هو غوهر آخر. لكن الغريب أن العنوان المكتوب في هذه الأوراق يطابق عنوان هذا البيت. هيا يا أخي اذهب وأخبرها لتنزل دقيقة إلى هنا.»

«لقد قلت لك يا سيدي إنها غير قادرة على النزول.»

«أخبرها بأن الشرطة تنتظرها، فتأتي. هذا واجب وطني، كلنا تعرض لمواقف كهذه. لا سبيل للهروب أو النجاة من هذا الواجب، وأينما هرب المرء فإن ذراع الدولة تطاله. أينما اختبأ سيقبض عليه. هيا أخبرها لتأتي. فقط سآخذ توقيعاً منها على ورقة، ولن أمسك بها وأقتادها إلى الجندية فوراً.»

واضح أن الشرطي لم يصدق ما قلته له، ولعله ظن أنني أسخر منه.

«سبق وأخبرتكم بأنها لا تستطيع أن تنزل. حسناً، سأذهب وأخبرها بمجيئكم، لعلها تدعوكم إلى غرفتها..»

رد الشرطي بنبرة متعالمة:

«هيا، هيا.. اذهب وأخبرها!»

صعدت إلى الطابق العلوي، وقلت للسيدة الكبيرة:

«سيدتي، ثمة شرطي يدّعي بأنكم فارٌّ من الجندية.»

لم تفهم ما قلته، وعندما شرحت لها انفجرت في ضحكة جعلتها تتقافز فوق الديوان ذي النوابض، لم تسبق لي رؤية السيدة الكبيرة تضحك بهذا الشكل. سألتني:

«أين الشرطي الآن؟»

«إنه عند الباب، ويطلب رؤيتكم. لقد قلت لها أنكم لا تستطيعون النزول. هل تريدون أن أدعوه إلى هنا؟»

«ليأت، ليأت، ولكن ليخلع حذاءه قبل أن يدخل!»

قلت للشرطي الواقف أمام الباب:

«تفضل إلى الطابق العلوي. السيدة الكبيرة تنتظرك!»

وعندما دخل الشرطي إلى الصالة قلت له:

«ولكن.. المعذرة يا سيدي.. عليكم أن تخلعوا حذاءكم، إنها عصبية جداً، ولا تحتمل دخول أحد بحذائه إلى غرفتها.»

أظن أنه كان من المستحيل أن يخلع حذاءه لو أنه دخل أي بيت آخر، لكنه عندما رأى القاعة السفلية في القصر بنقوشها وزخرفتها وتحفها، فقد أذهله المكان وحلّ رباط فردتي حذائه تحت صدمة ذلك الذهول، وصعد السلّم.

«هذه هي غرفتها، ذلك الباب المفتوح.»

«تلك المرأة التي تغطي نفسها بالبطانيات؟ مستحيل!»

دخلنا الغرفة فوجدنا السيدة الكبيرة ما تزال تضحك. سألت الشرطي قائلة:

«هل ستقتادوني إلى الجندية؟»

«والله، لا أعرف ماذا أقول..»

«ما الأمر؟ احك بوضوح..»

«برؤيتكم اختلطت الأمور..»

«من الذي شوّش الأمور؟ بالتأكيد لست أنا.»

«إنهم يبحثون عنكم بداعي الفرار من الخدمة العسكرية..»

سيطرت على السيدة الكبيرة نوبة ضحك جديدة. وعندما توقّفت عن الضحك قالت للشرطي:

«مفوّض قسم الشرطة الذي تتبعون له يعرفني. جازاكم الله خيراً!»

لقد قالت عبارة «جازاكم الله خيراً» بنبرة أوحت بما هو أسوأ بكثير من عبارة: «لعنكم الله!»

بدأ الشرطي يقرأ من ورقة في يده:

«اسمكم غوهر، أليس كذلك؟»

«نعم، غوهر.»

«الكنية؟.»

«يكندر»

«صحيح، الكنية مطابقة. مكتوب هنا: غوهر يكندر.. اسم الأب؟»

«والدي، المرحوم الفريق ممدوح باشا ناظر الطوبخانة.»

«نعم، ممدوح. هنا مكتوب كذلك.»

استاءت السيدة الكبيرة فجأة وقالت:

«ليس ممدوح يا بني.. ليس ممدوح، بل ممدوح باشا.»

تمالك الشرطي نفسه، فسألها بطريقة أكثر تهذيباً:

«أمكم يا سيِّدتي؟»

«أمي اسمها وسامت.»

جقجق الشرطي مُعبِّراً عن استغرابه وقال:

«كل شيء مطابق باستثناء كونكم امرأة، وعمركم، اللذّين يفسدان الأمر.»

فسخرت منه السيدة الكبيرة بقولها:

«لا!!؟ واه واه! شيء مؤسف جداً!»

قال لها الشرطي:

«سيدتي، إذا أحضرتم إلى القسم صورة عن بطاقتكم الشخصية، فسوف نكتب إلى شعبة التجنيد.»

«يا بني، ها أنت تراني.. فلماذا عليّ أن أذهب إلى القسم؟»

هزّ الشرطي يده علامة على تفاهة الإجراء وقال:

«إنه إجراء روتيني يا سيدتي، إجراء روتيني.»

«لن آتي أبداً!»

ولكن سدى، فقد أصبح الشرطي يأتي كل يوم إلى القصر ويقول:

«على السيدة غوهر أن تأتي إلى القسم كإجراء روتيني.»

بلغ الأمر حداً لا يطاق بالنسبة للسيدة الكبيرة، فقالت:

«بما أنه إجراء روتيني، حسناً لأذهب إذن إلى القسم.»

حسناً ولكن كيف ستهبط تلك السيدة العجوز البدينة درجات السلم، وكيف ستستقل السيارة ثم تترجل منها وتدخل القسم.. سندناها أنا من جهة، وآنشة من الجهة الأخرى لا بأس بذلك لكني خشيت على آنشة أن تسقط جنينها تحت ثقل السيدة الكبيرة.. أما إذا لم تمسك بها آنشة، فلن أتمكن وحدي من تحمل وزنها.. سأقول إن وزنها مئة وخمسين كيلو، وقولوا أنتم مئتي كيلو.. من المعيب أيضاً أن أحملها على ظهري، أعني أنه سيكون معيباً لي لأنني سأعجز عن حملها، فإذا تدحرجنا على الدرج سأنسحق تحتها وأصبح مسطحاً تماماً، إن خشيتي هي إسقاط آنشة لطفلها.. على كل حال، تحملت معظم وزنها بنفسي، ونقلناها بالسيارة إلى القسم ونحن غارقين في العرق.

دخلنا غرفة مفوض القسم، فتربعت السيدة على الكنبة المواجهة لمكتب المفوض وهي تقول: «أووف، آمااان.. تعبت كثيراً.» وكأنها هي من حملتنا، لا العكس. إذا قلت إنها تربعت فلا تظنوا أنها فعلت ذلك ببساطة، فقد لاقت صعوبة كبيرة في حشر ردفيها الكبيرين بحجم حجر الطاحون في تلك الكنبة. كان المفوض يعرفها فعلاً، فقد راح يدور حولها متملّقاً: «آمان ياغوهر هانم افندي، سامحونا... والله لا أعرف كيف سأعتذر منكم.. لقد أتعبناكم كثيرا... ما كان بودي أن أزعجكم بالمجيء إلى هنا، ولكن وتعرفون ذلك خيراً مني - يتطلب الأمر إتمام بعض الإجراءات الروتينية أصولاً..»

«حسناً، حسناً.. بعد كل هذا العمر أحضرتموني إلى هنا لتروا إذا كنت رجلاً أو

امرأة.. لقد طلبتم صورة عن بطاقتي الشخصية، هاهي، تفضلوا.»

أخذ المفوض صورة البطاقة وسألها ليرطب الجو:

«بم تأمرون يا سيدتي؟ شاي أم قهوة أم مشروباً بارداً؟»

«دمتم يا بني، لا أريد أي شيء. إذا كنا قد انتهينا مما تدعونه بالإجراءات، فسوف نمشي. لقد جئنا إلى هنا بمشقة بالغة.»

فقال المفوّض:

«لحظة من فضلك يا سيدتي، فسوف نفتح ضبطاً.»

بدأ غضب غوهر هانم أفندي يتصاعد تدريجياً:

«أي ضبط يا بني؟»

«لنفتح ضبطاً يؤكد أنكم امرأة، فهذا سيسهل الأمور مستقبلاً، حتى لا يقلق أحد راحتكم.»

«آآآه! وماذا أيضاً! هل سأثبت أنني امرأة بعد هذا العمر بوساطة ضبط الشرطة؟ لا أريد ضبوطاً أو غيرها!»

قال لها المفوض مسايراً:

«هذا الضبط يا سيدتي هو إجراء روتيني وفقاً للأصول. لا شك أن جميع الناس يعرفون بأنكم امرأة.. ولكن يحسن بنا أن نفتح ضبطاً وفقاً للأصول فنوثق كونكم امرأة، حتى لا تواجهوا أية صعوبات مستقبلاً.»

رضخت السيدة الكبيرة على مضض وقالت:

«أوه، حسناً، مادام الأمر وفقاً للأصول، افعلوا ما تشاؤون.»

أخذ المفوض يملي، وضارب آلة كاتبة من الشرطة يكتب: تم تنظيم هذا الضبط الذي يوثق واقعة كون السيدة «غوهر يكندر» المقيمة في العنوان المذكور، أنثى، وذلك..»

فضلاً عن المفوض وشرطيين من القسم وقّعنا على الضبط أنا وآنشة أيضاً بناءً على طلب المفوض. أركبنا السيدة الكبيرة في السيارة وأخذناها إلى القصر وأنا أحمل أكثر من نصفها، وآنشة قليلاً منها، وهي نفسها ما تبقى.

كان أصعب شيء هو حملها على صعود الدرج، أوشكنا مرتين أن نتدحرج نحن الثلاثة

من أعلى الدرج حتى أسفله. مددناها أخيراً على الديوان، وكنا في الرمق الأخير.

مرت فترة من الزمن، وإذ بالشرطي نفسه يدق الباب مجدداً، قال إن على السيدة الكبيرة أن تذهب إلى شعبة التجنيد «أصولاً»، مؤكداً أنه ليس للأمر أية أهمية، بل هو مجرد إجراء «أصولاً». في البداية كانت السيدة الكبيرة تعتاظ كثيراً من كلمة «أصولاً» هذه، لكنها اعتادت عليها مع التكرار.

«حسناً، لنذهب ما دام الأمر «أصولاً»..»

لم تكن شعبة التجنيد في مكان قريب مثل قسم الشرطة. أركبنا السيدة الكبيرة في السيارة وأخذناها إلى شعبة التجنيد، وليت الأمر بالسهولة التي أحكيه فيها لكم الآن. من تجربتنا في الذهاب إلى القسم كنا نعرف مدى صعوبة إدخال السيدة الكبيرة إلى السيارة، لذلك فقد استأجرنا سيارة ذات باب واسع.

كان ابن السيدة الكبيرة وكنتها وأحفادها يأتون إلى القصر كل يوم أحد، وفي بعض المرات يقضون فيه الليل، وقد امتنعت السيدة عن إخبارهم باستدعائها إلى الخدمة العسكرية، كما أنها نبهت آنشة بألا تتفوه بكلمة حول الموضوع، في حين أنها لو أخبرت ابنها، لكان أوصلها إلى أي مكان تريده بسيارته الخاصة. كان رأي آنشة في تفسير سلوك سيدتها هو أن هذه الأخيرة تخفي الأمر عن الآخرين بسبب شعورها بالعار من اضطرارها إلى إثبات أنوثتها. إنها لفضيحة بحقها انتشار خبر استدعائها إلى الخدمة العسكرية.

عندما دخلنا غرفة رئيس شعبة التجنيد، قالت له:

«أيها السيد، لقد أوصلوني إلى شعبة التجنيد وهم يكررون عليَّ كلمة أصولاً.»

قال رئيس شعبة التجنيد:

«من الواضح أنه ثمة خطأ يا سيدتي، سنصحح الخطأ.»

«أنا امرأة مسنة، عندي أولاد وبنات وأحفاد، إنكم تورطونني بعد هذا العمر في موضوع الخدمة العسكرية، تزعمون بأنني هاربة من الخدمة.»

«هدئي أعصابك يا سيدتي.»

«وكيف أهدأ يا بني.. لقد بلغتم رتبة العقيد ما شاء الله، فإذا فصلوكم من الجيش اليوم بدعوى أنكم امرأة، ألن تغضبوا؟.. إن موضوعي شبيه بهذا، فأنا ابنة المرحوم

الفريق ممدوح باشا ناظر الطوبخانة، وكان زوجي جنرالاً هو المرحوم حليم باشا.»

عندما سمع العقيد كلام السيدة الكبيرة، قفز من مكانه واقفاً: «أوه! ماذا تقولين يا سيدتي» قال ذلك وانحنى على يدي السيدة الكبيرة يمطرهما بالقبلات وهو يتابع كلامه في الوقت نفسه:

«أرجوك اسمحي لي أن أقبل يديك.إن المرحوم حليم باشا هو ولي نعمتي، وأنا أعرفكم يا سيدتي، لقد كنت في خدمة حليم باشا حينما كنت ملازماً.»

ارتاحت السيدة الكبيرة قليلاً عندما سمعت هذا الكلام:

«ليقبّل يديك كثيرون.. الجميع يقولون مثلك بأنهم يعرفونني، لكنهم مع ذلك يزعمون بأنني هاربة من الخدمة العسكرية ويريدون اقتيادي.»

«لا تزعجي نفسك يا سيدتي.»

«لكن الأمر يفوق كل طاقة على الاحتمال.. منذ شهرين وأنا منشغلة بأمر الجندية هذا. لحسن الحظ أنني امرأة معروفة في محيطي، وإلا لكانوا اقتادوني إلى الخدمة العسكرية وأقحموني في إحدى الثكنات غير مبالين بعمري أو أنوثتي ولا بصراخي وعويلي.»

كان من الواضح أن رئيس الشعبة يتمالك نفسه بصعوبة حتى لا يضحك:

«للأسف تحدث أخطاء من هذا النوع من حين إلى آخر. إن الخطأ المتعلق بكم ليس بذي أهمية، ويمكن تصحيحه بسرعة. لكن لدي رجاء.»

«العفو، ما هو؟»

«عليكم أن تذهبوا أصولاً إلى دائرة النفوس لتصححوا هذا الخطأ في السجلات.»

«أووه! سوف أنفلق الآن! آه آمان إني أشعر بدوار.. كأساً من الماء يا بني..»

ضغط العقيد جرساً، فظهر جندي طلب منه كأساً من الماء. خرج الجندي من الغرفة ولم يعد، داهمت السيدة نوبة فهاق بسبب توتر أعصابها، كادت تخنقها.. راحت المسكينة تطلب الماء بيأس. ضغط العقيد زر الجرس ثانية، فظهر الجندي نفسه مرة أخرى، شتمه العقيد بلغة العقداء وصرخ به «من أين تنقل هذا الماء ولاك؟ أين الماء؟»

أجاب المسكين وهو يرتعد:

«المياه منقطعة سيدي العقيد.»

«تفو عليك.. اذهب إلى المقهى، هاتوا مياه معدنية! أحضروا عصير فواكه أو كازوز!»

«المياه مقطوعة منذ الصباح، سيدي العقيد، لذلك لم يبق في أي مكان أي شيء يمكن شربه.»

طرد العقيد الجندي، وأخرجت آنشة زجاجة كولونيا من محفظتها دلكت بها وجنتي السيدة الكبيرة وذراعيها، فتحسنت قليلاً وقالت للعقيد:

«يا بني، القسم يعرف بأنني امرأة، ومع ذلك يفتح ضبطاً وفقاً للأصول، لكن الضبط لا ينفع فيحيلوني أصولاً إلى شعبة التجنيد، وأنتم تعرفونني منذ ثلاثين عاماً يوم كنت ملازماً، ومع ذلك تحيلونني أصولاً إلى دائرة النفوس. أي عجب هذا! إني لا أفهم شيئاً قط!»

حاول رئيس الشعبة أن يعزي السيدة الكبيرة بالقول:

«أصولاً يا سيدتي أصولاً.»

لم يبق لديها من الطاقة ما يكفي لذهابها إلى دائرة النفوس، فأعدناها إلى القصر بالسيارة.

لن أخفي عن العباد ما يعرفه الله: برؤيتي لمشكلة السيدة الكبيرة فرحت في سري لأن ثمة في العالم من هو أسوأ مني حالاً.. أعرف أن هذا سيء، لكنه الحقيقة. يقولون لي بأنني لست حياً، في حين أنهم يحاولون جر امرأة ثرية في الثمانين من عمرها إلى الجندية بدعوى أنها رجل. حالتها إذن أسوأ من حالتي.

هذه الأحداث أتلفت أعصاب السيدة الكبيرة فبدأ أحد الأطباء يتردد عليها كل يوم، الأمر الذي منعنا من اصطحابها إلى دائرة النفوس، وعادت الشرطة إلى المواظبة على قرع باب القصر، وهذه المرة برفقة عنصر من الشرطة العسكرية.

«لم يصلنا تصحيح قيدها في دائرة النفوس، لذلك سوف نضطر إلى اقتيادها إلى الخدمة العسكرية.»

نعم، إنه شيء لا يصدق. ويتصاعد غضب السيدة الكبيرة فتقول:

«لو أنني قادرة على المشي، لقلت لهم: هاأنا، هيا خذوني إلى الخدمة، افعلوا ما تشاؤون، حتى تنفجر الفضيحة بصورة كاملة! ولكن ما العمل وأنا غير قادرة على

المشي؟»

عندما شعرت باليأس ذهبت إلى دائرة النفوس، أعني أننا أخذناها إليها.

حين رأى مدير الدائرة السيدة الكبيرة ركض نحوها وقبل يدها وهو يقول:

«آمان يا غوهو هانم أفندي..»

ليس ثمة من لا يعرف هذه المرأة. قال المدير بأنه يعرفها منذ طفولته، وأن لها أياد بيضاء كثيرة عليه وبدأ يستحضر الأيام الخوالي، أراد أن يطلب لها شاياً أو أي مشروب آخر، لكنها رفضت فقال لها:

«أنا تحت أوامركم يا سيدتي!»

فأخبرته السيدة بما جرى لها، وبأن شعبة التجنيد قد أرسلتها أصولاً إلى هنا لكي يتم تصحيح قيد نفوسها، وإلا أخذوها إلى الخدمة العسكرية.

كرر مدير الدائرة وهو يبتسم ما قاله رئيس شعبة التجنيد من أن أخطاء كهذه تقع من حين إلى آخر، وأضاف:

«لا تهتمي يا سيدتي سنأتي بالسجلات الآن فنجد الخطأ ونصححه.»

«الله يرضى عليك يا ابني... ليتحول كل ما تلمسه إلى ذهب... ليعطك الله على قدر نيتك..»

استدعى المدير أحد الموظفين وأعطاه الاسم وبعض الملاحظات مؤكداً عليه أن يسرع. لم يمض وقت طويل حتى عاد الموظف وتحت إبطه مجلد سميك وبيده ورقة عليها ملاحظات مكتوبة. تهامسا لفترة وهما يكتمان ضحكهما، عندما انصرف الموظف التفت المدير إلى السيدة الكبيرة مبتسماً وقال لها:

«اتضح الخطأ الآن يا سيدتي.»

ردت بابتهاج كبير:

«أوه، أوه! طبعاً سيتضح. لقد عذبوني بلا مبرر. ما هو الخطأ يا ولدي؟»

رد المدير وهو يبتسم مجدداً:

«لقد وقع خطأ صغير يا غوهر هانم أفندي، انظروا هنا: لقد كتبوا تاريخ ميلادكم ١٣٥١ بدلاً من ١٣٠١، أي أن السجل يظهرك بعمر ٢٢ سنة بدلاً من ٧٢ سنة.»

كانت السيدة فرحة جداً لأن أمورها تحل، لذلك أطلقت ضحكة صاخبة وقالت:

«ما الفائدة من إظهاري شابة على الورق؟ ليعيدوني إلى الشباب فعلاً، حتى أهنئهم على براعتهم.»

«وقد اختلط عليهم أمر اسم غوهر فظنوا أنه اسم مذكر. فإذا امتنع شاب في الثانية والعشرين من عمره عن حضور اختبارات التجنيد، فإنه يعتبر بحكم الفار.»

ضحكوا جميعاً باستثنائي وباستثناء آنشة، فقد التزمنا حدود الاحترام.

سألت السيدة الكبيرة:

«ومن الذي ارتكب هذا الخطأ؟»

«موظف ما قليل الانتباه.. لقد انقضت سنوات طويلة منذ ذلك الوقت، من يدري من هو وأين يقيم، لابد أنه قد تقاعد منذ وقت طويل.»

«حسناً، وما الذي سنفعله الآن؟»

«المشكلة اتضحت والحمد لله، الآن الأمر سهل.»

«إذن سوف نذهب، عن إذنك يا بني.»

قالت ذلك وهمّت بالنهوض، فأمسكتها من ذراعها على الفور. قال مدير دائرة النفوس:

«لحظة واحدة يا سيدتي. لقد اتضح الموقف بالنسبة لنا ولكن.. عليكم أن تلجأوا أصولاً إلى المحكمة حتى يتم تصحيح الخطأ بصورة رسمية.»

أطلقت السيدة الكبيرة صرخة:

«أوه! سوف أجن الآن!»

حاول المدير أن يهدئها فقال:

«ليست محاكمة ذات أهمية يا غوهر هانم أفندي، بل مجرد محاكمة أصولاً.»

«لست أنا من ارتكب الخطأ حتى أذهب إلى المحكمة. حاكموا ذلك الذي ارتكب الخطأ!»

«لكن من سيقتاد إلى الخدمة العسكرية ليس هو الموظف الذي ارتكب الخطأ بل أنتم. من يدري إن كان ذلك الموظف حياً أم ميتاً الآن.. بل حتى لو تم العثور عليه فإنه لا

يستطيع أن يصحح الخطأ الذي ارتكبه بنفسه بدون قرار من الحكمة.»

«أنتم تعرفونني يا بني.. تعرفون عمري وترون بأنني امرأة.. فأية محكمة بعد ذلك؟»

«لقد قلت لكم يا سيدتي، إنها محكمة أصولاً.. وكيف لا أعرفكم؟ ولكن ما باليد حيلة. لا نستطيع تصحيح الخطأ في السجلات بدون قرار من المحكمة. هكذا هي الأصول، لذلك عليكم أن تلجؤا إلى المحكمة أصولاً.»

«حسناً يا بني، ولكن الشرطة والشرطة العسكرية يأتيان كل يوم ويقرعان باب القصر. وفيما أنا منشغلة بالأصولاً وخلافه، سوف يقتادوني بعد هذا العمر ويقحموني داخل ثكنة بعد أن يقبضوا علي بتهمة الفرار.»

فرك المدير يديه وقال:

«لو أنني قادر على فعل شيء من أجلكم لما قصرت، وخصوصاً لكم..»

ساعدنا السيدة الكبيرة في ركوب السيارة بألف مشقة وأعدناها إلى القصر، وبصعوبة أخرجناها من السيارة وأوصلناها إلى غرفتها، حيث مكثت آنشة معها وراحت تدلكها بكولونيا بعطر الليمون، في حين أنني بقيت أنتظرهما في الصالون. يبدو أن طاقتها على التحمل قد نفذت فاتصلت بكنتها. كنت أسمع حديثها على الهاتف من موقعي في الصالون، كانت تصرخ بغضب:

«آلوووه.. آلوووه! لعنة الله عليك أيها الهاتف! هل تسمعينني يا ابنتي؟ هل فهمت جيداً ما قلته لك؟ نعم، إنهم يسعون إلى اقتيادي إلى الجندية.. وسوف يفعلونها.. والله أنا لا أمزح.. يقولون بأنني فارّة من الخدمة العسكرية. كل يوم تأتي الشرطة إلى القصر.. آلووه.. هه؟ أخبري ابني عندما يعود إلى البيت، ليتصل بي فوراً... وكيف لا يعرفونني يا عزيزتي، إنهم يعرفونني جميعاً... يعرفونني في القسم أيضاً.. وكذلك رئيس شعبة التجنيد اتضح أنه من معارفنا، أما مدير النفوس فقال إنه من حارتنا. ويريدون جميعاً أن يساعدوني بطريقة ما، ولكنهم عاجزون عن فعل أي شيء. هذه هي الأصولاً. قولي لزوجك أن يجد لي محامياً بسرعة.. والله لست أمزح يا عزيزتي، فلا تضحكي.. لم أشأ أن أخبركم حتى الآن، لكن الوضع لم يعد يحتمل. فيمكن أن تفاجأوا باقتيادي إلى الجندية قبل أن يكون لديكم علم. سوف أبرق إلى أمريكا أيضاً لتأت ابنتي أو صهري. تعاونوا جميعاً لتفعلوا شيئاً حتى تنقذوني من الالتحاق بالجيش في أرذل العمر. لتستقل ابنتي الطائرة وتأتي. الوضع لا يحتمل المزاح أبداً، فبين الأصولاً والمصولاً سيلحقونني

بالجيش. هيا مع السلامة يا ابنتي، قبلي الأولاد عني.»

إن المرء يعمى عن نفسه ويرى الآخرين. فقد مت من الضحك وأنا أصغي إلى مكالمة السيدة الكبيرة، كما لو أن وضعي أفضل من وضعها. ثم سمعتها تناديني:

«يشاااا ر!»

دخلت غرفتها:

«مريني سيدتي.»

كانت آنشة تدلك كتفيها قالت لي:

«انتظر قليلاً حتى أكتب برقية إلى صهري، وستأخذها إلى البريد.»

فيما كانت آنشة تدلك كتفيها و عنقها، أردت استغلال وقت الانتظار لأطرح مشكلتي:

«سيدتي!»

«نعم...»

«أنا أيضاً عندي مشكلة.»

«هه! لقد وجدت الوقت المناسب تماماً، فقد انتهت مشكلتي، والآن جاء دورك.»

«ذلك أن مشكلتي تشبه مشكلتكم.»

«قل إذن، ما هي مشكلتك؟»

«كما قالوا لكم في دائرة النفوس.. مشكلتي مثلها تماماً...»

«يعني؟»

«أنا غير حي..»

«آه! ينقصنا مجانين.»

«لست حياً لأن سجلي يظهر أنني استشهدت في معركة جنق قلعة.»

«عزيزي، أنت لم تولد بعد عندما وقعت معركة جنق قلعة.»

«أما في سجلات شعبة التجنيد فيظهر اسمي باعتباري استشهدت في تمرد ديرسم.»

راحت السيدة الكبيرة ترمقني من تحت يدي آنشة اللتين تدلكانها، لتعرف إن كان ثمة

لوثة في عقلي. سألتني:

«وبعد؟»

«هكذا.. إنهم لا يعطونني بطاقة شخصية لأنني استشهدت في موقعتين مختلفتين.»

«لماذا؟»

«لأنني غير موجود.»

«آه، أتقصد أنك لا تملك بطاقة شخصية الآن؟»

«لا، لا أملك.. لكنني قلت لنفسي بما أنكم ستوكلون محامياً، فلعله يحل لي مشكلتي أيضاً.»

«على مهلك ولا تشوش لي عقلي، دعني أكتب البرقية.»

وطلبت من آنشة أن تقرب منها الطاولة ذات العجلات، ثم كتبت البرقية وأعطتها لي لأوصلها إلى مكتب البريد، لقد كتبت إلى صهرها بأنهم سيسوقونها إلى الجيش بداعي الفرار العسكري، وذلك بسبب خطأ في سجل نفوسها، طالبة منه أن يراسل محاميه في استانبول حتى يساعدها على تصحيح الخطأ، وتنهي برقيتها بالقول إنه من المستحسن آن يأتي مع زوجته وأولاده إلى استانبول، بما أن الوقت هو وقت عطلة.

تم توكيل محامي للسيدة وأقيمت الدعوى، وبدأت المداولات، قالت السيدة للقاضي:

«الموقف واضح، فأنا كما ترون بنفسكم امرأة مسنة لي أولاد وأحفاد، الجميع يعرفون هذا، ومع ذلك فكل جهة تحيلني على أخرى بحجة الأصولاً، وها قد أوصلوني أصولاً إلى المحكمة نفسها. أي أصولاً هو هذا؟ لم أفهم شيئاً قط، لم أعد أجد ما أقوله، أترك الكلام لمحامي.»

لقد تحدثت والحق يقال أفضل من أمهر المحامين. ثم تحدث المحامي بلغة المحامين، ولم أفهم شيئاً مما قال، ولكن يبدو أن القاضي فهم عليه. لقد قال كلاماً من نوع «إننا نلوذ بعدالتكم»طالباً تصحيح الخطأ.

استمع القاضي إلى جميع المتحدثين ثم انتهى إلى الإعلان:

«قررت المحكمة.»

وقف جميع الحضور لسماع قرار المحكمة.

«الاستماع إلى شهود الإثبات للتأكد من أن عمر صاحبة الدعوى هو اثنان وسبعون عاماً كما تدعي، وإحضار تقرير صادر عن لجنة طبية كاملة الصلاحيات للبت في جنس صاحبة الدعوى، وأن ترفع الجلسة إلى تاريخ كذا..»

قالت السيدة الكبيرة للقاضي:

«آه يا سيدي. هل سأذهب بعد هذا العمر إلى المستشفيات وأنكشف أمام الأطباء لأثبت أنوثتي؟»

لو أن السيدة الكبيرة لم تقل ما قالت لما فهمت أن عليها أن تذهب إلى المستشفى ليعاين الأطباء جنسها.

قال لها القاضي:

«لا أهمية لذلك، فهي معاينة أصولاً.»

امتلأ القصر بأولاد غوهر هانم وبناتها وأحفادها. ابنتها وصهرها وصلا متأخرين عن الآخرين، فعرفا بمجريات الأحداث متأخرين، قال الصهر لابن السيدة: «أية فضيحة هذه! لقد أسأتم التصرف.»

وحاول الصهر أن يمسك بزمام القضية لكنه لم يفلح في شيء. فأولاً لم يتم العثور على من يمكن أن يشهد في المحكمة على عمر السيدة الكبيرة، لأنه حتى يكون بوسع الشاهد أن يشهد في المحكمة على أن عمرا لسيدة هو اثنان وسبعون عاماً، عليه أن يكون في التسعين من عمره على الأقل. أين يمكنك العثور على شاهد في التسعين؟ أولئك الذين طلب منهم أن يشهدوا في المحكمة كانوا أصغر سناً من السيدة، والبعض منهم أبدى خوفه من المحكمة، حاول الصهر أن يقنعهم بالقول: «يا عزيزي، هذه ليست شهادة حقيقية، إنها مجرد شهادة أصولاً، لكن أحداً لم يستجيب. ثم تم العثور على شخصين من المعارف في التسعين من عمرهما، لكن أحدهما كان خرفاً، ولا أحد يمكن أن يتوقع ما سيقوله في المحكمة، من المحتمل مثلاً أن يقول إن السيدة في الثانية من عمرها بدلاً من أن يقول إنها في الثانية والسبعين. أما الآخر فعاجز عن الحركة ويوسخ نفسه، ومن غير الوارد إحضاره إلى المحكمة. في النهاية تم العثور على شاهدين بعد جهود شاقة. والآن هناك موضوع المعاينة في المشفى، وينبغي أن يتم ذلك في مشفى الدولة الكبير. عاندت السيدة الكبيرة أمام أبنائها وأحفادها:

«لا يمكنني أن أسمح للأطباء بمعاينة جنسي بعد هذا العمر!»

ويتوسل إليها أولادها:

«ليست هذه بمعاينة حقيقية يا ماما.. لقد سمعت ما قاله القاضي: إنها معاينة أصولاً..»

نعم لقد كان الجميع يعرفون بأن السيدة في الثانية والسبعين من عمرها وليست في الثانية والعشرين، كما يعرفون أنها امرأة وليست رجلاً، ومع ذلك كانت كل جهة ترمي بها أصولاً إلى جهة أخرى.

نقلنا السيدة الكبيرة إلى المشفى، لكن عددنا كبير هذه المرة، فقد جاء الجميع إلى المشفى، كالعادة حملناها أنا وآنشة، لكن الآخرين يمطروننا بالأوامر:

«أوه، انتبها!»

«مهلاً!»

«لا تشدها هكذا!»

«سوف تؤذيها، على مهلك!»

هذه هي طريقتهم في المساعدة.

على كل حال.. عاينها أحد الأطباء، بالطريقة نفسها التي أنظر بها إليكم بعيني الاثنتين، وتنظرون إلي.. وكتب تقريره الذي وقّع عليه الأطباء الآخرون من غير أن يعاينوا السيدة، لأنها معاينة روتينية «أصولاً»ثم ذهبوا إلى المحكمة حيث تم سماع الشهود وقراءة التقرير.

تريدون الحق؟ لم يكن لدي أي أمل بنتيجة المحاكمة، لكنها حكمت بأنوثة السيدة الكبيرة وهكذا نجت من أداء واجبها الوطني. في تلك الليلة أكلوا وشربوا بابتهاج وكان ثمة مدعوين أيضاً. وفي اليوم التالي انصرف الجميع من حيث جاؤوا فبقينا وحدنا في القصر.

عندما نجت السيدة الكبيرة من أداء الخدمة العسكرية انتابني أمل في الحصول على بطاقة شخصية، لعل محامي السيدة يساعدني على ذلك... استدعتني ذات مرة إلى غرفتها فقلت لها:

«مبروك يا سيدتي.. لقد أزعجوكم كثيراً، ولكن الخطأ تم تصحيحه في آخر المطاف

والحمد لله.»

«لكنني انتهيت حتى وصلت إلى ذلك يا بني.»

«لقد أخبرتكم منذ فترة بأنه لدي مشكلة شبيهة بمشكلتكم.»

«هـه صحيح، لقد حكيت شيئاً ما، قلت إنك لست حياً أو ما شابه.. ذكرني بمشكلتك..»

«لقد حكيت لك.»

«وهل كنت قادرة على فهم شيء في تلك الفترة؟ احك لي مرة أخرى.»

«لقد ارتكبوا في قيد النفوس الخاص بي خطأً يتعلق بالتاريخ، لذلك فهم لا يمنحوني بطاقة شخصية.»

أجفلت برعب وكأنني أخبرتها عن قنبلة ستتفجر في القصر بعد لحظات، وتراجعت إلى الخلف وكأن من يقف أمامها ليس يشار الذي يخدمها منذ فترة طويلة، بل وحشاً كاسراً، انبعثت من فمها صرخة ألم:

«أليست لديك الآن بطاقة شخصية؟ »

«لا يا سيدتي.»

«ولكن كيف يحدث ذلك؟ هل يمكن أن يكون الإنسان بلا بطاقة شخصية؟ ماذا أسمع كيف كان لي أن أعرف أنك بلا بطاقة؟»

ثم صرخت بصوت حاد منادية على آنشة. جاءت آنشة راكضة، كانت تلهث بشدة بسبب ركضها وسرعتها في صعود الدرج. قالت لها السيدة وهي تصرخ:

«لماذا لم تخبريني بأن هذا الرجل لا يملك بطاقة شخصية؟»

كانت صرختها من القوة ما دفع آنشة إلى البكاء، في حين تابعت السيدة صراخها:

«لا أريده... لو كنت أعرف بأنه بلا بطاقة لما سمحت له بدخول بيتي أبداً. لا أريده. هذا غير وارد.»

كلما حاولت أن أهدئها وأشرح لها موقفي رفعت صوتها أكثر:

«لماذا لم تخبرني حتى الآن بأنك لا تملك بطاقة شخصية؟ كيف سأعرف من تكون وما تكون إن كنت لصاً أو شريفاً؟ كيف سأعرف أصلك وفصلك وماضيك وسوابقك؟ كان

عليك أن تخبرني بالأمر منذ اليوم الأول لدخولك البيت... لا يمكنك العمل في هذا البيت بعد الآن، لست مستعدة للسماح لرجل بلا بطاقة أن يمكث دقيقة واحدة في بيتي..»

«اسمحي لي يا سيدتي لأقول شيئاً.. لست أنا المسؤول عن الأمر، لقد طلبت بطاقة شخصية، لكنهم لم يمنحوني واحدة. وهل سأتغير فأصبح رجلاً آخر إذا أصبحت لدي بطاقة»

هي تابعت موّالها:

«ليكن.. ففي كل الأحوال يجب أصولاً أن يكون لكل إنسان بطاقة شخصية.. بما أنهم وضعوا هذه القاعدة، فعلى كل شخص أن تكون لديه بطاقة شخصية أصولاً.»

لو رأيتم آنشة في تلك اللحظة لتفطّرت قلوبكم. كانت تبكي بحرقة وترتمي على قدمي السيدة وتتوسل إليها. لكن السيدة ظلت تكرر: «على كل شخص أن يمتلك بطاقة شخصية أصولاً.. لا أريده في بيتي»وكأنها لم تعان من المشكلة نفسها.

ماذا تتوقعون؟ لم تتركني أمكث في البيت ليلة واحدة. قالت:

«لا أستطيع أن أبيت ليلاً تحت سقف واحد مع شخص بلا بطاقة شخصية.»

انتفخت عينا آنشتي من البكاء.

نعم، هكذا يا اخوتي. لقد طردت من القصر لأنني لا أملك البطاقة الشخصية التي على كل شخص أن يحصل على واحدة أصولاً.

سكت بشار يشامز، فصاح نزلاء المهجع مثل كورس:

- خوووود...!



-١٨-

ثلاثة أطفال زائدين

تم الإفراج عن جامع أعقاب السجائر الذس يعمل عند صياد الأعقاب في ذلك الصباح. لقد كان بارعاً جداً في جمع الأعقاب لأنه لم يمارس هذا العمل في السجن فقط، بل كان قد أمضى سنوات في هذا العمل خارج السجن أيضاً. كان عمره يقارب الخمسين، أي أنه صعلوك متشرد منذ ما يقارب نصف القرن. ولشدة كبريائه لم يكن ينحني ليلتقط عقب السيجارة من الأرض، بل يستعمل عكازاً على طرفه مسمار حاد، كما لو كان بندقية صيد أو صنَّارة، فيصطاد أعقاب السجائر اصطياد السمك أو قنص العصافير.

عند دخوله السجن لم يسمحوا له بإدخال عكازه، فصنع لنفسه عكازاً جديداً ذا مسمار في طرفه. في الوقت الذي يتنزه فيه السجناء في الباحة، كان جامع الأعقاب يهز عكازه ويصفر مثل الشبّان المتنعمين من أبناء الذوات عندما يخرجون في نزهة مسائية في الصيف، وحين يلقي أحد المتنزهين بعقب سيجارته على الأرض كان يعلقه بمسمار عكّازه بضربة واحدة، ومن غير أن يلفت انتباه أحد. وكان يجمع الأعقاب التي يصطادها في كيس من القماش يعلّقه بعنقه، وحين يمتلئ الكيس يسلمها إلى الصياد الذي يشتغل عنده. ولم يكن الصياد يعمل في اصطياد الأعقاب، بل يصنّف الأعقاب ثم يفلشها ويبيعها تبغاً.

كان جامع الأعقاب يأمل في قضاء فصل الشتاء داخل السجن، فهو لا يعرف متى تنتهي عقوبته، وقد أدهشه كثيراً إدراج اسمه ضمن جدول المخلى سبيلهم، كذلك وجد الصياد نفسه في موقف صعب، فهو معلم منذ وقت طويل، ولا يستطيع هضم فكرة القيام بجمع أعقاب السجائر بنفسه في الباحة أو الممر، ليته لم يرفض عرض يشار يشامز للعمل عنده قبل شهرين. كان جالساً متربعاً فوق سريره وقد مد أمامه ورق جرائد وانهمك في تفكيك أعقاب السجائر فوقه وهو يفرك التبغ بين يديه ويفتت بقايا التبغ

المتكتلة، ثم يقوم بفرزها إلى أصناف. انتفخ انتفاخ رجال الأعمال الكبار ونادى على يشار:

- ولاك يشار يا بني!

كان يشار يتصرف مع الجميع باحترام وتهيب اليوم الأول له في السجن وذلك حتى لا يلفت الأنظار إلى أنه بات يملك النقود.

- مرني يا أخي.

قال ذلك وأسرع إلى حيث يجلس الصياد وانتصب أمامه.

- اطلب كأسين من الشاي لي ولك وتعال اجلس هنا.

وقد أشار بطرف أنفه إلى جهة القدمين من السرير.

طلب يشار كأسي شاي من الأوجقجي ثم جلس حيث أشار له الصياد.

قاد الصياد دفة الحديث وهو يخبر يشار كم يحبه، إلى أن انتهى إلى إبلاغه بأنه مستعد لاستخدامه عنده.

قال يشار لنفسه: «أيها الغبي لقد انقضت تلك الأيام منذ وقت طويل، أستطيع الآن أن أشتري ملء مهجع من الخرقى من أمثالك.» لكنه لم يظهر شيئاً من مشاعره، بل راح يرد على كلام الصياد بعبارات من نوع:

- دمت يا أخي.

- أعرف أنك تحبني يا أخي.

- تسلم يا أخي..

بمثل هذه المداهنات كان يغطي على ما يعتمل في داخله من شتائم نحو الصياد والذين خلّفوه إلى سابع جد.

أفرحه عرض العمل الذي قدمه له الصياد، فهذا يعني أنه نجح في إخفاء ربحه لنقود كثيرة عن زملائه، فها هو الصياد يعرض عليه العمل ظناً منه بأنه فقير كما في السابق.

بدأ يشار يلف ويدور ويختلق الذرائع ليتهرب من العمل المعروض عليه. قال الصياد:

- إنك تقود الحمار في طريق الصعود يا يشار.

- لا والله يا أخي، ما أحسن أن أعمل عندك، لكن عقوبتي على وشك أن تنتهي، وأنا

أفكر بك أكثر مما بنفسي. فأنت تريد أن تطعمني خبزاً، لا أستطيع أن أتسبب بما يضرّك. لا يصح أن أشتغل عندك ثلاثة أيام ثم أرحل، فقط لأنني سأحصل على نقودك. فعندما يخلى سبيلي ستبحث عن عامل جديد.

مال الصياد إلى الاقتناع بكلام يشار، فهو يقول الحق.

في مساء اليوم الذي أخلي فيه سبيل جامع الأعقاب أحضر إلى المهجع الأول من الجناح الثاني خمسة سجناء جدد، مدّ ثلاثة منهم فرشاتهم على الأرض لعدم وجود أسِرّة فارغة.

قال السجين العجوز ذو الصوت الشبيه بصفّارة إنذار:

- لقد بدأ الشتاء، سيزداد زبائننا من الآن فصاعداً.

وقال الملطزجي:

- ويبدو أن الشتاء سيكون قاسياً، كل من يقطع رسنه سيلقي بنفسه داخل السجن.

كان السجناء القدامى يعرفون واحداً من السجناء الخمسة، لقد رحبوا به، حتى أن البعض منهم عانقه:

- وااااي ولاك يا أبو الكولونيا!

أبو الكولونيا هذا كان رجلاً يخلو وجهه من التعبير فلا تعرف إن كان حزيناً أم غاضباً، متأملاً أم مبتهجاً، وكأنه أدخل رأسه في فردة جرابات نسائية حتى لا يتعرف عليه أحد أثناء عملية سطو يقوم بها، حتى أنه لم يتجاوب مع أولئك الذين عانقوه وقبّلوه. منذ دخوله المهجع لم يضيع وقتاً، مدّ فرشته على الأرض في إحدى الزوايا ثم أقام ورشة عمله وبدأ العمل، فأخرج من كيسه زجاجات بمختلف الأحجام وموقد كحول بحجم اليد وصحوناً من البورسلان بالإضافة إلى خمس ليمونات أو ست. وضع الماء فوق الموقد وتركه يغلي لينشغل بالليمونات التي قشرها بسكينة مصنوعة من الصفيح اشتراها من الباحاتي، ثم راح يقطّعها في شرائح رقيقة. كان يعمل مثل كيميائي شديد الدقة.

كان يشار يشامز يراقب أبو الكولونيا بانتباه، رآه كاتب العرائض مستغرقاً في مراقبة أبو الكولونيا فقال له:

- المسكين لا خيارات أمامه، فهو مضطر لكسب رزقه، وعليه أن يعمل شاء ذلك أم أبى كلما دخل السجن. فهو يمد فرشته وينصب ورشته على الفور، ويواظب على العمل

حتى إخلاء سبيله..

سأله بشار:

- لماذا هو مضطر للعمل كثيراً جداً؟

- وماذا بوسعه أن يفعل يا أخي؟ لديه زوجة وعشيقة في وقت واحد. عندما يدخل السجن يعمل في صناعة الكولونيا، وفي الخارج يعمل «توفه جي».

منذ الساعة الأولى لوصول أبو الكولونيا إلى السجن عرفت جميع المهاجع بخبر وصوله، فأرسل له أثرياء مهجع السادة ثلاث زجاجات كولونيا.

قال كاتب العرائض:

- إنه يكسب نقوداً في السجن أكثر مما يكسبه في الخارج.

كل عمل فيه كسب نقود كان يشد اهتمام بشار، لذلك سأل كاتب العرائض عن الطريقة التي يكسب بها أبو الكولونيا النقود، فأجابه:

- كما ترى، بهذه الطريقة... الرجل موهوب، إنه مثل حاو، يحول الكولونيا إلى فودكا. ويا لها من فودكا تلك التي يصنعها، لا يبقى فيها أيّ أثر من رائحة الكولونيا.

إدارة السجن لا تمنع إدخال الكولونيا إلى السجن، وكلما دخل هذا الرجل السجن فإن عدد زجاجات الكولونيا الداخلة إلى السجن يرتفع.

سمع صوت صفّارة النص نصيص، وكان صوته المختنق الذي يوحي بأن حنجرته تتمزق يقترب من المهجع الأول:

- إلى الداااخل، إلى الداخل! هيا إلى الداخل!

وصل حتى باب المهجع وهو ينفخ في صفّارته ويصرخ، ثم استند إلى الباب وهو لا يزال يصرخ:

- الى الداااخل، إلى الداخل!

نفد صبر العجوز ذي الصوت الشبيه بصفّارة إنذار، فصرخ:

- الجميع في الداخل! أين تريدنا أن ندخل بعد!

همس كاتب العرائض وهو يشير إلى النص نصيص:

- كرمى لله انظر إلى عينيه.. هل ترى كيف تبرقان عندما يصرخ «إلى الداخل»؟

القوّاد يكاد يفقد رشده لشدة انتشائه.. كذلك عندما ينفخ في صفارته، العرص يستلذ كما لو أنه يضاجع زوجته.

أنجز النص نصيص تفقد المساء، ثم قال كما بعد كل تفقد:

- بخلاصكم!

وأجابه السجناء وكأنهم يسبّون أمّه:

- تسلم!

في هذه الساعات المسائية التي هي الأصعب في السجن، يتلهى السجناء عادة ويقتلون الوقت ما بين إعداد العشاء وتناوله، ولكن بعد أن بدأ يشار يشامز يحكي لهم مسلسل الأحداث التي وقعت له باتوا يتدافعون لينتهوا من عشائهم على عجل كما لو كانوا على موعد مع عرض مسرحي أو سهرة لهو.

بعد انتهاء العشاء أعدت السجائر الملفوفة في ورقتين، وراح الماء يغلي مبقبقاً في السماور المصنوع من علبة صفيح فوق موقد الشاي، وبدأ يشار يحكي:

- أين وصلنا يا أخوتي؟ ما هو آخر شيء حكيناه؟

قال النّحات:

- العجوز التي تسميها بالسيدة الكبيرة طردتك في نصف الليل.

أصاغ نزلاء المهجع أسماعهم، باستثناء أبي الكولونيا الذي لم يرفع رأسه قط عن قشر الليمون الذي استمرّ في بَشْرِهِ بسكينة الصفيح.

- نعم أيها الأخوة، قلنا إن تلك العجوز الشبيهة بفيل والملّقبة بالسيدة الكبيرة، قد طردتنا بدون مراعاة أن الوقت ليل.

انقطعت أصوات تحريك الملاعق في كؤوس الشاي لإذابة السكر.

- رأيت أنه لا سبيل أمامي سوى الرحيل. عند باب القصر ارتمت آنشة على الأرض أمامي وآمسكت بقدميَّ:

«لا تتركني هنا وحدي وترحل يا يشار. لقد اتحدنا مرّة، لا أريد أن نفترق ثانية، إذا كان لابد من الرحيل، فلنرحل معاً.»

«أرجوك يا آنشة، كفي..»

لكنها تبكي بدموع غزيرة وليست مستعدة لسماع أي كلام، إنها تبكي وتطرح عليّ أفكارها في الوقت نفسه. قالت إنه إذا انصرفنا معاً فإن السيدة الكبيرة لا تستطيع البقاء في القصر وحدها، وسوف تضطر للسماح لكلينا بالبقاء. وتابعت تقول:

«لولاي فمن سيعتني بهذه البدينة؟ هي غير قادرة حتى على قضاء حاجاتها بنفسها، فأنا التي أضع المبولة تحتها، ثم أفرغ وسخها، أنظف تحتها مثل الأطفال وأطعمها مثل الأطفال. إذا قلت لها إنني راحلة مع يشار فسوف ترضخ وترجونا لكي نبقى.»

نعم، صحيح ما تقوله آنشة، سوف تتراجع عن طردي حتى تحتفظ بآنشة. ولكن فقط لهذه الليلة، وربما ليلة الغد.. سوف تتصل بابنتها وصهرها وابنها وتستدعيهم إلى القصر.. أليس هذا العمل مقابل نقود؟ العجوز لديها نقود كثيرة، وسوف تجد من يحل محل آنشة ثم تطردنا.. قلت لها ذلك ثم أضفت:

«وماذا سنفعل بعد ذلك يا آنشة؟»

بدا عليها الاقتناع بكلامي، فتابعت:

«فكري بطفلنا واضغطي على نفسك لبعض الوقت من أجله. لقد تحملت كثيراً، ولم يبق إلا القليل. الوضع ليس كما كان عليه في السابق، فأنا أملك شيئاً من النقود. لأجد أولاً عملاً لي.»

«أرجوك دعك من العمل الآن، نعم لدينا نقود والحمد لله. قبل كل شيء استأجر بيتاً لأغادر هذا المكان وأنتقل إلى بيتنا. بما أنني أشتغل في بيوت الناس، فليس هذا البيت الوحيد.. بعد أن أصبحنا حميراً سنجد كثيرين يركبون على ظهورنا. على الأقل نتخلص من تحمل هذه البدينة التي تزن طناً.»

لقد نطقت بالصواب. لن أذكر السيدة بالسوء من وراء ظهرها لأنها طردتني. نعم، لقد كانت امرأة سخية جداً وقد جمعت نقوداً لا بأس بها من عملي عندها، فضلاً عن النقود التي سبق وجمعتها عند ذلك المجنون الذي دأب على القول: «أساس كل شيء هو المنطق» وعلى السؤال: «هل تبللها أم لا؟».

البيوت المطروحة للإيجار كثيرة، بل ثمة بيوت تناسب جيوبنا أيضاً. البيوت موجودة إذن، ولكن عندما يطالب صاحب البيت بكتابة العقد، أقول له: «أوااااه، لقد نسيت بطاقتي الشخصية في البيت، سأذهب لأعود بها» ثم أهرب. كيف يمكن كتابة عقد بدون

بطاقة شخصية؟! ولا أحد يؤجر بيته بدون عقد.

لا يوماً أو أسبوعاً أو شهراً واحداً يا أخوتي، بل طوال شهرين كاملين بحثت كل يوم من عتمة الفجر إلى عتمة المساء، عن بيت يمكن أن نستأجره بدون عقد، وآنشة تضغط علي كي أجد بيتاً. أرهقت كثيراً وضقت ذرعاً بروحي. ذات صباح، وأنا جالس في مقهى، قرأت في صفحة إعلانات إحدى الجرائد إعلاناً عن شقة صغيرة بغرفة ونصف، إنها مناسبة لنا، ذهبت إلى العنوان المذكور في الإعلان بلا أي أمل، لأنه ليس لدي مشاغل أخرى. فتح لي الباب رجل عجوز جداً ذو لحية بيضاء بين الثمانين والتسعين من عمره. أخبرته بأنني جئت من أجل رؤية البيت المعروض للإيجار. فرمقني من رأسي إلى قدمي. واضح أن هيأتي لم توح له بالثقة، لكنه، مع ذلك لم يردني على أعقابي، بل أراني الشقة. لقد قسم الشقة التي يسكنها إلى قسمين على أن يؤجر القسم المؤلف من غرفة ونصف، حتى يدفع أقساط البيت الذي اشتراه بالتقسيط. البيت جميل جداً، لكن إيجاره مرتفع. قلت له:

«لقد أزعجتكم بلا مبرر، فالبيت لا يناسبنا.»

انفجر العجوز فجأة وقال: «وكيف يجب أن يكون حتى يناسبكم؟»

«إذا أردت الحق يا جدي ليس في هذا العالم بيت يناسبنا.»

اغتاظ اكثر:

«ولماذا؟»

«لأنه لا مكان لي في هذا العالم، لأنني لست حياً. لأنني غير موجود من وجهة نظر الحكومة. لأنني..»

لقد أفرغت ما بنفسي لشدة ما عانيت من ضغط، فلان وجه العجوز ودعاني إلى بيته حيث أجلسني على مقعد، وجلس بدوره:

«احك لي ما هو الأمر؟ لماذا لست حياً، ولماذا ليس لك مكان في هذا العالم؟»

يبدو أنني كنت بحاجة إلى من أفضي له بهمي، فقد حكيت له كل شيء بإيجاز وختمت بالقول:

«والجهات الحكومية لا تصدق بأنني أعيش.»

كان يضحك ضحكات مكتومة وهو يصغي إليّ، وعندما أنهيت حديثي قال وهو

مستمر في الضحك:

«أنا أضحك لأن وضعي أخرى من وضعك:»

أوضح لي أنه يقيم وحيداً في هذا البيت بعد أن هجرته زوجته التي شاركها حياة زوجية طوال ثلاثة وخمسين عاماً، ثم قال:

«اسمع أيها الشاب، سوف أؤجرك هذا البيت وبأرخص مما تريد.»

«وماذا بشأن العقد؟ فأنا لا أملك بطاقة شخصية.»

«نحن في الهوى سوا، نستطيع أن نفهم على بعض.»

قال لي إنه لا يريد عقداً ولكن علي أن أدفع الإيجار في موعده لأنه سيدفع به أقساط البيت. هل يمكن أن يوجد في العالم أناس طيبون إلى هذا الحد؟ قبلت يده. قال لي:

«لي رجاء واحد...»

«مرني.. كل أوامرك على رأسي أيها الجد.»

«لقد قلت لك بأن مشكلتي أكثر صعوبة من مشكلتك بكثير... فقد رفعت ضدي دعاوى كثيرة، وقد تركتني زوجتي ورحلت لسبب سخيف. أنا عجوز وأجد صعوبة في الذهاب إلى المحاكم، كل ما أطلبه منك هو أن تساعدني في الذهاب إلى المحكمة يوم تكون عندي جلسة.»

«طبعاااااً... يا جدي... معقووول! سأحملك على ظهري إذا اقتضى الأمر.»

أعجبت آنشة كثيراً ببيتنا الجديد، طارت فرحاً وهي تقول: «آمان! إنه مثل عش العصافير.»

اشترينا شيئاً من قطع الأثاث. كانت آنشة تأتي مرة واحدة في الأسبوع، وفي النهار. وقد عرف صاحب البيت بأننا لا نستطيع عقد قراننا بسبب موضوع البطاقة الشخصية.

لم يتح لي أن أعرف لماذا رحلت زوجة ذي اللحية البيضاء وتركته وحيداً، ولا لماذا لديه كل تلك المحاكمات. قال لي ذات يوم.

«لدي جلسة بعد يومين يا بني، فهل سترافقني إلى المحكمة؟»

«سأرافقك يا جدي.»

في يوم جلسته اصطحبت الجد إلى المحكمة، وكانت زوجته التي هجرته موجودة أيضاً. يعلم الله، كنت أظنها امرأة شابة نظراً لأنها هجرته، بل أكثر من ذلك، كنت أقول لنفسي: «لابد أنه تزوج من امرأة تصغره بثلاثين أو أربعين عاماً، طبيعي أن تكون النتيجة هكذا.». عندما دخلنا قاعة المحكمة دلني على زوجته الجالسة على مقعد خشبي قديم، وإذ بها عجوزاً أنهكها العمر لا تستطيع الحركة إلا بمساعدة شخصين، مظهرها يفيد بأنها أكبر عمراً من الجد. أخبرني العجوز بأنها رفعت عليه دعوى طلاق ولديها محام، في حين أنه لم يوكّل محامياً.

جلسنا على مقعد خشبي في الردهة بانتظار بدء الجلسة، قال لي العجوز:

«يشار يا بني، ليتني مثلك ميت في قيد النفوس، ليتني لا أملك بطاقة شخصية، ليتني استشهدت مثلك قبل أن أولد... إن مشكلتي أسوأ بكثير من مشكلتك..»

سألته عن السبب الذي دفعه للامتناع عن توكيل محام، فاجابني بأنه بسبب الخجل!

«لقد رفعت علي زوجتي دعوى طلاق بحجة أنني خنتها. أية خيانة في مثل عمري وكيف؟ قلت لها كيف سأخونك وأنا نفسي غير قادر على الانتصاب على قدمي؟»

لابد أن زوجته الجالسة على بعد مقعدين، سمعت كلامه فالتفتت نحونا وصرخت قائلة:

«ثمة وثيقة رسمية، رسمية.. وثيقة حكومة بجلالة قدرها... إذا كنت لا تعترف بأنك خنتني، فمن أين جاء أولاد الزنى أولئك؟»

لزم الجد الصمت، وقال لي:

«ارتعد خوفاً من أن أصبح مضغة في أفواه الصحف.»

ما كاد يبدأ بإيضاح سبب رفع زوجته لدعوى الطلاق ضده، حتى نادى عليه منادي المحكمة:

«حسن أويوت!»

أمسكته من ذراعه وساعدته على النهوض ودخول قاعة المحكمة، جلست في الصفوف الخلفية، في حين وقف الجد في موقع المدعى عليه. سأل القاضي عن هويتَيْ الطرفين وأملى المعلومات الشخصية على الكاتب، ثم سأل المرأة صاحبة الإدعاء أن تحكي ما لديها. تلك المرأة التي بلغت أرذل العمر اكتسبت حيوية مفاجئة وبدأت تحكي مثل

عصفور دوري يغرد وهو يتفافر في مكانه:

«سيدي القاضي، لقد كنا متزوجين منذ ثلاثة وخمسين عاماً.»

قاطعها القاضي قائلاً:

«ما تزالان متزوجين حتى هذه اللحظة.»

«للأسف الشديد هذا صحيح.» قالت ذلك ثم تابعت قصتها:

«لدينا ثلاث بنات، أسماؤهن: «إلك غول» و«تك غول» و«صُونْ غول» ثلاثتهن متزوجات وصاحبات أسر وأولاد. لدى الثلاثة أولاد بطولهن. حتى أحفادنا تزوجوا.. فكيف لي أن أعرف أن زوجي سوف يخونني بعد هذا العمر؟»

نبهها القاضي مراراً لكي تختصر، لكنها لم تبال بتنبيهاته وتابعت:

«بطريقة ما ضاع دفتر راتبنا التقاعدي. أراد زوجي أن يذهب ليقبض الراتب التقاعدي، ولكن الدفتر اختفى.. قلبنا البيت بحثاً عنه.. إنها حكمة ربة العالمين، فلولا ضياع الدفتر لما عرفت بخيانته لي.. ولكي يستصدر دفتراً جديداً بدلاً عن الضائع، تلزمه البطاقة الشخصية، وهذه أيضاً قد اختفت، الأمر الذي يعني انه أضاع الكل معاً، لعلها وقعت منه في مكان ما. تقدم السيد بطلب إلى دائرة النفوس لاستصدار بطاقتين شخصيتين له ولي بدلاً عن الضائعة. أرسل الطلب إلى منطقة تابعة لولاية «بنغول» حيث قيد نفوسنا، وبينما نحن بانتظار وصول بطاقتين شخصيتين، واحدة له وواحدة لي، آآه! وماذا نرى؟! لقد أرسلوا لنا خمس بطاقات شخصية دفعة واحدة! اثنتان لنا، وثلاثة للأولاد، يعلم الله أنني ظننت في البداية أنها بطاقات بناتنا الثلاث.. لكن بطاقات البنات موجودة معهن، وهذه البطاقات لأولاد آخرين: ولدان وبنت.. ولهم أسماء عجيبة لم أسمع أبداً مثلها، الصبيان «طناظ» و «بويراز» أما البنت فاسمها «آيطناز» لم تساورني أية شكوك، فقد ظننت أنه ثمة خطأ، وأنهم أرسلوا لنا بطاقات شخصية غريبة بدلاً من بطاقات شخصية لبناتنا، كذلك فقد خدعني السيد قائلاً إن ثمة خطأ. كتبنا معروضاً جديداً نبين فيه أن أصحاب البطاقات المرسلة لنا ليسوا أولادنا، مظهرين قيود النفوس الخاصة ببناتنا. فماذا تتوقعون أن يحصل هذه المرة؟! ففضلاً عن إرسالهم لبطاقات بناتنا الثلاث، أبلغونا بأن والد الأولاد الثلاثة الآخرين هو «حسن أو يوت».. إنه مضمون الكتاب الرسمي الصادر عن دائرة النفوس.. اتضح أن للسيد ثلاثة أولاد آخرين من وراء ظهري، وقد ولدوا خلال فترة زواجنا.»

أراد القاضي أن يسكتها، لكنها لا تسكت. محاميها استلم الكلام.

«لقد ثبت بالكتاب الصادر عن دائرة النفوس أن للسيد حسن أيوت ثلاثة أولاد من خارج الرابطة الزوجية، الأمر الذي يبين أنه قام بخيانة زوجته.. وبناء على ذلك، نطالب المحكمة بإبطال عقد الزواج.»

أعطى القاضي الكلام للجد، فقال:

«من الواضح أن ثمة خطأ، لأن واحداً من الأولاد الثلاثة الذين أرسلت دائرة نفوس «بنغول» بطاقاتهم إلي بدعوى أنهم أولادي، هو في شهره الثامن، أما الثاني فهو يكبرني بعامين - أنا في الرابعة والثمانين من عمري يا سيدي القاضي، فكيف يمكن أن يكون لي ولد في شهره الثامن؟ أما «طناز» الذي اعتبروه ابني فهو يكبرني بعامين وفقاً لتاريخ ميلاده المسجل على بطاقته الشخصية. لا يمكن أن يكون ابني، في أحسن الأحوال يمكنه أن يكون أخي الأكبر.»

قفزت زوجة الجد ذات اللسان الطويل واقفة:

«سيدي القاضي، لابد أنهم سجلوا تاريخ ميلاده خطأ... ألا تحدث أخطاء من هذا النوع؟»

أملى القاضي قراره على كاتب المحكمة:

«تقررت الكتابة إلى دائرة نفوس ولاية«بنغول» لإرسال صورة عن قيد نفوس المدعى عليه و قيود نفوس أولاده، كما تقرر رفع الجلسة إلى تاريخ كذا...»

عند خروجنا من قاعة المحكمة اقترب الجد من زوجته وراح يتوسل إليها:

«كفي عن هذا يا سيدتي، فضحتينا أمام الناس، إن واحداً من قدمينا في القبر، والآخر على وشك اللحاق بأخيه. لا تهدمي بيتنا بعد ثلاث وخمسين سنة من الحياة المشتركة ونحن في أرذل العمر. هل يمكن أن يكون لي طفل في شهره الثامن؟»

«يمكن، يمكن... يمكن أن أتوقع أي شيء منك.»

ضحك جميع من كان قريباً منهما عندما سمعوا كلامها.

في طريقنا إلى البيت حاولت أن أخفف عنه بقدر ما طاوعني لساني، فقلت إن وضعه أقل سوءاً مما يعتقد، وإن الخطأ سيتضح على كل حال، فقال لي:

«آه يا بني... لو أن ما حدث لي بسبب هؤلاء الأولاد الزائدين اقتصر على انفصال

زوجتي عني، لهان الأمر، ولكن مشكلات أخرى عديدة واجهتني، والنيابة فتحت تحقيقاً.»

«لماذا؟»

«و ماذا أقول؟ ثمة أناس لا عمل لهم سوى افتعال المشكلات، لا بد أن أحداً قد وشي بي، فالنيابة تسألني الآن أين هم هؤلاء الأولاد الثلاثة؟ صحيح، فإذا كنت أباً لهؤلاء الأولاد، فأين هم الآن؟»

«و أين يمكن أن يكونوا؟ لا بد أنهم في مكان ما.»

«و هل تفهم النيابة؟ إنها تسألني عن عنوانهم و مكان وجودهم. ماذا حدث للأولاد؟ هل ذهبوا ضحية جريمة قتل؟ تحدث في العالم أشياء كثيرة. إذا لم أعثر على الأولاد الثلاثة الزائدين، فقد يوجهون إلي تهمة قتلهم.»

«هل هذا معقول يا جدي؟ لا بد أن يتضح الخطأ في النهاية.»

غضب الجد و قال لي:

«حتى أنت يا أخي؟! إذا كانت الأخطاء تتضح، فلماذا لا يتضح الخطأ الذي يخصك؟»

«صحيح ما تقول...»

بعد حوالي الأسبوع استدعت النيابة الجد مجدداً، فرافقته. سأله النائب العام عن عناوين أولاده طناز و بويراز وأيطناز، وهو يقرأ أسماءهم من إضبارة مفتوحة أمامه. أجابه الجد قائلاً:

«سبق لي و أخبرتكم في استجوابي السابق يا سيدي أنه ليس لي أولاد بهذه الأسماء. لدي ثلاث هن إلك غول وتك غول وصن غول. أما أصحاب الأسماء التي ذكرتموها فهم أولاد زائدون.»

قال النائب العام:

«في استجوابك السابق لم يكن جواب دائرة نفوس بنغول قد وصل بعد، الآن وقد وصلنا جوابها فقد اتضح أنه لديكم ستة أولاد وليس ثلاثة فقط - فأين هم أولادك الثلاثة الآخرون؟»

ظل الجد يكرر قوله:

«إنهم أولاد زائدون.»

«سواء كانوا زائدين أم لا، فهذا من شأنك. أين الأولاد؟»

«سيدي، عمري أربعة وثمانين عاماً، في حين أن الطفلة المدعوة آيطناز التي يزعم بأنها ابنتي، هي في شهرها الثامن. ارحمني أرجوك، هل يمكن لرجل في عمري أن ينجب؟»

«إن قدرتكم أو عدمها على الإنجاب في هذا العمر، ليس من شأن النيابة، إنها مسألة طبية. نحن نقرأ في الجرائد أن ثمة من ينجب أولاداً في التسعين أو المئة من عمره.»

قال الجد بصوت ناحب:

«إن أكبر الأولاد الزائدين هو في السادسة والثمانين، في حين أنني في الرابعة والثمانين.. سيدي النائب، كيف يكون ابني أكبر مني بسنتين؟»

كرر النائب حجة زوجة الجد:

«لابد أنه خطأ في التاريخ.. لقد كتب على الآلة الكاتبة.»

أخيراً أخلى النائب سبيل الجد بعد أن قال له:

«لن أفتح تحقيق شرطة حالياً احتراماً لسنك، ولكن عليك أن تحضر لي قراراً من المحكمة يقضي بحذف قيود الأولاد الثلاثة مجهولي الإقامة من النفوس، وإلا سأضطر إلى فتح تحقيق شرطة.»

في طريق العودة إلى البيت كان يتحدث إلى نفسه بلا توقف:

«يزعمون أنني خنت زوجتي، وهل حالي تسمح بالخيانة! لقد أردنا استصدار بطاقات شخصية جديدة، فورطنا أنفسنا في مشكلة... إليك ثلاثة أولاد زائدين... النائب العام على حق: أين الأولاد الثلاثة الزائدين المذكورين في قيد النفوس؟ هل كان عليّ الحصول على بطاقة شخصية جديدة ولم يبق من عمري سوى أيام؟ يشار يا ولدي، لحسن حظك أنهم لا يعطونك بطاقة شخصية، فماذا لو تبين لهم أنه لديك ثلاثة أولاد مثلما حدث معي، ثم سألوك عن مكانهم أو عما فعلت بهم؟»

ثم قال إن القضية تتعقد، ولا بد من محام.. لكننا لم نذهب إلى محام، لأن الجد قد تعب كثيراً في ذلك اليوم. رافقته في يوم آخر إلى محام يعرفه، فحكى له مشكلته، قال

المحامي:

«لا عليك، إنها مسألة سهلة وسوف نجد لها حلاً. سنقيم دعوى في محكمة أصلية..»

«على من سنقيم الدعوى؟»

«على دائرة النفوس، اعمل لي التوكيل، وسأرفع الدعوى.»

كلفني الجد بإيصال عريضة الدعوى إلى قلم المحكمة، لذلك مازلت أتذكر محتواها:

«موضوع الدعوى: عبارة عن طلب تصحيح قيد النفوس. الواقعة عندي ثلاث بنات من زوجتي «حسناء أو يوت» أسماؤهن، إلك غول وتك غول وصن غول، مثبتات في قيود ولاية بنغول منطقة قارلي أوفا، ناحية المركز، قرية قره بنار، خانة رقم كذا، مجلد كذا، صفحة كذا.

قدمت طلباً لتجديد البطاقتين الشخصيتين لي ولزوجتي، فأرسلوا إلي ثلاث بطاقات زائدة هي لثلاثة أولاد مختلفين مسجلين على قيد نفوسي مع بناتي الحقيقيات. نرى أنه من الضرورة بمكان تصحيح أو حذف قيود الأولاد المشار إليهم بالأسماء طناظ وبويراز وآيطناز، التي سجلت خطأً بلا ريب.

إن واحداً من أولئك الأولاد ولد هذا العام، في حين ولد آخر قبل مولدي بسنتين كما يتضح ذلك من تاريخ ميلادهما، الأمر الذي يؤكد أن هذه القيود غير مطابقة للحقيقة.

الدواعي القانونية: كذا مذا..

النتيجة: بناءً على الأسباب المبنية أعلاه، نطلب من محكمتكم الموقرة إصدار حكم بحذف قيود الأشخاص الثلاثة المذكورين من قيد نفوسي، علماً بأنهم غير موجودين فعلياً بالرغم من كونهم مسجلين في قيد نفوسي، وبذلك يتم تصحيح الخطأ.. المدّعي: حسن أويوت.»

بعد أن حكى يشار مضمون العريضة كما لو كان يقرأها من ورقة مكتوبة، قال له كاتب العرائض:

- لقد تفوقت علي ولاك يشار... لقد أصبحت محامياً.

وقال أكبر نزلاء المهجع سناً:

- يشار يا بني، على المرء أن يكون محظوظاً... في الوقت الذي تعجز فيه عن

الحصول على بطاقة شخصية واحدة، يرسلون لصاحبك المحظوظ ثلاث بطاقات دفعة واحدة! إنه عبد محظوظ من عباد الله.

- إن وضعه أسوأ يا بابا، عندما عرفت حالته حمدت الله على حالتي وتخففت.

فأنا يقولون لي إنني ميت، أما ذلك المسكين فيتهمونه بقتل أولاده الثلاثة.

وقال البصّاق:

- حسناً، أين انتهت الأمور؟ احك ولا تقلقنا! هل تخلص العجوز من الأولاد الثلاثة الزائدين؟

- وهل تظن الأمر بهذه السهولة؟ لقد جاء رد دائرة بنغول إلى المحكمة.

- ماذا فعل الرجل، أعني العجوز ذا اللحية البيضاء؟

- اسمع يا أخي، ألا يقال إن «هذه المصيبة لم تقع حتى لدجاجة مشوية»؟ تماماً كذلك.

إن ما أصاب حسن أو يوت لم يصب حتى الدجاجة المشوية... ولكن هنا يدخل على الخط ريتشارد رشاد، لا أستطيع أن أنهي حكاية الجد قبل أن أحكي عن ريتشارد رشاد.

سأل النّحات:

- ومن يكون هذا؟

- ريتشارد؟ حكايته طويلة، سأحيكها في سهرة الغد.

الذين كانوا يستمعون إلى يشار من فوق أسرّتهم، أرخوا رؤوسهم على وسائدهم، أما أولئك الجالسين فقد اضطجعوا على أسرّتهم. لم يبق سوى أبو الكولونيا، فقد تابع عمله مثل كيميائي دقيق فوق فرشته الرقيقة الممدودة على الأرض، محوّلاً الكولونيا إلى فودكا.

عندما استيقظ يشار يشامز في الصباح الباكر وذهب إلى دورة المياه، رأى أبو الكولونيا في الوضع نفسه يتابع عمله. ترى هل اشتغل طوال الليل ولم ينم أبداً، أم أنه استيقظ باكراً جداً وبدأ العمل؟ لم يطرح يشار هذا السؤال على أبو الكولونيا الذي يخلو وجهه من أي تعبير.



-١٩-

جاسوس يدعى ريتشارد شاد

طوال اليوم التالي انهمك اغلب سجناء المهجع الأول في الحديث عن الأولاد الثلاثة الزائدين. هل تخلّص العجوز حسن أويوت من كونه أباً لأولئك الأولاد بعد اتضاح الخطأ، أم أنه أصبح في ورطة كبيرة باعتباره الأب القاتل الذي قضى على أولاده؟

- ماذا ينفع إذا حكيت لكم نهاية القصة قبل أن أحكي عن الجاسوس الذي اعتنق الإسلام؟ هذا غير ممكن... سأحكي لكم مساء اليوم عن الجاسوس ريتشارد، ثم أخبركم بما حدث للعجوز حسن أويوت.

أغلب السجناء كانوا على قناعة بأنهم تعرّضوا للظلم، لذلك فإن أكثريتهم توقعت أن يكون حسن أيوت قد تورط في مشكلة كبيرة بسبب الأولاد الثلاثة الزائدين، بل لعله دخل السجن أيضاً. بالمقابل كان هناك من لم يصدقوا أبداً هذه الحكاية التي سمعوها من يشار ولسان حالهم يقول: هل يعقل أن تحدث أمور من هذا النوع؟ كيف يمكن أن يقال لرجل فجأة بلا مقدمات بأنه أب لثلاثة أولاد لا يعرفهم ولا سمع بوجودهم، ثم يتّهم بالتخلص منهم؟

وقال الصيّاد وقد كان حاقداً على يشار لأنه رفض العمل تحت يده:

- أفهم أن يقع خطأ في قيد النفوس، وأن يسجل ابن بعمر يكبر أبيه بعامين. لا اعتراض لي على هذا، ولكن هل من المعقول أن يسجل ثلاثة أولاد على اسم شخص ثم يتهم فوق ذلك بقتلهم؟ هذا اليشار يشامز زوّدها كثيراً فتجاوز كل الحدود باختلاقاته وأفسد طعم الكلام.

عارضة الملطزجي:

- لا تتحدث هكذا يا صديقي، ألم تحدث لنا جميعاً مثل هذه الأمور؟ وقديماً قالوا:

لا تقل مستحيل، فالمستحيل مستحيل!

كان يشار يسمع النقاشات الدائرة في المهجع بحقه، لكنه يتظاهر بالجهل. في موعد التفقد المسائي جلس على سريره وراح ينقب بإصرار داخل كيسه المصنوع من قماش قذر والذي أحضره معه يوم دخوله السجن. كان يفتش دفاتر جيب عتيقة ذات زوايا ملتوية، و أوراقاً انفصلت عن دفاترها، وأوراقاً مهترئة ومجعدة، ويحاول قراءة ما هو مكتوب فيها. من الواضح أنه يبحث عن شيء محدد. بعد التفقد لم يأكل شيئاً بل تابع انشغاله في التفتيش بين تلك الأوراق.

اتخذ نزلاء المهجع مواقعهم كالعادة للاستماع إلى حكايات يشار، فقد تمدد البعض منهم على أسرتهم وتحلق بعض آخر حول الطاولة في وسط المهجع بانتظار يشار.

الملك سامي:

- هيا يا بني، نحن بانتظارك!

أجاب يشار من غير أن يرفع رأسه عن تلك الأوراق:

- لحظة يا أخي، سآتي حالاً.

تابع بحثه فترة أخرى منقباً داخل الكيس وبين الأوراق المكتوبة، أخرج من بين تلك الأوراق المهترئة ورقة مطوية أربع طيات وجاء إلى وسط الغرفة حيث جلس على المقعد الخشبي الطويل وأسند مرفقيه على الطاولة المتسخة ببقع الدسم وبقايا الطعام المحشورة في شقوقها. لم يبدأ بمقدمات تمهيدية كما اعتاد أن يفعل كل مساء، بل دخل في الموضوع مباشرة:

- لا يحق لي أن أقفز عن قصة الجاسوس الذي اعتنق الإسلام. لنبدأ الكلام منه. البناية التي استأجرنا شقة فيها، بناية صغيرة من ثلاث طبقات، شقتنا في الطابق الأرضي الذي يتألف من قسمين كما سبق وأخبرتكم، حيث يقيم حسن آيوت في أحدهما ونحن في الآخر. في الطابق الأوسط يقيم رجل يدعى ريتشارد، في حين أن الطابق الأعلى شاغر بانتظار من يشتريه.

الرجل المدعو ريتشارد رجل أجنبي كما هو واضح من اسمه، لكنه يتحدث التركية بصورة جيدة وإن كانت مكسرة قليلاً. ودود وسريع في التقرب من الناس وحلو اللسان. كلما صادفني دعاني إلى بيته حيث نعد الشاي ونحتسيه. الأمر الذي لم أفهمه هو أن

يستأجر أجنبي موسر مثله بيتاً في حارة بائسة للمسلمين. سألني في إحدى زياراتي لبيته عن عملي، فحكيت له قصتي بالتفصيل موضحاً له بأن أحداً لا يستخدمني لأنني لا أحمل بطاقة شخصية. تأسّف من أجلي كثيراً وقال:

«لدي رغبة في أن أقدم لك معروفاً.»

«دمتم يا سيد ريتشارد، لكن أحداً لا يستطيع مساعدتي، مثلي مثل مالك شقتي حسن أويوت وكلنا أمرنا الله.»

وسألته بدوري عن عمله فقال إنه يدير نشاطات شركة أجنبية في تركيا وإنه سيحال قريباً على التقاعد، وأضاف:

«سأستقر هنا عندما أتقاعد.»

يا له من أمر يثير الاستغراب، أليس كذلك؟

بعد فترة زرته مرة أخرى في إحدى الأمسيات وجلسنا نتبادل الحديث، وإذ به يفاجئني مرة أخرى وكأنه خلق لإدهاش الناس، فيقول لي:

«سأصبح مسلماً عما قريب.»

وكيف لا أدهش؟ فهو يحشر نفسه في شقة صغيرة في حارة فقراء مع أنه ثري، ويعيش بين المسلمين بالرغم من أنه مسيحي، ولن يعود إلى بلده عندما يتقاعد، بل يريد أن يستقر هنا.

وبعد أيام قليلة قال لي:

«أنا مضطر لاعتناق الإسلام.»

«يا سيد ريتشارد، لم أسمع أبداً عن أحد يعتنق الإسلام رغماً عنه.»

«تظن ذلك لأنك تجهل التاريخ. إن أجداد أكثر من نصف مسلمي العالم قد اعتنقوا الإسلام بقوة السيف.»

ويعرف كل شيء... لذلك لم أعترض على كلامه، بل قلت له:

«أي مسلم رفع سيفه عليك حتى تعتنق الإسلام بالإكراه؟»

«آه... ليت مسلماً استل سيفه وهددني بقطع عنقي، إن ما حدث لي أسوأ من ذلك، فقد وقعت في حب امرأة تركية، ولن توافق أسرتها على زواجي منها إذا لم أعتنق

الإسلام. هل فهمت الآن لماذا عليّ أن أصبح مسلماً؟»

مرت فترة أخرى، وذات يوم دعاني مجدداً إلى بيته وقال لي:

«غداً سأختن.»

تمّ ختان السيد ريتشارد وبمشقة. الشجرة تنحني وهي خضراء، ولا يتم ختان الرجل وهو هرم... نعم كانت العملية صعبة عليه، ولم يبارح فراشه لمدة أسبوعين، وكأنهم لم يقطعوا سُنَّتَه، وإنما اقتلعوا فَرضَهُ من جذوره(*). بعد أن ختن وأسلم أصبح السيد ريتشارد السيد رشاد، لكن أحداً لم يناده بالسيد رشاد، بل السيد ريتشارد رشاد.

تزوج وأحضر زوجته إلى البيت، ويا لها من امرأة.. إن من يملك ذرة من العقل لن يقطع من أجلها ظفراً من أظفار قدمه، ناهيك عن قطع «سنَّتِه». بالنظر إلى علاقتي العميقة به سألته في أحد الأيام:

«سأطرح عليك سؤالاً يا سيد ريتشارد، فلا تزعل مني. هل حقاً أنك تزوجت هذه المراة لأنك وقعتَ في هواها؟»

أجابني بأن أفضل طريقة لتعلم لغة أجنبية هي الزواج من امرأة تتحدث تلك اللغة بوصفها لغتها الأم.

«ولكنك تعرف التركية.»

قال بأنه يعرفها لكنه لا يتقن التحدث بها مثل لغته الأم، وعندما يتحدث يتضح بأنه أجنبي.

«أتعني أن زوجتك تعلمك التركية؟»

«ألا تسمع من شقتك في الطابق الأرضي أصوات مشاجراتنا؟ إننا نتشاجر من الصباح وحتى المساء... ثمة ثلاثة دلائل تشير إلى أن أحداً تعلم لغة من اللغات.»

«وما هي؟»

«أولاً: إذا كان يرى أحلاماً بتلك اللغة، ثانياً: إذا كان يمارس الحب بتلك اللغة، وثالثاً: إذا كان يتشاجر بتلك اللغة. سوف أتقن التركية مثل لغتي الأم عن طريق المشاحنات مع هذه المرأة.»

(*) يسمى الختان في التركية بـ "السُنّة". يستخدم الكاتب التقابل بين الفرض والسُنّة.

بالفعل استقامت لغة السيد ريتشارد رشاد خلال فترة قصيرة، بحيث أن كثيرين لم يكونوا يصدقون أنه ليس تركياً.

كلما تعمقت صداقتي به كنت أتعرف على ماضيه يوماً بعد يوم فتزداد دهشتي، عرفت منه أنه تزوج تسع مرات أو عشر من زوجات كوريات وفرنسيات وروسيات وفيتناميات وما إلى ذلك من جنسيات مختلفة، سألته:

«سيد ريتشارد، لا أفترض أنك من هواة جمع النساء، لماذا إذن تزوجت كل هذه الأنواع من النساء؟»

أجابني قائلاً بأنه تزوج تلك النساء ليتعلم لغات تلك البلدان، فهو يجيد الآن الكورية واليابانية والفيتنامية وعدداً كبيراً من اللغات الأخرى.

كنت أعمق العلاقة مع السيد ريتشارد، وأبحث لنفسي عن عمل وأرافق صاحبنا العجوز حسن أويوت إلى النيابة والمحكمة، كل ذلك جنباً إلى جنب. مشكلة العجوز المسكين استمرت وتفاقمت ولم يكن يبدو أنها ستنتهي قريباً، لأننا في الوقت الذي نسعى فيه إلى تصحيح خطأ، تدخل على الخط بضعة أخطاء جديدة، يطرح سؤال على إحدى الجهات، فيأتي الجواب بخطأ جديد، فيسألون مرة أخرى. كل مراسلة وانتظار جوابها، وتصحيح الخطأ، وظهور أخطاء جديدة أثناء تصحيح الخطأ الأول... كل ذلك يستمر شهوراً. الأخطاء التي ترتكب كانت من الجسامة إلى درجة دفعت بالعجوز حسن أويوت إلى أن يقول لي ذات يوم:

«يحسن بي يا بني أن أقبل بالأولاد الثلاثة الزائدين، فمن يدري، لعلنا إذا أردنا تصحيح هذا الخطأ، نقع في مشكلة أكبر، فمن يضمن أنهم لن يرسلوا لي هذه المرة خمس بطاقات شخصية زائدة؟ فتخلص من الورطة عندئذ إذا كنت تستطيع. أمنيتي الوحيدة هذه المرة هي أن يحدث الأمر هكذا: إذا ظهر لنا خمس أولاد جدد زائدين، فليكونوا على اسم زوجتي، حتى إذا مت أموت من الضحك.»

في إحدى زياراتي إلى بيت ريتشارد، وكنت جالساً في غرفة الاستقبال سمعت زوجته تقول له في الصالون: «ما الذي تفهمه من تبادل الحديث مع هذا الصائغ الذي لا رسن له.. لا تعط وجهاً لهذا الذي لا نعرف له أصلاً أو فصلاً»

فتوقفت عن التردد على بيته، وبدأ هو يأتي إلى بيتي. في إحدى زياراته إليّ، أفضيت له ما في قلبي من هموم بعد تجوالي طوال اليوم بحثاً عن عمل بلا جدوى.

قال لي فجأة:

«سأكشف لك سراً، وأنا أعرف أنك ستحافظ عليه.»

«صحيح ما تقول، فنحن قوم نلفظ أرواحنا ولا نلفظ سراً أئتمنا عليه»

فقال لي بلا مقدمات:

«أنا جاسوس»

تسألونني إن كان هذا الكلام أدهشني؟ كلمة الدهشة لا تعبر عما أصابني يا أعزّائي، قل إنني بلعت لساني الصغير وانقطع تنفسي. أردت أن أقول له: «أرجوك لا تبق هنا، هيا انصرف»، لكن صوتي لم يخرج من حنجرتي.

بعد فترة تمالكت نفسي فقلت له:

«كنت تقول لي وتكرر بأنك تريد أن تعمل معروفاً معي، أهذا هو المعروف الذي وعدتني به؟ لقد دمرتني يا سيد ريتشارد.... كان علي أن أفهم من الأول بأنك رجل مثير للريبة.»

«لقد اصفر وجهك... لا شيء يستدعي الخوف.»

«وماذا يمكن أن يفوق هذا سوءاً.. كنت أريد أن أحيا بشرفي فلم يعتبروني حياً، والآن إذا عرفت الحكومة بأنني صديق لجاسوس، فسوف تشنقني»

«كيف يمكنهم شنق رجل استشهد من قبل أن يولد!»

«ليست الأمور كما تعتقد يا سيد ريتشارد.. إذا كان الأمر يتعلق بما ينفعني فإنهم يقولون بأنني لا أحيا، أما إذا كان الأمر نافعاً فيقولون إنني حي. إذا أردت الدخول إلى المدرسة فأنا ميت، وإذا أرادوا أن ألتحق بالخدمة العسكرية فأنا حي، إذا طلبت بطاقة شخصية أنا ميت، إذا أرادوا أن يُحصِّلوا الضرائب فأنا حي، وإذا بحثت عن عمل فأنا ميت، إذا أرادوا أن يعاقبوني أنا حي، وإذا رفعت دعوى أنا ميت، إذا أرادوا إدخالي إلى مشفى مجانين أنا حي، وإذا أردت الزواج فأنا ميت. والآن إذا عرفوا بعلاقتي العميقة مع جاسوس فإنهم سيشنقونني بدعوى أنني حي.»

يأكلني الخوف، وهو ما يزال يضحك:

«لا تخش شيئاً. لن تقوم بالتجسس، بل ستقدم خدمة كبيرة لوطنك. أنت تجهل هذه الأمور لأنك لم تدخل مدرسة أبداً. أنا جاسوس كبير جداً، ولست جاسوساً عادياً كما

تعتقد، وعندما تشي بي لدى أجهزة الحكومة، تكون قد أديت خدمة كبيرة جداً لوطنك، فيمنحونك بطاقة شخصية ونقوداً ووظيفة وكل شيء.»

شرح لي باستفاضة، قال إنه لم يأت إلى هذا البلد بهدف التجسس عليه، بل مهمته مختلفة عن ذلك كثيراً. وقال إنه بعد أن عاش فترة في بلدنا أحب الناس كثيراً، وبعد أن تعلم لغتنا واعتنق الإسلام قرر أن لا يرحل عن هذا البلد وأن يعيش بين هؤلاء الناس بعد أن يتقاعد.

«حسناً، ولكن لماذا تريد أن تورطني في هذه الأمور؟ لماذا لا تذهب وتستسلم بنفسك؟»

قال إن بإمكانه طبعاً أن يذهب ويستسلم بنفسه، لكنه يشفق علي كثيراً ويريد أن يعمل معروفاً من أجلي. قال إننا سنتظاهر بأن استسلامه جاء بتوجيه مني، وإننا بذلك سنضرب عصفورين بحجر واحد: فهو سوف يتمكن من البقاء والاستقرار في البلد، وأنا سأحصل على عمل لقاء الخدمة التي سأقدمها. مال عقلي إلى الاقتناع، لكنني لا أعرف من سنقصد، وإلى أية جهة سأقدم وشايتي وبأية طريقة. قال لي:

«دع هذه الأمور لي. أنا أعرف الجهة التي علينا أن نقصدها. رافقني وحسب.»

ركبنا سيارة أجرة وانطلقنا، راح يشرح لي هامساً:

«سوف ترى كم سيصدمون عندما أخبرهم بمن أكون، سيرتبكون وتقوم القيامة. فالمسألة ليست من النوع البسيط: إن عميلاً كبيراً يسلمهم جميع المخططات. لا تنس: أنت الذي تقودني إلى هناك. هذا ما ستقوله لهم، جميع المخططات السرية هي في إضبارة داخل هذه الحقيبة.»

استفاض كثيراً وهو يصور لي الصدمة التي سيواجهون بها اعترافاته، ثم سألني:

«قل لي إذن، ماذا ستقول لهم عندما نصل؟»

قلت مكرراً ما جعلني أحفظه عن ظهر قلب:

«لقد أحضرت إليكم العميل السري صفر إكس ثلاثة عشر يا سيدي.»

«جيد! عندما تقول لهم ذلك سيقفزون من أماكنهم، فتصطدم رؤوسهم بالسقف... العميل السري إكس ثلاثة عشر من جهاز الـ «كي - سي - بي..»

طلب من السائق أن يتوقف. قال لي:

«ها نحن أمام الدائرة المختصة بشؤون التجسس المعادي.»

ترجلنا من السيارة ودخلنا المبنى - قال لي:

«اطرق على ذلك الباب المقابل، سترى داخل الغرفة رجلاً بديناً ذا رأس صلعاء.»

طرقت الباب ودخلنا معاً. بالفعل كان ثمة رجل بدين وأصلع وراء الطاولة، ألقيت عليه التحية ثم قلت له كما لقّنني السيد ريتشارد:

«سيدي، لقد أحضرت إليكم العميل السري صفر إكس ثلاثة عشر من جهاز ال- «كي - سي - بي»...

توقعت أن يقفز الرجل من مجلسه ويصدم رأسه بالسقف عند سماع كلامي، لكن ما حدث فعلاً هو أن الرجل البدين رفع رأسه عن الورقة التي أمامه ببطء شديد، وقال:

«هه؟»

تدخّل السيد ريتشارد عندما لاحظ أنني لم أفلح:

«أنا العميل صفر إكس ثلاثة عشر من ال- «كي - سي - بي...»

قال الرجل الأصلع:

«تشرفت يا سيدي. تفضل اجلس أرجوك.»

جلس السيد ريتشارد، في حين أنني بقيت واقفاً خشية أن آتي فعلاً معيباً.

«اسمي الحقيقي هو «ريتشارد ولينغ»، لكني غيرت اسمي ليصبح رشاد ولي.»

فقال رجل الطاولة:

«هل يمكنني أن أخدمك بشيء؟»

كان ريتشارد ينتظر اندهاش الرجل، فاندهش هو، قال:

«أنا جاسوس يا سيدي.»

«لا!!!!؟ صحيح؟ ما أجمل ذلك!»

بعد فترة صمت سأل:

«أنت جاسوس؟»

حمداً لله أنه فهم. ابتهج السيد ريتشارد لأنهم عرفوه أخيراً، فقال:

«نعم، أنا جاسوس.»

«إذن اذهبا إلى الطابق الأعلى وقابلا السيد الجالس في الغرفة رقم ٣٣»

كان السيد ريتشارد قد تباهى كثيراً بأكاذيبه عن معرفتهم به، وعن معرفة جميع منظمات الأمن السرية في العالم له، لذلك بدا عليه الخجل عندما لم يعرفه أحد هنا. خرجنا إلى الممر، فقال لي مدارياً خجله:

«سوف ترى كيف سيعرفني الرجل الذي سنقابلة الآن. إنه رجل نحيف ذو نظارات يدعى بصري.»

اهتدى إلى الغرفة رقم ٣٣ وكأنه وضعها هناك بيده، دخلنا فوجدنا رجلاً نحيفاً ذا نظارات، كما وصفه لي بالضبط. قلت له:

«أحضرت لكم يا سيدي كي - سي - بي من الصفر ثلاثة عشر» بدلاً من «أحضرت لكم يا سيدي، العميل صفر إكس ثلاثة عشر من الكي - سي بي» يبدو أن لساني خانني لشدة خوفي.

اضطر السيد ريتشارد أن يعرِّف بنفسه:

«أنا العميل صفر إكس ثلاثة عشر من الكي - سي - بي.»

نهض الرجل ذو النظارات ومد يده مصافحاً:

«وأنا بصري كذا...» - لا أتذكر كنيته -.

قال الرجل ذو النظارات معرفاً بنفسه ثم صافح السيد ريتشارد، وتابع يقول:

«إذا كنتم تريدون منا أن نوظِّف هذا الشاب، فليس لدينا أي شاغر، بل إنه لدينا فائض في الكادر، ونحن نسجل عدداً من عملائنا السريين في بيانات الرواتب على أنهم مستخدمو مكاتب. لا شاغر لدينا!»

قال السيد ريتشارد بشيء من القسوة:

«أقول لك بأنني جاسوس!»

«جائز... أنا أقول لكم بأنه لا شواغر لدينا.»

«أليس ثمة من يهتم بأمري؟ عندي مخططات سرية للغاية.»

«لماذا لم تخبروني منذ البداية؟ اذهبا إلى الطابق الثالث، على يسار الممر..»

قاطعه السيد ريتشارد قائلاً:

«أعرف، أول غرفة على اليمين..»

«لماذا جئتم إلي ما دمتم تعرفون؟»

دخلنا الغرفة التي في الطابق الثالث. عرّف السيد ريتشارد بنفسه مرة أخرى كجاسوس، فسأله المسؤول:

«من الذي أرسلكم؟»

«جئت من تلقاء نفسي»

«أعني من توسط من أجلكم؟ هل لديكم واسطة؟»

أخبره السيد ريتشارد باسمه ومهمته، فسأله المسؤول:

«ما هو موضوع المخططات السرية التي بحوزتكم؟»

«إنها تتعلق بأمور التفجير والنسف»

«أيوه.. لقد قصدتم جهة خاطئة، اخرجوا إلى الممر وقابلوا زميلنا في الغرفة الثانية على اليسار.»

دخلنا الغرفة التي دلنا عليها حيث عرّف بنفسه وذكر للموظف بأنه يملك مخططات سرية للغاية تتعلق بالتفجيرات. وأردف قائلاً:

«أحضرتها معي لأسلمها لكم، فقد قيل لي بأنكم تتابعون موضوع التفجيرات.»

«ولكن أي نوع من أنواع التفجيرات؟ أي نوع من أنواع النسف؟»

«بصورة خاصة ما يتعلق منها بنسف الجسور وما شابه ذلك.»

«الجسور؟»

«نعم.»

«لقد أخطأ من أرسلكم إلي. نحن نهتم بعمليات التخريب، ولكن ليس تلك الخاصة بالجسور.»

قال السيد ريتشارد وقد توتر إلى حد كبير:

«هلاً تفضلتم وأخبرتموني لمن يتوجب علي أن أسلم هذه المخططات؟»

راح الرجل يمضغ طرف القلم الذي في يده كسباً للوقت وهو يغمغم: «جسور.. جسور.. جسور.. جسور...» إلى أن حسم أمره وقال أخيراً:

«يحسن بكم أن تصعدوا إلى الطابق الرابع وتسألوا عن المختص بشؤون نسف الجسور.»

استغرب السيد ريتشارد كثيراً أن يتم الاستدلال على مكتب بتلك السرية بالاستفسار عنه. فقال للرجل:

«هل يعرفون؟»

«طبعاً، اسألوا أي شخص كان وسوف يدلكم.»

بالفعل حدث ما قاله الرجل، فقد صعدنا إلى الطابق الرابع حيث سأل السيد ريتشارد أول شخص صادفناه عن المكتب المسؤول عن نسف الجسور، فأشار إلى إحدى الغرف. دخلنا تلك الغرفة وعرّف ريتشارد المسؤول الذي قابلناه بنفسه وأخبره عن الوثائق السرية للغاية التي بحوزته، والمتعلقة بعمليات نسف الجسور، بل فتح إحدى الإضبارات وعرض على الرجل بعض المخططات.

أصغى إليه الرجل بانتباه شديد ثم سأله:

«آية جسور؟ أي نوع من الجسور؟»

«جسور.. الجسور المعروفة..»

«ولكن هناك أنواع مختلفة من الجسور كما تعرفون. أهي جسور خشبية أم من الإسمنت المسلح؟ جسور من الحجر أم من الحديد؟ جسور معلقة أم بقوائم؟ أم أنها جسور للسكة الحديدية؟ لا أعرف طريقة التخصص عند أجهزة المخابرات في بلدكم، أما عندنا فثمة مكتب متخصص لكل نوع من أنواع الجسور.»

«مخططاتي تتعلق بجميع أنواع الجسور، ولكن أغلبها جسور حديدية.»

«الآن أصبح الأمر مفهوماً، إذن فقد قصدتم الجهة الخاطئة. عليكم أن تصعدوا إلى الطابق الخامس وتدخلوا غرفة كتب عليها الرقم «٦٠١». أخبروا الموظف الذي ستقابلونه هناك بأنني أحلتكم إليه، وسوف يهتم بأمركم.»

صعدنا إلى الطابق الخامس وقد تعلق السيد ريتشارد بأمل جديد، دخلنا الغرفة ذات الرقم «٦٠١» حيث قابلنا رجلاً بديناً أخبره السيد ريتشارد بمشكلته من ألفها إلى يائها.

التزم الرجل الصمت لفترة، لعله كان يفكر بما يتوجب عليه فعله. ثم أمسك فجأة بسماعة الهاتف وكأنه قرر ما ينبغي فعله، وراح يتحدث:

«جاءني شخص يا سيدي، وبرفقته شاب. إنه يزعم بأنه جاسوس، أي عميل سري وأنه مختص بالعمليات التخريبية، وبصورة أخص عمليات نسف الجسور الحديدية.»

على إثر سماعه لهذا الكلام راح صاحبنا ريتشارد يصرخ بعصبية وقد تشوشت لغته التركية إلى حد كبير:

«لا أنا ينسف جسور الحديد.. لا هكذا.. مخططات عندي سرية للغاية..»

أشار له الرجل البدين بيده أن يلتزم الصمت وهو يتابع كلامه على الهاتف:

«بم تأمرون يا سيدي؟ ماذا نفعل بهذا الرجل الآن؟»

أصغى إلى ما يقوله الشخص الذي يتحدث إليه على الهاتف ثم كرر عدة مرات «أمركم، أمركم.» وأغلق سماعة الهاتف والتفت إلى السيد ريتشارد:

«من الأفضل كما قال لي السيد المدير أن تصعدوا إلى الطابق الأخير وتقابلوا هناك هاشم بيك.»

ذهبا إلى هاشم بيك الذي أصغى بانتباه شديد إلى السيد ريتشارد وهو يهمهم: «همم م م..» وعندما انتهى السيد ريتشارد من كلامه سأله هاشم بيك:

«بماذا تنسفون الجسور الحديدية؟»

لقد بلغ التوتر بالسيد ريتشارد مبلغاً جعل وجهه يحمر وهو يصرخ بأعلى صوته:

«أنسفها بما أشاء، وما شأنك بذلك؟»

رد عليه هاشم بيك بلطف شديد:

«هدئوا أعصابكم رجاء، الأشخاص العصبيون لا يمكن أن ينجحوا في مهنتنا. سألتكم حتى أسهل لكم أمركم، فنحن لدينا أقسام متخصصة لكل من التفجير بواسطة الفتيل والتفجير بواسطة الكابل الكهربائي، ثمة خبراء لكل نوع من أنواع التفجير.»

قال السيد ريتشارد:

«بالكهرباء، بالفتيل، أو بأية وسيلة أخرى..»

«حسناً... إذن انُزلوا إلى الطابق الأرضي، الغرفة الثالثة على يمين الممر.»

دخلنا الغرفة التي دلنا عليها فوجدنا أنفسنا أمام الرجل البدين ذي الرأس الصلعاء الذي كان أول من قابلناه في ذلك المبنى. لم يتذكر أننا قصدناه من قبل، فحكى له السيد ريتشارد كل شيء مرة أخرى والرجل يرتدي معطفه، قال وهو يدس ذراعه الثانية في ردن المعطف:

«حسناً يا سيدي، ولكن لماذا جئتم متأخرين إلى هذا الحد؟»

انتهى من ارتداء معطفه ونظر إلى ساعته وتابع يقول:

«وقت الدوام اقترب من نهايته، في حين أن موضوعكم مهم ويستدعي وقتاً طويلاً... هل تعرفون ما يحسن بكم فعله؟»

«ماذا نفعل؟»

«تعالوا غداً في الصباح الباكر. لكن يوم الغد هو السبت.. تعالوا إذن صباح الاثنين.. وهل يصح أن تأتوا في نهاية الدوام... سوف ننصرف بعد ربع ساعة..» خرجنا من الغرفة. وجه ريتشارد بيك الذي أحمَّر منذ برهة مثل ثمرة شوندر، اكتسى بشحوب من النوع الذي يقال في وصفه «لو جرحته لما سال منه دم». قال لي:

«لنذهب.... الظاهر إنني مضطر إلى الاستمرار في التجسس، إنه قدري.» في اللحظة التي كنا نخطو فيها خارج الباب الكبير للمبنى، لحق بنا أحد الأشخاص وأمسك بذراع السيد ريتشارد:

«إلى أين؟»

«نحن ذاهبان.»

«كيف ذاهبان؟ هل يصح أن تذهبا دون سؤال؟ هل تعرفان أين أنتما؟ تعالا هنا!» اقتادنا إلى طابق تحت مستوى الأرض حيث أقحمنا داخل غرفة فيها عدد من الأشخاص، راحوا يسألوننا بإلحاح عن كيفية دخولنا إلى المبنى، أجابهم السيد ريتشارد بأننا دخلنا بصورة طبيعية من الباب، لكنهم لم يقتنعوا.

اتصل الرجل الذي اقتادنا إلى تلك الغرفة بجهة ما وقال:

«سيدي، القينا القبض على شخصين مريبين، ماذا نفعل بهما؟»

همس السيد ريتشارد في أذني:

«الآن قضي علينا.»

فتشوا ثيابنا وعثروا على ثلاث بطاقات شخصية مختلفة في جيوب السيد ريتشارد. سألني الرجل الذي قام بالتفتيش:

«وأنت، أين هي بطاقتك الشخصية؟»

«ليست لدي بطاقة شخصية، ولا كانت عندي واحدة في أي وقت مضى. إنهم لا يمنحونني بطاقة شخصية.»

«لماذا؟»

«لأنني استشهدت في الحرب قبل أن أولد.»

سمعت صوت صفعة قوية والتمعت البروق في عيني. لا أتذكر ما حدث بعد ذلك. حتى لو اقتربت من التذكر فأنا لا أرغب بذلك.

بعد بضعة أيام أطلقوا سراحي بالرغم من عدم امتلاكي لبطاقة شخصية، في حين أنهم احتفظوا بالسيد ريتشارد الذي كان يحمل ثلاث بطاقات معاً. علّق الرجل الذي أشرف على إطلاق سراحي قائلاً:

«هذا ما يسمى بانعدام العدالة. إذا كان لدى الرجل ثلاث بطاقات، طبيعي أن لا يمنحوك واحدة.»

لم أر السيد ريتشارد بعد ذلك أبداً، فإما أنه تلاشى كالغبار أو انهم حولوه إلى غبار، ومن يدري؟ لعله في مكان ما من بلاد العرب متزوجاً من امرأة عربية لكي يتقن اللغة العربية جيداً.

انتهى يشار يشامز من حكايته فسأله الإداري:

- وماذا حدث لصاحبك العجوز حسن أويوت؟

- حسناً يا أخي...

أخرج الورقة المهترئة المطويّة أربع مرات، تلك التي كان قد فتش عنها وعثر عليها في كيسه، وراح يفتحها ببطء، قال:

- هناك أخوة يشككون في صحة ما نحكيه ويظنون بأننا نلّفق القصص ونرمي على غير هدف. حتى في أمريكا يوجد كذب. أما عندنا فلا يا أخوتي. سوف أعرض وثائق على المشككين.... تركت ريتشارد بيك هناك وعدت إلى البيت. بعد فترة من الزمن أفرغت زوجة ريتشارد بيته من الأثاث ورحلت، أما أنا فعدت إلى مرافقة العجوز حسن

أيوت إلى المحاكم. كلما انتهينا من إحدى المحاكمات كان يسلمني صورة عن الحكم أو وثائق أخرى يحصل عليها من ديوان المحكمة لأحتفظ له بها. وكنت أحتفظ بنسخ من عرائضه ومن الملاحظات المسجلة خلال جلسات المحاكم. لقد فتشت كيسي قبل قليل لكني لم أعثر من تلك الوثائق إلا على محضر إحدى الجلسات، هاكم أقرأوها!

قال يشار ذلك وأعطى الورقة للإداري الذي أمسك بها فقرأ في صدر الصفحة:

«الجمهورية التركية، محكمة أصلية» ثم قرأ النص المكتوب:

«وصل محامي الإدعاء. موظف دائرة النفوس المدّعى عليه حاضر. استمرت الجلسة المفتوحة. تمت تلاوة قيود النفوس. تقرر الاستفسار لدى دائرة النفوس المعنية عن تطابق قيود النفوس مع الوثائق المستندة إليها للتأكد من أبوة حسن أويوت لكل من «طناز» و «بويراز» و «آيطناز»، كما تقرر طلب تاريخ زواج المدعي وزوجته من سجلات دائرة نفوسه، وعلى هذا رفعت الجلسة إلى تاريخ كذا...»

في أثناء قراءة الإداري لقرار المحكمة كان يشار يشامز يسترق النظر من الصياد الذي راح يهرب بنظراته بعيداً.

تابع يشار يشامز قصته:

- عندما كنت أرافق العم حسن متنقلاً من محكمة إلى أخرى كان يعاني أشد ما يعاني من زوجته التي أصرت على الطلاق منه بدعوى أنه خانها. ويا لها من امرأة طويلة اللسان! ذات مرة، في إحدى جلسات المحاكمة لم تترك شتيمة قاسية إلا وأطلقتها على زوجها الذي انهار على الأرض وهو يتمتم كالغريق:

«زيادة... زيادة... ثلاثة أطفال زيادة... والله زيادة..» وقد تصلّب جسمه مثل الحجر.

قال النّحات:

- هل مات؟

- مات. كان عليكم أن تروا زوجته في مراسم دفنه. فقد راحت العجوز تبكي وتندب، تضرب رأسها بيديها وتشد شعرها، تقطع أزرارها وتمزق ثيابها وهي تصرخ: «إلى أين ترحل وتتركني وحيدة يا حسن!» إلى درجة أن جميع الحاضرين لم يتمالكوا أنفسهم فشاركوها البكاء. وعندما دفن زوجها صرخت المسكينة: «خذني معك!» وألقت بنفسها

في القبر، أمسكوا بها وأرغموها على الخروج من القبر.

بعد ذلك استقرت العجوز في البيت، وسرعان ما تسلطت علي وبدأت تطالبني بإخلاء البيت: «هذا البيت ضيق علي، سوف أوحد الشقتين، اخرج من بيتي..» يا أخي كيف يضيق البيت بامرأة عجوز متوحدة؟ ألم يتسع لزوجها؟ لكن الوجه الآخر للموضوع أنها تريد أن تتزوج حتى تنسى ألمها بفقدان زوجها... وهكذا فقد تزوجت بعد شهرين على وفاة العجوز، برجل يصغرها بعشرين عاماً، وأخرجتني من البيت. وهكذا بقيت من جديد بلا مأوى. كنت ألتقي بآنشة في البيت مرة كل أسبوع، والآن بدأنا نلتقي خلسة في الحدائق والشوارع.

سكت يشار، استعاد الورقة المطبوعة من الإداري وأعادها إلى كيسه. قال أكبر سجناء المهجع سناً:

- كل ما حكيته صحيح. إنها أمور يمكن أن تحدث كل يوم ومع أي شخص كان.

وقال السجين ذو الصوت الشبيه بصفارة إنذار:

- صحيح ما تقوله، لكننا ندهش مع ذلك عندما نسمع يشار يحكيها لنا وكأن آية أحداث مشابهة لم تحدث لنا قط... هذا ما لا أستوعبه.

تحولت الأحاديث إلى همسات، ثم توقفت الهمسات بدورها وغرق المهجع في الصمت. لم يكن يسمع سوى شخير بضعة سجناء وغمغمات المتكلمين في نومهم.



-٢٠-

لتعم عيناك أيها القدر

إنه مساء يوم الزيارات. وجوه السجناء الذين حظوا بزيارة تبتسم، في حين بدا الحزن الشديد على أولئك الذين انتظروا زيارة ثم أصيبوا بالإحباط، أما الذين ليس لديهم أحد يزورهم فقد تابعوا حياتهم الطبيعية.

في أيام الزيارات يدخل كثير من الطعام إلى السجن، الأمر الذي يؤدي إلى خفض مبيعات الطباخين من الطعام بالمقارنة مع الأيام الأخرى، فالطعام الذي يدخل مع الزيارات، يوزع منه على السجناء الذين لا يزورهم أحد أيضاً. وهكذا لا ينشغل يشار في أيام الزيارات ببيع الطعام، لكن عمليات البيع والشراء من كل الأنواع تزداد بالمقابل في أيام الزيارات. باع يشار الكثير من التحف الصغيرة المصنوعة من عجينة لب الخبز الممضوغ بوساطة اللعاب، والجزادين المصنوعة من الخرز، وبعد انتهاء الزيارات باع المناقل والمواقد التي اشتراها نقداً من الملطزجي بثمن رخيص، في مهاجع الأجنحة الأخرى. كما أن بائع الملابس المستعملة قام بتجارة مجزية وأعطى يشار أرباحاً لا بأس بها.

وهكذا تابع يشار أعماله التجارية داخل السجن إلى حين ظهور النص نصيص وإطلاقه لصفارته إيذاناً بدخول السجناء مهاجعهم، فعاد بدوره إلى مهجعه.

كان المهجع في حركة وحيوية بفعل الأخبار التي جاء بها السجناء الذين تلقوا زيارات، ومنها ما هو مفرح ومنها ما هو مثير للأسى. وكان جو المهجع أكثر امتلاءاً بالضجيج من الأيام الأخرى.

انهمك أبو الكولونيا بعمله من غير أن يعير أقل اهتمام لكل الأحاديث الصاخبة التي ملأت المهجع. كان يُبَشِر قشور الليمون بالطرف المثلم لسكينه المصنوع من الصفيح، ويغلي شيئاً ما على موقد الكحول المشتعل أمامه. على رف ضيق من الخشب ثبته بواسطة

الحبال على مسامير مغروسة في الجدار، كان ثمة زجاجات كولونيا من مختلف الأحجام.

اضطجع يشار على ظهره فوق سريره مسنداً رأسه بيديه وراح يراقب بانتباه أبو الكولونيا الذي بدا وكأنه آلة في شكل إنسان أو دمية في مسرح العرائس. لو أن إقامته في السجن ستطول، لكان يشار حاول أن يتعلم منه كيف يحول الكولونيا إلى فودكا ليربح من هذا العمل مزيداً من النقود. كان يشار مستغرقاً في هذه الأفكار عندما قال كاتب العرائض المضطجع على السرير المجاور:

- إني أشفق كثيراً على أبو الكولونيا.

لقد قال ذلك بطريقة توحي بأنه يريد من يشار أن يسأله عن السبب، فسأله يشار:

- لماذا تشفق عليه؟

- لدى الرجل زوجته وعشيقته، لكن كلتيهما لا تزورانه، والمسكين يريد أن يصرف على الاثنتين فيعمل ليلاً نهاراً في تحويل الكولونيا إلى فودكا مثل ساحر. فهل من السهل أن يصرف على امرأتين في هذا الزمان الذي يلاقي فيه أشطر الرجال صعوبات جمة في الصرف على امرأة واحدة؟!

- لماذا لا تزورانه؟

- لحسن الحظ أنهما لا تزورانه، فإذا حدث وجاءتا في زيارة واحدة، تندلع بينهما مشاجرة بالضرب وشد الشعر، فيضطرب الجو في قاعة الزيارات ولا يستطيع أي سجين ان يتحادث مع زواره. لهذا السبب أقلعتا عن زيارته، وهذا المسكين يمارس مهنته داخل السجن فقط.

لم يفهم يشار ما عناه كاتب العرائض، فسأله:

- ألا يستطيع ممارسة مهنته خارج السجن؟

- ومن سيشرب الفودكا المصنوعة من الكولونيا بوجود أفخر أنواع الفودكا؟

- صحيح ما تقول.

- ولأنه لا يستطيع ممارسة مهنته في الخارج فهو يعمل «توفه جي» حتى يعيل زوجته وعشيقته، فيمسكون به ويلقون به داخل السجن.

ظن يشار أن عمل «التوفه جي» يشبه عمل الخراطة والتسوية أو ما شابه، فسأل كاتب العرائض:

- أية صنعة هي ما تدعوه بالتوفه جي؟

- إنه عمل ليلي، السطو الليلي الذي تعرفه، ولكن فقط من يسطو على الدكاكين يدعى بالتوفه جي... فليضعوا أمام المسكين زجاجات من الكولونيا ويطلبوا منه تحويلها إلى فودكا، حتى يعمل المسكين بشرفه ما بين خمس عشرة وعشرين ساعة كل يوم في تحويل الكولونيا إلى فودكا ويكف عن السطو على الدكاكين... أليس صحيحاً ما أقول؟

اصطف السجناء في رتل التفقد المسائي المعتاد الذي ختمه النص نصيص بعبارته المعهودة:

- بالخلاص!

ورد عليه السجناء كما في كل مساء، صارخين كمن يبصق من بين أسنانه:

- سلمت!

يكون الوقت المخصص للعشاء في يوم الزيارات أقصر منه في الأيام العادية، لأن السجناء يبدؤون باختلاس لقيمات الطعام منذ منتصف النهار.

صاح الملك سامي على نزلاء المهجع بطريقة منادي المسارح الجوّالة، وقد اشتغل في وقت مضى في هذا العمل:

- هيا، سيبدأ العرض! أخونا يشار يشامز سيبدأ بقص ما مرّ به من مغامرات. تعالوا، تعالوا يا رفاق، اتخذوا مواقعكم - العرض سيبدأ!

وقال أكبر سجناء المهجع سناً:

- يشار يا بني، نحن بانتظارك.

كان يشار جاهزاً، قفز من مكانه واقفاً:

- ها قد جئت يا بابا!

وجلس على المقعد الخشبي الطويل في وسط الغرفة وأسند مرفقيه إلى الطاولة:

- سنبدأ الكلام عما مرَّ بنا من أحداث، هذه الليلة بالقول: «لتعم عيناك أيها القدر!»

نعم لتعم عينا القدر يا أخوتي. أيها القدر قد أحرقتنا! أيها القدر فلتمت! أيها القدر السافل، تعذّب وتألم ليصبح حالك أسوأ من حالنا ألف مرة! أيها القدر، ليتك تصاب بالجرب ولا تمتلك أظافر تحك بها جربك! أيها القدر الكافر الزنديق، يا عديم الإيمان

وعديم الضمير.

تعجب المستمعون لتحامل يشار على القدر باللعنات بهذا الإفراط، قال السجين ذو الصوت الشبيه بصفّارة الإنذار:

- ما بك يا يشار تسب وتلعن القدر؟

أجابه يشار بمزاج من يحكي أمراً مسلياً، لا بمزاج من يسب ويلعن:

- لقد علمني سب القدر وإمطاره باللعنات للتخفف والإرتياح، شخص تعرّفت إليه في غرفة النزل يدعى المعلم سليمان.

كانت ليشار موهبة خاصة في إثارة اهتمام المستمعين إليه، لذلك فقد تظاهر بأنه تذكر شيئاً كان نسيه وتابع يقول:

- هه! صحيح، فأنا لم أحك لكم كيف وصلت إلى ذلك النزل، فكيف لكم أن تعرفوا المعلم سليمان...

كانت إحدى وسائله لزيادة اهتمام المستمعين هي تقديم أو تأخير رواية بعض الأحداث:

بعد موت المسكين حسن أويوت لعدم تحمل قلبه العجوز كل تلك التنقلات بين المحاكم والمحامين والنيابة والاستجوابات بهدف التخلص من مشكلة الأولاد الثلاثة الزائدين الذين ابتلي بهم، تنطحت زوجته الحيزبون للزواج من رجل جبلي ولم يمض أسبوع واحد على صراخها وبكائها في مراسم دفن زوجها قائلة: «لمن تتركني وترحل؟!» وهي التي أرادت الطلاق منه عندما كان على قيد الحياة، فطردتني من البيت بذريعة زواجها الجديد ورغبتها في الإقامة مع زوجها الجبلي في كامل البيت، وهكذا بقيت في الشارع مرة أخرى... والأنكى من ذلك أننا كنا قد اشترينا عدداً من قطع الأثاث بعد أن اصبح لنا بيت يؤوينا، الأمر الذي زاد من صعوبة مغادرتنا للبيت، فقد أخذت آنشتي المسكينة ما استطاعت نقله من الأثاث إلى القصر صارفة النظر عن أنها حامل، وبعنا ما تبقى بأبخس الأثمان، فلم نكن نملك نقوداً نستأجر بها بيتاً جديداً. تذكرون أنني سبق وأقمت في نزل. بعد مغادرة بيت العجوز قصدته مجدداً. كان نادل ذلك النزل يحبني، وهو الذي أنقذني من الموت عندما حاولت أن أقتل نفسي بوساطة الغاز. سألته عما إذا كانت لديه غرفة فارغة، فأخبرني بأن الغرف كلها محجوزة، لكنه أضاف أن ثمة نزيل في إحدى

الغرف يدعى المعلم سليمان، يريد اقتسام غرفته مع مستأجر طيب ونظيف. وعلى كل حال كان يقيم في كل غرفة من غرف النزل ثلاثة أو أربعة أشخاص معاً. وهكذا استقر بي المقام في الغرفة التي ينزل فيها المعلم سليمان.

المعلم سليمان هذا رجل ظريف حلو الكلام، من النوع الذي يقال في وصفهم إن العسل يسيل من لسانهم. عندما يحكي شيئاً ما فإن المستمعين إليه يحدقون داخل فمه. حياته غنية بالأحداث والتجارب، بما في ذلك السجن في وقت سابق وكان يحكي لي في الليالي لماذا ألقوا به في السجن: لأنه عامل، ونقابي ومشارك في الإضرابات ومحرّض عليها وما إلى ذلك.

قاطَعه أكبر السجناء سناً في المهجع متسائلاً:

- قلت ما اسمه؟

- المعلم سليمان.

- ما هي كنيته؟

- نسيت كنيته يا بابا.

- أنا أيضاً لا أتذكر كنيته، لو ذكرتها لكنت تذكرت. هل له شاربان كبيران؟ حاجبان معقودان؟ شعر غزير؟

- نعم، نعم.

- ذو وجه بشوش مملوء بالتجاعيد، وصوت أخن حاد، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذن فقد عرفت ذلك المعلم سليمان. فقد أمضينا معاً وقتاً طويلاً في السجن، لكنهم ما كانوا يتركونه بيننا، بل يخصونه بمهجع السياسيين. ومع ذلك كنا نتبادل الحديث من حين إلى آخر... كان رجلاً شهماً، شجاعاً، صريح الكلام، عصياً على الخضوع، أبياً، جريئاً، لكنه متقدم في العمر بعض الشيء.

- نعم يا بابا، إنه هو... كان المعلم سليمان يسب ويلعن القدر كثيراً. متى ما وحيثما رأى شراً أو فساداً أو ظلماً، بدأ بالهجوم على القدر: «ولاك أيها القدر مصاص الدماء! أيها النهم لالتهام اللحم البشري! معدتك بالوعة قاذورات أيها القدر! أيها القدر العاهر! فلتمت أيها القدر وليمتلئ عيناك وفمك بالتراب! لتبتلي ولا تجد دواءاً!» بمثل هذا الكلام

كان يمطر القدر باللعنات. لقد استغرب تحرقي للعمل وعجزي عن العثور على وظيفة، فسألني عن السبب، فحكيت له عن موضوع بطاقتي الشخصية التي حرمت منها وعن عدم وجودي على قيد الحياة بسبب ذلك، وعن كل شيء من الأول حتى الأخير. كان يصغي إلي ويمطر القدر بلعناته:

«أيها القدر السافل المنحط! ليتك تلحس الملح فيحترق قلبك ولا تجد ماءاً تشربه! يا ابن الكلب، يا خميرة الفساد!»

سألته ذات يوم:

«لماذا تلعن القدر باستمرار يا معلم سليمان؟ من هو القدر، أو ما هو؟»

فأجابني قائلاً:

«يا بني يشار، لقد ابتليت بمشكلات كثيرة، وأنا أعرف جيداً من الذي ينبغي أن أوجه شتائمي إليه، لكنني أقع في ورطة إذا شتمت من ينبغي أن يشتم. أعني أن فمي قد احترق كثيراً من أكل الحساء الساخن، فأصبحت أنفخ على اللبن قبل أن آكله. فإذا شتمنا من يستحقون الشتم، أمسكت الشرطة بخناقنا، ولذلك نشتم القدر بدلاً من أولئك الذين نريد شتمهم. ألا يعرف هذا الشعب أنه لا وجود للقدر فينام ويستيقظ وهو يشتمه ويلعنه؟ يعرف بالطبع لكنه يعرف من يشتم ويلعن في الحقيقة عندما يلعن القدر بلسانه، فيطفئ نار قلبه. إذا لعنّا من يستحقون اللعن، حاكمونا وألقوا بنا في السجون... وهكذا تعلم الشعب وعرف طريقه، فدأب على شتم القدر ولعنه، وبذلك ينعش قلبه ويطهره قليلاً.»

فقلت له:

«الآن فهمت يا معلم سليمان. أنت على حق.» ثم صرخت قائلاً:

«فلتعم عيناك أيها القدر العاهر!»

«أنا أعرف الآن من الذي تلعن.»

منذ ذلك اليوم فصاعداً، كلما بدأ المعلم سليمان بشتم القدر، انضممتُ إليه بدوري ورحنا نسب ونلعن مثل ترتيل المراثي والنواح.

كانت آنشتي تعرف المنزل الذي أعيش فيه، وتزورني فيه مرة كل أسبوع أو كل أسبوعين بعد أن تستأذن سيدتها، فنخرج ونتنزه معاً ونخطط لما سنفعله.

حدث أن انقطعت آنشة عن زيارتي لوقت طويل، ولم أذهب إلى القصر لرؤيتها خجلاً من أنني لم أجد عملاً ولا عقدت قراني عليها. وهكذا مضى شهر أو شهران إلى أن جاءت فجأة إلى النزل في الصباح الباكر، استقبلتها على باب النزل ثم مشينا لفترة من الوقت، وعندما أصبحنا في شوارع مقفرة أمسكنا أحدنا بيد الآخر.. وآنشة المسكينة كبر بطنها واقترب موعد وضعها... وجهها شاحب، نظرتها شاردة، جسدها متعب وروحها منهكة.

«جئت مرات ولم أجدك.»

«لابد وأنني خرجت بحثاً عن عمل.»

التزمت الصمت، هي التي تغرد وتتحدث عادة كالببغاء. سألتها:

«ما بك يا آنشتي؟ لم أنت صامتة؟»

«طردتني السيدة الكبيرة من القصر.»

شعرت وكأن رصاصة أصابت دماغي.

«لماذا طردتك؟»

«عندما كبر بطني، ألست حبلى؟ عرفت بأنني حبلى فطردتني قائلة: اذهبي وضعي ابن زناك في مكان آخر، لهذا القصر سمعة شريفة»

وبدأت تبكي، فلم أعرف ماذا أقول، سألتها:

«متى حدث ذلك؟»

«منذ أسبوع.»

«حسناً، وماذا فعلت خلال هذا الأسبوع؟»

إذن فقد طردت من عملها منذ أسبوع ولم تقصدني، الحق يا أخوتي آلمني ذلك، فمن الواضح أنها لم تأت إلي لأنها لا تثق بي. والحق معها في ذلك، فما الذي يمكن أن يوحي لها بالثقة بي؟ فأنا غير قادر حتى على إيجاد سقف تستظل به. ولكن مع ذلك آلمني أنها لم تأت إلي عندما طردت من العمل، بصفتي أباً للطفل الذي تحمله في بطنها.

«ثمة امراة تقيم في أحد الأكواخ وراء القصر تدعى الست خديجة، كانت تعمل شغالة و ما إلى ذلك، لقد أشفقت علي وآوتني عندها. لقد احتميت ببيتها حتى لا أصبح عبئاً

عليك.»

سكتت آنشة، ولم يصدر مني أي صوت. سألتني:

«لماذا لا تقول شيئاً يا بشار؟»

«وهل بقي لي وجه لأقول شيئاً يا آنشة؟»

مشينا فترة طويلة بصمت ويدانا متماسكان، إلى أن وصلنا إلى حديقة «الكلخانة» وكان الازدحام على أشده عند باب الحديقة، عرفنا أنه عيد الربيع، وقد تقاطر الناس إلى الحديقة للتنزه والاستمتاع. دخلنا بدورنا وكأننا في أحسن حال ومزاجنا عال العال.

مشت آنشة المسكينة وهي تفتح ساقيها إلى الجانبين مثل بطة سمينة بسبب كبر بطنها، وقد بدا عليها التعب الشديد، فجلسنا على مقعد خشبي حتى تنال قسطاً من الراحة. زوار الحديقة يمرون من أمامنا موجات تلو موجات، أصوات طبول ومزامير تصلنا، ومن جهة أخرى ثمة فرقة موسيقية تعزف، وآنشة تهمس في أذني:

«كانت للست خديجة ابنة في عمري وماتت، إنها تعاملني معاملتها لابنتها وتحلني محلَّها.»

من الواضح أنها تقول ما تقول حتى تبدّد مخاوفي من إقامتها عند امرأة غريبة. نهضنا وانضممنا إلى جمهور المتنزهين، انجرفنا مع السيل البشري. منادو المسارح الجوالة يصرخون نحو الجمهور معلنين عن عروضها. جرفنا التيار حتى انتهينا إلى بسطة راح صاحبها ينادي على بضاعته:

«أيها المواطن، هذا هو القدر، هنا القسمة والنصيب، هنا حظك نصيبك... ساعة منبه قيمتها مئة ليرة عندي بخمس ليرات! مذياع يدوي قيمته ألف ليرة، أيضاً بخمس ليرات.. ماكينة حلاقة كهربائية سعرها في المحلات ثمان مئة ليرة، أيضاً بخمس ليرات.. هات النقود وجرب حظك! هيا إلى الحظ، القسمة والنصيب، هيا!»

كان على «البسطة» ألف نوع من الأشياء وسقط المتاع، ربط كل واحد منها بحبل، ومن يدفع خمس ليرات يشد واحداً منها، فيفوز هذا بعلبة دخان، وذاك بقطعة لبان، وآخر بموس حلاقة.. وإذ بآنشة تقول باشة:

«لنجرب حظنا أيضاً!»

«امش يا بنت، وهل نحن من أصحاب الحظ!»

لكنها ألحت قائلة:

«عندي نقود، هيا نسحب حبلاً بدورنا.»

أعطت الرجل خمس ليرات وشدت أحد الحبال... وإذ بمصباح طاولة ضخم يرتفع في الهواء! ابتهجت آنشة مثل الأطفال وصفقت بيديها:

«انقلب الحظ لنا يا يشار!»

وقبل أن تنهي جملتها، أتعرفون ماذا حدث أيها الأخوة؟ اتضح أن الحبل الذي شدته آنشة مربوط إلى ملقط شعر نسائي، وعندما شدت الحبل ارتفع المصباح قليلاً لأن حافة الملقط علقت به، فكان ابتهاجها سدى، عاد المصباح فسقط في مكانه بعد أن ارتفع بمقدار شبر، وأكملت آنشة شد الحبل حتى أمسكت بالملقط الملفوف داخل ورقة.

مشينا مبتعدين عن بسطة الحظ والنصيب وكلانا يلتزم الصمت مخاصماً قدره. عاد الازدحام يجرفنا في تياره حتى حشرنا في مكان ما حيث واجهنا باب يدخل منه كل من يدفع ليرتين ونصف. دفعت آنشة ثمن بطاقتين لها ولي ودخلنا من الباب، فسمعنا ضحكات صاخبة وأية ضحكات! إنها تدفع المرء إلى الظن بأن جيشاً كاملاً يقهقه. بلغنا فسحة واسعة امتلأت جدرانها بالمرايا، ليس من نوع المرايا التي تعرفونها.. من يرى خياله في إحدى تلك المرايا يتخلّع من الضحك، لأنها تعكس صورة المرء بشكل محرَّف. فإحدى المرايا عكست آنشة قزمة، في حين عكستها أخرى بدينة مكورة، أما الثالثة فحولتها إلى ما يشبه حبلاً طويلاً.. أما أنا... نسينا كل مآسينا وأطلقنا الضحكات الصاخبة، وإذ بآنشة تقبض على يدي وتقول:

«لنخرج أرجوك يا يشار، سوف أعملها تحتي.»

كنت قد ارتخيت لشدة الضحك ولا تسمح حالتي بمرافقة البنت إلى الخارج... خفت أن تنفجر آنشة من الضحك فتضع طفلها في ذلك المكان قبل موعده... على كل حال خرجنا ونحن ما نزال نضحك والدموع تسيل من عيوننا.. وبينما نحن نمشي هكذا رأيت أمام ساحة مسيجة بأسلاك شائكة، لافتة قماشية كتب عليها الإعلان التالي:

«مطلوب حارس مرمى!»

لقد أضنتني البطالة إلى درجة أنني إذا رأيت إعلاناً عن طلب طيار، فسوف أتقدم إلى شغل الوظيفة مدعياً بأنني طيار متفوق، أنا الذي لم أركب طيارة في حياتي. رأيت

لافتتين أخريين على جانبي مقصورة عند مدخل الساحة المسورة بالأسلاك، كتب عليها:

«سجل هدفاً واربح ليرتين ونصف!»

تسمرت أمام تلك اللافتات أبحلق فيها، وراحت آنشة تزقزق لصق أذني، لكنني لم أفهم مما تقوله شيئاً، فقد تركز سمعي على الصوت الصادر من مكبر الصوت:

«هيا أيها السادة، ليرتان ونصف لمن يسجل هدفاً! تفضلوا، تفضلوا! فليتقدم من يثق بركلاته. هذا هو أكثر الأماكن ربحاً وأسهلها في تركيا. الهدافون الذين يلمع نجمهم هنا تضمهم الأندية الكبيرة إلى فرقها. تفضلوا، تفضلوا!»

لكزت آنشة ذراعي وهي مستمرة في الكلام، وقالت:

«أنت لا تصغي إلي.»

«آنشة!»

«أيوه..»

«تستطيعين الذهاب بمفردك إلى بيت تلك الست خديجة، أليس كذلك؟»

«طبعاً أستطيع. أذهب كما جئت. لماذا؟»

لاحظت أنها تتكلم بضيق، فاضطررت أن أوضح لها:

«سوف أجرب حظي هنا.»

«أين؟»

أشرت لها إلى الباب الذي كتب فوقه: «ملعب ضربات الجزاء»

«أووه! وهل سبق لك أن لعبت الكرة؟»

«لم ألعبها قط.»

«إذن كيف؟»

«مهلاً... إن الله كبير.. من غير المعقول أن يطالبوني ببطاقتي الشخصية في هذا المكان أيضاً.. سأقول لهم بأنني حارس مرمى، فإذا شغلني المعلم فلا تنتظريني، اذهبي»

قالت آنشتي المطيعة:

«حسناً.»

اتجهت إلى المعلم الذي ينادي من خلال المكبر ويبيع التذاكر في الوقت نفسه، وكان أمامه طابور من طالبي التذاكر. عندما وصل الدور إلي سألني:

«كم تذكرة تريد؟»

«أنا حارس مرمى، جئت بناءاً على إعلانكم عن حاجتكم إلى حارس مرمى.»

«هل أنت حارس جيد؟»

«أهذا كلام؟ طبعاً.»

«في أي فريق لعبت؟»

أوه! بم أجيبه الآن؟

«لعبت في فريق بلدتي.»

لحسن حظي أنه لم يسألني عن اسم بلدتي أو اسم الفريق. قال:

«إني أحذرك من الآن: إن لم تكن حارساً جيداً فسوف تخسر... هل تستطيع الإمساك بالكرة؟»

«بفضلك أستطيع.»

عهد بشباك التذاكر إلى ولد ثم اصطحبني إلى الداخل وقال لي:

«سآخذ منك ليرة واحدة عن كل هدف يدخل مرماك، مفهوم؟»

«ولم ذلك؟»

«لأن رسم الدخول إلى الملعب هو ليرة واحدة، ونحن نعطي لكل من يسجل هدفاً ليرتين ونصف. وهكذا كلما أكلت هدفاً أكون دفعت عملياً ليرة ونصف لمسجل الهدف. أنت تأكل الهدف وأنا أخسر ليرة ونصف. فما ذنبي إذا أكلت الهدف؟ ستدفع ليرة من تلك الخسارة، وأدفع نصف الليرة، فيصبح المجموع ليرة ونصف، وقد دفع الزبون ليرة واحدة لقاء دخوله.. المجموع ليرتان ونصف..»

«صحيح، ولكن كم سأقبض أنا؟»

«هِهِه! أما أنت، فسوف تأخذ مني ربع ليرة مقابل كل كرة تمسك بها. فإذا أمسكت بألف من الكرات التي ترمى إلى مرماك كل يوم، فسوف تكسب مئتي ليرة. كل يوم مئتي ليرة، أهذا قليل؟»

«شكراً لك يا معلم، إنه مبلغ جيد.. بارك الله فيك.»

جرني إلى داخل الخيمة وقال لي:

«هيا اخلع ثيابك والبس بذة حارس المرمى. مرمانا الثالث فارغ، اذهب وقف أمامه فوراً. إلى حين انتهائك من تغيير ملابسك سأقوم بالدعاية لك.»

ألقى أمامي بقميص وشورت وزوجين من الجرابات والأحذية الرياضية الخاصة بلاعبي كرة القدم، وانصرف. ارتديت مجموعة الملابس، والدعاية التي يطلقها المعلم بوساطة مكبر الصوت من أجلي تدوي في أرجاء المكان وتنتشر:

«حضرات المواطنين المحترمين! لقد تكبدت مؤسستنا تضحيات جسيمة من أجلكم.. من أجلكم، للتعاقد مع حارس المرمى الشهير والمحترف إلى أبعد الدرجات «كامل حارس المرمى» من جنق قلعة.»

صرخ عدة مرات بهذا الكلام إلى حين انتهائي من ارتداء بذة الحارس. يا للعجب يا أخي! فالرجل لم يسألني عن اسمي واسم بلدتي، ومع ذلك نسبني إلى جنق قلعة وأطلق علي اسم كامل، بلا مقدمات. مددت رأسي خارج الخيمة حتى قبل أن أدخل ساقيّ في شورت الحراسة فرأيت المعلم وهو يصرخ بوساطة مكبر صوت فوق الطاولة.

أمسكت بقدمه وقلت له:

«يا معلم! اسمي ليس بكامل.»

شددت قدمه كثيراً لكنه لم يعرني اهتمامه، بل تابع صراخه عبر المكبر:

«حارس المرمى الشهير كامل حارس المرمى يزعم بأن أحداً لن يستطيع أن يسجل هدفاً في مرماه، ويتحدى قائلاً: لم يولد من أمه بعد البطل القادر على تسجيل هدف في مرماي.»

«يا معلم، إن اسمي ليس بكامل.»

«ويقول: مولر نفسه لم يتمكن من تسجيل هدف في مرماي.»

«أقول لك إن اسمي ليس بكامل يا معلم!»

ترك المكبر والتفت إلي:

«بماذا تبربر ولاك؟»

«اسمي هو يشار يشامز.»

«أي اسم هذا! ليس ملائماً للدعاية على الإطلاق. اسمك من الآن وصاعداً هو «كامل حارس المرمى» وكفى! هل فهمت؟»

«على رأسي يا معلم، لكني لست من جنق قلعة.»

«وما المانع؟ لن ينهار العالم إذا أصبحت من جنق قلعة... هل تظن أن أهالي جنق قلعة يموتون تشوقاً لتنتمي إليهم في حين أنك لا تريد ذلك؟ هيا انتهينا من الموضوع، لقد أصبحت من جنق قلعة والسلام.»

انتهيت من ارتداء البذة، فاقتادني المعلم إلى الساحة المحاطة بأسلاك شائكة.

كان ثمة حارسان أمام مرميين من ثلاثة واصطف الزبائن أمامهما وراحوا يطلقون الكرات عليهما ليسجلوا الأهداف.

أوقفني المعلم أمام المرمى الشاغر وانصرف بعد أن قال لي:

«افتح عينيك جيداً وامسك بالكرات المقذوفة!»

حينما بقيت وحدي بين قائمتي المرمى انتابني خوف لا يوصف! قلت لنفسي:

«ولاك يا يشار، ما حاجتك إلى ورطة كهذه أيها الأبله!» فحتى ذلك اليوم لم تلمس يدي أو قدمي أية كرة يا أخوتي.. تذكرت فجأة بأنني جائع، ولا أعرف إن كان ذلك بفعل الخوف أم لسبب آخر. فلم أضع في فمي لقمة واحدة منذ اليوم السابق. وهل يمكن لعب الكرة ببطن جائع؟ لماذا لم آكل؟ لأن النقود نضبت عندي. ولكنه كان علي أن أشبع بطني جيداً برفقة آنشة قبل أن أقف أمام هذا المرمى.. وقفت بين القائمين فراح الجوع ينهش أحشائي.

وكأن الجوع وحده لا يكفي، شعرت فجأة بالحاجة إلى التبول! واضح أن السبب هو الخوف.. وثالثة الأثافي أن صوت المعلم وهو يقوم بالدعاية من أجلي يرج الهواء ويدوي في جميع الاتجاهات:

«إنه يقول إن أحداً لا يستطيع إدخال هدف في مرماه، فأقول له يا كامل حارس المرمى يا ابني، ابلع اللقمة الكبيرة ولا تتفوه بكلام كبير، فيواجهني قائلاً، إنه سيبتلع اللقمة الكبيرة ويقول كلاماً كبيراً في الوقت نفسه - إذا كانت حلب بعيدة أيها المواطنون، فإن المتر هاهنا. فليدخل من يثق بقدمه وليسجل أهدافاً على حارس المرمى كامل حارس

المرمى، وسوف تعطيه ليرتين ونصف لقاء كل هدف يسجله.. سجل مئة هدف حتى المساء واكسب مئتين وخمسين ليرة.. ويقولون إن في بلدنا بطالة! أخي المواطن، بدلاً من التغرب في ألمانيا وجمع القمامة، تعال سجل أهدافاً هنا واكسب نقوداً أكثر.. هدف واحد بليرتين ونصف.. هاكم، إنه هناك.. لقد وقف حارس المرمى الشهير من جنق قلعة كامل حارس المرمى أمام مرماه.»

عندما قال المعلم ذلك ضايقني البول أكثر، ولكن لا يصح أن أترك المرمى وأذهب للتبول. أمسكت بأسفل بطني بكلتي يدي وانحنيت متظاهراً بحماية المرمى، إذا أردتم الحق فقد أفلتُ بضع قطرات. الذين رأوني في هذه الحال بدأوا يصيحون: «يووووه!»

وقف أمامي شاب حافي القدمين يرتدي أسمالاً بالية، ثبت الكرة في موقع ضربة الجزاء، وراح ينظر إلي بطريقة توحي بأنه سيأكلني بعينيه، وبدأت أتمايل في مكاني أمام المرمى وأتقوس بما يوحي بأنني جاهز، وعيناي تحدقان في الكرة بثبات. تهيأ الشاب الحافي وشد جسده، وشد وشد إلى أن.. يا ابن الحرام! كيف ضربت الكرة الجلدية بقدمك الحافية! لقد رأيت الشاب الصعلوك وهو يضرب الكرة، لكنني لم أر الكرة نفسها، فتابعت انتظاري لها وأنا ما أزال أتقوس وأتمايل داخل المرمى، وإذ بجمهور النظارة يبدأ بالهتاف والصراخ:

«لقد اكلها منذ الرمية الأولى!»

«يوووه! مرآة خلفية لحارس المرمى الشهير!»

«لملم سروالك، سروالك!»

«اربط ذيلك!»

والله لم أر متى دخلت الكرة المرمى ولا من أية جهة، رحت أبحث عنها وأنا أتساءل:

«أين هي الكرة؟ ماذا حدث لها؟». وكان البول قد أفلت، ونسيت جوعي. أما الجمهور فكان يهتف هازئاً بي:

«يوووه! كامل المحون!»

«يا له من حارس تافه!»

«هل يؤكل هدف كهذا! ولاك!»

لشعوري باليأس لم أعرف ما أقول:

«هذه غير محسوبة هذه غير محسوبة... فلم أكن متخذاً لموقعي بعد.»

ولكن من يصغي إلي؟

ذلك الفتى الصعلوك ثبت الكرة مرة أخرى وقذف بها. هذه المرة رأيت الكرة وهي تدخل المرمى. بل رأيتها كيف تهز الشباك.

كل من يركل الكرة يسجل هدفاً، وأنا ألقي بنفسي في كل الجهات لأمسك بالكرة، و أصدم رأسي تارة بقائم المرمى الأيمن وتارة بالأيسر، أقفز في الهواء وأرتمي على الأرض.

لا يمكن لروح التضحية أن تفوق هذا. غرقت في سيل من العرق وتجرحت ركبتاي ومرفقي والدم ينزف من أكثر من مكان من جسدي. حتى تعرفوا كيف أصبحت حالي سأقول لكم إنه ثمة من أشفق علي حتى بين أولئك النظارة اللئيمين. كنت أسمع أصواتهم:

«يا أخي الرجل سيمزق نفسه حتى يمسك بالكرة.. حرام عليه.. أصبح مثل جريح في معركة.»

جاء طفل وثبت الكرة عند نقطة ضربة الجزاء وقال لي قبل أن يركل الكرة:

«ها أنا أخبرك قبل أن أقذف بالكرة... حتى لا تعود إلى القول إنها غير محسوبة!»

صرخت قائلاً:

«آوت! آوت! لقد خرجت الكرة!» ولكن سدى، فقد التقطوا الكرة من داخل الشباك وأخذوها.

بدأ بصري يتشوش ورأسي يدور، لا أعرف إن كان ذلك بسبب الجوع أم الإرهاق.

ظننت ان آنشة انصرفت، لكنني في إحدى المرات ألقيت بنفسي على الأرض رغبة مني في الإمساك بالكرة، وعجزت عن النهوض على قدمي، فرفعت رأسي، وإذ بآنشة واقفة خارج حاجز الأسلاك الشائكة تراقبني وقد أدخلت أصابعها من خلال الأسلاك. تفوووو! يا للعار إذا كانت رأت فضيحتي كلها! بدت لي من بعيد وكأنها تبكي. ناديتها قائلاً: «اذهبي يا آنشة اذهبي!» فأكلت هدفاً جديداً.

الكرة التالية اصطدمت بأنفي فتدفق منه الدم بغزارة كما لو من صنبور. إذا انسحبت بحجة النزيف فإن المعلم سيطالبني بنقود كثيرة بعد أن أكلت كل تلك الأهداف، في حين أنه ليس في جيبي ليرة واحدة. سددت أنفي بقطعة قماش ووقفت أمام المرمى مجدداً

على مضض. سمعت بعض النظارة يعبرون عن شفقتهم:

«يا أخي حرام على الرجل.»

«كفاكم، توقفوا عن تسجيل الأهداف عليه.»

واحدة من الكرات المقذوفة باتجاه المرمى اصطدمت بمؤخرتي عندما استدرت جانباً، وتشتَّتت خارج المرمى. كان هذا الهدف الأول الذي أنقذ مرماي منه، لكن واحداً من الجمهور قال ساخراً:

«حارس المرى الشهير من جنق قلعة كامل حارس المرمى كسر صحنه!»

فضحك الجميع. وقال آخر:

«حرام على الرجل، لقد تحول إلى خردة!»

فأجابه آخر:

«كان عليه ألا يزعم بأنه حارس مرمى وينزل إلى الساحة.»

أولاد الحرام ما أسرع الكرات التي يقذفون بها! كان يحدث أن أمسك بالكرات المقذوفة التي تصيب بطني، ولكن في تلك الحالة ينقطع نفسي وأتلوى ألماً. وهكذا أكملت حتى المساء بين وقوع ونهوض، وانتهت لعبة ضربات الجزاء.

استدعاني المعلم، فخلعت ملابس لاعب الكرة وارتديت ملابسي، ثم دخلت خيمة المعلم حيث وجدته يحاسب حارسي المرمى الآخرّينْ تحت ضوء مصباح لوكس.

انصرف الحارسان وجاء دوري في الحساب. نظر المعلم إلى ورقة أمامه وقال لي:

«ها هو حسابك: لقد أمسكت بمئتين وواحد وستين كرة. برافو! نتيجة ممتازة في يومك الأول.»

أفرحتني كلمات المعلم وأنستني آلام جروحي وقروحي، وجوعي وتعبي. لم أعتقد بأنني أمسكت بهذا العدد الكبير من الكرات، فالواقع أنني لم أمسك بكل الكرات التي لم يسجل منها أهداف، فإما أنها اصطدمت برأسي أو مؤخرتي وتشتتت خارج المرمى، أو أن قاذفيها فشلوا في تصويبها داخل المرمى.

قال المعلم:

«كل كرة صوبت نحوَ المرمى ولم تتحول إلى هدف، ستنال عنها ربع ليرة، مئتان

وواحد وستين كرة تنال عنها خمس وستين ليرة وخمس وعشرين قرشاً... إذن فأنا مدين لك بهذا المبلغ.»

صرخت مبتهجاً:

«سلمت يا معلم.. هذا بفضلك.»

«لنر الآن بكم أنت مدين.» وتابع وهو يجري حسابات على الورق: عدد الأهداف التي أكلتها مسجل هنا: ثلاثة وثمانين هدفاً. ليرة عن كل هدف، هذا يعني أنك مدين بثلاث وثمانين ليرة. إذا طرحنا مالك مما عليك.... يا سيدي ي ي.... إذا طرحنا خمس و ستين ليرة وخمس وعشرين قرشاً من ثلاث وثمانين ليرة... تبقى مديناً لي بسبع عشرة ليرة وخمس\ وسبعين قرشاً عن هذا اليوم.. حسناً؟»

«حسناً إذا كان الأمر كذلك يا معلم.»

«ابذل جهداً أكبر وأمسك بكرات أكثر حتى تفي بما عليك من دين! أنا رجل ذو ضمير، لن أطالبك بما عليك فوراً.»

عندما وجدت أمامي معلماً ذا ضمير طمعت:

«يا معلم!»

«ماذا؟»

«ما رأيك بأن تظهر علامة أخرى من علائم الضمير، وذلك بأن تعطيني ليرتين وربع ليصبح دينك علي رقماً مدوراً عشرين ليرة. فأنا جائع وأريد أن أشتري كعكتين لآكل.»

«والله حلو! تجد للرجل عملاً، ثم تعطيه فوق ذلك نقوداً»

قال ذلك لكنه مع ذلك أعطاني ما طلبت.

لا أعرف كيف وصلت إلى النزل، مشياً أم زحفاً. فور دخولي الغرفة تمددت فوق الفرشة.

سألني المعلم سليمان:

«ما هذه الحالة يا يشار؟»

فحكيت له ما جرى لي في ذلك اليوم، فراح يطلق لعناته على القدر:

«أيها القدر السافل، يا عديم الأصل!»

في الصباح الباكر من اليوم التالي ذهبت مجدداً إلى ملعب ضربات الجزاء في حديقة الكلخانة، ارتديت بذة الحارس ووقفت أمام المرمى. صوت المعلم يدوي في مكبر الصوت:

«أيها المواطنون، ها هو حارس المرمى الشهير كامل حارس المرمى من جنق قلعة الذي تعاقدنا معه لقاء تضحيات كبيرة، أمامكم مجدداً. انظر إلى المرمى وأطلق كرتك، سجل هدفاً واحصل على ليرتين ونصف!»

في طريقي إلى الملعب كانت ذراعاي وساقاي تؤلمني بشدة بفعل إرهاق البارحة، ولكن عندما وقفت أمام المرمى لم يبق بي شيء من ذلك، لا أعرف إذا كان هذا بفعل الخوف أم الحماس أم لسبب آخر. أصبحت بصحة تامة، حتى أن بعض النظارة كانوا يقولون من حين إلى آخر:

«يا له من حارس مرمى!»

«إمساك موفق بالكرة!» وما إلى ذلك.

واظبت على حراسة المرمى حوالي الأسبوع، في حين أن حارسي المرميين الأخريين تبدلا باستمرار، فما من حارس صمد أكثر من يومين. الحمد لله أنني كنت الأكثر تحملاً، لكن مديونيتي للمعلم كانت تتفاقم مع مرور كل يوم عمل. ذلك أنه علي أن أمسك بأربع كرات مقابل كل هدف آكله حتى أفي بما علي من دين. في نهاية الأسبوع وقفت أمام المعلم ليرى حسابي:

«أحسنت يا يشار، لقد أتقنت عملك خلال أسبوع!»

«الفضل لك يا معلم.»

«دينك اليوم يبلغ تسع ليرات. أما ديونك المتراكمة فهي مئة وواحد وعشرين ليرة. أصبح المجموع مئة وثلاثين ليرة. الوضع جيد جداً بالقياس إلى السابق.»

كان المعلم يكرر كل مساء بعد إجراء الحساب:

«مع ذلك فأنا رجل ذو ضمير، لا أطالبك بدفع ديونك دفعة واحدة، سوف تسدد ما عليك بصورة تدريجية.»

وكررت بدوري ما أقوله كل مساء طالباً منه النقود:

«تصرف بضمير مرة أخرى يا معملي وأعطني خمس ليرات لآكل.»

تتالت الأيام بهذه الطريقة، وكانت آنشة تأتي من وقت إلى آخر لتشجعني على الاستمرار:

«حبيبي يشار، لقد سألت سكان الأكواخ في السكن المخالف حيث أقيم، فعرفت أن مهنة كرة القدم هذه تدر نقوداً كثيرة هذه الأيام. قد تتعلم وتتقن جيداً هذا العمل فتنضم إلى أحد الفرق.. إياك أن تضيع الفرصة!»

تريد مني أن لا أضيع الفرصة.. أية فرصة يا أخي! كلما اشتغلت تفاقمت مديونيتي للرجل، فضلاً عن أنني لا أشبع بطني كما ينبغي. ثم خطرت لي حيلة ماكرة. إذن لا يشتغل عقلي إذا لم أصدم رأسي هنا وهناك! فقد تجرح رأسي وتورم لكثرة ما ألقيت بنفسي على الأرض لأمسك بالكرات، وارتطامي بالحجارة وقوائم المرمى، وبذلك عاد عقلي إلى رأسي ففكرت بأنني كلما اشتغلت هنا أكثر، كلما تفاقمت ديوني. كلما أكلت هدفاً أعطي المعلم ليرة، لكنه يعطي بدوره نصف ليرة للزبون. فإذا أفلتت مني جميع الكرات المقذوفة إلى المرمى، ما الذي سيحدث؟ سوف يدفع المعلم نصف ليرة عن كل هدف آكله. وماذا سيأخذ مني؟ لا شيء.. فليسجل علي مزيداً من الديون، أما هو فسوف يدفع نقداً نصف الليرة عن كل هدف. عندما فكرت بهذا تغير سلوكي في الملعب، ففي حين كنت أبذل كل ما في وسعي لأتجنب الأهداف حتى ذلك اليوم، أصبحت أتهرب من صد الكرات على أمل أن تتحول جميعاً إلى أهداف. أصبح كل من يركل الكرة يسجل هدفاً، بل أكثر من ذلك، إذا رأيت الكرة تنحرف عن المرمى أصبحت أدخلها في المرمى بيدي متظاهراً بأنني أخطأت. ومنفذ ضربات الجزاء والجمهور يصرخون ويهتفون:

«أرأيت كيف ثقبه؟ أووف!»

«خذ هذه! هدف آخر!»

«أصبح الحارس دجاجة بياضة»

«يوووه! هل يؤكل هدف كهذا!»

«حارس نيء!»

«أصبح المرمى غربالاً!»

«انحرفت.»

«لقد باض مرة أخرى! يوووه!»

كل من سجل هدفاً علي، كان يسرع إلى المعلم ليطلب منه ليرتين ونصف، فاصطف الزبائن في طابور طويل أمام كوة الحساب. بدأ المعلم يصرخ مشجعاً عبر مكبر الصوت وهو منهمك في عد النقود ودفعها لمسجلي الأهداف:

«هيا يا حارسي السبع! حلق يا بني يا كامل حارس المرمى من جنق قلعة.. نعم أيها المواطنون المحترمون، إن كامل حارس المرمى يتحدى اليوم كل ضربات الجزاء، ويقول ليواجهني مولر إذا أراد، إنه لا يعني لي شيئاً.»

لكنه عندما رأى أن الوضع غير معقول أبداً، بدأ يهتف عبر مكبر الصوت بكلام آخر:

«مهلاً، مهلاً، توقفوا أيها المواطنون! كفوا عن تسجيل الأهداف، المرمى رقم اثنين يتوقف عن العمل، فثمة عطل فني. لقد أغلقنا المرمى رقم اثنين بسبب عطل فني.»

وفجأة صرخ عاجزاً عن تمالك نفسه:

«ولاك يا كامل حارس المرمى، غادر المرمى وتعال إلي بسرعة.. كامل حارس المرمى إلى الإدارة! كامل حارس المرمى إلى الإدارة! ولاك يا حمار تعال إلى الإدارة ألا تسمعني؟!»

دخل المدير الخيمة التي خلف كوة الدفع والتي يسميها بالإدارة، وغادرت المرمى ودخلت وراءه. عيناه تقدحان شرراً، لكنه تمالك نفسه وقال بهدوء:

«يشار يا بني، كل ما أنت مدين لي به حلال عليك مثل حليب أمي الناصع.»

قلت له متظاهراً بعدم فهم شيء:

«ماذا حدث يا معلم؟»

«وتسألني عما حدث؟ حدث نول أمك ولاك! ستدفعني إلى الإفلاس. خذ ليرة من الزبون، ثم أعطه ليرتين ونصف.. خذ ليرة وادفع ليرتين ونصف.. أية نقود تصمد أمام ذلك؟ انتهى عملك!»

«لكنني سأدفع لك ديوني يا معلم.»

«لا أريدها.. لا أريد أية ديون.. ليست لي عليك عشرة قروش.»

«ولكن يا معلم..»

«أتظن بأن حيلتك انطلت علي؟»

«أية حيلة يا معلم؟»

«لحسن الحظ أنني فهمتها بسرعة، وإلا كنت سأدمر. هل تمارس إضراباً ضدي؟ دمرتني يا!»

فتح محفظة نقوده، أخرج منها عشرين ليرة مدها نحوي وقال:

«خذ هذه النقود.. ولأخسر هذه أيضاً.. حذار أن تخبر الحراس الآخرين بحيلتك!»

«شكراً يا معلم.»

قلت ذلك وخلعت بذة لاعبي الكرة وارتديت ثيابي. كان الزبائن ما يزالون يصرخون في الصبي الذي أجلسه المعلم محله وراء الكوّة:

«سجلت أربعة أهداف، أعطني عشر ليرات.»

«هات خمس ليرات، فقد سجلت هدفين.»

«وسبع ليرات ونصف لي، عندي ثلاثة أهداف.»

سكت يشار يشامز برهة، ثم قال:

- هكذا يا أخوتي انقضى عملي في حراسة المرمى، عدت إلى النزل وحكيت للمعلم سليمان الذي...

رفع أبو الكولونيا الذي لا يشارك أبداً في الأحاديث والمناقشات - رأسه عن عمله - لأنه لا يتوقف عن العمل عندما يحكي يشار مغامراته - وقاطع يشار قائلاً:

- صاحبك سليمان اتبع أسهل الطرق، فهو يلعن من يشاء تحت اسم القدر، فيطفئ لهيب قلبه.

ثم صرخ للمرة الأولى في المهجع وكأنه يبصق لهيب قلبه فعلاً من خلال فمه:

- ولاك.. في أم ذلك القدر وزوجته، في ماضيه ومسلكه، في سلالته وذريته، في

عتبته وحفيده في المهد... ولاك، ذلك القدر..

انضم إليه السجناء الآخرون في الشتم واللعنة، فارتفع هدير من الأصوات في المهجع:

- لتعم عيناك أيها القدر!

- لتعم عيناك ولاك!

- ولاك يا قدر، دمرتنا!

- لتمت أيها القدر!



-٢١-

ما عاد بحاجة لقرة قبلي نظامي أبداً

أبو الكولونيا، ذلك الرجل الهادئ الصامت، راح ينفث نيران الغضب ويصرخ بأعلى صوته هو الذي لم يتدخل يوما في شأن من شؤون الآخرين. راح يشتم سارق كحوله الأزرق بأقذع الشتائم. فقد سرق أحد ما زجاجة من الكحول الأزرق من فوق الرف الخشبي المعلق على الجدار وراء فرشته بوساطة حبل، وكان قد أخفاها وراء جريدة حتى لا يراها الحرّاس. إذا جرى تفتيش داخل المهاجع فمن السهولة بمكان التخلص من الكحول وذلك بابتلاعه كالماء في جرعة واحدة. كان أبو الكولونيا يهرِّب الكحول الأزرق إلى السجن بصعوبة بالغة، لأن الكحول من المواد الممنوعة. أغضبته السرقة كثيراً وراح يصرخ بحدة:

- إنها وسيلة معيشتي ولاك، أكسب منه خبزي! إنه آلة في يدي، إنه عملي ومهنتي. تعال واسرق نقودي من جيبي، لا بأس بذلك! اسرق سروالي من مؤخرتي، لا بأس! ولكن هل يجوز خلع باب الرزق؟!

ما أثار استياء أبو الكولونيا إلى هذا الحد، ليس سرقة كحوله فقط، بل أيضاً لأن السارق استغباه. فقد أمسك بزجاجة الكحول المخفية وراء ورق جريدة ليملأ منها موقد الكحول المصنوع من الصفيح بحجم اليد، استغرب عندما رأى الزجاجة ممتلئة عن آخرها بالكحول الأزرق، فهو يتذكر أنه استخدم نصف الكمية البارحة.

ساوره شك طفيف، لكنه لم يتوقف عند الأمر، ملأ خزان الموقد وأشعل عود ثقاب، لكن الفتيل لم يشتعل. جرب بضع مرات أيضاً ولم يشتعل. عندئذ شم الكحول، فوجد أنه ماء بلون الكحول الأزرق. إذن واحد من أولاد الحرام شرب الكحول وملأ الزجاجة بماء ملون بلون الكحول.

لم ير يشار يشامز من شرب كحول أبو الكولونيا، لكنه قدر من يكون. فقد رأى الملك سامي وهو يبري طرف قلم كوبيا بوساطة موس حلاقة صدئ في الفسحة المتوسطة لمراحيض الجناح الثاني، ويذوب المسحوق الناتج عن ذلك ذا اللون الأزرق في الماء بخضه داخل زجاجة.

إذا أبلغ أبو الكولونيا آغا الجناح عن هذه السرقة، فسوف يمسك بالملك سامي من كل بد، ليتلقى حمولة عربة من الضرب. وإلا فلماذا يدفع للآغا حصة من أرباحه كل سجين يمتهن عملاً ويكسب نقوداً؟ لأمور كهذه، لتحقيق الأمن.

اقترب يشار يشامز من أبو الكولونيا الذي كان يسب من شرب كحوله، وفمه يرغي ويزبد، وقال له:

- قد حدث ما حدث يا أخي، فلا تعكر مزاجك بلا جدوى! سأهديك منقلاً صغيراً لتشتغل عليه.

نهره أبو الكولونيا وقد توترت أعصابه كثيراً:

- ألسنا نملك عقلاً بقدر ما هو عندك ولاك!

سايره يشار أكثر وقال:

- لا تعكر مزاجك يا أخي، سوف يأتيك أخوك يشار بكحول أيضاً...

وقفز خارجاً من المهجع، ولم يمض وقت طويل حتى عاد وبيده زجاجة كحول، والأهم من ذلك أن الكحول الذي أحضره هو كحول شفاف.

- تفضل يا أخي!

قال أبو الكولونيا وقد التمعت عيناه:

- لن أهدر هذا الكحول بإحراقه في الموقد، بل سأحوله مباشرة إلى فودكا، سأصنع منه فودكا فاخرة لن تجد مثيلاً لها حتى في الموطن الأصلي للفودكا.

ثم توجه بكلامه إلى يشار وقال:

- ولك مني كأس هذا المساء. أين وجدت هذا الكحول؟

أجاب يشار بتواضع كاذب يغطي به على تباه ذي مغزى:

- نحن نجده يا أخي. أما عن كأس الفودكا هذا المساء فكأنني شربته، شكراً، لا أريدها. لأنني لم أشربها أبداً.

قال يشار بأنه اشترى الكحول النقي من سجين ثري في مهجع السادة. كانت إدارة السجن تثق بذلك السجين كثيراً، فتسمح له بإدخال زجاجة من الكحول النقي كل أسبوع مما يأتي به من يزوره لأغراض النظافة، وكان ذلك السجين مدمناً على القمار، ويصرف ما يأتيه من نقود في الزيارات على لعب القمار، فينهيها منذ اليوم التالي للزيارة، ثم يستدين من يشار يشامز بفائدة مرتفعة.

أراد يشار إنقاذ الملك سامي من حمولة عربة من الضرب عقاباً له على سرقة الكحول الأزرق. فأسرع إلى المقامر الثري وأخذ منه زجاجة الكحول، ثم أعطاها لأبو الكولونيا.

سأل أبو الكولونيا يشار بصوت هامس حتى لا يسمعه أحد، رغبة منه في إجراء مساومة:

- كم سندفع مقابل هذه الزجاجة؟

- عيب يا أخي، إنها هدية صغيرة من أخيك يشار.

- هل تستطيع أن تحضر لي زجاجات أخرى في الأيام القادمة؟

رفع يشار رأسه إلى الأعلى علامة النفي مع صوت «جق» أصدره من بين أسنانه مبيناً لأبو الكولونيا بأنها مساعدة لمرة واحدة.

بعد أن أراح أبو الكولونيا، راح يشار يبحث عن الملك سامي، ففتش عنه في كل أنحاء السجن، في الحمام، والمطعم وعند الحلاق، إلى ان انتهى إلى العثور عليه عند أسفل الدرج الموصل إلى القبو الذي يستخدم كورشة غسيل. وجده يشار وقد أصبح ملكاً بالفعل. أي مسلطناً بفعل الكحول الأزرق الذي احتساه، يستمتع بمزاجه بين الأبخرة ذات الروائح النتنة المتصاعدة من صفائح الغسيل، ويغني أغنيات غير مفهومة.

جلس يشار يشامز بجانبه وأراد أن يتحدث إليه:

- يا أخي سامي..

فقاطعه هذا:

- اغرب عن وجهي ولاك!

فقال له يشار بصوت قاس:

- رأيتك تشرب الكحول الأزرق لأبي الكولونيا. عندما تدخل المهجع سوف يجعلون أمك تبكي عليك.

في موعد تفقد المساء، تسلل الملك سامي إلى المهجع مثل شبح، متقدماً على النص نصيص، وكان يقف على قدميه بصعوبة. بعد التفقد اضطجع على سريره وغفا فوراً من غير أن يتناول طعام العشاء، ربما بفعل السكر، وربما خوفاً من الضرب. جلس يشار عند طرف الطاولة الطويلة وسط المهجع وقد حمل سازه، وذلك لكي لا ينتبه أحد إلى غياب الملك سامي الذي اعتاد أن يفرض النظام على المهجع في مثل هذا الوقت من كل يوم، استعداداً لسهرة أحاديث يشار عن مغامراته. ضرب على أوتار الساز بضع ضربات، ثم بدأ الكلام فوراً:

- من الممكن يا أخوتي أن تجدوا دمعة في عين ميت، ولن تجدوا رحمة في قلوبهم!

سأله النحات:

- في قلوب من؟

- في قلوب أهالي استانبول.

قال الإداري الذي يعتبر نفسه إستانبولياً:

- منك العفو يا يشار، إن لدى الاستانبولي النقي من الرحمة ما يكفي العالم بأسره ويزيد.. أنت تظن أن كل وحش قطع رسنه وجاء إلى هنا، هو استانبولي.

وقال الملطزجي:

- ما يقوله يشار صحيح. إن هؤلاء الاستانبوليين لا يسمحون لمن لا يحمل نقوداً حتى بدخول المراحيض العامة، بل يتركون المرء يفعلها في سرواله وسط الشارع. وليست استانبول قرية أو بلدة صغيرة، حتى تنتحي وراء أجمة فتقضي حاجتك وترتاح.

أراد السجين ذو الصوت الشبيه بصفارة إنذار أن ينهي الجدال ويعيد الكلام إلى

يشار فقال:

- لم تترك طلاءاً إلا وغرقت فيه يا يشار، إذن أصبحت حارس مرمى أيضاً؟

- نعم، اشتغلت حارس مرمى في ملعب ضربات الجزاء.

- وبعد ذلك يا يشار؟

- بعد أن تركت ذلك العمل.. كان همي منصباً أكثر على آنشة وليس على نفسي، فقد دمرت الفتاة بلا جدوى... كان أبوها على حق، فبعد أن خسرت دعوى الإرث ولم أتمكن من الحصول على بطاقة شخصية، كان علي أن اترك آنشة لقدرها. فقدت كل أمل بعد أن طردني المعلم من ملعب ضربات الجزاء، وانتابني تشاؤم كامل. أما آنشة فبدأت تزورني أكثر ربما لهذا السبب، أي حتى تمنحني العزاء والتشجيع. وكنا نذهب إلى حديقة يرتادها الأطفال برفقة الأمهات أو المربيات اللواتي ينزهن الأطفال في عربات خاصة بهم. كنا نجلس على أحد المقاعد محاطين بأطفال يتراكضون ويلعبون. وآنشة تراقبهم بشوق وهم يلعبون في حوض الرمل. سألتني ذات يوم:

«هل سنشتري عربة لطفلنا؟»

لو كنت كما في أيام سابقة لقلت لها:

«طبعاً!!!؟ معقووول؟»

لكنني لم أنبس ببنت شفة في ذلك اليوم.

وسألتني:

«هل تعرف لماذا أزورك بكثرة؟»

كنت أظن أنها تأتي لتمنحني العزاء، فتظاهرت بالجهل:

«لا أعرف.»

«لأنني لم أعد قادرة على العمل في غسل الثياب أو تنظيف المنازل أو في العمل باليومية. فقد ازداد وزني كثيراً، وتنتابني الآلام من حين إلى آخر، أخشى على حملي من السقوط. وحتى إذا أردت العمل، فلا أحد يشغلني بعد أن يرى حالي.»

لئن كان ما ينبغي عمله هو إرسال آنشة إلى بيت أهلها، لكن أباها لن يتفهم حالة من

هذا النوع، ولن يسمح لابنته الحبلى بأن تخطو خطوة داخل بيته. فقد كلف في السابق رجالاً بتعقب آثارها، وعندما عرف بأنها حامل قال: «لقد مرغت سمعة العائلة في الوحل. هي ليست ابنتي بعد الآن.»

استقلت آنشة الأتوبيس وذهبت إلى كوخ الست خديجة في منطقة السكن المخالف، وعدت أنا إلى النزل حيث دخلت المقهى الذي بلصقه وجلست واستغرقت في همومي. ضاقت بي الدنيا وسدت في وجهي الأبواب. فأنا «غير حي رسمياً وبالمعنى القانوني» كما قال المحامي في المحكمة. الحكومة تعدني بين الأموات، هل سأعاند الدولة بحالها وأكذب دائرة النفوس التابعة لها بالإصرار على القول بأنني حي؟ طبعاً الحكومة تعرف أكثر مني.. هكذا رحت أفكر جالساً داخل المقهى، أو هذا ما ظننته، فقد اتضح أنني كنت أفكر بصوت مسموع، أي أنني كنت أحدث نفسي دون شعور مني بذلك. استعدت زمام نفسي على لكزة، وإذ برجل سبقت لي رؤيته في تلك المنطقة، أعرفه بالشكل، يبادرني بالقول:

«ما هذا يا صاح؟ أنت تتحدث إلى نفسك، منذ مدة وأنا أناديك، لكنك لم تسمعني لشدة استغراقك. ما كنت لتنتبه إلي لو أنني لم ألكزك. ما هي مشكلتك؟»

«لا شيء.»

«التحدث إلى النفس ليس علامة خير، كما أن نظراتك لا تعجبني. احك لي همك، فحتى لو لم أتمكن من مساعدتك، فسوف أصغي إليك، فتفضي بما يثقل عليك وتتخفَّف.»

بقيت صامتاً فقال لي:

«الرجل الشهم يتعرض لمشكلات كثيرة. أنا أيضاً مررت بأوقات عصيبة جداً، وأفهم هذه الأحوال.»

حكيت له باختصار الأحداث التي وقعت لي، وأخبرته أيضاً بأنني حاولت أن أقتل نفسي ولم انجح، وقلت له: «في هذه المدينة التي تدعى استانبول حتى قتل المرء لنفسه يتطلب نقوداً» وانتهيت إلى القول:

«الحكومة أدرى مني بما إذا كنت حياً أم ميتاً، فإذا قالت لي بأنني لا أعيش، لا بد أن

لديها أسبابها. أما أنا فلن أعاند الآن فأزعم بأنني حي، لكنني من جهة أخرى لا اجد طريقة أموت بها مجاناً.»

«إذن، اسمعني جيداً. أنا أيضاً أردت أن أقتل نفسي في وقت مضى، وحاولت تنفيذ ذلك. تلك المحاولة فتحت أمامي باباً للرزق. سأحكي لك الآن عن ذلك. إذا سمعت كلامي وفعلت ما سأطلبه منك ستعيش مثل السادة والباشوات، حياةً مريحة. أريد أن أقدم لك معروفاً لوجه الله ما كنت لأكشف هذا السر حتى لإبن أبي، لكنني أشفقت على حالك، وسأكشف لك السر.»

أثار اهتمامي وتيقظت كل حواسي:

«إني أسمعك وكلي آذان صاغية.»

«إذاً، تعال معي.»

خرجنا من المقهى، مشينا حتى وصلنا إلى شارع مزدحم بحركة السير، حيث قال لي:

«هل ترى هذه السيارات؟»

«نعم.»

«عليك أن تختار واحدة منها وتلقي بنفسك تحتها»

نظرت إلى وجه الرجل لأتبين فيما إذا كان مجنوناً أم لا. لكن الجنون لا يظهر على وجه المجانين:

«لم أفكر أبداً بسحق نفسي تحت سيارة عندما فكرت بقتل نفسي.»

«ليس لتموت، بل ستلقي بنفسك تحت عجلات سيارة لتعيش.»

في تلك اللحظة مرت من أمامنا شاحنة لنقل القمامة، ركزت نظراتي عليها، فقال لي:

«إذا قلت سيارة، فأنا أعني سيارة خصوصية.» وأضاف: «ويجب أن تكون سيارة جديدة ومن طراز غال.»

لم أفهم شيئاً، فشرح لي:

«ليس هذا بالعمل السهل، فإذا اختل توازنك، فإما أن تموت أو تصاب بعطب. عليك

ان تلقي بنفسك تحت السيارة بطريقة بارعة بحيث تنال جروحاً خفيفة وتنجو. ولكن لا يجوز أن تقفز ناهضاً من حيث وقعت. بل عليك أن تبقى ممداً تحت السيارة وكأن كل عظمة من عظامك قد تفتتت إلى ألف قطعة. بعد ذلك ستقيم دعوى على صاحب السيارة الخصوصية، فتحصل على مبلغ ضخم كتعويضات. لذلك يجب أن تكون السيارة خصوصية ومن أحدث طراز، فيكون صاحبها ثرياً وتقبض منه تعويضات ضخمة.»

«إنها فكرة رائعة، لكن هذا العمل ليس من أجلي.»

«لماذا؟»

«ليست لدي بطاقة شخصية، لا أستطيع إقامة دعوى قضائية.»

«لا بأس بذلك. لست مضطراً لإقامة دعوى، ولا واحد من عشرة أشخاص ممن تلقي بنفسك تحت سياراتهم سيرغب بالدخول في محاكم وقضايا. عليك أن تختار بدقة الشخص الذي يقود السيارة، فتضمن أنه ممن يخشون المحاكم، ثم تلقي بنفسك تحت سيارته.. وخصوصاً النساء، فهن يمتن خوفاً من الذهاب إلى الأقسام والتعرض للاستجواب، ويرغبن في الابتعاد بأسرع ما يمكن، فليس لديهن وقت يضيعنه، سوف يفتحن محفظة النقود فوراً للتفاهم معك، ويتوسلن إليك قائلات: «أرجوك قل لي ماذا تريد حتى تتخلى عن رفع شكوى!» فتبدأ بالمساومة، واطلب بقدر ما تشاء. ستقول لها مثلاً: «لعل جمجمتي تحطمت، وسوف يظهر الألم لاحقاً.» فيتوسلن إليك قائلات: «اطلب ما تشاء وسأعطيك.». إني أكرر فاسمعني جيداً: عليك أن تلقي بنفسك تحت السيارة بحذاقة شديدة، وإلا ذهبت إلى الرفيق الأعلى من حيث أردت كسب النقود.»

أقنعتني الفكرة والحق يقال، وعلى كل حال لم يكن لدي أي أمل آخر. فإذا سحقت تحت العجلات ومت، أكون قد تخلصت من همومي وما أجمل ذلك.. أما إذا لم أمت وحصلت على المال، فهذا أحسن... الرجل الذي أعطاني الفكرة، أخرج من جيبه دفاتر إيداع خاصة بثلاثة بنوك مختلفة، وضرب عليها بيده قائلاً:

«انظر! هذا ما يدعى بالنقود! الحمد لله! بالطريقة التي شرحتها لك نعيش أنا وأولادي كما أنني أراكم النقود في البنوك.»

في تلك الليلة فكرت حتى ساعة متأخرة بهذا العمل، حتى انتهيت إلى اتخاذ القرار

ونمت. لن أنسى أبداً الأحلام المشوشة التي رأيتها في تلك الليلة. حتى الآن أرى أحلاماً مشابهة. كنت ألقي بنفسي تحت السيارات لكن أحداً ما يشدني وينقذني، وثمة شخص ذو وجه مخيف يفتح محفظة نقوده ويستهزئ بي قائلاً: «قل لي كم تريد؟»

في صباح اليوم التالي وقفت عند شارع مزدحم بحركة السيارات. وكان الرجل الذي اقترح علي الفكرة قد نصحني بتنفيذ العملية عند منعطف حيث تتباطأ السيارات حتى لا أتأذى، فاخترت أحد المنعطفات، ووقفت بانتظار سيارة مناسبة. بدت بعض السيارات ملائمة للغرض، لكن من يقودونها لم يكونوا كذلك. لقد حفظت درسي جيداً. حاولت أكثر من مرة أن ألقي بنفسي تحت عدد من السيارات، لكني أخفقت، فلم يكن الأمر سهلاً. أخيراً رأيت سيارة سبور جديدة متألقة وكأنها فتاة في ريعان الصبا، ووراء المقود امرأة ذات شعر أشقر يتطاير في الهواء مثل عرف حصان، على عينيها نظارة شمسية وفي يديها زوج من القفازات الجلدية بلون أصفر فاتح. بلغت المنعطف الذي أقف قربه أبطأت سيارتها، فقفزت وألقيت بنفسي أمام العجلتين الأماميتين لتلك السيارة الرياضية الحمراء... نعم، أعني أنني نويت أن أفعل ذلك، لكنني لا أعرف متى تحركت سيارة تلك المرأة الشقراء، وحلت محلها سيارة السرفيس العتيقة... فعندما قفزت مثل سمكة رأيت أمامي تلك السيارة العتيقة وأنا بعد في الهواء، كما وعيت اصطدام رأسي بطمبون تلك السيارة، بل كان بإمكاني أن أخرج من تحت السيارة وأقوم واقفاً لو أردت ذلك. لكني لم أفعل ولا أعرف إذا كان سبب ذلك هو خجلي، أم لأنني انسحقت فعلاً، أم لأنني سقطت تحت تلك السيارة العتيقة من حيث أردت السقوط تحت السيارة السبور الحديثة... توقف السير، وعرفت أن حشداً من الناس قد تجمع حولي وذلك من كثرة الأقدام التي استطعت رؤيتها، وسمعت أصواتهم وصرخاتهم:

«آآآآخ!»

«أواااااه! لقد انسحق الرجل المسكين.»

«ألا يزال على قيد الحياة؟»

«انظروا إليه.. واخ واخ!»

«ليأخذوه إلى مشفى.»

«ترى هل مات؟»

«والله لا ذنب للسائق.»

«إنه ينزف بغزارة.»

«لقد حشر نفسه بصعوبة تحت السيارة وكأنه يريد عبور ممر ضيق.»

أتذكر أنني رأيت في إحدى اللحظات وجه السائق العجوز منحنياً فوقي، وكان ذا لحية نامية ونظارتين ومتقدماً في العمر. رغم مرور وقت طويل على تلك الحادثة ما زلت آتذكر وجه ذلك السائق. لا أتذكر ما حدث بعد ذلك، فقد فقدت الوعي، وفتحت عيني ثانية في المشفى. عرفت أنني بقيت في حالة إغماء لمدة عشرة أيام.

سكت يشار يشامز. قال النحات:

- وهل حصلت على تعويض كبير؟

لم يجب يشار، فسأله كاتب العرائض:

- أم أن السائق المسن هرب؟

- لا، لم يتمكن من الهروب، لقد ألقوا القبض عليه وتم إيقاف المسكين. لكنهم أطلقوا سراحه فيما بعد عندما قلت في إفادتي بأن الذنب ذنبي. صحوت من إغمائي بعد عشرة أيام، لكن شهراً مضى قبل أن أستعيد وعيي تماماً. خلال ذلك الشهر لم يسمحوا لأحد بمقابلتي. في غضون ذلك عرفت من الممرضة المشرفة علي بأن آنشة وضعت طفلاً ذكراً. كانت المسكينة تأتي إلى المشفى كل يوم لتراني. في اليوم الخامس والثلاثين على إقامتي في المشفى سمحوا لآنشة بأن تراني. كانت تحمل ابننا في حضنها، قالت وهي تحاول ضبط دموعها:

«حمداً لله على سلامتك يا يشار. لقد تعذبت كثيراً لكنك نجوت في النهاية والحمد لله، الصحة قبل كل شيء... المهم أنك حي.»

«على المرء أن يكون حياً في دفاتر الحكومة حتى يكون حياً بالفعل. فإذا لم تعترف الجهات الحكومية بوجودك على قيد الحياة، فاخدع نفسك قدر ما تشاء مدعياً بأنك تحيا.»

نظرت إلى الطفل، فقالت آنشة:

«إنه يشبهك كثيراً.»

«ليت حظه لا يشبه حظي. فأنا لا أعيش رسمياً وقانونياً، إن شاء الله سيعيش رسمياً وقانونياً.»

سألتها عن الاسم الذي أطلقته على الصبي فقالت:

«حياتي»

«ما معنى هذا الاسم؟»

«إنه اسم شبيه باسمك... قالوا إن حياتي هو المقابل العربي لاسمك. فقد سميناه «حياتي» حتى يعيش رسمياً وحقوقياً كما تقول.»

«سوف يعيش، وسوف نستصدر له بطاقة شخصية.»

«نعم يا يشار، وسنعود إلى البلد.»

أخبرتني بأن أباها قد غفر لها ولي عندما سمع أنها أنجبت، وأرسل من ينقل إليها كلامه: «ليعودا بسرعة ويعيشا هنا في البيت. ولا داعي لأن يبحث يشار عن أي عمل، يمكنه أن يعتني بالحقل والمواشي. ولا ضرورة لعقد قران حكومة، سنزوجهما عند الشيخ» كما أرسل نقوداً لآنشة التي كانت مبتهجة كالأطفال.

ابتهجت مثلها، هل ثمة مكان يضاهي موطن المرء حيث ولد ونشأ؟ فليسقط اسم استانبول.

بعد بضعة أيام خرجت من المشفى، وعدنا إلى البلد من غير أن نضيع يوماً واحداً في استانبول. عدنا ونحن ثلاثة أشخاص، وأقمنا في بيت عمي الذي استقبلني بود كما في السابق. كل شيء على ما يرام، لكنني سعيت إلى استصدار بطاقة شخصية لابني حياتي بلا إبطاء، إذ لا يجوز تأخير هذا الأمر، فلولا تأخر المرحوم أبي في استصدار بطاقة شخصية لي، حتى بلوغي سن المدرسة، ربما كنت حصلت عليها ولم أتعرض لكل تلك المشكلات. كتبت عريضة موجهة إلى دائرة النفوس في بلدتي طالباً منح «حياتي» بطاقة شخصية. مرت أيام وأسابيع، وانشغلنا في شؤوننا، لكن ذهني بقي مشغولاً بالبطاقة

الشخصية لحياتي. ذات يوم احتضنت آنشة طفلها وذهبنا سوية إلى دائرة النفوس لمتابعة المعاملة. بمجرد دخولي إلى دائرة النفوس تذكرت الأيام التي كنت أتردد فيها مع أبي على تلك الدائرة، فقفزت الشياطين إلى رأسي، لكني تمالكت زمام نفسي حتى لا أصطدم بأحد، لأن غايتي الحصول على بطاقة شخصية لابني.

وقفت في الطابور أمام مكتب الموظف الذي أعطيته العريضة. سألته عندما جاء دوري: «لنا معاملة عندكم يا سيدي، ترى هل انتهت الإجراءات الخاصة بها؟»

«ما موضوعها؟»

أشرت إلى حياتي الذي تحتضنه أمه، وقلت له:

«نريد استصدار بطاقة شخصية لابني هذا.»

«هل أحضرتم شهادة ميلاده؟»

«لقد ألحقنا شهادة الميلاد التي حصلنا عليها من المشفى، بالمعاملة.»

«ما هو رقمها؟»

أخرجت من جيبي ورقة كتب فيها الرقم، أعطيتها له فقال:

«دقيقة واحدة»

وراح ينقِّب فترة من الزمن بين الأوراق والاضبارات مثل دجاجة تنكش الأرض، ثم قال:

«ها! وجدتها!»

«الولد محظوظ، ليكن محظوظاً على الدوام.»

راح يقرأ الورقة التي عثر عليها وهو يهمهم: «هم م م م... هم م م م...»

لكثر ما ترددت على هذه الدوائر أعرف أن همهمة موظف بهذه الطريقة ليست أبداً علامة خير. سألني:

«من هو والد الطفل؟»

«أنا»

«هل أنت مقدم العريضة يشار باعتبارك أباه؟»

«نعم.»

«الله! يا للغرابة!»

تذكرت الأيام القديمة وتوترت أعصابي. قلت لنفسي: «تمالك نفسك يا يشار.» كل ما في الأمر أننا نطلب بطاقة شخصية لطفلنا، فهل يحتاج الأمر تلك الهمهمات وذلك التعجب؟

فجأة رفع الموظف رأسه عن الورقة وقال:

«لا يمكن! مستحيل!»

سألته:

«ما هو المستحيل؟»

«لا يمكن أن تكون والد هذا الصبي!»

إنه يدفعني إلى الجنون، يقول ب-أنه لا يمكنني أن أكون أباً لابني حياتي.

«لماذا لا يمكنني أن أكون أباً لابني؟»

هل تعرفون بم أجابني؟ اسمعوا:

«لأنه لا يمكن أن يكون لك أولاد.»

ضغطت على أسناني إلى درجة كدت أحطمها وأنا أقول لنفسي: «تمالك نفسك يا يشار. تمالك نفسك!» لطفت صوتي كثيراً حتى أتجنب الانفجار، وقلت له:

«لا تقلها أيها السيد الموظف، أي كلام هذا! هذا الطفل طفلي... انظر إلى وجهه، إنه صورة طبق الأصل عني... إنه ابني، وهل ستعرف ذلك أكثر مني؟»

«لا أنت تعرف ولا أنا... إن أفضل من يعرف هذا هو الدفتر الرسمي.»

ذلك الموظف المزعوم يتحدث كما كان يتحدث في عهد أبي. نهض من مكانه وبدأ ينبش بين الدفاتر السوداء السميكة، تماماً كما فعل يوم جئت برفقة أبي للحصول على بطاقة شخصية لي. وهو رجل ناحل مثل فسفسة جفت شتاءً ولم يبق منها سوى قشرتها. لم يبق من آدميته سوى قشرتها. استمر يصارع الدفاتر لبعض الوقت إلى أن أحضر

واحداً منها وهو يلهث. فتحه وقلّب صفحاته، ثم قال:

«انظر ماذا يقول الدفتر.»

«ماذا يقول؟»

«استفسرنا، كتبنا، راسلنا، فجاءنا الجواب التالي: يشار الذي تسألون عنه غير موجود. لقد استشهد يشار في معركة جنق قلعة في عام ١٩١٥»

لم تعد لدي طاقة على التحمل والصمود، أصبحت على وشك الجنون. توسلت إليه:

«لا تفعلها سيدي الموظف، هذا خطأ قديم. الرجل المدعو يشار هو أنا. ها أنا واقف أمامك.»

«ألا تفهم حكي؟ هذا ما جاءنا: استشهد يشار منذ خمسة وخمسين عاماً.»

صعد الدم إلى رأسي، فبدأت أصرخ موجهاً كلامي للحاضرين:

«أي كلام هذا يا أخي! أي دفتر وأية سجلات! إني أعيش منذ ثلاثين سنة ولم أتمكن من إثبات أنني حي. هل من المعقول أن يكون ميتاً منذ زمن رجل على قيد الحياة؟!»

وصرخ الموظف الشبيه بقشرة:

«كيف يمكن لرجل مات منذ خمسة وخمسين عاماً أن ينجب طفلاً الآن؟»

غمغم الموجودون، فمنهم من قال: «الرجل على حق» ومنهم من قال: «الموظف على حق» ومنهم من قال: «كلاهما على حق.»

صرخت قائلاً:

«هل يجوز اعتبار المرء ميتاً لمجرد أن الدفاتر تقول ذلك؟»

وقال الموظف:

«لا تصرخ! تحدث بهدوء، هذا موقع رسمي، دائرة حكومية... إذا صرخت سأنظم ضبطاً بحقك.»

صرخت قائلاً:

«تقول دائرة حكومية؟ موقع رسمي؟ أريد التسجيل في المدرسة، فيقولون لي إنني

ميت، يجندونني في الجيش فيقولون إنني حي، أطالب بتركة أبي فيقولون إنني ميت، وعندما يطالبونني بالضرائب يقولون إنني حي.»

بدأ حياتي يبكي في حضن أمه ربما بسبب الضجة العالية، فازداد استيائي، وشدتني آنشة من ذراعي وهي تردد.

«لنذهب يا يشار لنذهب... نعود مرة أخرى.»

«إذا وجدت عملاً قالوا لي لا يمكنك العمل لأنك ميت، لكنهم إذا أرادوا إدخالي إلى مشفى الأمراض العقلية، قالوا بأنني حي وأنني مجنون. أريد الزواج فيقولون إنني ميت ولا يزوجونني - يطردونني من البيت بدعوى أنني حي، يصبح لي ابن، فيقولون لي إنني ميت ولا يمكن أن يصبح لي ابن. فماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟!»

والموظف يصرخ بي:

«افعل ما تريد! وما شأني بذلك؟ وكأنه لا مشكلات عندي؟ هل أسألك أنا عما يجب أن أفعل؟»

«أريد الزواج فيقال لي إن الشهيد لا يتزوج.»

أنا أصرخ والموظف يصرخ، أصرخ ويصرخ. فكرت لاحقاً بما حدث فوجدت أن الموظف محق أيضاً لا بد أن المسكين قلبه محترق حتى شاركني منتهزاً الفرصة. وكان ابني حياتي يزعق باكياً من حين إلى آخر.

«أية فضيحة! كيف يحدث هذا!»

«وماذا نفعل؟ هذا ما تقوله السجلاّت.»

«... في أم تلك السجلات، وأم من نظّمها، وأم..»

«مكتوب في الدفتر الرسمي.»

«..أم الرسمي وأخت الدفتر.. أم من كَتَب وأخت من لم يكتب..»

«أقول لك هذه دائرة رسمية من دوائر الدولة! هنا..»

* * *

كان يشار يشامز يحكي المشادة الكلامية الصارخة بينه وبين الموظف في دائرة

النفوس وهو يقلّد الكلام بالطريقة التي قيل فيها، بل وصل به الأمر إلى حد محاكاة بكاء حياتي في خلفيّة المشادة، بحيث أن المرء إذا أغمض عينيه لظنَّ بأنه داخل دائرة النفوس.

سكت يشار، وعندما طال سكوته حثّه أكبر سجناء المهجع سناً بأن سأله:

- وبعد ذلك؟

- وبعدها يا بابا ازداد غضبي وفقدتُ زمام نفسي، ففتحتُ فمي وأغلقتُ عينيّ، فلم أترك أحداً أو موقعاً – من الأسفل إلى الأعلى- إلا وأمطرته بالشتائم لأن روحي أصبحت على طرف أنفي. تذكرون المعلم سليمان الذي شاركته السكن في غرفة النزل، وكيف كان يسب ويلعن القدر العاهر.. لقد استبدلت كلمة القدر بالأسماء الحقيقية التي تنوب عنها وتموهها، فأغرقتها بالشتائم من دون استثناء أحد.. جرجروني من هناك وألقوا بي في قبو مخفر الدرك حيث تابعت شتائمي وأنا آكل العصي.. المشكلة أن هناك شهوداً على كل كما فعلت.. قدموني إلى المحاكمة ونلتُ عقوبة السجن، فوصلت إلى هنا!

هتف السجناء بصوت واحد وكأنهم كورس غنائي:

- خوووووود!

وهكذا عرفوا للمرة الأولى سبب سجن يشار يشامز، الذي تابع يقول:

- وبعد فترة لا بأس بها أمضيتها في سجن منطقتي اقتادوني إلى استانبول لاستكمال التحقيق لاشتباههم بأن وراء شتائمي عملاً منظماً. الحمد لله أنهم تأكدوا من أنني لا أنتمي إلى منظمة أو خلافها، فجئت وانضممت إليكم هنا.

نقر على أوتار الساز وأطلق أغنيته. عندما انتهى منها قال:

- غلطتي الكبرى أنني نسيت نصيحة المعلم سليمان. ما الذي قاله المعلم سليمان؟ قال: إذا لم تتمالك نفسك وأردت أن تشتم، وإذا كان شتم الموقع الذي تريد شتمه جريمة، عليك أن تشتم القدر... قال إن شعبنا الذي يعرف مصلحته يتصرف هكذا. فقانون العقوبات لا يتضمن مادة تُجرِّم شتم القدر. وعندما تشتم القدر يبرد قلبك وينتعش، كما أن من يسمعك يعرف من تشتم.

ارتفعت الأصوات مجدداً داخل المهجع، راح السجناء يشتمون القدر ويلعنونه كل بطريقته.

ارتفع هدير من الأصوات داخل المهجع الأول. انتقل يشار إلى سريره وعزف على الساز. كان الوقت يقارب منتصف الليل، احتل سجناء المهجع الأول من الجناح الثاني أسرَّتهم وشدوا ألحفتهم فوق رؤوسهم. تهامس عدد من السجناء المتجاورين، ثم انقطعت الهمسات أيضاً، استمر الشخير والهذيانات حتى الصباح كما في كل ليلة.

* * *

بعد أن انتهى يشار من حكاية قصته لم يستمر في لعب دور الحكواتي، فأصبح سجناء المهجع الأول يمضون ساعات ما بعد العشاء بصعوبة بالغة، لا يعرفون ماذا يفعلون فيها، ويشعرون بشيء ما ينقصهم. ستستمر حالهم على هذا الذهول حتى يأتيهم راوية جديد إلى المهجع.

كلما اقترب موعد انتهاء عقوبته، زاد يشار يشامز من تكريس نفسه للصلاة، حتى بات يكاد لا يغادر المسجد، ومقرباً من الشيخ. استمر تمسكه بالدين حتى اليوم الذي طارده فيه شيخ الجامع بعد صلاة الجمعة. لم يدخل المسجد بعد تلك الحادثة. وبعد أربعة أيام انتهت عقوبته وأطلق سراحه. لحظة خروجه من السجن أدهش يشار يشامز جميع السجناء بهندامه، فقد ظهر فجأة بمنتهى الأناقة، ففاقت أناقته جميع مَن في السجن بمن في ذلك مدير السجن وضباطه. يشار الذي كان يرتدي حتى ذلك اليوم مثل نزلاء مهجع المعدمين تقريباً، تحول فجأة إلى مشارك محترف في حفلة عرض للأزياء. وضع في إصبعه خاتماً ضخماً من النوع الفاخر وارتدى ثياباً جديدة وربطة عنق بهية وانتعل حذاءً لا معاً. أخرج معه ثلاث حقائب سفر مترعة، حملها له باحاتي المهجع وسجينين من مهجع المعدمين. وحمل في يده كيسه القذر الذي أحضره معه عند دخوله السجن، وآلة الساز داخل الكيس الخاص بها، ولم يسمح لأحد أن يحملهما عنه. رافقه رفاق مهجعه عبر الباحة حتى باب السجن حيث ودعوه.

في مساء اليوم نفسه، بعد التفقد، خيم هدوء غير معهود على المهجع الأول. قال أكبر نزلاء المهجع سناً وصاحب العقوبة الأشد بينهم:

- ها قد ودعنا يشار يشامز أيضاً.

وقال الصياد:

- لقد تآلفنا مع هذا اليشار بشدة دون أن نشعر بذلك.

وقال الملطزجي:

- قارنوا حال يشار يوم دخوله المهجع لأول مرة، بحاله اليوم عندما رحل.

وقال النّحات:

- لقد أوغرنا صدره جيداً، لسوف يهتدي إلى قرة قبلي نظامي بيك ويسوي أموره.

صرخ الملك سامي:

- مَدَدْ يا قرة قبلي نظامي، مَدَدْ!

أبو الكولونيا الذي لا يشارك عادة في مثل هذه الأحاديث، قال دون أن يرفع رأسه عن عمله:

- هو لم يعد بحاجة إلى قرة قبلي نظامي بيك أبداً.

سأله الإداري:

- لماذا؟

أجاب أبو الكولوينا:

- لأنه أصبح هو نفسه قرة قبلي نظامي بيك من الطراز الأول.

فعلق كاتب العرائض قائلاً:

- هذا هو الكلام الصحيح.

وقال عجوز المهجع:

- إيه... هذا سجن يا بني... لم يسموه عبثاً مدرسة الحياة.. كم من القرة قبلي نظامي بيكات ربينا وعلمنا وخرّجنا هنا والفضل لله أولاً.

اشتعلت السجائر ذات الورق المزدوج، واجتمع سجناء المهجع الأول في مجموعات صغيرة انهمكت في تدخين الحشيشة التي يسمونها بالفتاة الشقراء.



ها أنتم تقولون أن الأمر انتهى أخيراً وارتاح عزيز نيسين. لكنكم مخطئون. فهذه المرة راح القراء يسألون في المكتبات عن رواية "يشار لا هو بالحي ولا بالميت" في حين أنه لا وجود لرواية بهذا العنوان. كانت مجرد تمثيلية تم إعدادها استناداً إلى قصص موزعة بين خمسة كتب أو ستة. لم يشأ نيسين أن يكتب رواية تستمد مادتها من قصص سبق له نشرها. لكن رغبة القراء وضغوط المحيط غلبته.

جلس وفكر في الموضوع، فرأى أن تلك القصص تكتسب بعداً جديداً باجتماعها معاً، فقرر كتابة "يشار لا هو بالحي ولا بالميت" كرواية هذه المرة.

لا أعرف متى تنجز هذه الرواية، ومتى تستطيعون قراءتها - لكنني أعرف - إذا كنت أعرف. شيئاً قط - أنه مثلما فاقت شهرة دون كيشوت شهرة كتابه سرفانتس الذي كاد يختفي في ظل بطله، كذلك فاقت شهرتي - أنا المدعو يشار يشامز - شهرة عزيز نيسين، كما يبدو لي.

وها هي الرواية بين أيديكم ...

تحت عنوان "يحيى يعيش ولا يحيى".

الناشر

